



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى
عليه
وآله
وسلم

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

آية الله العظمى شهيدنا العظيم

الفتاوى

شرح مختصر على نهج الأئمة

مجمع الفروع والبحوث
إصدار المجلس الأعلى

للجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

آيت الله العظمى ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٩	نفحات الولاية (شرح عصرى جامع لنهج البلاغه) المجلد ٢
١٩	اشاره
٢٠	اشاره
٢٤	الخطبه الحادى والعشرون
٢٤	اشاره
٢٤	شرح الخطبه
٢٤	تخففوا تلحقوا!
٢٧	عاقبه المثقلين!
٣٠	الخطبه الثانیه و العشرون
٣٠	اشاره
٣٠	القسم الأول: أضواء على الخطبه
٣٠	اشاره
٣١	وقعه الجمل
٣٣	حزب الله وحزب الشيطان
٣٦	القسم الثانى
٣٦	اشاره
٣٦	المعدّرون المفتضحون!
٤٠	القسم الثالث: تهديد على عليه السلام
٤٠	اشاره
٤٢	الرجال الأشداء
٤٤	الخطبه الثالثه والعشرون
٤٤	اشاره
٤٤	القسم الأول

٤٤	اشاره
٤٥	نظره إلى الخطبه
٤٥	الرضا والتسليم أمام إرادة الله
٤٩	الرضى والتسليم إلى جانب السعى والعمل
٥٢	القسم الثاني: سبيل بلوغ مقامات الصالحين
٥٢	اشاره
٥٤	فصل في أنّ الاخلاص أساس العمل
٥٦	القسم الثالث: السند الشعبي
٥٦	اشاره
٥٨	فصل في حسن الثناء (لسان الصدق)
٦٠	القسم الرابع: الإعتضاد بالعشيره
٦٠	اشاره
٦١	فصل في بركات التعاضد بالقرابه
٦٤	الخطبه الرابعه والعشرون
٦٤	اشاره
٦٤	نظره إلى الخطبه
٦٥	المساومه والمصناعه
٦٨	فصل في الضعف والمساومه
٧٠	الخطبه الخامسه و العشرون
٧٠	اشاره
٧٠	القسم الأول
٧٠	اشاره
٧٠	نظره إلى الخطبه
٧١	النفاق والعصيان ودور الإمام
٧٢	تأملان
٧٢	١ - الكوفه على وجهين

٧٤	٢ - أهل الكوفة والإمام عليه السلام
٧٦	القسم الثاني: سز الانهيار
٧٦	اشاره
٧٨	تأملات
٧٨	١ - بسر بن أرطاه القائد السفاح لمعاويه
٨٢	٢ - مقومات النصر وهزيمة الأمم
٨٤	القسم الثالث: السئم والملل
٨٤	اشاره
٨٦	بنو فراس بن غنم
٨٨	الخطبه السادسة والعشرون
٨٨	اشاره
٨٨	نظره إلى الخطبه
٩٠	القسم الأول: العرب في الجاهليه
٩٠	اشاره
٩٣	تأملات
٩٣	١- آفاق العصر الجاهلى
٩٥	٢- شر دار أم خيرها
٩٦	القسم الثاني: الصبر المرير
٩٦	اشاره
٩٧	تأملات
٩٧	١ - الأحداث المريره بعد رسول الله صلى الله عليه و آله
٩٩	٢ - هل بايع الإمام عليه السلام الخليفه الأول؟
١٠٠	القسم الثالث: المساومه السياسيه المفضوحه
١٠٠	اشاره
١٠٣	تأملات
١٠٣	١ - السياسات الدينويه لا تعترف بالأصول الأخلاقيه

- ٢ - باعه الدين بالدنيا! - ١٠٣
- ٣ - علاقه النصر بالثبات - ١٠٤
- الخطبه السابعه والعشرون - ١٠٦
- اشاره - ١٠٦
- سند الخطبه وزمانها ومكانها - ١٠٦
- اشاره - ١٠٦
- نظره إلى الخطبه - ١٠٩
- القسم الأول: الجهاد باب من أبواب الجته - ١١٠
- اشاره - ١١٠
- تأملان - ١١٤
- ١ - الجهاد سر رفعه الشعوب وعزتها - ١١٤
- ٢ - هل الجهاد الإسلامى دفاعى فقط؟ ! - ١١٦
- القسم الثانى: الموت كمدأ - ١١٨
- اشاره - ١١٨
- تأملات - ١٢١
- ١ - معادلات الهزيمة والانتصار - ١٢١
- ٢ - حمايه الأقليات الدينيه - ١٢١
- ٣ - الغيره الدينيه - ١٢٢
- القسم الثالث: الاجتماع على الباطل والفرقه عن الحق - ١٢٤
- اشاره - ١٢٤
- تأمل: عله هذا الذم - ١٢٧
- القسم الرابع: إدماء القلب - ١٢٨
- اشاره - ١٢٨
- تأملات - ١٣٠
- ١ - الاتباع الطلحاء والقاده الأكفاء - ١٣٠
- ٢ - الإجابه على سؤال - ١٣٢

- ١٣٢ ٣ - سؤال آخر
- ١٣٣ ٤ - الخاتمه المريه للواقع
- ١٣٤ الخطبه الثامنه والعشرون
- ١٣٤ اشاره
- ١٣٤ نظره إلى الخطبه
- ١٣٨ القسم الأول: الدنيا والآخرة عند الإمام على عليه السلام
- ١٣٨ اشاره
- ١٤١ تأملات
- ١٤١ ١ - الدنيا والآخرة في الأحاديث
- ١٤٣ ٢ - الخساره العظمى
- ١٤٤ القسم الثاني: الرحيل الوشيك
- ١٤٤ اشاره
- ١٤٨ تأملان
- ١٤٨ ١ - خير الزاد
- ١٥٠ ٢ - اتباع الهوى وطول الأمل من أعدى أعداء الإنسان
- ١٥٠ اشاره
- ١٥٢ تكمله
- ١٥٤ الخطبه التاسعه والعشرون
- ١٥٤ اشاره
- ١٥٤ نظره إلى الخطبه
- ١٥٦ القسم الأول: عوامل ضعف أهل الكوفه
- ١٦٠ القسم الثاني
- ١٦٠ اشاره
- ١٦١ تأملان
- ١٦١ ١ - الحق يؤخذ ولا يُعطى
- ١٦٣ ٢ - الدفاع عن الوطن

- ١٦٦ القسم الثالث: اليأس من القوم
- ١٦٦ اشاره
- ١٦٧ أسباب الهزيمة والفشل
- ١٧٠ الخطبه الثلاثون
- ١٧٠ اشاره
- ١٧٠ نظره إلى الخطبه
- ١٧٢ عوامل قتل عثمان
- ١٧٦ الخطبه الحاديه والثلاثون
- ١٧٦ اشاره
- ١٧٦ السعي لانقاذ الخاطئين
- ١٧٩ تأملات
- ١٧٩ ١- رد فعل الزبير تجاه رساله الإمام عليه السلام
- ١٧٩ ٢- قطوف من سيره طلحه والزبير
- ١٨٢ ٣- شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ١٨٤ الخطبه الثانيه و الثلاثون
- ١٨٤ اشاره
- ١٨٤ نظره إلى الخطبه
- ١٨٦ القسم الأول: الدهر وضياح القيم
- ١٨٦ اشاره
- ١٨٨ تأملان
- ١٨٨ ١- ما مفهوم فساد الزمان؟
- ١٨٨ ٢- التنكر للقيم
- ١٩٣ القسم الثاني: الناس أربعه أصناف
- ١٩٣ اشاره
- ١٩٨ الأصناف الأربعة في كل مجتمع
- ١٩٩ القسم الثالث: الصنف الخامس: أولياء الله

- ٢٠٣ القسم الرابع: الاتعاظ بالماضين
- ٢٠٧ الخطبه الثلاثه و الثلاثون
- ٢٠٧ اشاره
- ٢٠٧ نظره إلى الخطبه.
- ٢٠٩ القسم الأول: دحر الباطل
- ٢٠٩ اشاره
- ٢١٢ تأملات
- ٢١٢ ١ - من أخبار يوم ذي قار
- ٢١٣ ٢ - جاهليه العرب
- ٢١٤ ٣ - حديث خاصف النعل
- ٢١٧ القسم الثاني: مالى ولقريش؟
- ٢١٧ اشاره
- ٢٢٠ الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعى
- ٢٢٣ الخطبه الرابعه والثلاثون
- ٢٢٣ اشاره
- ٢٢٣ مناسبه الخطبه
- ٢٢٤ نظره إلى الخطبه
- ٢٢٥ القسم الأول: لم الخشيه من الشهاده؟
- ٢٢٥ اشاره
- ٢٢٧ جدوى الذم واللوم
- ٢٢٩ القسم الثاني: يقظه العدو وسيات النصير
- ٢٢٩ اشاره
- ٢٣١ عوامل أخرى للضعف والهزيمه
- ٢٣٣ القسم الثالث: الانفراد فى مجابهه العدو
- ٢٣٣ اشاره
- ٢٣٤ العزم النهائى للزعيم الشجاع

- القسم الرابع: حقى عليكم وحفكم على ٢٣٩
- اشاره ٢٣٩
- تأملان ٢٤٣
- ١- الحقوق المتبادله للإمام والأمة ٢٤٣
- ٢- تعارض الحق والمصلحه! ٢٤٤
- الخطبه الخامسه و الثلاثون ٢٤٧
- اشاره ٢٤٧
- نظره إلى الخطبه: نتيجته العصيان ٢٤٧
- تأملان ٢٥٢
- ١- قصة التحكيم ٢٥٢
- ٢- الاستفاده من آراء الآخرين ٢٥٣
- الخطبه السادسه و الثلاثون ٢٥٥
- اشاره ٢٥٥
- نظره إلى الخطبه ٢٥٥
- إتمام الحجه على الخوارج ٢٥٦
- قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج ٢٥٨
- الخطبه السابعه و الثلاثون ٢٦١
- اشاره ٢٦١
- نظره إلى الخطبه ٢٦١
- القسم الأول: الصمود أمام العواصف ٢٦٣
- القسم الثاني: القوى عندى ضعيف ٢٦٧
- اشاره ٢٦٧
- نصره المظلوم ومجايبه الظالم ٢٦٨
- القسم الثالث: أول من أسلم ٢٧١
- اشاره ٢٧١
- عهد رسول الله صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام ٢٧٣

- ٢٧٥ الخطبه: الثامنه و الثلاثون
- ٢٧٥ اشاره
- ٢٧٥ نظره إلى الخطبه
- ٢٧٧ النجاه من الشبهه
- ٢٧٩ تأثير الشبهه في تحريف الحقائق
- ٢٨٠ عبثيه الخوف من الموت
- ٢٨٣ الخطبه : التاسعه والثلاثون
- ٢٨٣ اشاره
- ٢٨٣ نظره إلى الخطبه
- ٢٨٣ أمر النعمان بن بشير مع عليّ ومالك بن كعب الأرحبيّ
- ٢٨٥ القسم الأول: سكوت الإمام عليه السلام
- ٢٨٩ القسم الثاني: الضعف أمام العدو
- ٢٨٩ اشاره
- ٢٩٠ عاقبه الضعف أمام العدو
- ٢٩١ سؤال
- ٢٩٣ الخطبه الاربعون
- ٢٩٣ اشاره
- ٢٩٣ نظره إلى الخطبه
- ٢٩٩ تأملان
- ٢٩٩ ١ - بلاء التحريف
- ٣٠٠ ٢ - ضروره تشكيل الحكومه
- ٣٠٠ اشاره
- ٣٠٢ خطأ ابن أبي الحديد
- ٣٠٥ الخطبه الحاديه و الاربعون
- ٣٠٥ اشاره
- ٣٠٥ نظره إلى الخطبه

- ٣١٠ السياسة الإلهية والشيطانية
- ٣١٣ الخطبه الثانيه و الاربعون
- ٣١٣ اشاره
- ٣١٣ نظره إلى الخطبه
- ٣١٥ القسم الأول
- ٣١٧ القسم الثاني
- ٣١٧ اشاره
- ٣١٩ الموت يعنى إغلاق صحيفه الأعمال
- ٣٢١ الخطبه الثالثه الاربعون
- ٣٢١ اشاره
- ٣٢١ نظره إلى الخطبه
- ٣٢٣ القسم الأول: رجل الحرب والسلام
- ٣٢٣ اشاره
- ٣٢٤ الهدف من الدعوه إلى الصلح والبيعه
- ٣٢٧ القسم الثاني
- ٣٢٧ اشاره
- ٣٢٨ أعمال عثمان وأسباب قتله.
- ٣٣١ الخطبه الرابعه والاربعون
- ٣٣١ اشاره
- ٣٣١ قصه الخريت بن راشد الناجي وخروجه على علي عليه السلام
- ٣٣٣ فرار العبيد
- ٣٣٤ تأملان
- ٣٣٤ ١ - من بين الأسئلة التي تطرح بشأن هذه الخطبه
- ٣٣٤ ٢ - فلسفه الحزم
- ٣٣٧ الخطبه الخامسه و الأربعون
- ٣٣٧ اشاره

- نظره إلى الخطبه ٣٣٧
- القسم الأول: الرحمه اللامتناهيه ٣٣٩
- القسم الثاني: الدنيا دار المنى ٣٤١
- اشاره ٣٤١
- الكفاف والعفاف ٣٤٢
- الخطبه السادسه و الاربعون ٣٤٥
- اشاره ٣٤٥
- نظره إلى الخطبه ٣٤٥
- الاستعاذه باللّه من وعثاء السفر ٣٤٧
- فلسفه الدعاء ٣٤٨
- الخطبه السابعه و الاربعون ٣٥١
- اشاره ٣٥١
- نظره إلى الخطبه ٣٥١
- نبوءه عن مستقبل الكوفه ٣٥٢
- رأيان فى الكوفه ٣٥٤
- الخطبه الثامنه و الاربعون ٣٥٧
- اشاره ٣٥٧
- نظره إلى الخطبه ٣٥٧
- القسم الأول: استحقاق اللّه للحمد والثناء ٣٥٩
- القسم الثاني: تعبئه القوى لمواجهه العدو ٣٦١
- اشاره ٣٦١
- أخبار على عليه السلام فى جيشه وهو فى طريقه إلى صفين ٣٦٢
- نزول على بكرى ٣٦٦
- الخطبه التاسعه و الاربعون ٣٦٨
- اشاره ٣٦٨
- نظره إلى الخطبه ٣٦٨

٣٧٠	المنزه عن الظن والخيال
٣٧٤	وجوده ظاهر وكنه ذاته خفى
٣٧٤	الخطبه الخمسون
٣٧٤	اشاره
٣٧٤	نظره إلى الخطبه
٣٨٠	تأملات
٣٨٠	١ - أساس الفتن
٣٨١	٢ - السياسات الشيطانيه
٣٨٤	الخطبه الحاديه و الخمسون
٣٨٤	اشاره
٣٨٤	نظره إلى الخطبه
٣٨٤	أقبروا هذه الفتنة الخبيثه
٣٨٩	تأملات
٣٨٩	١ - ضروره العيش في ظل العزه والكرامه
٣٩٠	٢ - غسل أدمغه المغفلين
٣٩١	٣ - المروء والشهامه
٣٩٢	الخطبه الثانيه و الخمسون
٣٩٢	اشاره
٣٩٢	نظره إلى الخطبه
٣٩٤	القسم الأول: الدنيا الغرور
٣٩٨	القسم الثاني: السعى القليل وإن كثر
٤٠٠	القسم الثالث: عظمه وسعه النعم الإلهيه
٤٠٢	الخطبه الثالثه والخمسون
٤٠٢	اشاره
٤٠٢	تمام الأضحيه
٤٠٣	عليه سلامه الأضحيه من النقص والعيب

- الخطبه الرابعه و الخمسون ٤٠٤
- اشاره ٤٠٤
- نظره إلى الخطبه ٤٠٤
- ليس هنالك سوى القتال ٤٠٤
- تأملان ٤٠٨
- ١ - البيعه الفريده للإمام عليه السلام ٤٠٨
- ٢ - الحرب والسلام، والكفر والإيمان ٤٠٨
- الخطبه الخامسه والخمسون ٤١٠
- اشاره ٤١٠
- نظره إلى الخطبه ٤١٠
- تماسك الإمام عليه السلام حيال القتال ٤١٢
- الخطبه السادسه والخمسون ٤١٤
- اشاره ٤١٤
- نظره إلى الخطبه ٤١٤
- الوقوف المشرف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله ٤١٨
- تأملان ٤٢١
- ١ - ثاني فتن البصره ٤٢١
- ٢ - خصائص المسلمين الاوائل ٤٢٤
- الخطبه السابعه والخمسون ٤٢٤
- اشاره ٤٢٤
- نظره إلى الخطبه ٤٢٤
- إحذروا العدو ٤٢٨
- تأملات ٤٣٢
- ١ - عله عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبه ٤٣٢
- ٢ - لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاويه؟ ٤٣٢
- ٣ - تأريخ سب الإمام على عليه السلام ٤٣٤

- ٤ - التقيه وسيله دفاعيه ٤٣٥
- الخطبه الثامنه و الخمسون ٤٣٨
- اشاره ٤٣٨
- نظره إلى الخطبه ٤٣٨
- فضاعه مظلوميه الإمام عليه السلام ٤٤٠
- الخطبه التاسعه والخمسون ٤٤٢
- اشاره ٤٤٢
- هل من سبيل لعلم الغيب ٤٤٢
- الخطبه الستون ٤٤٤
- اشاره ٤٤٤
- مصير الخوارج ٤٤٤
- تأقلات ٤٤٥
- ١ - الخوارج ظاهره لافرقه ٤٤٥
- ٢ - الخوارج لصوصا سلابين ٤٤٧
- تعريف مركز ٤٤٩

عنوان و نام پدیدآور: نفحات الولاية : شرح عصري جامع لنهج البلاغه المجلد ۲ / ناصر مکارم شیرازی ، بمساعده مجموعه من الفضلاء ؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانی .

مشخصات نشر: قم : مدرسه الامام علي ابن ابی طالب (ع) ، ۱۴۲۶ق . - = ۱۳۸۴ .

مشخصات ظاهري: ۱۰ ج .

شابک: ۳۰۰۰۰ ریال : دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X ؛ ج ۱ . ۵-۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴ ؛ ج ۲ . ۳-۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴ ؛ ج ۳ .
۲-۹۱۷-۸۱۳-۹۶۴ ؛ ج ۴ . ۰-۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴ ؛ ج ۵ . ۵-۹۴۱-۸۱۳-۹۶۴ ؛ ۷۰۰۰۰ ریال : ج ۶ . ۶-۸۷۹-۴۶۹-۳۳۵-۰۲۱-
۵ ؛ ۷۰۰۰۰ ریال : ج ۷ . ۷-۸۷۹-۴۶۹-۳۳۵-۱۲۱-۲ ؛ ۷۰۰۰۰ ریال : ج ۸ . ۸-۸۷۹-۴۶۹-۳۳۵-۲۲۱-۹ ؛ ۷۰۰۰۰ ریال : ج ۹ .
۸۷۹-۴۶۹-۳۳۵-۳۲۱-۶ ؛ ۷۰۰۰۰ ریال : ج ۱۰ . ۱-۸۷۹-۴۶۹-۳۳۵-۴۲۱-۳ :

یادداشت: عربی .

یادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

یادداشت: ج ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ ق. = ۱۳۹۰).

یادداشت: کتابنامه .

مندرجات: .- ج ۶ . من خطبه ۱۵۱ الی ۱۸۰ .- ج ۷ . من خطبه ۱۸۱ الی ۲۰۰ .- ج ۸ . من خطبه ۲۰۱ الی ۲۴۱ .- ج ۹ . من رساله ۱ الی ۳۱ .- ج ۱۰ . من رساله ۳۲ الی ۵۳

موضوع: علی بن ابی طالب (ع) ، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق -- خطبه ها

موضوع: علی بن ابی طالب (ع) ، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- کلمات قصار

موضوع: علی بن ابی طالب (ع) ، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق. -- نامه ها

موضوع: علی بن ابی طالب (ع) ، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق . نهج البلاغه -- نقد و تفسیر

شناسه افزوده: حمرانی ، عبدالرحيم

شناسه افزوده: علی بن ابی طالب (ع) ، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ ق . نهج البلاغه . شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: BP38/02 م/ 7 4831

رده بندی دیویی: 5159/792

شماره کتابشناسی ملی: م 84-40347

ص: 1

اشاره

نفحات الولاية : شرح عصرى جامع لنهج البلاغه المجلد ٢

ناصرمكارم شيرازى ، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

ومن خطبه له عليه السلام

«وهى كلمه جامعه للعظمه والحكمه»

«فإن الغايه أمانكم، وإن وراءكم الساعه تحذوكم. تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم آخركم».

قال السيد الشريف الرضى: أقول: إن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلام لمال به راجحاً، وبز على سابقاً فأماً قوله عليه السلام: «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً وما أبعد غورها من كلمه! وأنقع نطقها من حكمه! وقد نبهنا فى كتاب «الخصائص» على عظم قدرها وشرف جوهرها.

شرح الخطبه

تخففوا تلحقوا!

ورد هذا الكلام ضمن سياق الخطبه ١٦٧، حيث تضمنت تلك الخطبه مثل هذه العبارات مع بعض الفوارق الطفيفه.

ص: ٥

١ - ١) نقل كتاب مصادر نهج البلاغه هذه الخطبه التى أوردها السيد الرضى رضى الله عنه فى الخصائص / ٨٧ وأضاف فى ذيل الخطبه ١٦٧ - التى تعد هذه الخطبه جزءاً منها - قائلاً: (رواه «الطبرى» فى تأريخه ضمن حوادث سنه ٣٥ هـ (مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٧١ و ٢ / ٤٠٣). [١] ويتبين من الرجوع إلى تأريخ الطبرى أن الأئمه بايعت علياً عليه السلام يوم الجمعة لخمس بقين من شهر ذى الحجه وأنها أول خطبه أوردها على عليه السلام ضمن خطبته ١٦٧. تأريخ الطبرى ٣ / ٤٥٧.

والذى يفهم من كلام المرحوم السيد الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام قد ألقى هذه الخطبه أوائل ما آلت إليه الخلافه، بينما يفهم من كتاب «مطالب السؤل» (1) أنّ هذه الخطبه هي إمتداد للخطبه السابقه وتعرّض لذات المطالب.

وهناك احتمال آخر في أنّ الخطب الثلاث قد صدرت معاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في موضع واحد، ثم صنّفت ثلاثه أقسام.

على كل حال فإنّ هذا القسم من الخطبه - والذى لا يتجاوز بضعه عبارات - وعلى حد تعبير السيد الرضى لو وزن بعد كلام الله وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله لمال به راجحاً! والحق ان الأمر كذلك حقاً ماهذه الفصاحه والبلاغه في كلمات قصار تتعرّض لمثل هذه الحقائق الساميه!

فالإمام يتبّه أبناء الأُمّة بادئ الأمر إلى مفهوم المعاد ومحكمه العدل الإلهي ليلفت إنتباههم من خلال ذلك إلى عظم المسؤوليات والوظائف التي ينبغى لهم أن ينهضوا بها في خلافته، ويحذّره من كافه ألوان النفاق والتشتت والفرقه والنكوص عن إداء الواجبات. وأخيراً يذكّرهم بالعاقبه التي تنتظرهم بعد العرض على الله يوم القيامة، فأما الجنّه وأما النار «فإن الغايه أمامكم، وإن وراءكم الساعه تحدوكم» .

والتعبير ب «الغايه» (عاقبه الأمر) بشأن القيامة والجنّه والنار لأنّ الحياه في الدنيا إنّما هي مقدمه للحياه الأبدية في العالم الآخر.

فقوله عليه السلام: «فان الغايه أمامكم» يعنى عدم وجود الشك والريب في أن مآل الأمور هناك وليس لأحد الفرار عن ذلك المآب.

وأما التعبير ب «الساعه» فقد صرّح بعض شارحي نهج البلاغه بأنّه إشاره إلى القيامة الصغرى؛ أى الموت. فقوله عليه السلام: «وراءكم» يفيد أنّ عوامل الموت إنّما تكمن وراء الإنسان، فهي تسوق الإنسان من الطفوله إلى الشباب ومن الشباب إلى الكهوله والشيخوخه وأخيراً من الشيخوخه إلى انقطاع الحياه. في حين صرّح البعض الآخر بأنّ المراد ب «الساعه» هو ساعات

ص: ٦

الليل والنهار وكأنها الأمر الصارم الذى كمن خلف الإنسان ويسوقه إلى حتفه. وليس هناك من فوارق تذكر بين هذين التفسيرين حيث مؤداهما واحد. وبالاستناد إلى أن كلمه «تحدوكم» المشتقه من ماده «حدو» بمعنى «السوق والدفع نحو الشيء». .

فإنّ الذى يتبادر إلى الذهن هو أن تقلب الليل والنهار والشهر والسنه رغم تقريبا الإنسان من وصول أجله وانقطاع حياته، غير أنّها تشكل عوامل غفلته بفعل اختلاطها بزخارف الدنيا وزبرجها. فالواقع هو أنّ هذه العبارة التى تصدرت الكلام رغم قصرها قد أشارت إلى القيامة الكبرى إلى جانب إشارتها إلى القيامة الصغرى؛ الأمر الذى يعدّ المستمع للاصغاء إلى المرحلة اللاحقة.

فأورد عليه السلام هذه الجملة المقتضبه العميقه المعنى: «تخففوا تلحقوا» عادة إذا ما انطلقت قافله من الناس إلى مكان وواجهت هذه القافله بعض المنعطفات التى لا يمكن اجتيازها بسهولة فإنّ أولئك الأفراد المثقلين بالأحمال غالباً ما يتخلفون عن القافله التى لا يسعها الوقوف من أجل فرد أو بضعة أفراد فلا يكون أمامها سوى تجاوز ذلك الفرد ومواصله السير والحركة. أمّا ذلك الفرد الذى تخلف عن القافله فإنّه سيكون لقمه سائغه لقطاع الطرق واللصوص وذئاب الصحراء، بينما يشقّ المخفون طريقهم بسرعه تجعلهم يصلون إلى هدفهم أسرع من الجميع. وهذا هو حال بنى آدم فى هذه الدنيا، فهم مسافرون وقد شدّوا الرحال إلى الحياه الأبدية التى تعقب الموت. فمن ثقل حملة من متاع الدنيا وحطامها كان لقمه سائغه للشيطان، أمّا أهل الورع والزهد والتقوى فإنّهم سيحثون الخطى سريعاً لينالوا سعاده الآخرة والفوز بالخلود.

وقد أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى - فى الخطبه ٢٠٤ - حين نادى أصحابه: «تجهّروا - رحمكم الله - فقد نودى فيكم بالرحيل وأقلّوا العُرجه على الدنيا. . . فإنّ أمامكم عقبه كؤودا ومنازل مخوفه مهوله» .

وقد شبه بعض شراح النهج الإنسان بالمسافر الذى يجوب البحر وهو يواجه أمواجه العاتيه حيث سيكون الغرق مصيره الحتمى إذا لم يخف مؤونه سفينته.

وقد شبهوا قلب الإنسان بهذه السفينه، التى ستواجه الغرق لا محاله إذا ما أثقل ذلك القلب بحبّ الدنيا والانغماس فى الشهوات.

(١)

ص:٧

وأخيراً يختم الإمام على عليه السلام خطبته بقوله: «فانما ينتظر بأولكم آخركم». وتدل هذه العبارة بوضوح على أن عالم البشريه بحكم القافله الواحده التى تشتمل على المقدمه - التى سبقت بالحركه - والوسط والمؤخره؛ وهى تواصل مسيرتها لتلتحق مؤخرتها بمقدمتها، وبعبارة أخرى فإنّ قانون الموت لا يعرف الحصر والاستثناء وهو المحطه التى سيتوقف عندها الجميع. وبناءً على ما تقدّم فإنّ عاقبه الأولين نذير مبين للآخرين.

عاقبه المثقلين!

إنّ أهم عامل يقف وراء خسران طائفه من الناس والذى تضمنته كلمات الإمام عليه السلام فى خطبته إنّما يكمن فى إقبال كاهلها بالتكالب على متاع الدنيا الزائد عن حاجتها فى حياتها الدنيويه المتواضعه.

ولكى أن تفرض أنّ فرداً ينطلق للسفر ليوم واحد وقد حمل مقداراً من الخبز والماء والفاكهه لما يكفيه لذلك اليوم، بينما حمل الآخر عدّه حقائق وقد ملأها بمختلف الأطعمة والأشربه والفاكهه وانطلق إلى سفره. فمن البدايه أن ينطلق الأول بكل هدوء وخفه وخطى واثقه وحثيئه دون أن يشعر بالكلل والتعب، فى حين سينقطع نفس الثانى ولا يسعه مواصله السير والحركه. وهذا هو المصير الذى ينتظر أولئك الأفراد الذين جعلوا همهم فى الدنيا ومتاعها الزائل وجعلوا يفكّرون ليل نهار فى كيفيه حفظ هذه الأموال، حتى أنستهم ذكر الله، ولم يكتفوا بذلك ففقدوا حتى السكينه والطمأنينه فى حياتهم الدنيا.

هذا وقد تطرق بعض شرّاح نهج البلاغه إلى قصه الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضى الله عنه كشاهد حى ونموذج لقول الإمام على عليه السلام «تخففوا تلحقوا» وذلك حين نصب والياً على منطقته المدائن فركب دابته وانطلق بمفرده إليها.

فاتصل بالمدائن خبر قدومه، فاستقبله أصناف الناس على طبقاتهم، فلما رأوه قالوا: أيها الشيخ أين خلفت أميرنا؟ قال: ومن أميركم؟ قالوا: الأمير سلمان الفارسى صاحب رسول الله صلى الله عليه و آله.

قال: لا أعرف الأمير، وأنا سلمان.

فترجلوا له وقادوا اليه المراكب والجنائب. فقال: إنَّ حمارى هذا خير لى وأوفق. فلما دخل البلد أرادوا أن ينزلوه دارالاماره قال: ولست بأمير. فنزل على حانوت فى السوق وقال إدعوا إلى صاحب الحانوت فاستأجر منه. وكان معه وطاء يجلس عليه ومطهره يتطهر بها للصلاه وعكازه يعتمد عليها فى المشى. فاتفق أن سيلا وقع فى البلد فارتفع صياح الناس بالويل والعيويل يقولون: وا أهلاه وا ولداه و وا ماله، فقام سلمان ووضع وطاءه فى عاتقه وأخذ مطهرته وعكازته بيده وإرتفع على صعيد وقال: هكذا ينجو المخففون يوم القيامة. (١)

والطريف فى الأمر ما ذكره السيد الرضى رضى الله عنه من أن هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكل كلام لمال به راجحاً. ولاسيما قوله عليه السلام: تخففوا تلحقوا.

فما أبعد غورها وأعظمها من حكمه وموعظه رغم قصرها؛ الأمر الذى دفع بالسيد الرضى رضى الله عنه إلى الإسهاب فى الخوض فى تفاصيلها فى كتابه «الخصائص» .

ح ج

ص: ٩

ومن خطبه له عليه السلام (١)

حين بلغه خبر الناكثين بيعته.

وفيها يذم عملهم ويلزمهم دم عثمان ويتهددهم بالحرب.

القسم الأول: أضواء على الخطبة

«ألا وإن الشيطان قد ذم حزبه واستجلب جلبه ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه، والله! ما أنكرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، ولا جعلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِيفًا» .

١- ١) لقد أورد هذه الخطبة وشرحها كل من المرحوم «الشيخ المفيد» في «الإرشاد» في الفصل ٢٢ من كلمات الإمام علي عليه السلام، والكليني في «الكافي» ٥ / ٥٣ كتاب الجهاد إلى جانب بعض الخطب الأخرى، والمرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٣٢ / ١٩٣. [١] كما ذكرها ابن أثير في عدة مواضع من كتابه النهاية بتناسب مفردات الخطبة. ويضيف مؤلف مصادر نهج البلاغه قائلاً: لقد اقتبست هذه الخطبة من سائر خطبه عليه السلام، فهو يعتقد بأنها مرتبطة بالخطبة ٢٦، كما يرى بأن هذه الخطبة ذات إرتباط بالخطبة ١٧٢ - مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٧٣. [٢]

وردت هذه الخطبه - كما يفهم من عنوانها - بشأن طلحه والزبير بعد نقضهما البيعه وما تلاها من أحداث مريره تمثلت إحداها بمعركة الجمل، كما تشير إلى قضيه المطالبه بدم عثمان التي تمسك بها أصحاب الجمل والتي استغلت فيما بعد من قبل أهل الشام.

وأخيراً تتضمن مذمتهم وتقريعهم من جانب الإمام عليه السلام والرد الحاسم على تهديداتهم وتخريصاتهم. وتبدو مضامين هذه الخطبه أكثر شبيهاً بخطبه ١٠، ٢٦ و ١٧٢؛ الأمر الذي جعل من المحتمل أن تكون كل خطبه من هذه الخطب جزءاً من خطبه واحده وقد قام السيد الرضى رضى الله عنه بتجزأتها على ضوء ما يناسب المقام.

الطريف فى الأمر أنّ بعض الروايات صرّحت بأنّ عمرو بن العاص قال يوماً لعائشه: «لوددت أنّك قتلت يوم الجمل!». فردت عائشه متعجبه: «ولم؟ لا أباً لك!». فأجابها بن العاص: «كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنّه ونجعلك أكبر التشنيع على عليّ» (١).

يرى بعض شرّاح نهج البلاغه أنّ هذه من الخطب المتعلقة بمعركة صفين، وقد عنت عباراتها معاويه (٢)، إلّا أنّ الذى استفاد من عنوان الخطبه الذى اعتمده السيد الرضى رضى الله عنه وكلام ابن أبى الحديد (٣) وسائر الشرّاح أنّ هذه الخطبه إنّما تناول ناكثى البيعه من أصحاب الجمل، وإن كانت مضامينها تتناسب وحال الطائفتين؛ الجمل وصفين.

الشرح والتفسير

وقعه الجمل

أشرنا سابقاً إلى أنّ الخطبه وردت بخصوص أولئك الذين أججوا نيران فتنة الجمل؛ أى طلحه والزبير ورهطهما. فقد كان كل من طلحه والزبير يطمع فى الحكومه ولما صرفها الإمام عليه السلام عنهما ولم يكن مستعدّاً لتقليدهما أيّه مسؤوليه فى حكومته، تارت تأثيرتهما وقادهما

ص: ١٢

١-١) بحار الأنوار ٣٢ / ٢٦٧ ح ٢٠٦ [١] نقلاً عن الاحتجاج للطبرسى.

٢-٢) شرح القطب الراوندى ١ / ١٨٨.

٣-٣) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٣٠٥.

هوى أنفسهما لنقض البيعه، وأخذوا بجيشان الجيوش بما فيها عائشه - زوج النبي صلى الله عليه وآله - ويهيا لقتال على عليه السلام بذريعه الطلب بدم عثمان (١)، وقد إختاروا البصره - التي كانت ممهده آنذاك لمثل هذه الفتنة - مركزاً لمؤامراتهم الدنيئه على الإمام عليه السلام.

فالإمام عليه السلام يتطرق فى بدايه الخطبه إلى هذه المؤامره فقال: «ألا وإنّ الشيطان قد ذمر (٢) حزبه واستجلب جلبه (٣) ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه» .

فهو يشير عليه السلام إلى الانحرافات والاضطرابات التي أعقبت قتل عثمان ومبايعه الأئمه لعلّى عليه السلام بالخلافه. والمراد بحزب الشيطان - فى الخطبه - أولئك الذين تسلطوا على بيت مال المسلمين أبان حكمه عثمان وتولوا بعض المناصب الخطيره، كما كانوا يتطلعون للسيطره على الخلافه، فالإمام عليه السلام يحذر الأئمه من هؤلاء الشياطين الذين يتربصون بها الدوائر وإنهم يحيكون المؤامرات من أجل الاستحواذ ثانيه على بيت المال وممارسه الظلم والجور بحق المسلمين والحيلولة دون قيام الإمام عليه السلام بوظيفته فى إصلاح المجتمع الإسلامى وإجتثاث جذور الفساد والانحراف التي برزت واستفحلت فى خلافه عثمان.

وأخيراً يصرح الإمام عليه السلام بعدم وجود أى دليل أو منطق يسوغ لهؤلاء الوقوف بوجه الإمام وقتاله «والله ما أنكروا على منكرأ ولا جعلوا بينى وبينهم نصفاً» .

فهو يشير عليه السلام إلى طلحه والزبير والطائفه التي نكثت البيعه، كما يتطرق عليه السلام إلى حجتهم الواهيه المتمثله بقتل عثمان. ثم يورد عليه السلام أقسى العبارات بحقهما.

ص: ١٣

١ - ١) لم تكن قضيه المطالبه بدم عثمان شعار أهل الشام وذريعتهم لإشعال فتيل صفيين، بل استغلت كذلك من قبل طلحه والزبير وعائشه لتنتهى بنشوب معركة الجمل. وقد ذكر ابن أثير - المورخ المعروف - فى «الكامل» أنّ عائشه حين قدمت إلى المدينه من مكّه سمعت أثناء الطريق بقتل عثمان واجتماع الأئمه على على عليه السلام، فاغتمت وقالت: ليت السماء أطبقت على الأرض ولم يقع هذا، ثم أمرت باعادتها إلى مكّه. فقالت «إنّ عثمان قُتل والله مظلوماً» فقام إليها من قال لها: إنك أول من تحدثت ضد عثمان واسميته نعتلاً. (قيل أن نعتلاً رجل يهودى كثر اللحيه، وقال صاحب «لسان العرب» أن نعتلاً تعنى العجوز الأحمق) وأنت قلت: إقتلوا نعتلاً فقد كفر (الكامل ٣ / ٢٠٦). [١]

٢ - ٢) ذمّر من ماده «ذمر» بمعنى «التشجيع والحث» وقيل بمعنى التحريك المقرون بالذم والعتاب، ومن هنا كان الذم على وزن «الذهن» يعنى الرجل الشجاع والمتحرك.

٣ - ٣) جلب تعنى فى الأصل السوق والإنتقال ويقال الجلب بالنسبه للأفراد الذين يجمعون بسهولة. استجلب هنا بمعنى الإجماع.

نعم لقد تنكرت كافة المصادر الإسلامية والكتب التاريخيه لنسب قتل عثمان إلى الإمام علي عليه السلام، بينما تصرّح بأن الإمام سعى أكثر من غيره لإخماد نار الفتنة، فهو القائل عليه السلام «والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً» فلم يتبع الناكثون في هذه الأحكام المتسرّعه، العدل والانصاف بقدر ما تشبّثوا بالكذب والتهمه والظنه. ولا يبدو من الغرابه اللجوء إلى مثل هذه الأساليب بالنسبه لأولئك الذين يسعون إلى ضمان مصالحهم وتحقيق أهدافهم. وما أكثر ما نشاهده في عصرنا الراهن من الساسه الظلمه الذين لا يتحفظون عن أبشع الأساليب الدنيئه من أجل ضمان مصالحهم اللامشروع.

حزب الله وحزب الشيطان

لقد تضمّنت خطبه الإمام عليه السلام إشاره لطيفه إلى ما أورده القرآن الكريم في آخر سوره المجادله، حيث صنفت الآيه القرآنيه المباركه الناس إلى حزبين هما: «حزب الله» و «حزب الشيطان»، كما أشارت إلى الميزه الرئيسيه التي يتّصف بها حزب الله وهي صفة الحب في الله والبغض في الله «لا- تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ - كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ - حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١).

وفي مقابل ذلك هناك حزب يهمل بحفظ مصالحه ويعتمد أسلوب النفاق والخداع ولا يتورع عن موالاته أعداء الله وإظهار الموده لهم إلى جانب بث بذور الظلم والفساد بين صفوف العباد، فيصفهم القرآن قائلا: «إِسْتِخْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ - حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (٢).

والحزبان المذكوران لا- يختصان بزمان نزول القرآن وعصر صدر الإسلام، بل تتعدد صورهما وأشكالهما في كافة العصور والدهور. ولو ألقينا نظره عابره على عالمنا المعاصر / ٢٢.

ص: ١٤

١-١) سوره المجادله

٢-٢) سوره المجادله / ١٩. [١]

لشاهدنا بوضوح هذين التيارين وقد كمن أحدهما مقابل الآخر، فعاده ما يستند حزب الشيطان إلى منطق القوه الغاشم والخطرته والأموال والثروه والتآمر وممارسه الظلم والجور وبث بذور النفاق والفرقه وإشاعه الفساد والانحراف، بينما يستند حزب الله إلى القيم والمثل والمبادئ الحقه ولا- يتوانى فى التصدى لزعماء الحزب المذكور. يتربص حزب الشيطان عاده لاستغلال الفرص المناسبه ومنها الثورات والانقلابات التى تطيح بحكومته وتأتى بأخرى. وأفضل شاهد على ذلك ما شهدته حكومه الإمام على عليه السلام أوائل تشكيلها. فقد اتفقت كلمه ما تبقى من فلول الجاهليه الذين برزوا للوجود فى خلافه عثمان على مواجهه ربيب الإسلام وتلميذ النبى صلى الله عليه وآله الإمام على عليه السلام، فأشعلوا نيران الفتن التى كان من المقدر للإمام إخمادها والتغلب عليها، فعاشوا فى الأرض فساداً بما لم يدع للإمام من سبيل سوى الوقوف بوجههم ومقاتلتهم.

فالإمام عليه السلام يحذر الأمة ومنذ اليوم الأول لحكومته من مكاييد حزب الشيطان وعدم الانخداع بأساليبه والأعبيه القدره.

وأخيراً يفهم من عباراته عليه السلام أنّ للظلم والجور وطن وأنه يستند إلى أسس ودعائم! نعم وطن الجور والظلم هو الموضع الذى يتجحفل فيه عسكر الشيطان، كما أنّ المبادئ التى ينتهجها حزب الشيطان لهى الأسس والدعائم التى يرتكز عليها الظلم والجور.

ج ج

ص: ١٥

«وَأِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ! فَلَيْتَ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيْبَهُمْ مِنْهُ وَلَيْتَ كَانُوا وَلَوْهُ دُونِي فَمَا التَّبِعَهُ إِلَّا عِنْدَهُمْ وَإِنَّ أَغْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَزْتَضِعُونَ أَمَّا قَدْ فَطَمْتُ وَيُحْيُونَ بِدَعَايَ قَدْ أُمِيتَتْ.

يا حَيِّبَهُ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَإِلَامٌ أُجِيبُ! وَإِنِّي لِرَاضٍ بِحُجَّتِهِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَعَلِمِهِ فِيهِمْ» .

الشرح والتفسير

المعذرون المفتضون!

يشرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه ما أورده في بدايتها، ثم يعرض الأدله القاطعه التي تدين ناكثي البيعه ومؤججي نار الحرب ويفضحهم أمام المسلمين. فقد أشار عليه السلام إلى الذريعه الأصلية التي تمسك بها طلحه والزبير وأعوانهما؛ أى المطالبه بدم عثمان، فقال عليه السلام: «وإنهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه» - روى المؤرخ المعروف الطبرى في تاريخه عن أحد أصحاب عثمان أنّ علياً عليه السلام كان فى ماله بخير لما حصر عثمان، فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحه، وكان لطلحه فى حصار عثمان أثر، فلما قدم على عليه السلام أتاه عثمان، وقال له: أما بعد؛ فإنّ لى حق الإسلام وحق الأخا والقرايه والصهر، ولو لم يكن من ذلك شىء وكنا فى جاهليه، لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتز بنو تيم أمرهم - يعنى طلحه - فقال له على عليه السلام: أنا أكفيك، فاذهب أنت. ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامه بن زيد، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحه وهى مملوءه من الناس، فقال له: يا طلحه، ما هذا الأمر الذى صنعت

بعثمان؟ فقال: يا أبا الحسن، أبعده أن مس الخرام الطيبين! فانصرف على عليه السلام حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب، وفرق مافيه على الناس؛ فانصرف الناس من عند طلحه حتى بقي وحده، وسرّ عثمان بذلك؛ وجاء طلحه فدخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنني أردت أمراً فحال الله بيني وبينه، وقد جئتك تائباً - فقال: والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً؛ الله حسيبك يا طلحه. (١) ثم ذكر الطبرى فى موضع آخر من تأريخه أن عثمان حين قتل، خرج من عنده «سودان بن حمران» وهو يقول «أين طلحه؟ فقد قتلنا عثمان» (٢).

فالذى يستفاد من هذه الشواهد وسائر القرائن التأريخيه أن طلحه كان من المخططين الرئيسيين لقتل عثمان. أما جملة عائشه بشأن عثمان فهي معروفة مشهوره للجميع فقد كانت تنادى صراحه «اقتلوا نعثلاً! قتل الله نعثلاً» وكانت تقصد بنعث عثمان.

ابن أبى الحديد يصرح فى شرحه لاحدى خطب نهج البلاغه بشأن موقعه الجمل فيقول: يعترف جميع المؤرخين المسلمين بأن عائشه كانت من أعدى أعداء عثمان وهى التى أخرجت قميص رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت تقول «هذا قميصه لم يبيل وقد أبلى عثمان سنته»، وقيل أن أول من دعا عثمان نعثلاً عائشه، وكانت تقول: «اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً» (٣). فالعجيب ورغم ذلك قد خرج هؤلاء للمطالبة بدم عثمان! ويبدو أن هذه المسائل ليست عجيبيه فى عالم السياسه (السياسه التى تفتقر إلى الإيمان والتقوى والورع) فى أن يتآمر بعض الأفراد ثم يهبون للوقوف بوجه هذه المؤامرات من باب الدفاع! ثم قال الإمام عليه السلام: «فلئن كنت شريكهم فيه فان لهم لنصيبهم منه ولئن كانوا ولوه دونى فما التبعه إلا عندهم».

فالمراد أن الجميع يعلم بأن هؤلاء شركاء فى قتل عثمان، ولو افترض باننى شريك أيضاً فى هذا الدم (والحال اننى لست غير شريك فحسب، بل بذلت قصارى جهدى لاطفاء نيران هذه الفتنة) فانّ التهمه ثابتة بحقهم، فان كانوا هم النواه الأصلية فى هذا العمل فان عليهم أن يتحملوا مسؤوليه عملهم! وإذا كان الأمر كذلك فما أوقفهم فى قيامهم ومطالبتهم إياى بدم عثمان.

ص: ١٨

١-١) تأريخ الطبرى ٣ / ٤٥٣. [١]

٢-٢) تأريخ الطبرى ٣ / ٤١١. [٢]

٣-٣) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٦ / ٢١٥. [٣]

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «وإن أعظم حجتهم لعلی أنفسهم». حيث يميظ اللثام عن الدافع الرئيسي وهو أن هؤلاء كانوا يرغبون باستمرار الأوضاع التي كانت سائده على عهد عثمان، فتجعل لهم بعض الامتيازات في بيت المال، غير أن ذلك العهد ولي واندرس وليس هنالك من سبيل إلى عودته إلى مسرح الأحداث ثانية: «يرتضعون أما قد فطمت ويحيون بدعه قد أميتت» .

كما وردت عده تفاسير لقوله عليه السلام: «أما قد فطمت» منها أن يكون المراد تلك السنن الجاهليه والبدع والعصبيه التي كانت سائده قبل الإسلام، حيث يتشبثون بكل الوسائل الأخلاقية من أجل الحكومه، فأمير المؤمنين يصف ذلك العهد بالأم التي فطمت فلم تعد هنالك من وسيله لتحقيق المطامع» (١).

ويبدو أن هذا التفسير يناسب العبارة الثانيه «ويحيون بدعه قد أميتت» لا- العبارة الاولى، كما أن جمع العبارتين بمعنى واحد يخالف ظاهر اللفظ. في حين ذهب البعض إلى أن المراد أنهم بمطالبتهم بدم عثمان إنما يريدون احياء أيام حكومته، رغم أن هؤلاء المطالبون بدمه هم من بين الأفراد الذين ثاروا عليه وسببوا قتله ومن هنا أرادوا أن يرتضعوا أما قد فطمت. وبالطبع فانه يمكن الجمع بين كل هذه المعاني، وإن بدأ المعنى الأول أنسب. فالنتيجة التي ستمخض عنها حركة هؤلاء الافراء سوف لن تكون سوى الفشل الذريع؛ الأمر الذي عبر عنه الإمام عليه السلام بالقول «يا خيبة الداعي! وإلام أُجيب» (٢). والواقع انهذه العبارة تكهن بالنتيجة التي ستؤول اليها معركه الجمل. فالإمام عليه السلام يعلن أن عاقبتهم ستكون الفشل والهزيمة؛ عاقبه الغدره الذين خططوا لقتل عثمان ثم انبروا للمطالبه بدمه ففرقوا صفوف المسلمين فضلوا طائفه من الناس وخسروا الدنيا والآخره. ثم قال الإمام عليه السلام: «وإني لراض بحجه الله عليهم وعلمه فيهم» ولعل مراده بحجه الله، ما ورد في الآيه القرآنيه بشأن البغاه «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي

ص: ١٩

١-١) منهاج البراعه ٣ / ٣١٠.

٢-٢) «الخبية» بمعنى اليأس، والمراد بالداعي هنا طلحه والزبير الذين دعوا الناس للخروج على عثمان. وقوله إلام أُجيب، تحقيراً لاولئك الذين اتبعوهما دون دليل.

حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» (١). أمّا قوله عليه السلام: «علمه فيهم» فقد تكون إشارة للحديث المشهور عن النبي صلى الله عليه وآله بشأن علي عليه السلام «قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين». فلما سألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الفرق الثلاث قال: الناكثين أهل الجمل، والقاسطين أهل الشام والمارقين أصحاب النهروان» (٢).

ولما كان الإمام عليه السلام راضى برضا الله وعالم بما ستؤول إليه الأحداث من يأس العدو وهزيمته فان روحه مفعمه بالرضى والهدوء والسكينه.

ج ج

ص: ٢٠

١-١) سورة الحجرات / ٩. [١]

٢-٢) إحقاق الحق ٤ / ٩٩ [٢] نقلاً عن ينابيع الموده.

«فَإِنْ أَبَوْا أَغْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِئاً مِنَ الْبَاطِلِ وَنَاصِراً لِلْحَقِّ! وَمِنْ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أُبْرَزَ لِلطَّعَانِ! وَأَنْ أَصِيرَ لِلجَلَادِ هَبِلَتُهُمُ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَزْبِ وَلَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي وَعَئِيرِ شُبَّهَةٍ مِنْ دِينِي» .

الشرح والتفسير

لقد تقدم الإمام عليه السلام بتحذير تلك العناصر من مغبه مواصله الغوايه وضروره الوقوف على جسامة الأخطاء وهجر سبيل الشيطان والوفاء ببيعتهم للإمام عليه السلام والكف عن إثارة الفتن وتأجيج نار الحرب. وهنا - فى القسم الأخير من الخطبه - يحذرهم من أن عدم الارعواء ومنح الأذان الصاغيه للنصح سوف يضطره للتكلم معهم بلغه السيف، السيف الذى كفى به شافياً فى الرد على عبده الأهواء والشهوات من أصحاب المنطق الغاشم.

فقد قال عليه السلام: «فان أبوا أعطيتهم حد السيف» العلاج الأفضل للباطل «وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق» . فما يقال أن رسول الله صلى الله عليه و آله حمل القرآن الكريم بيد والسيف بأخرى إنما يكشف عن حقيقه واقعيه مسلمه فى الحكومات الإلهيه. فالجهود التى بذلها الأنبياء من أجل إصلاح المجتمعات واجتثاث جذور الفساد والانحراف إنما تركزت بالأساليب المنطقيه والعقليه واسداء النصائح والمواعظ بغيه إلفات إنتباه الخاطئين إلى أخطائهم، ولكن من المسلم به أن هناك طائفه قد جعلت عقلها وضميرها آله طبعه بيد أهوائها وشهواتها، فهى لا تعرف سوى لغه السيف والقوه؛ الأمر الذى يضطر زعماء الأمة

الربانيين إلى شهر السيف بوجه هذه الطائفة الطائشه والاطاحه برؤوسها العفنه، وهذا هو آخر الدواء حيال تلك الأمراض المستعصيه إذا ما عجزت غيره من الأدوية عن شفاء تلك الأمراض «إن آخر الدواء الكلى» (١) والواقع هو أن قوله عليه السلام: «شافياً من الباطل» وقوله: «ناصراً للحق» من قبيل اللازم والملزوم؛ وذلك لأنّ علاج الباطل يؤدي إلى نصره الحق ونصره الحق تؤدي إلى اضمحلال الباطل. ثم يعرب الإمام عليه السلام عن فائق دهشته إلى أن هؤلاء قد أعلنوا عليه الحرب ودعوه إلى الطعان والصمود أمام سيوفهم وهو الذى تشهد له ساحات الوغى وميادين القتال فى المواقع التى تنكص فيها الأبطال «ومن العجب بعثهم إلى أن أبرز للطعان (٢) وأن أصبر للجلاد» (٣).

فالعباره تكشف بجلاء أنّ ناكثى البيعه هم الذين بادروا إلى نشوب المعركه، حيث هدوا الإمام عليه السلام بكل وقاحه بإعداد نفسه لمواجهة سيوفهم وحرابهم، وهذا ما توه إليه ابن أبى الحديد عن المؤرخ المعروف أبو مخنف قوله: رجع رسل على عليه السلام من عند طلحه والزبير وعائشه يؤذنونه بالحرب. (٤)

على كل حال فإنّ هذا التهديد يكشف عن مدى تعامى مؤججى فتنه الجمل عن رؤيه الحقائق والوقائع، وقد أعمى حبّ المناصب والمقامات بصيرتهم وبصائرهم حتى لم يعودوا يروا الحقيقه المطلقه التى تهتف بانديتهم ليل نهار، ألا وهى شجاعه وبساله على عليه السلام التى رأوها مراراً وكراراً فى الغزوات الإسلاميه على عهد النبى صلى الله عليه وآله. ثم عاود الإمام عليه السلام مواصلة حديثه فى الاستغراب من ذلك التهديد الفارغ ليقدم الدليل القاطع على رفضه لما أوردوه فقال عليه السلام: «هبلتهم الهبول! لقد كنت وما أهدد بالحرب ولا- أُرهب بالضرب! وإنى لعلى يقين من ربّى وغير شبهه من دينى»، قوله عليه السلام «هبلتهم الهبول» (٥) - بالاستناد إلى مفهوم الهبل بمعنى الثكل

ص: ٢٢

١- ١) العباره مثل عربى معروف وقد أشير إليه فى بعض الروايات الإسلاميه ومنها الخطبه ١٦٨ من خطب نهج البلاغه.

٢- ٢) «طعان» بمعنى الضرب بآله وتستعمل عادة للرمح ويقال لذرب اللسان طعن أيضاً.

٣- ٣) «جلاد» من ماده «جلد» بمعنى الضرب بالعصا أو السيف أو السوط وهو هنا كناية عن الحرب.

٤- ٤) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٣٠٦. [١]

٥- ٥) «هبلتهم» بمعنى ثكلتهم، والهبول بفتح الهاء المرأه التى لا يبقى لها ولد، وهو دعاء عليهم بالموت.

بالولد - يريد به أنكم لا- تستحقون الحياه والبقاء وليس لكم سوى الموت، ثكلتكم أمهاتكم على هذه الأخطاء الشنيعه والانحراف الفكرى الذى أوصلكم إلى هذه الحاله. وقد ورد شبيه هذه العبارة الذى يعطى ذات المعنى وهو قولهم «ثكلتهم الثواكل» والتي استعملها الإمام عليه السلام لهذا الغرض فى سائر خطبه من نهج البلاغه.

على العموم فإن الإمام عليه السلام قد أشار فى هذه العبارات إلى سابقته العريقه وتاريخه المشرق ليشير كناية، إنما يعرفنى حتى مشركى العرب ولم يجرأ أحد على تهديدى بالحرب والمبارزه طيله حياتى، وقد عشت معى وزعمتم أنكم من المسلمين. المسأله الأخرى التى أشار إليها الإمام عليه السلام هى أن من يخشى الحرب يخشى القتل والشهاده، ومن يخشى القتل والشهاده فليس له من إيمان ويقين بالله سبحانه وأن طريقه ملء بالشكوك والشبهات؛ لأن من آمن وأيقن بسلامه طريقه ووثق بما عند الله فإنه يعلم أن قتال أعداء الحق وخصوم الدعوه لا- يكتفه أى فشل أو هزيمه ولن ينطوى سوى على احدى نتيجتين إما النصر وإما الشهاده؛ الأمر الذى صرحت به الآيه الشريفه ٥٢ من سوره التوبه: «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ» وأما قوله عليه السلام: «فانى لعلى يقين من ربى، وغير شبهه من دينى» فقد اعتبره بعض شراح نهج البلاغه أنه يعطى مفهوماً واحداً ويؤكد بعضه البعض، إلماً أن الصحيح هو أن العبارتين من قبيل بيان العام بعد الخاص، وهى تشتمل على مفهومين. فالعبارة الاولى تشير إلى مقام اليقين لدى الإمام عليه السلام والذى ورد التعبير به عن الإمام عليه السلام قائلاً: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» (١).

والعبارة الثانيه تشير إلى الوظائف الدينيه التى كشفت له عن كافه معالم الطريق دون الشعور بأدنى شك أو ريب، ولا سيما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قال له: «يا على ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين» (أصحاب الجمل وصفين والنهروان).

الرجال الأشداء

هنالك عدد من الأفراد أو الفئات التى تطالعنا فى سوح الوغى طيله الصراع المرير بين

ص: ٢٣

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم لمئه كلمه مختاره من الجاحظ، الكلمه الاولى.

الحق والباطل وهم يتمتعون بالتفوق الكبير على خصومهم. على سبيل المثال فقد انتصر جند الإسلام على الجيوش الساسانية الجاراه - التي كانت تفوقهم بعشره أضعاف من حيث العدد والعدة ومن حيث التجهيزات والوسائل الحربية التي لا يمكن مقارنتها بنظيرها لدى المسلمين - بل تميزت العسكريه الإسلاميه من حيث التعبئه والقتال على قيام مجموعات المستضعفين الحافه العزل من السلاح إلامن نور الإسلام والإيمان والمفاهيم القرآنيه والتعاليم الإسلاميه باقتحام الميدان وتحطيم اسطوره توازن القوى، لتحقيق الانتصارات تلو الانتصارات على أكبر الجيوش وأقواها. ولا غرو فانما ينبع ذلك من «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِخْدَى الْحُسِيِّينَ» فقد كانوا يرون أنفسهم منتصرين مهما كانت نتيجة الحرب، سواء انتهت المعركه بهزيمه الأعداء أو نيل الشهاده، فكلا النتيجتان سعادته كبرى.

وقد لمسنا هذا المعنى بوضوح فى الحرب المفروضه التى شنها النظام الصدامى ضد الجمهوريه الإسلاميه الفتيه، حيث وقفت كافه قوى العالم من الشرق والغرب خلفه لتقدم له كافه ألوان الدعم والاسناد، غير أنّ شبابنا المؤمن من قوات التعبئه والحرس الثورى والجيوش الذين تربوا فى أحضان القرآن ومدرسه أهل البيت عليهم السلام قد أركعوا هذا العدو الشرس وجرعوه مراره الهزيمه. نعم هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه ليعلن للأعداء من عبده الأهواء، لست أنا الذى يهدد بالحرب! لست أخشى الضرب فى سبيل الله، فقلبي قد غمر بنور الإيمان واليقين، بل أنا ربيب الإسلام والمدرسه النبويه التى ترى النصر حليفها بغض النظر عن النتيجة، وما عساها تكون سوى هزيمه العدو أو الفوز بالشهاده. وهذه هى الروحيه التى ينبغى أن يستشعرها المسلمون تجاه أعدائهم ولا يولون أدنى أهميه لهذا التفوق المادى الكاذب الذى قد يكون مؤثراً إلا أنه لن يحسم المعركه لصالح الباطل أبداً.

ومن خطبه له عليه السلام

وتشتمل على تهذيب الفقراء بالزهد وتأديب الأغنياء بالشفقة

القسم الأول

إشاره

«أَمَّا بَعِيدٌ: فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطْرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قَسِمَ لَهَا، مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلِ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً! فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُعْرِى بِهَا لِئَامَ النَّاسِ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزِهِ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَعْرَمُ. وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيُّ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا دَاعِيَ اللَّهِ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ، وَإِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَزْتُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَزْتُ الْآخِرَةَ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ» .

ص: ٢٥

١ - ١) أورد المرحوم الكليني عن الإمام الحسن عليه السلام قسماً من هذه الخطبة في كتاب الكافي ٥ / ٥٦، كما أورد قسمها الآخر - حسب صاحب مصادر نهج البلاغه - [١] نصر بن مزاحم في صفين وابن عبد ربه في العقد الفريد والزمخشري في ربيع الأبرار.

استهل الإمام عليه السلام خطبته بتقسيم رزق الإنسان وما قسم له على ضوء التقدير والتدبير الإلهي، ثم أوصى عليه السلام بأن من رأى لأخيه نعمه فلا ينبغي أن يكن له البغض أو الحسد (كما لا ينبغي أن يغتر إن جنى ثروه فيضحى بدينه وإيمانه من أجلها) آنذاك دعا عليه السلام الناس إلى الإخلاص والورع والتقوى وصفاء النية وصلاح العمل بعيداً عن الرياء والعجب والفخر. أمّا فى القسم الأخير من الخطبة فقد أشار عليه السلام إلى بعض المسائل الاجتماعية الحساسة من قبيل تقوية أو اصر القرايه وضروره التعاوضد والتعاون بين أفراد القبيله والأُمَّه الإسلاميه الواحده بغيه التغلب على المصاعب والمشاكل، مؤكداً على عدم فقدان الانتماء إلى العشيره من خلال اعتماد البخل والإمساك؛ فإنَّ ضرر هذا الفقدان عليه سيكون أعظم وأشدّ ممّا هو عليه بالنسبه للعشيره، فانه إنّما يمسك يده بينما بالمقابل تمسك عنه أيدي كثيره.

الشرح والتفسير

الرضا والتسليم أمام إرادة الله

أشار الإمام عليه السلام - فى هذه الخطبه - إلى مسأله مهمّيه ذات أثر عظيم فى تهذيب النفوس والحد من جموح الفرد والمجتمع. وهى ممّا لا شك فيه أنّ الحياه الاجتماعيه البشريه تعد الأساس لبركات وثمرات عظيمه، بحيث يمكن أن نقول إنّ القسم الأعظم من النجاحات والمكتسبات الباهره فى كافه المجالات والميادين العلميه والصناعيه والاجتماعيه إنّما حققتها البشريه فى ظل هذه الحياه الاجتماعيه. وإلى جانب تلك الثمار والمعطيات والبركات كانت هنالك المشاكل الخطيره التى تهدد بالفناء جميع الآثار الايجابيه لهذه الحركه مالم تجد الحلول الشافيه.

ومن ذلك، وجود الفوارق بين بنى البشر من حيث الاستعداد والقابليات الجسميه والروحيه على المستوى الفردى والاجتماعى؛ الأمر الذى أدّى إلى التفاوت الفاحش فى الإمكانيات الماديه والماليه. ومن هنا بدت ردود الفعل السلبيه للأفراد الذين تخلفوا عن هذه المسيره، أو سعوا بتخبط للخلط بين الحلال والحرام ليزجوا بأنفسهم فى هذا السباق غير المتكافئ والمجهول النهايه فى مصاف من تقدّم عليهم من حيث الجوانب الماديه ولم يكن أمامهم

سوى سيئين، إِمَّا الشعور بالإحباط واليأس والانسحاب من ميدان العمل والنشاط والتفوق على الذات، أو اشتعال نيران الحسد والبغض فى قلوبهم تجاه أولئك والهم بالانتقام منهم. من جانب آخر فإنَّ البعض الذى يتمتع بالإمكانات قد يصاب بالغرور والكبر والعجب والفخر فيندفع نحو الطغيان والفساد والانحراف.

الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه بدورها ودرءاً لهذه المفاسد والحيلولة دون ظهورها قد لفتت أنظار الجميع إلى حقيقه مفادها أنّ هذه الفوارق والزياده والنقصان ليست مسأله عبثيه بقدر ماهى واقع يستند إلى الحكمة الإلهيه التى تنظم شؤون العباد على أساس ما يصلحهم ويقوم حياتهم. ولعل الأسرار التى يختزنها هذا التصنيف خافيه علينا نحن العباد فى أغلب الأمور، إلّا أنّ مجرد علمنا بأنّ الله حكيم ورحمن ورحيم هو الذى ينظم الأمور وتشعر قلوبنا الرضى والتسليم لهذا التنظيم والتخطيط؛ فإنّ القضيّه ستتغير وتخرج من شكلها الظاهري، آنذاك ستسود السكينه والطمأنينه قلوبنا وأرواحنا وستزول كافه تلك العواقب السلبيه التى بدت لنا لأول وهله. ومن هنا تواتر التأكيد على الرضى والتسليم ولاسيما بالنسبه للرزق فى الآيات والروايات.

نعود الآن بعد هذه المقدمه المختصره إلى تفسير الخطبه، فقد تطرق الإمام عليه السلام فى بدايه خطبته عن تهذيب النفوس ووضع حدّ للمفاسد الاجتماعيه، فقد قال عليه السلام: «أمّا بعد: فان الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كلّ نفس بما قسم لها، من زياده أو نقصان» فالتشبيه بقطرات المطر تشبيه غايه فى الروعه؛ لأنّ قطرات المطر تنزل بصوره مختلفه على الأرض وفقاً للإراداه الإلهيه والحكمه الربانيه، والأرزاق الإلهيه تسقط على هذه الشاكله من السماء إلى البشريه على الأرض بفضل الله ورحمته. فقد ينزل المطر بغزاره على بعض المناطق حتى تسيل أنهاراً عظيمه بينما قد تشهد مناطق أخرى زخات خفيفه من المطر طيله السنه. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة التى ينبغى أن يستحضرها الناس: «فاذا رأى أحدكم لأخيه غفيره (1) فى أهل أو مال أو نفس، فلا تكونن له فتنه» .

ص: ٢٧

١-١) «غفيره» من ماده «غفر» بمعنى الستر ومن هنا اطلقت المغفره على ستر الذنوب كما تطلق على المال الكثير لتغطيته جزءاً واسعاً من الحياه، حتّى أنّه يستر العيوب أحياناً، ولذلك يقال للكثيره والزياده غفيره.

لعل غفيره تشير إلى أنّ الأموال والثروات لمن دوافع الغفله وستر عيوب الإنسان حتى عن نفسه، وإن وردت غفيره هنا بمعنى المال الكثير.

مايجدر ذكره أنّ الفتنه هنا لا تعنى الامتحان، وإن وردت عاده بهذا المعنى فى الأعم الأغلب، بل المراد بها ما يدعو إلى الفساد والخداع وردود الأفعال السلبيه من قبيل الحسد والعداوه والبغضاء التى يمارسها الفقراء المعدومون حيال أصحاب الأموال والثراء. ثم قال عليه السلام: «فان المرء المسلم مالم يغش دناءه تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لئام الناس، كان كالفالج (1) الياسر (2) الذى ينتظر أول فوره من قداحه (3) توجب له المغنم، ويرفع بها عنه المغرم». كما أنّ المسلمين البعيدين عن الخيانه إنّما ينتظرون من الحق سبحانه أمرين: أمّا حلول الأجل الإلهى (وقد أفنى عمره بطيب السمع وحسن العاقبه) فما عند الله خير له وأبقى. وأمّا أنّ يوسّع الله عليه رزقه فى هذه الدنيا ويؤمن عليه بالصاحبه والأهل والولد فى سلامه من دينه وصون لعزته وكرامته «وكذلك المرء المسلم البرىء من الخيانه ينتظر من الله إحدى الحسنين: إمّا داعى الله فما عند الله خير له، وإمّا رزق الله فاذا هو ذو أهل ومال، ومعه دينه وحسبه». ولكن لا بدّ من الإذعان إلى الفارق الكبير بينهما فأحدهما من قبيل زرع الدنيا كالمال والولد، والآخر من زرع الآخرة وهو العمل الصالح «وإنّ المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة». وقد يجمع الله سبحانه نعم الدنيا والآخرة لبعض الأفراد «وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام».

والواقع هو أنّ الإمام عليه السلام قد كشف بهذه العبارات عن حقيقه مهمّه ومصيريه فى حياه الإنسان تكمن فى ضروره عدم تلوثه بالذنوب والمعاصى والإرجاس التى لا تجر عليهم سوى الخزى والعار والسقوط من أعين الناس والحد من شخصيته لديهم.

ص: ٢٨

١-١) «الفالج» من ماده «فالج»، قال صاحب مقاييس اللغه لها معنيان؛ الأول النصر والغلبه، والآخر المسافه بين شيئين. وفسّره صحاح اللغه بالظفر والفوز، وقد ورد هنا بهذا المعنى.

٢-٢) «الياسر» من ماده «يسر» بمعنى السهوله، وميسر ويسار حسب قول الراغب فى المفردات [١] بمعنى الغنى والثروه. وأطلق على المقامر الذى يلعب بقداح الميسر وقد وردت فى العبارة بمعنى اللاعب بالقداح المحفوظ منها.

٣-٣) «قداح» جمع «قدح» على وزن فعل بمعنى السهم. وهى فى الأصل بمعنى كسر الشىء وعييه.

وبناءً على ما تقدّم فإنّ هناك أحد مصيرين رفيعين بانتظار الفرد الذى يعيش النقاء والعفّة فى حياته، أن يقضى حياته معزلاً مكرماً ليحث السير نحو رحمه الله ومغفرته وأجره وثوابه. أو أن يفيض الله عليه من نعم الدنيا فى هذه الحياه الدنيا ويجمع له خير الدارين.

القضية المهمّة التى حظيت باهتمام شرّاح نهج البلاغه هى أنّ الإمام على عليه السلام شبّه المؤمن الذى يتمتع بالغلبه والسعاده والفوز بلطف الله ورحمته المقامر الماهر الذى يفوز بالتضارب بالقداح، وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: كيف يشبه الإمام عليه السلام المؤمنين الذين يعيشون الرضى والتسليم تجاه رزق الله وقسمه بهذا الفرد المقامر الأثيم المقارف لهذه الكبيره من الكبائر؟

يتّضح من التأمل فى عبارات الإمام عليه السلام من قبيل «فوزه» و «قداح» و «مغنم» و «مغرم» أنّ الياسر ليس المراد به القمار، بل أراد به نوعاً خاصاً من الاقتراع كانت تمارسه العرب، حيث كانوا يأتون بعشره سهام لكل واحد منها اسم، ويشترون جملاً فيذبحوه ويقسّموه عشره أقسام، ثم يجعلون السهام مع بعضها ليقوم من يثقون به باستخراجها واحداً واحداً، ثم يكون الفائز على أساس ترتيب السهام حسب أسمائها الأول والثانى إلى السابع والسهم الأول فيها يسمى «مُعَلَى» - والسهام الأخرى إذا خرجت باسم أحدهم فهو الذى يدفع قيمه الجمل، أمّا الفائزون فيعطون سهامهم للفقراء دون أن يأكلوا منها شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك العمل. (١)

طبعاً لا يجوز هذا العمل شرعياً، إلّا أنّه لا يشتمل على معايب وفواجع القمار. فالإمام عليه السلام أراد أن المؤمنين من أهل الرضى والتسليم يشبهون الأفراد الذين يفوزون بسهم المُعَلَى فى ذلك الاقتراع، ووجه الشبه أنّه يفوز بأكبر نصيب دون أدنى عناء. والتعبير بالقداح وأول فوزه والغنيمه والنجاه من الخساره كلّها تناسب هذا المعنى؛ وهذا ليس متعارفاً فى القمار حيث لا يترك المقامر المقامره لمجرد غلبه فى الوهله الاولى، بل يواصل قماره حتّى لا تعرف النتيجة التى سيؤول إليها. وبالطبع فإنّنا لا ننكر أنّ المفردة مفهوم واسع يشمل الاقتراع وألعاب الحظ، ولكن لا بدّ من الالتفات إلى أنّ القمار بمعناه الحقيقى يختلف تماماً عن ذلك النوع من الاقتراع، ولا سيما أنّ القرآن قد عبر ب «الألزلام» -الميسر وإنّ ورد الظم عليهما معاً «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ...» (٢).

ص: ٢٩

١ - ١) شرح نهج البلاغه، المحقق الخوئى، ٣ / ٣١٩ (بتلخيص). وقد وردت إشارة مختصره إلى هذا المطلب فى كتاب معارج نهج البلاغه وهو من أقدم شروح هذا الكتاب، معارج نهج البلاغه، ص ١١٠.

٢ - ٢) سورة المائده / ٩٠. [١]

لعل هنالك من يقول بأنّ روح الرضى والتسليم لأمر الله فى الرزق وفى المنافع الماديه بصوره عامّه إنّما تهدأ النفس البشريه وتحدّ من جماحها وتحوّل دون الإنسان والارتقاء فى ميادين الحرص والطمع وجبايه الأموال واللهث وراء الثروه والانغماس فى المحرمات كما تصدّه عن استشعار معنى الحسد والبغض، إلّا أنّ مثل هذا الشعور قد يقتل عند الإنسان روح السعى والمثابره بحيث يتشبّه كلّ فرد بذريعه من الذرائع من قبيل أنّ الأرزاق مقسّمه وكلّ قد سمى الله له رزقه ونصيبه فيخلد إلى السكون والدعه والكف عن العمل، فما جدوى ذلك والأرزاق قد قسمت؛ الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى تخلف الأُمّه فى المجال الاقتصادى والتطور المادى واجتثاث جذور الفقر والحرمان.

إلّا أنّ هذا الإشكال قد يزول إذا ما ألتفت إلى أمرين: الأول هو أنّ هذه التعاليم الإسلاميه والوصايا الأخلاقيه إنّما توخّت الحد من تهافت الإنسان على الماديات وتناسيه لكل ما سواها، بعبارة أخرى فإنّ الإنسان يمتلك الدوافع التى تسوقه نحو الماديات والنهوض بحياته الاقتصاديه، ولو لم تكن هنالك من كوابح لهذه الدوافع فإنّه سينطلق بسرعه هوجاء نحو الحرص والتسابق فى جنى الأموال والثروه بحيث يحطم كافه الحدود والقيود الأخلاقيه والقيم المعنويه. وبعد هذا هو المعنى الذى أشار له الإمام على بن الحسين عليهما السلام حين قال: «معاشر أصحابى! أوصيكم بالآخره ولست أوصيكم بالدنيا! فإنكم بها مستوصون وعليها حريصون وبها متمسكون» (١). والأمر الثانى يكمن ضروره جمع كافه الآيات والروايات الوارده بهذا الشأن من أجل التوصل إلى النتيجة النهائيه بخصوص التعاليم الإسلاميه؛ لأنّ القضايا الإسلاميه المحوريه لا تبدو واضحه المعالم من خلال آيه واحده أو حديث واحد. ففى مجال تحصيل الرزق والقناعه به وضروره السعى والحركه هنالك الآيات والروايات التى أشارت من جهه إلى مسأله الرضى والتسليم تجاه التقديرات الإلهيه، وهنالك من جهه أخرى

الآيات والروايات التي وردت في الحث على السعى والعمل، بحيث يفهم من مجموع الطائفتين من الآيات والروايات أن الضعف والوهن في هذا المجال ليس صحيحاً كما أن الحركة الحريصة والممزوجة بالذنب والمعصية التي تفرزها طبيعته تجاهل التقدير الإلهي والتوكّل على الله هي الأخرى ليست صحيحة أيضاً. وبعبارة أخرى، صحيح أن الرزق قد قسم من جانب الله، غير أن ذلك مشروط بشرط السعى والجهد المقرون بالخلق والتقوى والورع.

ونختتم البحث بما ورد في الحديث النبوي الشريف بشأن مقام الرضى والتسليم في أن طائفة من المسلمين تطير من قبورها يوم القيامة إلى الجنّة لتتنعم بنعيمها دون أن تشهد الحساب فتسألهم الملائكة عن الحساب والجواز على الصراط، فتجيب أنها لم تر الحساب والصراط. وتسألهم عن جهنم، فجيّبوا بعدم رؤيتها. فيسألون من أيّ أمتم أنتم؟ فتقول من أمّه محمد صلى الله عليه وآله فتقسم عليهم الملائكة عن أعمالهم التي أدّت بهم إلى هذه الكرامة، فيقولون: «كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير ممّا قسّم لنا» فتقول لهم الملائكة: «حقّ لكم هذا» (١).

ج ج

ص: ٣١

«فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه واخشوه خشية ليست بتعذير! واعملوا في غير رياء ولا سمعه فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له. نسأل الله منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقه الأنبياء» .

الشرح والتفسير

يوصل الإمام عليه السلام خطبته بعدد من الوصايا الأخلاقية فيقول عليه السلام: «فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه» ولعل العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» (١) أو إلى الآية: «ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير» (٢). ثم حث عليه السلام على خشيته وتقواه بحيث لا تكون هناك من حاجه لالتماس الأعذار الواهيه «واخشوه خشية ليست بتعذير» (٣)، لأنه العالم بباطن كل فرد وأسراره وأعداره الصحيحة من السقيمه. جدير بالذكر أن العبارة السابقة تحدثت عن الحذر من الله، ثم أردفت بالحديث عن الخشيه، وقد صرح اللغويين أن الخشيه تتضمن الخوف المقرون بدرك العظمه، ومن هنا صرح القرآن الكريم «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (٤)، أما الحذر فيقال حين يحتاط الإنسان من خطر قطعي أو محتمل. ثم أشار عليه السلام في وصيته الثالثه إلى الإخلاص في التيه وتنقيه الأعمال من الرياء والسمعه لأن من عمل لله

ص: ٣٣

١-١ (١) سورة النور / ٦٣. [١]

٢-٢ (٢) سورة آل عمران / ٢٨. [٢]

٣-٣ (٣) «تعذير» من ماده «عذر» وهنا بمعنى عدم العذر الصحيح.

٤-٤ (٤) سورة فاطر / ٢٨. [٣]

وشرك معه آخر وكله الله إلى ذلك الآخر وقال له خذ أجرك منه فانك لم تعمل لى «واعملوا فى غير رياء ولا سمعه، فإنه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له» .

نعم خشيه الله وخشيه مقارفة الذنوب والمعاصى لا تكفى لوحدها، بل لابد من الإتيان بالأعمال الصالحة البعيده عن كافه أشكال الرياء والسمعه، والرياء يعنى مرأاه الآخرين ولفت أنظارهم لما يقوم به الإنسان من أعمال، والسمعه أن يقوم بالعمل لله، إلا أنه يسعى لإسماعه الآخرين، بحيث يجلب انتباههم إليه، و إلا يفعل ذلك يسر لسماع الآخرين فيثنون عليه ويظرونه.

والمعروف بين العلماء أن السمعه لا تبطل العمل، إلا أنها مذمومه خلقاً ومدعاه لانحطاط الإنسان الروحى والمعنوى، ولعلها تؤدى إلى زوال الأجر والثواب. وقد استدلل الإمام عليه السلام فى تحذيره من السمعه والرياء بأن الله سبحانه لا يقبل إلا العمل الخالص لوجهه فإن شرك العبد معه أحد آخر وكله الله إليه ليأخذ منه أجره، وبالطبع فإنه لا يملك القدره على إعطاء الأجر والثواب. والعبارة هى مضمون حديث قدسى معروف نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الحق سبحانه قال: «أنا خير شريك ومن أشرك معى شريكاً فى عمله، فهو لشريكى دونى، لأنى لا أقبل إلا ما خلص لى» (١).

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «نسال الله منازل الشهداء ومعاشه السعداء ومرافقه الأنبياء» . حيث يهدف الإمام عليه السلام إلى تعريف الأمة بالقيم الإلهيه الحقه من قبيل الشهاده ومرافقه الأنبياء وهى الأمور التى لا تنال بسهولة كما لا تمنح للإنسان بالمجان «ومن يطع الله ومن يطع الله والرسل فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً» (٢).

فالمراحل الثلاث - الشهاده والسعاده ورفقه الأنبياء - التى وردت فى كلام الإمام عليه السلام يمكن أن تكون من قبيل العله والمعلول، فالشهاده سبب السعاده، والسعاده سبب مرافقه الأنبياء. كما يمكن أن يكون الكلام إشارة لطيفه إلى حوادث المستقبل وشهاده الإمام عليه السلام.

ص: ٣٤

١-١) منهاج البراعه ٣ / ٣٢٤ كما ورد هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام فى بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٣. [١]

٢-٢) سورة النساء / ٦٩ - ٧٠. [٢]

للشرك والوثنيه شعب، من أهمها الرياء والسمعه. والرياء من ماله الرؤيه بمعنى التظاهر وإلفات نظر الآخرين إليه من خلال التظاهر بالعباده والأعمال الحسنه. وهذا الفرد فى الواقع مشرك، لأنه يرى عزّته وكرامته بيد الآخرين لا بيد الله، ولذلك يقوم بأعماله بدافع من لفت انتباه الآخرين إليه.

أما بشأن السمعه فهناك تفسيران: أحدهما أنّ السمعه هو أن يقوم الفرد بالعمل قرببه إلى الله، فتخالطه الأفكار باطلاع الآخرين وإسماعهم بعمله ليحظى بمدحهم وثنائهم. وهو الأمر الذى لا يوجب بطلان العمل حسبما صرح بذلك الفقهاء، لأنه قد حصل بعد الإتيان بالعمل، إلّا أنّها تقلل من ثواب العمل أو تقضى عليه، والآخر أن تكون خالطته فكره إسماع الآخرين منذ بدايه العمل ليثنوا عليه ويكيلوا له المدح والثناء. وليس هنالك من فارق بين السمعه بهذا المعنى والرياء، سوى أنّ المرأى يقوم بالعمل ليراه الآخرون بينما يقوم الآخر بالعمل ليسمعه الآخرون، وعليه فالعملان ليسا بخالصين.

على كلّ حال فإنّ الرياء والسمعه من أكبر آفات الأعمال العباديه. ولما كان نفوذ الرياء والسمعه إلى الأعمال الإنسانيه غايه فى التعقيد والدقه فقد تواتر التحذير منه كراراً فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه. وأعظم مفسده لهذا العمل هو أنّه يقضى على روح التوحيد ويقذف بصاحبه فى وادى الشرك والازدواجيه فى العباده، لأنّ توحيد الأفعال يعلمنا الإيمان والإذعان بأنّ كلّ شىء بيد الله وأنّ الأجر والثواب والعزّه والكرامه والرزق . . . تابعه لإرادته الله مآتمره بأوامره، إلّا أنّ المرأى إنّما يلتصق هذه الأمور من الآخرين، وهذا شرك علنى. وقد ورد فى الروايات يقال يوم القيامه للمرائى: «يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك وبطل أجرك، فلا خلاص لك اليوم» (1). هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ الرياء والسمعه مصدر كافه الاختلالات الاجتماعيه، فالمرأى إنّما يهتم بظاهر العمل دون الإكتراث إلى باطنه، فالظاهر جميل والباطن فاسد.

ص: ٣٥

المؤسّسات والدوائر تتمتع بظاهر أنيق بينما تستبطن الخواء والفساد من الداخل، الأفكار سطحية ساذجه خاليه من أى عمق وجذور فالهدف فى المجتمعات المرأئيه إنّما يولى للكميّه لا للكيّفِيّه. ومن البديهي أنّ مثل هذه المجتمعات إنّما تحت الخطى نحو الانحطاط والاضمحلال والانهيأر. وبالطبع على العكس من ذلك فهنالكَ اليوم البلدان التى أولت أهميه قصوى للقطاعات الصناعيه والزراعيه والاقتصاديه وحتت الخطى من أجل خدمه المجتمع ورفاهه فقد سارت نحو الرقى والتطور والازدهار.

نكتفى بهذا المقدار بشأن الرياء والسمعه وتترك الخوض فى التفاصيل أكثر إلى الأبحاث القادمه بما يتناسب والموضوع.

ج ج

ص: ٣٦

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَسْتَعْنَى الرَّجُلُ - وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ - عَنْ عِترته، وَدَفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حَيْطَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَأَلْمَهُمْ لَشَعْنِهِ وَأَعْظَمُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلِهِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرًا لَهُ مِنَ الْمَالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ» .

الشرح والتفسير

لَمَّا فرغ الإمام عليه السلام من وصاياه للفقراء والمعدمين بطاعه الله وخشيته وإلا يصددهم عن ذلك الانحراف الأخلاقي بسبب سوء الأوضاع وصعوبة العيش التي يعانون منها، وأصل خطبته ليخاطب هنا الأغنياء والمرفهى بما يحفظ التوازن فى المجتمع. فقد حثم بادئ ذى بدء إلى مد يد العون والمساعدة إلى بطانتهم وأقربائهم وعشيرتهم، ويلفت نظرهم إلى غض الطرف عن الأموال والثروه التى ليس من شأنها أن تجعل الإنسان غنياً عن قرابته «أيها الناس إنه لا يستغنى الرجل - وإن كان ذا مال - عن عترته (١)، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم». فالواقع أنهم أعظم سند يوفر له الحماية والدعم ويزيل عنه المشاكل والمخاطر، وإذا ما تعرض لبعض الظروف الصعبة والحوادث الخطيره، كانت عترته أشفق من الآخرين به وأحرصهم

ص: ٣٧

١-١) «عتره» قال أرباب اللغة تعنى أصل الشىء وأساسه، كما قيل أن هذه المفردة أقتبست من عتر (على وزن فطر) نبات معطر كثير الغصون والأوراق وتشير إلى فروع القرابه. وقيل تطلق العتره على الأولاد فقط. وعليه فعتره النبى صلى الله عليه وآله هم ولد فاطمه عليها السلام وإلى ذلك أشار الحديث المعروف «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى (لسان العرب، الصحاح، مقاييس اللغة) .

عليه «وهم أعظم الناس حيطة (١) من ورائه وألمهم (٢) لشعته (٣) وأعطفهم عليه عند نازله إذا نزلت به». نعم فالحياه مليئه بالمخاطر والمطبات والعواصف الهوجاء والأحداث المريره التي لا- يسع الإنسان التغلب عليها بمفرده، ومن هنا فإنّ العقل والحكمه تتطلب من الإنسان التفكير في مثل هذه الأحداث. وما أروع أن تكون لهذا الإنسان قرابه تهب لدعمه وحمايته في مثل هذه الظروف. ولكن، هل يمكن الحصول على دعم القرابه ومساندتها دون الإحسان إليها وتفقد أمورها وإحاطتها بالحب والرعايه وإغاثتها مالياً ومعنوياً؟ قطعاً، لا. فما أحرى كل إنسان أن يوطد أواصر مودّته لقرابته من خلال بعض البذل المادى حتّى لا- يبقى وحده حين تعصف به الأحداث والمصائب. طبعاً الإحسان إلى الآخرين ممّا ورد الندب إليه ولا تخفى آثاره «الإنسان عبيد الإحسان» إلّا أنّ الأولويه في هذا الأمر للقرابه «الأقربون أولى بالمعروف» حيث تمهد الأجواء أمام تعميق أواصر الاخاء والمحبه. وبغضّ النظر عما سبق فإنّ هذا الأمر لو طبق في المجتمع كما ينبغي فقد لا تبقى هنالك من آثار للفقر والحرمان في المجتمع، كيف لا وفي كلّ قبيله عدد من الأفراد المتمكنين الذين لو مدّوا يد العون إلى سائر أفراد قبيلتهم لما ظل هنالك من يعانى من الحرمان. وقد أوصى الإمام عليه السلام ولده الإمام الحسن عليه السلام بهذا الأمر مبيّناً فوائد إكرام العشيره ومعالجه مشاكلهم إذ قال عليه السلام: «وأكرم عشيرتك! فإنّهم جناحك الذى به تطير وأصلك الذى إليه تصير ويدك التى بها تصول» (٤). ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى دليل الآخر فى إطار حثه الأفراد المتمكنين على مساعده قرابتهم فيقول: «ولسان الصدق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال يرثه غيره» . . . وقد ورد فى هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع، فمن ذلك قول عمر لابنه هرم: ما الذى أعطى أبوك زهيراً؟ قالت: أعطاه مالاً يفنى، وثياباً تبلى. قال: لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر، ولا يفنيه الزمان. إذا أتت أعطيت الغنى ثم لم تجد بفضل الغنى ألفيت مالك حامد

ص: ٣٨

١- ١) «حيطة» اسم مصدر من ماده «حوط» بمعنى الاحاطه، وهى هنا بمعنى الرعايه والكلاءه. وقال البعض الحيطة بفتح الحاء بمعنى المراقبه وبكسرهما بمعنى الحفظ.

٢- ٢) «الم» من ماده «لمم» بمعنى الجمع والاصلاح.

٣- ٣) شعث بالتحريك بمعنى التفرق والانتشار.

٤- ٤) نهج البلاغه، [١] آخر الرساله رقم ٣.

وقل غناء عنك مال جمعته إذا كان ميراثاً وواراك لاحد

نعم لا يحمل الإنسان شيئاً من الأموال معه في قبره، إلا أنه يحمل العمل الصالح والذكر الحسن لدى الناس، فلا يكفد يذكر اسمه حتى يترحم عليه الناس ويسألون الله له المغفرة والعفو والرحمة.

هذا هو رأس المال المعنوي والمادى الخالد الذى يمكن نيّله من خلال الإنفاق فى سبيل الله وبذل الإحسان إلى عباد الرحمن. وزبده الكلام فإنّ الأغنياء قد دعوا إلى مدّ يد العون إلى فقراء المجتمع ومساعدتهم من خلال دافعين؛ الأول بغيه الحصول على الأيعوان والأنصار وتوظيفهم لصالحهم حين بروز النوائب والشدائد التى تواجههم فى حياتهم، والثانى بهدف الحصول على السمععه الحسنه والذكر الطيب بعد الموت بما يجعل الآخرين يترحمون عليهم ويسألون الله لهم العفو والمغفرة. وما أعظم هذه التجاره بهذا المتاع الدنيوى الزائل من أجل الحصول على السنين المذكورين.

فصل فى حسن الثناء (لسان الصدق)

لقد ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه أنّ لسان الصدق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال يورثه غيره. ولسان الصدق هو أن يذكر الإنسان بالخير، ويثنى عليه به، قال سبحانه: «وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ» (١) وهو دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. كما أشار البارئ سبحانه فى إطار ثنائه على طائفه من الأنبياء «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا» (٢). واللسان فى الآيه بمعنى ذكر الإنسان بالخير. ومما لا شك فيه أنّ هذه القضية ليست من قبيل القضايا الروتنيه الجوفاء، بل تنطوى على عدّه معطيات على مستوى الفرد والمجتمع، فهى:

أولاً: أنّها لمن دواعى الفخر والاعتزاز الخالد، بينما نرى أنّ الأموال والثروات الماديه إنّما توزّع فى لحظه وقد لا يبقى لها من أثر.

ثانياً: إنّ حسن الثناء والذكر الحسن إنّما يسوق الآخرين للدعاء لهؤلاء الأفراد وطلب

ص: ٣٩

(١-١) سورة الشعراء / ٨٤. [١]

(٢-٢) سورة مريم / ٥٠. [٢]

الرحمة والمغفرة لهم من الله؛ الأمر الذى لا تخفى آثاره المعنويه.

ثالثاً: إنّ هذا الأمر له تأثيره البالغ فى نفوس أبناء المجتمع فى الاقتداء بولئك الأفراد وإحياء القيم العليا فى المجتمع والقضاء على ما يخالفها، فقد جاء فى الروايه المعروفه «من سنّ سنّه حسنه كان له مثل أجر من عمل بها» (١).

وأخيراً أنّ ذلك من مدعاه العزه والرفعه والكرامه لدى نسل أولئك الأفراد المحسنين، فما أكثر من نعرف من الأفراد الذين نكن لهم الحب والاحترام لانحدارهم من أولئك الأفراد. هذه طائفه من الآثار المعنويه الفرديه والاجتماعيه للسان الصدق وطيب الاحدوثه.

ج ج

ص: ٤٠

١- ١) لقد ورد هذا المضمون فى عدّه روايات ومنها كتاب وسائل الشيعه ١١ / الباب ١٦ من أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. [١]

ومنها: «ألا- لا- يعيدلن أحدكم عن القرابه يرى بها الخصاصه أن يسدها بالذى لا يزيدُه إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه؛ ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة ومن تلت حاشيته يشتد من قومه الموده» .

الشرح والتفسير

بعد أن قرظ الإمام عليه السلام الثناء والذكر الجميل وفضله على المال، أمر بمواساه الأهل وصله الرحم وإن قل ما يواسى به، حيث أكد هذا الأمر بثلاث عبارات فقال عليه السلام: «ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابه يرى بها الخصاصه (1) أن يسدها بالذى لا يزيدُه إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه» . يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لأحد معنيين؛ الأول إلى البعد المعنوى لهذا العمل فى أن حرمان القرابه مِمَّا يتمتع به الإنسان من إمكانات وثروات من شأنه أن يسلب بركه مال الإنسان وحياته ويحول دون نمائه وزيادته، وعلى العكس من ذلك فإن معونه القرابه ومساعدتها تنطوى على عده بركات من شأنها أن تدرك هذا النقص الظاهرى بتفضلات الله وألطافه؛ أو أن يكون إشاره إلى بعده الظاهرى والمادى، لأن مشاكل القرابه إنما تنتقل بشكل أو بآخر إلى الإنسان وتورق فكره وتشغل روحه وتعرض سمعته وشخصيته للخطر وبالتالي تضاعف من مشاكله ومعاناته، وعليه فما أحراه أن يهب لمساعدتهم ومعونتهم ليظفر بثواب

ص: ٤١

١- ١) «الخصاصه» هى الفقر والحاجه الشديده وهى مصدر خص الرجل بمعنى احتاج وافتقر، وقال صاحب مقاييس اللغه تعنى الثلمه ومن هنا أطلقت على الفقر والحاجه لأنها ثلمه فى حياه الإنسان.

الآخره وبركات الدنيا وينال الذكر الطيب والاحدوثة الحسنه. فقد جاء فى الحديث أن الإمام على عليه السلام قال: «البركه فى مال من آتى الزكاه وآسى المؤمنين ووصل الأقرين» (1) ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى الأضرار الفادحه التى يتكبدها الإنسان إذا أمسك يده عن قرابته ولم يقدم العون والمساعده، ومن ذلك إنه إنما يقطع عنهم يده بينما يقطعون عنه أيديهم التى لا غنى له عنها «ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنما تقبض منه عنهم يد واحده وتقبض منهم عنه أيد كثيره». فالحق ليس هنالك من عاقل مستعد للتضحيه بكل هذه المنافع من أجل التنازل عن بعض منفعه الشخصيه الضئيله، ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول «ومن تلى حاشيته يستدم من قومه الموؤده». يمكن أن تنطوى مفرده «حاشيته» على معنيين؛ الأول صفات الإنسان وروحياته، والآخر أن تكون إشاره إلى البطانه وبناءً على هذا، فإن مفهوم الجملة هو تمحور قوم الإنسان حوله إذا حسن سلوكه بطانته تجاه الناس. فقد رأينا الكثير من الأفراد الصالحين الذين انفرجوا عنهم الناس رغم صلاحهم بسبب سوء تصرف بطانتهم ومن حولهم.

فصل فى بركات التعاضد بالقرابه

إنّ مسأله صله الرحم وتوطيد أواصر المحبّه بالقرابه وإن كانت وظيفه إلهيه ورد التأكيد عليها فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه، إلّا أنّ ممّا لا شك فيه أنّ القيام بهذه الوظيفه الدينيه والإنسانيه إنّما ينطوى على بركات جمه تعرض لها الإمام عليه السلام أواخر هذه الخطبه والمهم أن يعزز الإنسان هذه الأصره ولا يمارس كلّ ما من شأنه الإساءه إليها أو قطعها. ولابدّ من الإحسان إلى القربى حين شعور الإنسان بوفور النعمه، لتهد للوقوف إلى جانبه إذا ما واجهته بعض المحن والخطوب. وقد دلّ الواقع بما لا يقبل الشك أنّ التفوق على المشاكل لا يتأتى من خلال الجهود الفرديه، بل يتطلب مؤازره الآخرين وتكافئ جهودهم، وما أحرى أن تكون الأولويه فى هذه الرابطه للقرابه والعشيريه حيث يعرف كلّ منهما الآخر إلى جانب الإرتباط العاطفى الذى يشدّ كلّ منهما للآخر،

ص: ٤٢

غير أن المؤسف له أن أغلب الأفراد إنما يضربون هذه الأمور عرض الجدار بمجرد نيلهم بعض الثراء والنعمة فيبتعد عن قرابته ويحرم نفسه من كل هذه الطاقات التي يمكنها معالجته مصاعبه ومشاكله، وهذا هو المعنى الذي تناولته أغلب الروايات الواردة بهذا الشأن. فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «صِلْمَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ، يُعَمِّرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ» (١). وقال الإمام الباقر عليه السلام: «صِلْمَةُ الْأَرْحَامِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ، زِيَادَةٌ فِي الْأَمْوَالِ» (٢). كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «صِلْمَةُ الْأَرْحَامِ تُرَكِّي الْأَعْمَالَ وَتُنَجِّي الْأَمْوَالَ وَتَرْفَعُ الْبُلُوبَ وَتَيْسِّرُ الْحِسَابَ وَتُنْسِي فِي الْأَجْلِ» (٣). وبالمقابل فإن قطع الرحم ينطوي على آثار خطيرة على حياة الإنسان في الدنيا وسوء العذاب في الآخرة. فقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أَخْبَرَنِي جِبْرِئِيلُ إِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ تُوجَدُ مِنْ مَسِيرِهِ أَلْفَ عَامٍ مَا يَجِدُهَا عَاقٌ وَلَا قَاطِعٌ رَحِمٍ وَلَا شَيْخُ زَانٍ». (٤)

ولعل هنالك من يسأل: ما المراد بصله الرحم؟ المراد هو تعميق أواصر المحبة والنجدة في حل المشاكل وعدم الغفلة وتفقد الأحوال في كافة الظروف، وقد تحفظ هذه الصلة حتى بالسلام والارتباط عن طريق الهاتف. فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالتَّسْلِيمِ» (٥) وسنتكلم في الأبحاث القادمة عن صلة الرحم ومعطياتها المادية والمعنوية بما يتناسب والمواضيع الواردة في الخطب. هذا وقد قال السيد الرضى (ره) في آخر هذه الخطبة:

«الغفيرة هاهنا الزيادة والكثرة؛ من قولهم للجمع الكثير: الجم الغفير، والجماء الغفير. ويروى عفوه من أهل أو مال».

والعفوه: الخيار من الشيء. يقال: «أكلت عفوه الطعام» أى خياره. وما أحسن المعنى الذى أرادته عليه السلام بقوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته. . .» إلى تمام الكلام؛ فإن الممسك خيره عن عشيرته إنما يمسك نفع يد واحده، فاذا احتاج إلى نصرتهم، واضطر إلى

ص: ٤٣

١-١) بحار الأنوار ٧١ / ١٢٠. [١]

٢-٢) بحار الأنوار ٧١ / ٩٧. [٢]

٣-٣) بحار الأنوار ٧١ / ٢١١. [٣]

٤-٤) معانى الأخبار نقلاً عن بحار الأنوار ٧١ / ٩٥ ح ٢٦. [٤]

٥-٥) اصول الكافي نقلاً عن بحار الأنوار ٧١ / ١٢٦.

مرافدتهم، قعدوا عن نصره، وتناقلوا عن صوته، فممنع ترافد الأيدي الكثيره، وتناهض الأقدام الجمه.

ص: ٤٤

ومن خطبه له عليه السلام

وهى كلمه جامع له، فيها تسويغ قتال المخالف والدعوه إلى طاعه الله، والترقى فيها لضمان الفوز «وَلَعَمْرِي! مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالٍ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ وَخَايَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِذْهَانٍ وَلَا إِيهَانٍ. فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ، وَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ مِنَ اللَّهِ، وَامْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ، فَعَلَيَّْ ضَامِنٌ لِفُلْجِكُمْ آجِلًا، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلًا» .

نظرة إلى الخطبه

يهدد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه مخالفه بشده ويعرب عن عزمه الراسخ فى التصدى لهم وقتالهم بعد أن يقنطهم من أدنى موادعه أو مصالحه على حساب العدل والحق، ثم يوصى صحبه بمواكبته فى هذا الطريق والتأهب لمواجهه أعداء الدين. ويرى البعض أنّ الخطبه فى الواقع ردّ على أولئك الذين يشكلون على الإمام عليه السلام فى مساومه الأعداء واضطرارهم للاستسلام من خلال استمالتهم بالرشوه و... فالإمام عليه السلام يكشف أنه ليس من أهل المساومه والخداع. (١)

ص: ٤٥

المساومه والمصنعه

استهّل الإمام عليه السلام خطبته بالقول: «ولعمري (١) ما على من قتال من خالف الحق وخابط (٢) الغي، من إدهان (٣) ولا إيهان (٤)» .

يبدو أنّ هنالك فارق بين العبارتين «خالف الحق» و «خابط الغي» - هو أنّ العبارة الاولى إلى الفرد الذى يشق عن علم سبيل مخالفه الحق، بينما تشير الثانية إلى من يختار ذلك الطريق ويسبح فى بحر من الضلال جهلاً وخطأ ودون أدنى تأمل ومطالعه. أمّا تعبيره عليه السلام بالادهان (المجامله والمداهنه) والايهان (الضعف) فهو تحديد إلى أنّ الكف عن القتال والمواجهه إنّما يستند إلى أحد سببين؛ إمّا المجامله والمداهنه لأعداء الحق، أو الضعف والعجز، وحيث لم يكن لأى من هذا السببين من سبيل إلى كيان على عليه السلام فإنّ مواجهته لمخالفى الحق عنيفه لا هواده فيها.

وقد ورد تقريباً شبه هذا المعنى فى سائر كلمات الإمام عليه السلام فى إطار حديثه عن الإطار العام الذى يتحرّك ضمن دائرته زعماء المسلمين وأئمتهم فقد قال عليه السلام: «لا يُقِيمُ أمرُ اللَّهِ سُبْحانَهُ إِلَّا مَنْ لا يُصارعُ ولا يُضارِعُ ولا يَتَّبِعُ المَطامِعَ» (٥). كما وصف نفسه عليه السلام فى موضع آخر فقال: «وَأَيُّمُ اللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ مِنْ ساقِطِها حَتَّى تَوَلَّتْ بِحِذافِيرِها واستَوَسَّيْتُ فى قِياها، ما ضَعُفْتُ ولا جَبُنْتُ ولا خُنْتُ ولا وَهَنْتُ» (٦).

ص: ٤٦

١- ١) «لعمري» و «عمر» و «عمر» و «عمر» بمعنى مده الحياه ويقال حين القسم لعمري بفتح العين. وهى هنا مبتدأ لخبر محذوف تقديره «لعمري قسمي» وقد ورد سؤال فى مجمع البحرين كيف بهذا القسم وهو لا يجوز بغير الذات الإلهيه المقدسه؟ وأجيب بأنّ هذا القسم ليس حقيقه بل بصوره قسم، وتقديره «بواهب عمري وعمرك» .

٢- ٢) «خابط» من ماده «خبط» وخابط الغي بمعنى صارع الفساد، وأصل الخبط اليسر فى الظلام، وتستعمل للناقه حين تخبط فى مشيها.

٣- ٣) «الادهان» من ماده «دهن» بمعنى المنافقه والمصنعه ولا تخلو من مخالفه الباطن للظاهر، كما تستعمل كناية عن المجامله والمداهنه.

٤- ٤) «الايهان» من ماده «وهن» بمعنى الضعف سواء فى الخلقه أو الأخلاق، والايهان والتوهين بمعنى الاضعاف.

٥- ٥) نهج البلاغه، [١]الكلمات قصار، ١١٠. [٢]

٦- ٦) نهج البلاغه، الخطبه ١٠٤. [٣]

ثم أبدى عليه السلام نصائحه ووصاياه وفي مقدمتها مراعاة الورع والتقوى فقال عليه السلام: «فاتقوا الله عباد الله». فالتقوى - التي تعنى خشية الله فى الباطن وعدم مقارفة الذنوب والمعاصى والعمل على طاعة الله - هى أساس الأعمال الصالحة والباقيات الصالحات، ومن هنا ورد التأكيد عليها بصفتها مقدمه لسائر الوصايا الأخلاقية والدينية. ثم أوصى عليه السلام بالفرار من معصية الله إلى طاعته وغضبه وسخطه إلى رضاه وعذابه إلى رحمته ونعمته إلى نعمته «وفزوا إلى الله من الله» فالعبارة إشارة لطيفة إلى مسأله توحيد الأفعال، لأنَّ أیه مشكله تواجه الإنسان فى هذا العالم إنَّما تفرزها طبيعه أعماله والآثار التى أودعها الله هذه الأعمال. وعليه فمشاكله من ذاته وعقابه ممَّا تفرزه أعماله، وعليه فليس أمامه من سبيل لحل مشاكله سوى الفرار إلى الله واللجوء إليه إذ «لا مؤثر فى الوجود إلَّا الله» وكل خير وبركه ونجاه تفاض على الإنسان من الله سبحانه - القرآن من جانبه تحدث عن طائفه من العصاة الذين استحقوا سخط الله وغضبه ولم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى الله سبحانه «وَوَطُّنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» (١) الطريف فى الأمر أنَّ الإنسان إذا شعر بخوف من أحد لاذ بآخر، إلَّا أنَّ ذلك ليس كذلك بالنسبة لله سبحانه، فإذا ما خافه الإنسان وخشى عذابه، لجأ إليه، وهل هناك من هو أرحم بالإنسان منه؟! هذا هو الدرس الذى ينبغى أن تتعلمه من التوحيد الأفعالى فى أنَّ الله هو مصدر كل خير وحركه وبركه. فله الأسماء والصفات التى تدعونا للجوء إلى الله على كل حال وفى كل الظروف.

فان خشينا سخطه وغضبه لذنا بعفوه ورحمته، وإن خفنا عدله لجأنا إلى فضله وكرمه. وأخيراً يبدو أنَّ هذه العبارة مقتبسه من قوله سبحانه على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله: «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» (٢). ثم قال عليه السلام فى الوصيه الثالثه «وامضوا فى الذى نهجه لكم» ثم أوصى عليه السلام قائلاً: «وقوموا عصبه (٣) بكم». والواقع أنَّ الإمام عليه السلام قد سنَّ بهذه العبارات

ص: ٤٧

١-١ (١) سورة التوبه / ١١٨. [١]

٢-٢ (٢) سورة الذاريات / ١٥١. [٢]

٣-٣ (٣) «عصب» من ماده «عصب» على وزن ضَرَبَ الذى يربط العظام والعضلات، أى كلفكم به وألزمكم أدائه.

قانوناً جامعاً يشتمل على أربعة بنود من شأنها ضمان السعادة النجاة:

الأول: مراعاة التقوى وخشيته الله.

الثاني: الحركة نحو الله من خلال الفرار منه إليه سبحانه.

الثالث: الثبات على النهج الإيماني وسلوك السبيل الصحيح نحو الله.

الرابع: العمل بالتكاليف والوظائف الدينية التي أمر بها الشارع المقدس.

قد يقال أنّ الوصايا الأربعة استهلكت بقاء التفرغ فيما علاقتها بصدر الخطبه الذي تحدث عن العزم الراسخ في مجابهة مخالفي الحق وقتالهم؟ والجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ قتال هذه الطائفة المنحرفة الجائره إنّما يتطلب جنوداً أشداء مؤمنين من ذوى العزم والإرادة، وكانّ الإمام عليه السلام أراد أن يعدّ أصحابه للوقوف بوجه أصحاب الباطل. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبّر عن التكاليف بقوله «ما عصيه بكم» (التكاليف التي كلفتم بها وأمركم بأدائها) ، ومفهوم العبارة هو أنّ الوظائف الإلهيه ليست من الأمور التي يستطيع الإنسان إهمالها وعدم الإكتراث لها، بل هي طوق في رقبتة ودين في ذمته لا بدّ له من أدائه.

يذكر أنّ هذه التعبيرات قد وردت في أغلب الآيات والروايات التي تشير إلى أنّ الإنسان إنّما يتحرر من القيود إذا ما أدى هذه التكاليف والوظائف. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بضمانه النصر والغلبه والعاقبه الحسنه لأصحابه في خوضهم القتال ضد تلك الطائفة الضاله عن الحق، النصر الذي سيفوزون به في الدار الآخرة لا محاله إذا تعذر في دار الدنيا «فعلنيّ ضامن لفلجكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً». وهذا هو المنطق القوي والرصين الذي اعتمده القرآن في مخاطبته لأتباعه في تصديهم لأعداء الحق بأنهم منتصرون غالبون مهما كانت نتيجة القتال: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْبَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيِدِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» (١) ومعلوم أنّ الجنود الذين يرون أنفسهم منتصرين في جميع الأحوال وأنّ عدوهم مهزوم، إنّما يقاتلون بمعنويات عاليه دون أن يشعروا بأدنى خوف أو خطر ممّا ستفرزه أحداث القتال. فيرى أغلب العلماء والمفكرين أنّ الإيمان بهذا المبدأ - النصر أو الشهاده - هو العامل الرئيسي الذي يقف وراء

ص: ٤٨

الانتصار الذى يشعر به المسلمون فى جبهات القتال رغم عدم الموازنه فى القوى والتكافئ فى العده والعدد مع جيوش الأعداء. وهذا هو المبدأ الذى ينبغى أن يجعله العالم الإسلامى اليوم نصب عينيه فى مجابهته لعالم الكفر فلا ينبهر بإمكاناته وتجهيزاته الزائفه.

والحق أنّ هذا المبدأ لا يحصل إلّا فى ظل الإيمان والورع والتقوى وخوف الله.

فصل فى الضعف والمساومه

إنّ من الفوارق الأساسيه بين الساسه الربانيين والساسه العاديين إنّما يكمن فى أنّ ساسه الدنيا لا يتورعون عن أيّ وسيله من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم الشخصيه، وغالباً ما يسامون العدو على المبادئ الإنسانيه ومصالح مجتمعاتهم ويتجاهلون الحق والعداله، بغيه حفظ مواقعهم السياسيه والاجتماعيه، فى حين ليست هنالك من مساومه فى قاموس الساسه الربانيين، بل غالباً ما يضحى هؤلاء بمواقعهم الحساسه حرصاً على حفظ المبادئ ورعايه للحق والعدل والقسط؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى سيره الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتلميذه أمير المؤمنين على عليه السلام. فما أكثر الأفراد الذين اعترضوا على سياسه على عليه السلام من قبيل استماله الآخرين عن طريق التمييز فى العطاء من بيت مال المسلمين: أو الإبقاء على معاويه فى حكمه الشام، دون أن يحدثوا أنفسهم بالأساليب التى يتبعها معاويه فى حكومته للناس أو المبادئ التى سيعبر عليها فى هذه الحكومه! أو الاقتراح الذى طرحه عليه عبد الرحمن بن عوف فى الشورى بتسليمه مقاليد الأمور شريطه العمل بسياسه الشيخين، أو تفويض طلحه والزبير ولايه البصره والكوفه. وقد اقترح من قبل، على رسول الله صلى الله عليه وآله بعض الاقتراحات من قبيل اقتضاء المصلحه لطرده الضعفاء والمستضعفين. فأولئك وإن كانوا يفيضون إيماناً بالله ورسوله، إلّا أنّ المصلحه تقتضى استقطاب الأغنياء وتعبثهم ضدّ العدو رغم خلو قلوبهم من الإيمان! ويبدو أنّ اختلاف الرؤيه (على ضوء السياسه الإلهيه والسياسه الشيطانيه) واختلاف المصلحه من الواقع هى التى دفعت بأولئك الأفراد والفئات الدنيويه للاعتراض على السياسه النبويه والعلويه.

والإمام عليه السلام يوضح فى هذه الخطبه السياسه التى سيتبعها وأنه ليس من أولئك الساسه

الذين يرون للمجامله والمداهنه من مكان فى سياسته وتعامله مع المارقين عن الحق والعداله، وليس لديه من وسائل سوى التقوى وامثال التكاليف الشرعيه دون الإكتراث لهذا أو ذاك من المساومين والمعترضين، ونوكل المزيد من الكلام فى هذا الموضوع إلى محلّه.

ج ج

ص: ٥٠

إشاره

(١)

ومن خطبه له عليه السلام

وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن - وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران - لَمَّا غلب عليهما بسر بن أبي أرطاه فقام عليه السلام على المنبر ضجرا بثاقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له فى الرأى، فقال:

القسم الأول

إشاره

«ما هى إلا الكوفه أقبضها وأبسطها، إن لم تكونى إلا أنت تهب أعاصيرك، فقبحك الله وتمثل بقول الشاعر: لَعَمْرُ أَيْبِكَ الْخَيْرِ
يا عَمْرُو إِنِّي عَلَى وَضْرٍ مِنْ ذَا الْإِنَاءِ قَلِيلٍ»

نظره إلى الخطبه

يعتقد بعض شراح نهج البلاغه كابن أبى الحديد أنّ الخطبه بعد صفين والتحكيم والخوارج، حيث ألقاها عليه السلام أواخر عمره الشريف (٢). ويفهم من مقدمه الشريف الرضى أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبه حين تواترت عليه الأخبار بشأن استيلاء أصحاب معاوية على

ص: ٥١

١- ١) جاء فى مصادر نهج البلاغه [١] أنّ المسعودى أورد هذه الخطبه مع اختلاف طفيف فى مروج الذهب قبل المرحوم السيد الرضى، ثم قال: وقد أشار إليها العقد الفريد وابن عساكر فى تاريخ دمشق.
٢- ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، آخر الخطبه.

البلاد الإسلامية، حيث بلغه عاملاه على اليمين فأطلعاه على غلبه بسر بن أرطاه لهما على تلك المنطقه. فقد كان بعض أتباع عثمان فى صنعاء وكانوا قد بايعوا علياً عليه السلام مكرراً وخديعه. وكان عبيد الله بن عباس آنذاك عامل على عليه السلام على اليمن وقائد الجيش كان سعيد بن نمران. وقد شنت الغارات تلو الغارات من قبل أهل الشام على المناطق الإسلامية بعد قتل محمد بن أبى بكر الذى نصبه الإمام عليه السلام والياً على مصر. قام أتباع عثمان - فى اليمن - بدعوه الناس للمطالبه بدم عثمان، فتصدى لهم عبيد الله بن عباس وأمر بسجنهم. فكتبوا من السجن إلى بعض أصحابهم فى الجيش لعزل سعيد بن نمران والخروج عليه. ففعلوا والتحق بهم طائفه من اليمن ثم امتنعوا عن دفع الزكاه. فكتب عبيد الله وسعيد كتاباً للإمام عليه السلام. فكتب الإمام عليه السلام كتاباً لأهل اليمن ودعاهم للعمل بوظائفهم وحذرهم من العصيان والتمرد. فردوا عليه بالترامهم بطاعه الإمام عليه السلام بشرط عزل هذين الشخصين. ثم كتبوا لمعاويه. فبعث معاويه بسراً إلى اليمن فى جيش كثيف وأمره أن يقتل كل من كان فى طاعه على عليه السلام، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فى من قتل فى مكه داود وسليمان، إبنى عبيد الله بن عباس كما قتل فى الطائف صهر عبيد الله. ثم بلغ اليمن بعد أن خرج منها عبيد الله وسعيد، واستخلف علياً عبد الله بن عمرو الثقفى، فحمل بسر عليه فقتله ثم استولى على صنعاء مركز اليمن. فلمّا دخل عبيد الله وسعيد على الإمام عليه السلام فى الكوفه ذمهما عليه السلام لتركهما مكانهما، ثم صعد المنبر وألقى هذه الخطبه.

على كل حال فإنّ الخطبه قد أوردت حين اشتدت حملات أهل الشام على مختلف مناطق البلاد الإسلامية وضعف المقاومه التى أبداها أصحاب الإمام عليه السلام حيث كان الإمام عليه السلام فى غايه التذمر والاستياء، فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى من قلّه الأفراد المطيعين، ثم تعرّض عليه السلام إلى الواقعه الأليمه لحملات بسر بن أرطاه وغلبته على اليمن، ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالشكوى لله من هؤلاء القوم الذين مردّوا على النفاق والمعصيه فيدعوا عليهم ويسأل الله أبدا لهم بشر منه وإبداله من هو خير منهم.

الشرح والتفسير

النفاق والعصيان ودور الإمام

تبدو عبارات الإمام عليه السلام واضحه بالالتفات إلى سبب ورود الخطبه والأجواء التى كانت

حاكمه آنذاك، فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أنه لم تبق لديه سوى الكوفة بعد ذلك التمرد والعصيان «ما هي (١) إلّا الكوفة، أقبضها وأبسّطها». والسؤال المطروح هنا: ما هي العلل والعوامل التي جعلت جيش الإمام عليه السلام يعيش هذه الحالة الخطيرة في العراق وسائر المناطق الإسلامية؟ نترك الإجابة على هذا السؤال إلى البحث الذي سنخوض فيه في موضوع تأملات.

أمّا المسألة المهمّة فهي أنّ رجلاً ربانياً مثل علي عليه السلام وبتلك الشجاعه والبطوله والحنكه في التدبير إنّما عاش تلك الحالة تجاه أعداء الإسلام أثر عدم وجود القوى المخلصه والشجاعه المواليه للحق والمواكبه لحركه الإمام عليه السلام. فقد أشار الإمام عليه السلام بقوله «أقبضها وأبسّطها» بشأن الكوفة إلى خروج سائر المناطق عن حكومته وإن كانت خاضعه لها ظاهرياً. ثم قال عليه السلام: «ان لم تكوني إلّا أنت تهبّ أعاصيرك (٢) فقبحك الله» في إشاره إلى أنّ الكوفة وإن كانت مركز حكومه الإمام عليه السلام إلّا أنّها لم تكن خاليه من التمرد والنفاق، بحيث لم يكن الإمام عليه السلام يحسب لأهلها ذلك الحساب. وما أعظم معاناته عليه السلام وهو بذلك العلم والحلم والحكمه والشجاعه إلّا أنّه يفتقر إلى المخلصين من الأتباع.

ثم تمثل عليه السلام بقول الشاعر: لعمر أبيك الخير يا عمرو إنني على وضر من ذا الإناء قليل

«وضر» سواء كان بمعنى بقيه الدسم في الإناء، أو بقيه قطرات الماء في الإناء، أو الرائحه الباقية في إناء الطعام، فهي إشاره إلى أنّ الكوفة لم تكن سوى ذره زهيدة آنذاك بالنسبه للعالم الإسلامي الواسع، ولا- يسع أيّ زعيم بالاعتماد على أهل هذه المنطقه مهما كان من حفظ بيضه الإسلام والدفاع عن البلاد الإسلاميه والوقوف بوجه هذه الذئاب الكاسره المتعطشه للدماء.

الشرح والتفسير

تأملان

١ - الكوفة على وجهين

تعتبر الكوفة من المناطق الإسلاميه المشهوره في التاريخ والتي كانت مسرحاً لعدّه

ص: ٥٣

١- ١) الضمير «هي» يعود إلى الحكومه أو البلاد فمفهوم العبارة «ما الحكومه والمملكه التي تحت سيطرتي إلّا الكوفة». .
٢- ٢) «أعاصير» جمع «إعصار» وهي ريح تهب وتمتد من الأرض نحو السماء كالعمود كما تطلق كناية على الأمور الاجتماعيه وهي تعني الفوضى التي كانت سائده في الكوفة طول التاريخ.

حوادث حتى إقترن تأريخ الإسلام بتلك المنطقه ويعتقد البعض أن إسمها مشتق من شكلها الذى يشبه الدائره، حيث كانت تصطلح العرب على المنطقه الرملية المدوره بإسم «كوفان»، وقال البعض سميت بذلك الإسم لاجتماع الناس هناك؛ لأن أحد معانى هذه المفرده هو الاجتماع والتجمع كما ذكروا عدّه وجوه أخرى للتسميه لايسع المقام الخوض فى تفاصيلها. وقيل بنيت عام ١٧ هـ على عهد الخليفه الثانى على يد سعد بن أبى وقاص، وكانت أكبر مدن العراق التى تشد إليها الرحال. وسميت «قبه الإسلام». وقيل أن سعد بن أبى وقاص قد نزل المدائن بعد فتح العراق وغلبه الساسانيين فبعث رسله ليشّر الخليفه الثانى بالفتوحات، فلما رأى الخليفه رسل سعد وقد شحبت وجوههم سألهم السبب، فذكروا له سوء مناخ مدن العراق، فأمر ببناء مدينه تتناسب ومزاج العسكر فاختر سعد الكوفه. ولم تمض مده حتى إشتعلت فيها النار فاحترقت - ثم بنيت من اللبنات. وقد خيّر سعد المسلمين بنزول المدائن أو الكوفه. فاختر فريق منهم الكوفه واستعادوا صحتهم. (١)

وهناك عدّه روايات صرّحت بعضها بدم الكوفه فى حين صرّح البعض الآخر بمدحها، ويبدو أن الروايات قد وردت بشأن مختلف عصور الكوفه والأقوام التى سكنت فيها. فقد فسرت بعض الروايات قوله سبحانه «وَطُورِ سَيْنِينَ» (٢) الوارده فى الآيه بالكوفه.

وجاء فى روايه عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الْكُوفَةُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»، كما ورد فى ذيل هذه الروايه أن فيه قبر نوح وإبراهيم وقبر سيد الأوصياء الإمام على عليه السلام وقبور ثلاثمأه وسبعين نبياً وستمأه وصياً. وروى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِلَدٍّ مِنَ الْبِلْدَانِ وَمِصْرٌ مِنَ الْأَمْصَارِ، أَكْثَرُ مُحِبًّا لَنَا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ» (٣). مع ذلك فقد شهدت الكوفه عدّه عصور تسلط عليها الأعداء ولاسيما أعداء أهل البيت عليهم السلام بحيث أصبحت من الأوكار المناهضه للإسلام وأهل بيت النبى صلى الله عليه وآله.

ص: ٥٤

١-١) معجم البلدان، ماده «كوفه»، التأريخ الكامل ٢ / ٥٢٧، قاموس (ماده كوفه).

٢-٢) سورة التين / ٢. [١]

٣-٣) سفينه البحار، [٢] ماده «كوفه».

كلنا نعلم بأن إحدى مشاكل حكومة الإمام على عليه السلام تكمن في أهل العراق ولاسيما أهل الكوفة الذين يتصفون بالتمرد وعدم الطاعة؛ الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يتعرّض له في عدّه خطب ليعرب عن إستيائه منهم وشكواه، في حين كانت روحه أهل الشام وطاعتهم تمثّل أحد عوامل تفوّق معاويه في أعماله.

وقد نظر بعض المؤرّخين إلى هذا الموضوع نظره إيجابيه فذهبوا إلى أنّ العلّه في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعه أهل الشام، أنّ أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبه، ومع الفطنه والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال، والتميز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء، وأهل الشام ذوو بلاده وتقليد وجمود على رأى واحد، لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال وما زال العراق موصوفاً أهله بقلّه الطاعه، وبالشقاق على أولى الرئاسه. (١)

إلّا أنّ المرحوم مغنيه يرى أنّ هذا الكلام أجوف لا أساس له. فأى عيب كان يسع أهل العراق أن يرّدوه على حكومة العدل العلويه حتّى مارسوا ذلك الشقاق والنفاق (أيه فطنه ثاقبه تدفع بالأفراد إلى العصيان والتمرد والذي أدى إلى تلك الذلّه والخنوع أمام العدو؟! والحق كما ذكره المؤرّخون ومنهم طه حسين في كتابه (على وبنوه) أنّ سياسه معاويه كانت قائمه على المكر والخداع وشراء دين الناس بينما اعتمد الإمام على عليه السلام على الحق والعدل، ولعلّ الشاهد على ذلك ما رد به الإمام عليه السلام حين قال: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟! والله لا أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً» (٢). ثم ردّ عليه السلام على أولئك الذين قارنوا بين سياسته وسياسه معاويه قائلاً: «والله ما معاويه بأدهى منّي لكنّه يغدر ويفجر ولولا كراهيه الغدر لكنت من أدهى الناس» (٣). وهو الأمر الذي نلمسه اليوم بوضوح في عصرنا الراهن حيث يرى بعض الأفراد وضمن تحليلاتهم الاجتماعيه أن الساسه

ص: ٥٥

١- ١) نقل هذا الكلام ابن أبي الحديد عن الجاحظ (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٣٤٣). [١]

٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٦. [٢]

٣- ٣) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٠. [٣]

الأفذاذ هم أولئك الذين يعتمدون أساليب التضليل والخداع والذين لا يتورعون عن التشبث بأخس الوسائل من أجل تحقيق أهدافهم وأطماعهم، في حين لا يرون من كفاءه وجداره لأولئك الأفراد من أهل الإيمان والورع والتقوى الذين لا يساومون على القيم والمبادئ، نعم للأسف مازال هذا الخطأ الفاحش هو الذى يسود بعض العقول والأفكار، وقد أدى إلى سلسله من المفسد السياسيه والاجتماعيه، بل ما أعظم الدماء البريئه التى سفكت على مدى التاريخ بسبب هذه النظرة الخاطئه على كل حال فإنّ الواقع هو غير ما ذكر، فالعراق ولاسيما منطقته الكوفه إنّما سكنت من عدّه فئات وبمختلف الثقافات وقد تأثروا إلى حد بعيد بسياسه عثمان بما دفعهم للتكالب على الدنيا والاعتزاز بها وقد أصبحت السنن الخاطئه آنذاك من مفردات حياتهم اليوميه (بما فى ذلك التمييز فى العطاء من بيت المال) حتّى كان أغلب زعماء القبائل يتوقعون المناصب والأموال الطائله؛ الأمر الذى جعل معاويه ينجح فى إستمالتهم فكانوا يتقاطرون على معاويه، الواحد تلو الآخر.

أضف إلى ذلك فقد كانت هنالك بعض الفوارق بين روحيه أهل العراق والشام، منها أنّ أهل الشام كانوا يعرفون بالعمل، بينما كان العراقيون أهل كلام كما كان الشاميون يتحلّون بالانضباط الاجتماعى ولم يكن مثل هذا الانضباط سائداً لدى أهل العراق. وأخيراً كان أهل الشام أوفياء، بينما يمتاز أهل العراق بالغدر ونكث العهود.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا ينسحب على أهل العراق فى أىّ عصر وزمان غير زمان الإمام على عليه السلام كعصر الإمام الحسن أو الحسين عليهما السلام. ومن هنا وردت روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام التى تشيد بأهل العراق والكوفه. ولا غرابه أن تتّصف أمّه ببعض الصفات السلبيه فى عصر من العصور، ثم تنسلخ عنها فتتحلى بصفات إيجابيه.

ج ج

ص: ٥٦

ثم قال عليه السلام:

«أُنْبِتُ بُسِيراً قَدْ اطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَأُظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيُؤِيدُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَيَّ بِاطْلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَن حَقِّكُمْ وَبِمَعَصَةِ بَيْتِكُمْ إِمَامِكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ وَبِأَدَائِهِمُ الْأَمَانَةَ إِلَيَّ صَاحِبِيهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ وَبَصِيحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَوْ ائْتَمَنْتُمْ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ، لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلَاقَتِهِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه - إلى قصه بسر بن ارطاه ذلك الجبار الشامي الفض وغلبته على اليمن، ثم تطرق عليه السلام إلى مصير أهل العراق والمستقبل المظلم الذي ينتظرهم مع ذكر الأسباب والعلل التي ستفضي إلى ذلك المستقبل. فقد ذكر بعض شراح نهج البلاغه أن معاويه وجه بسرًا إلى المدينة وأمره بقتل شيعه على عليه السلام وإرعاب أهل المدينة التي هبت لنصره رسول الله صلى الله عليه وآله وقاتلت أبي سفيان، فدخل المدينة وشم أهلها وهددهم وتوعدهم، ثم دعا الناس إلى بيعه معاويه فبايعوه، وأحرق دوراً كثيرة. ثم قصد اليمن فاستباح أهلها وقد قتل ولدى حاكم اليمن آنذاك عبد الله بن عباس. (1) وقد ذكر ابن أثير أن هذين الطفلين لا إذا بأعرابي من بني كنانة، فلما أراد بسر أن يقتلها، قال له الكناني: دعهما فلا ذنب لهما، فإن كنت قاتلها

ص: ٥٧

فاقتلني معهما، حيث كان يعتبر ذلك الأعرابي أن قتلها يعني تقصيره في أداء الأمانة. فما كان من بسر إلا أن قتلها وقتل هذا الأعرابي. (١)

على كل حال إطلع أمير المؤمنين على عليه السلام على هذه الأخبار الأليمة فساء ذلك فقال: «أنبتت بسرًا قد أطلع (٢) اليمن وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون (٣) منكم»، ثم تطرق عليه السلام إلى علل هذه الدولة لسلط الضوء على أربعة عناصر مهمّة تقف وراء النصر، فقال عليه السلام: «باجتماعهم على باطلهم، وتفريقكم عن حقكم». فالاتحاد دعامة النصر ولاسيما إذا سادت الوحدة أتباع الحق. ولكن يالها من مصيبة أن يتفرق دعاه الحق عن حقهم ويجمع دعاه الباطل ويتحدون على باطلهم! رغم أن الباطل مصدر الخلاف والتشتت وأن الحق مركز الاخاء والوحدة. نعم فإنّ الوفاق والاتحاد لمن دوعى النصر والنجاح فى كل عمل وإنّ الشقاق والفرقة لمن دوعى الهزيمة والفسل.

أمّا العنصر الثانى فى إخلاص فى الطاعة وإمثال الأوامر التى كانت سائده لأصحاب الباطل وعدم طاعه أهل الحق لإمامهم: «وبمعصيتكم إمامكم فى الحق، وطاعتهم إمامهم فى الباطل». أجل فالانضباط والطاعة حيثما كانت إنما تقود إلى النصر والغلبه. وليس لجيش ولا لأمم أن تبلغ ما تريد دون رعايتها للانضباط وطاعتها لآمرها وزعيمها، ومن هنا ورد التأكيد فى كافه الدوائر والمؤسسات اليوم على مسأله الانضباط والالتزام بالمقررات.

العنصر الثالث يتمثل بالأمانه والوفاء بالعهد والتى تقابلها الخيانه ونقض العهود ولاسيما حيال الرؤساء والزعماء «وبادائهم الأمانه إلى صاحبهم وحيانتكم» فأمانتهم إنما دفعت بهم لتعبئه كافه الإمكانيات والطاقات ضد أعدائهم، فى حين بددت خيانتكم هذه الطاقات وذهبت بها أدرج الرياح، وهل من مصير ينتظر من ضيع طاقاته وبدد إمكانياته سوى الهزيمة

ص: ٥٨

١-١) الكامل لابن أثير ٣/٣٨٣؛ [١] تاريخ الطبرى ٤ / ١٠٦، ١٠٨. [٢]

٢-٢) اطلع، تعنى فى الأصل النظر من الأعلى، واستعملت كناية عن النصر والغلبه المفاجاه، ماده «طلوع» بمعنى الظهور.

٣-٣) «يدالون» (فعل مضارع مجهول من باب الأفعال) من مده دوله بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر. ومن هنا اطلقت الدوله على المال والثروه التى تتداول بين الناس، والمراد بها فى هذه العبارة سيغلبونكم وتكون لهم الدوله بدلکم.

والفشل. لقد فسّر بعض شراح نهج البلاغه الأمانه هنا بالبيعه، غير أنّ التفسير الذى أوردناه سابقاً واستناداً إلى سائر عبارات الخطبه يبدو أنسب من هذا التفسير، أضف إلى ذلك فإن كانت البيعه بمعنى الطاعه فقد ذكرت سابقاً ولا داعى للتكرار.

وأخيراً «وبصلاحهم فى بلادهم وفسادكم» وعليه فقد أوجز الإمام عليه السلام عوامل نصرهم وفشل إتباعه فى اتّحادهم وانضباطهم وأمانتهم وصلاحهم فى بلادهم، فى حين عاش أتباعه الفرقة والاختلاف والغدر والخيانه والفساد. فأساليب الإدارة والحكّه فى الحكومه وإداره شؤون البلاد مهما كانت قويّه فإنّها لن تؤدّى إلى نتائج مرضيه فى ظلّ هؤلاء الأفراد الذين يمثّلون أذرع الحاكم وعناصره فى الدوله.

أجل فالحق ضعيف مهضوم إذا ما فسد أتباعه، والباطل قوى فى ظلّ اتّحاد أتباعه.

ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فلو اتّمنت أحدكم على قعب (١) لخشيت أن يذهب بعلاقته (٢)».

فهل من مجال للوثوق بمثل هؤلاء الأفراد الذين لا يؤتمنون على أتفه الأشياء، فضلاً عن القيام بإداره شؤون الحكومه الإسلاميه ومسائل الصلح والقتال وبيت المال وامثال ذلك.

تأملات

١ - بسر بن أرطاه القائد السفاح لمعاويه

فأخيراً خبرُ بُسرِ بنِ أرطاه العامريّ؛ من بنى عامر بن لؤى بن غالب، وبعث معاويه له ليغيّر على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام، وما عمّله من سيفك الدماء وأخذ الأموال، فقد ذكر أرباب السّير أنّ الذى هاج معاويه على تسريح بُسرِ ابنِ أرطاه - ويقال ابن أبى أرطاه - إلى الحجاز واليمن، أنّ قوماً بصنعاء كانوا من شيعه عثمان، يُعظّمون قتله، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعلّى عليه السلام على ما فى أنفسهم؛ وعاملُ على عليه السلام على صنعاء يومئذ

ص: ٥٩

١ - ١) «قعب»، قال بعض أرباب اللغه بمعنى قدح خشبى وقال البعض الآخر قدح كبير ضخم.

٢ - ٢) «علاقه» إذا استعملت مفتوحه العين عنت الرابطة المعنويه وإن كسرت كانت بهذا المعنى أو بمعنى الروابط الماديه، وقد وردت هنا بمعنى ما يعلق بالظرف من ليف أو نحوه.

عُبَيْدَ اللَّهِ بن عباس؛ وعامله على الجند سعيد بن نمران.

ووجه الكتاب مع رجل من هَمْدَانَ، فقدم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خَيْرٍ، فقال لهم: إني تركت أمير المؤمنين يريد أن يوجه إليكم يزيد بن قيس الأرحبي، في جيش كثيف، فلم يمنعه إلا- انتظروا جوابكم. فقالوا: نحن سامعون مطيعون، إن عزّل عنا هذين الرجلين: عُبَيْدَ اللَّهِ وسعيدا.

فرجع الهمداني من عندهم إلى علي عليه السلام فأخبره خبر القوم.

فلما قدم كتابهم، دعا بُشَيْرَ بن أبي أرتاه، وكان قاسى القلب فظاً سفاكاً للدماء، لا رأفة عنده ولا رحمه، فأمره أن يأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهي إلى اليمن، وقال له: لا تنزل على بلد أهله على طاعه علي إلا بسطت عليهم لسانك؛ حتى يروا أنهم لا نجا لهم، وأنتك محيط بهم. ثم اكفف عنهم، وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبي فاقتله، واقتل شيعة علي حيث كانوا.

ج ج

وروى إبراهيم بن هلال الثقفي في كتاب "الغارات" عن يزيد بن جابر الأزدي، قال:

سمعت عبد الرحمن بن مسعده الفزارى يحدث في خلافة عبد الملك، قال: لما دخلت سنة أربعين، تحدث الناس بالشام أن علياً عليه السلام يستنفر الناس بالعراق فلا ينفرون معه، وتذاكروا أن قد اختلفت أهواؤهم، ووقعت الفرقة بينهم، قال: فقامت في نفر من أهل الشام إلى الوليد بن عتبة، فقلنا له: إن الناس لا يشكون في اختلاف الناس على علي عليه السلام بالعراق، فادخل إلى صاحبك فمره فليستر بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم، أو يصلح لصاحبهم ما قد فسد عليه من أمره. فقال: بلى، لقد قولته في ذلك وراجعتة وعاتبته، حتى لقد برم بي، واستثقل طلعتي، وإيم الله على ذلك ما أدع أن أبلغه ما مشيتم إلي فيه.

فدخل عليه فخبّره بمجيئنا إليه، ومقاتلتنا له، فأذن لنا، فدخلنا عليه، فقال: ما هذا الخبر الذي جاءني به عنكم الوليد؟ فقلنا: هذا خبر في الناس سائر، فشمّر للحرب، وناهض الأعداء، واهتبل الفرصه، واغتمم الغره، فإنك لا تدري متى تقدّر على عدوك على مثل حالهم التي هم عليها، وأن تسيّر إلى عدوك أعز لك من أن يسيروا إليك. واعلم والله أنه تفرق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك. فقال لنا: ما أستغني عن رأيكم ومشورتكم، ومتى أحتج إلي

ص: ٦٠

ذلك منكم أذعكم. إن هؤلاء الذين تذكرون تفرقهم على صاحبه، واختلاف أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكون أطمع في استئصالهم واجتياحهم، وأن أسير إليهم خاطراً بجندی، لا أدري على تكون الدائره أم لى! فإياكم واستبطائى، فإنى آخذ بهم فى وجهه هو أرفق بكم.

وبعث معاويه عند خروجنا من عنده إلى بسربن أبى أرطاه، فبعثه فى ثلاثه آلاف، وقال: سر حتى تمر بالمدينه، فاطرد الناس، وأخف من مررت به، انهب أموال كل من أصبت له مالاً؛ ممن لم يكن دخل فى طاعتنا، فإذا دخلت المدينه، فأرهم أنك تريد أنفسهم، وأخبرهم أنه لا براءه لهم عندك ولا عذر؛ حتى إذا ظنوا أنك موقع بهم فاكفف عنهم، ثم ستر حتى تدخل مكه، ولا تعرض فيها لأحد، وأرهب الناس عنك فيما بين المدينه ومكه، واجعلها شردات؛ تأتى صنعاء والجند، فإن لنا بهما شيعه، وقد جاءنى كتابهم.

ج ج

أن بسراً لما أشيقت من أسقط من جيشه، سار بمن تخلف معه، وكانوا إذا وردوا ماء أخذوا إبل أهل ذلك الماء فركبوها، وقادوا خيولهم حتى يردوا الماء الآخر، فيردون تلك الإبل، ويركبون إبل هؤلاء، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينه.

قال: وقد روى أن قضاعه استقبلتهم ينحرون لهم الجزر، حتى دخلوا المدينه. قال: فدخلوها، وعامل على عليه السلام عليها أبو أيوب الأنصارى، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج عنها هارباً، ودعا الناس إلى بيعه معاويه فبايعوه. ونزل فأحرق دوار كثيره.

ج ج

قال إبراهيم: وقد روى عوانه عن الكلبى أن بسيراً لما خرج من المدينه إلى مكه قتل فى طريقه رجالاً، وأخذ أموالاً، وبلغ أهل مكه خبره، فتنحى عنها عامه أهلها، وتراضى الناس بشييه بن عثمان أميراً لما خرج قثم بن العباس عنها، وخرج إلى بسر قوم من قريش، فتلقوه، فشتهم، ثم قال: أما والله لو تركت ورأى فىكم لترككم وما فىكم روح تمشى على الأرض، فقالوا: ننشدك الله فى أهلك وعترتك!

ج ج

ص: ٦١

قال إبراهيم: وروى علي بن مجاهد، عن ابن إسحاق، أن أهل مكة لما بلغهم ما صنع بُسْر، خافوا وهربوا، فخرج بنا عبيد الله بن العباس، وهما سليمان وداود، وأمهما جُوَيْرِيَه ابنة خالد بن قَرْظ الكنانيه، وتُكْنَى أُم حَكِيم، وهم حلفاء بني زُهره، وهما غلامان مع أهل مكة، فأضلوها عند بئر ميمون بن الحضرمي.

وخرج بُسر من الطائف، فأتى نَجْران، ثم جمعهم وقام فيهم، وقال يا أهل نجران، يا معشرَ النصارى وإخوان القروء: أما والله إن بلغني عنكم ما أكره لأعودنَّ عليكم بالتي تقطع النَّسل، وتُهْلِكُ الحرث، وتخزب الديار!

وتهددهم طويلاً، ثم سار حتى أَرْحَب، فقتل أبا كرب - وكان يتشيع - ويقال إنه سيد مَنْ كان بالباديه من هَمْدان، فقدمه فقتله.

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العباس، وسعيد بن نمران، وقد استخلف عبيد الله عليها عمرو بن أراكه الثقفي، فمنع بُسراً من دخولها وقتاله، فقتله بُسر، ودخل صنعاء، فقتل منها قوماً، أتاه وفد مأرب فقتلهم، فلم ينج منهم إلّا رجل واحد، ورجع إلى قومه، فقال لهم: «أنعى قتلاًنا، شيوخاً وشباناً».

فندب علي عليه السلام أصحابه لبعث سرّيه في إثر بُر، فتناقلوا، وأجابوا جاريه بن قدامه السعدي، فبعثه في ألفين، فشخص إلى البصره، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدم اليمن، وسأل عن بُسر ف قيل: أخذ في بلاد بني تميم، فقال: أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم. وبلغ بُسراً مسيراً جاريه، فأنحدر إلى اليمامة، أخذ جاريه بن قدامه السير، ما يلتفت إلى مدينه مرّ بها ولا أهل حصن، ولا يعرج على شيء إلّا أن يُزْمَلَ بعض أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته أو يسقط بعير رجل، أو تحفّي دابته، فيأمر أصحابه بأن يُعقبوه، حتى انتهوا إلى أرض اليمن، فهربت شيعه عثمان حتى لحقوا بالجبال، وأتبعهم شيعه علي عليه السلام، وتداعت عليهم من كلّ جانب، أصابوا منهم، وصيّم نحو بُسر، وبسر بين يديه يفرّ من جهه إلى جهه أخرى، حتى أخرجه من أعمال علي عليه السلام كلّها.

وقال بُسر: أحمد الله يا أمير المؤمنين أني سرت في هذا لاجيش أقتل عدوك ذاهباً جائياً لم يُنكب رجل منهم نكبه، فقال معاويه الله قد فعل ذلك لا أنت.

ج ج

ص: ٦٢

قال: ودعا علي عليه السلام على بُشَيْر، فقال: اللَّهُمَّ إِنَّ بُسْرًا باع دينه بالدنيا، وانتَهك محارمك، وكانت طاعه مخلوقٍ فاجرٍ آثر عنده مِمَّا عندك. اللَّهُمَّ فلا- تُمِثَّهُ حتى تَسْلُبَهُ عقله، ولا توجب له رحمتك ولا ساعه من نهار. اللَّهُمَّ أَلْعَن بُسْرًا وعمرًا ومعاويه، وليحلَّ عليهم غضبُك، ولتنزل بهم نِقْمَتُك وليصبهم بأسك ورجزك الذي لا تردّه عن القوم المجرمين.

فلم يلبث بُشَيْرٌ بعد ذلك إلیسیراً حتى وسوس وذهب عقله، فكان يهذى بالسيف، ويقول: اعطوني سيفاً أقتل به، لا يزال يردد ذلك حتى اتّخذ له سيف من خشب، وكانوا يدنون منه المرفقه، فلا يزال يضربها حتى يُغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات.

قال المسعودی فی مروج الذهب بعد نقل هذه القصة أن بسراً كان يقول للناس: انظروا كيف يطعمني هذان الغلامان إنا عبدا لله -الذان قتلا مظلومان بيدي - وكان ربما شدت يده إلى الوراء منعا من لعبه بحزئه والناس تمنعه من ذلك. (١)

٢ - مقومات النصر وهزيمه الأمم

لقد شرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بعباراتها القصيره ذات المعاني العميقه المقومات التي تمنى بها الأمم والشعوب، ولا يقتصر هذا الأمر على أهل العراق والحجاز واليمن وقضيه والى من الولاه كمعاويه وقائد عسكره بسر بن ارطاه، بل يشمل كاهه العصور والدهور. فقد تحدّث الإمام عليه السلام في بادئ الأمر عن وحده الكلمه التي تعدّ السبب الرئيسي في تضامن القوى وتعبئه طاقاتها في مواجهه الأعداء. ومِمَّا لاشك فيه أن أهم العوامل التي أدت إلى انتصار جنود الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله على أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عدّه وعدداً إنّما يكمن في وحده الكلمه. فكم من فته قليله هزمت عدوّها بفضل الاتحاد والإخاء. القرآن من جانبه اعتبر وحده كلمه المسلمين من معجز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله «هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ» (٢)، كما اعتبر الوحده الإسلاميه التي سادت المسلمين أبان عصر الرساله من النعم الإلهيه الكبرى على الأمه الإسلاميه «وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ

ص: ٦٣

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢ / ٣ - ١٨؛ مروج الذهب ٣ / ١٦٣ ([١] بحث ذكر أيام الوليد بن عبد الملك) .

٢- ٢) سورة الأنفال / ٦٢ - ٦٣. [٢]

أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصِيبَتْكُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» (١)، في حين قرن الفرقه والشقاق بالعذاب الدنيوى والأخروى «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا» (٢). كما أشار الإمام عليه السلام إلى مسأله الانضباط وحنكه القيادة على أنها العامل الآخر المكمل لعنصر الاتحاد والإخاء والتضامن. والحق رأينا عدّه ثورات فى عصرنا الراهن قد كتب لها النجاح بينما لم توفّق غيرها لهذه النتيجة، ولعلّ العامل الرئيسى فى ذلك النجاح إنّما يستند إلى وحده القيادة، بينما تعاني غيرها من التشتت وتعدد مراكز القرار.

ثم تطرق عليه السلام إلى الأمانه بفضلها العامل الثالث من عوامل النصر. فمما لاشكّ فيه أنّ أيّه أمه من الأمم لن تزدق طعم النصر والسعاده مالم تستثمر طاقاتها وثرواتها بالشكل الصحيح. ولا يتيسر هذا الأمر إلّا إذا كانت الأمانه هى التى تحكم أفراد الأمه وتدفعها لصون إمكاناتها الاجتماعيه.

أمّا العامل الأخير الدخيل فى النصر فإنّما يكمن فى صلاح أفراد المجتمع، وبعبارة أخرى فإنّ أفراد الأمه لن يتخلّوا على مشاكلهم ويتخلّصوا من مخالف الأعداء مالم يأخذوا بنظر الاعتبار مصالح المجتمع ويضحوا بمنافعهم الشخصيه ويجدوا ويجتهدوا فى إصلاح مجتمعهم، وليعلم أولئك الذين يهّمون بمنافعهم الشخصيه ولو أدّت إلى فساد المجتمع إنّهم إنّما يقضون على المجتمع وبالتالي يقضون على أنفسهم.

ص: ٦٤

١-١) سورة آل عمران / ١٠٣. [١]

٢-٢) سورة الانعام / ٦٥. [٢]

«اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُونِي وَسَيِّئْتُهُمْ وَسَيِّئُمُونِي (١) فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرًّا مِنِّي! اللَّهُمَّ مِثَّ (٢) قُلُوبِهِمْ كَمَا يُمَاتُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، أَمَا وَاللَّهِ - لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسٍ بِنِ غَنَمٍ. هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتُ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسٌ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ» .

ثم نزل عليه السلام من المنبر.

الشرح والتفسير

يتضرع الإمام عليه السلام في آخر الخطبه إلى الله بقلب مفعم بالهم والحزن فيدعو على أولئك الأتباع، غير أن دعائه عليهم يحمل تحذيراً جدياً لمن كان له أدنى صحوه من ضمير، حيث يسعى الإمام عليه السلام عن هذا الطريق إلى تنبيه أهل الضلاله وإعادتهم إلى الصراط المستقيم، فقال عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُونِي وَسَيِّئْتُهُمْ وَسَيِّئُمُونِي» ومن الطبيعي ألا يكون هناك من وقع لنصائح الإمام العادل والقائد الشجاع في قلوب عبده الدنيا والأهواء من أهل الجهل والعجز والذل إذا ما تباينت أهداف القائد ومبادئه وخلقه مع أهداف الرعيه

ص: ٦٥

١-١) «سئمتهم» من ماده «سأم» بمعنى الملل والتعب من الشىء.

٢-٢) «مِثَّ» من ماده «ميث» بمعنى حل الشىء فى الماء، ويطلق على المطر الذى يذيب تراب الأرض، كما يطلق على الحوادث المريره التى تذيب عقل الإنسان وتصدع قلبه.

وأخلاقها، الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى تعب الطرفين وسئم كل منهما الآخر. وإذا كان النبى صلى الله عليه وآله قد استطاع النهوض بزعامه الأقسام الجاهليه، فأنما ذلك لأنهم أقروا بأهدافه ومبادئه فى التريه وقد كيفوا أنفسهم مع سننه وخلقه. ومن هنا فإن الأنبياء الذين لم يوفقوا فى هذا الأمر ملوا أتباعهم، كما أن أقوامهم هى الأخرى لم تكن تطيق تحملهم. ولا يفوتنا هنا ضيق ذرع قوم لوط بنبيهم لطهارته وعفته «أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهُرُونَ». (١)

ثم دعا عليهم قائلاً: «فابدلنى بهم خيراً منهم، وأبدلهم بى شراً منى» .

فهم ليسوا أتباعاً جديرين بهذا الإمام، ولم يعد إماماً مناسباً لهم، فالحكمه الإلهيه تقتضى أن يخرجوا مسودى الوجوه من هذا الامتحان بعد أن تسلب منهم هذه النعمه الإلهيه فيعيشوا أنواع الهوان والذل. وما أسرع ما استجيب دعاء الإمام عليه السلام، فقد تسلط عليهم بنو اميه ليرتكبوا بحقهم ما قل نظيره أو انعدم فى التأريخ والعجيب ماورد فى بعض التواريخ الإسلاميه من أن الحجاج قد ولد (٢) آنذاك، وبالطبع فإن أهل العراق والكوفه قد دفعوا ثمن جرائمهم وتخاذلهم قبل ذلك، إلا أنها بلغت ذروتها على عهد الحجاج.

طبعاً ليس المراد بالعباره «أبدلم بى شراً منى» أنى سىء ولكن سلط عليهم من هو أسوأ منى. بل هى مقارنه تطلق على الخير المطلق والشر المطلق، فقد جاء فى القرآن سوره الفرقان بعد أن أشار إلى شده عذاب جهنم قائلاً: «قُلْ أَذْ لِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ». وبعباره أخرى لم يكن أهل العراق والكوفه آنذاك أختيار ليسأل الإمام عليه السلام الله أخير منهم، ولا الإمام عليه السلام - والعياذ بالله - كان سيئاً ليلسلط الله عليهم من هو أسوأ منه، ففى مثل هذه الموارد تفقد صيغه أفعال التفضيل مفهومها العادى وترد للمقارنه بين شيئين متضادين. ويبدو أن هذا الدعاء شبيه الدعاء الذى ابتهل به نبى الله نوح عليه السلام على قومه بعد أن يئس من صلاحهم «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا» (٣). ثم قال عليه السلام: «اللهم مث قلوبهم كما يماث الملح

ص: ٦٦

١-١ (١) سوره الأعراف / ٨٢. [١]

٢-٢ (٢) منهاج البراعه ٣ / ٣٥٨. صرح المسعودى - من المؤرخين المشهورين - أن الحجاج ولد عام ٤١ هـ وتوفى عام ٩٥ وله من العمر ٥٤ سنه.

٣-٣ (٣) سوره نوح / ٢٦. [٢]

فى الماء» . لعل المراد بموٲ قلوبهم (بمعنى ذوبانها) هو هجوم الهموم والغموم عليها بحيث تجرح عواطفهم الإنسانىة إلى درجه ىقال ذاب القلب، فقد ورد شىبه هذا المعنى فى خطبه الجهاد رقم ٢٧ إذ قال علىه السلام: «والله، ىمىت القلب وىجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقمكم» . ومن الواضح أن المراد بذبوان القلب ضىاع العقل والفظنه والدراىه والحكمه. فمفهوم العبارة: خذ عقولهم وحكمتهم لهذا النفاق والعصىان فىعشوا الحىره والاضطراب فى حىاتهم. وقد ورد التعبير عن القلب بمعنى العقل والحكمه أو وعاء العقل والحكمه فى عده آىات ورواىات، ومن ذلك ماورد فى الآىه ٢٥ من سوره الانعام: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ» . والواقع أن من أعظم العقوبات الإلهىه - التى أورها القرآن الكرىم والرواىات بالنسبه للأفراد من أهل النفاق والمعصىه - هى الا ىرى الإنسان الحقائق ولا ىدرکها كما هى، فىعش القلق والحىره والضلال. ثم ىختتم الإمام علىه السلام خطبته بالقول: «أما - والله - لوددت أن لى بكم ألف فارس من بنى فراس بن غنم. ثم تمثل بقول الشاعر: هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل أرمىه الحمىم

ثم نزل الإمام علىه السلام من المنبر:

قال السىد الشرىف: أقول: «الارمىه» جمع «رمى» وهو السحاب والحمىم، هاهنا وقت الصىف. وإنما خص الشاعر سحاب الصىف بالذكر لأنه أشد جفولاً - ولا أسرع خفولاً؛ لأنه لا ماء فىه. وإنما ىكون السحاب ثقیل السىر لامتلائه بالماء، وذلك لا ىكون فى الأ-كث إلا زمان الشتاء، وإنما أراد الشاعر وصفهم بالسرعه إذا دعوا، ولا إغاثة إذا استغىثوا، والدلىل على ذلك قوله: هنالك لو دعوت أتاك منهم.

بنو فراس بن غنم

هم بنو فراس بن غنم بن ثعلبه بن مالک بن كنانه، حى مشهور بالشجاعه، منهم علقمه بن فراس وهو جذل الطعان. ومنهم رىبعه بن مكدم بن حرثان بن جذىمه بن علقمه بن فراس الشجاع المشهور، حامى الظعن حياً ومىتاً، ولم ىحم الحرىم وهو مىت أحد غىره؛ عرض له فرسان من بنى سلیم، ومعهم ظعائن من أهله ىحمىهم وحده، فظاعتهم، فرماه نبىشه بن حىب

بسهم أصاب قلبه، فنصب رمحه في الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت في سرجه لم يزل ولم يمل. وأشار إلى الطعائن بالرواح، فسرنا حتى بلغن بيوت الحى، وابن سليم قيام إزاءه لا- يقدمون عليه، ويظنونه حياً؛ حتى قال قائل منهم: إني لا أراه إلاميتاً، ولو كان حياً لتحرك؛ إنه والله لمائل راتب على هنيه واحده، لا يرفع يده، ولا يحرك رأسه. فلم يقدم أحد منهم على الدنو منه، حتى رموا فرسه بسهم، فشب من تحته، فوقع وهو ميت، وفاتتهم الطعائن. (١)

وجاء في كتاب بلوغ الأدب أن شجاع كل فرد من أبناء هذه القبيلة بعشره من شجعان سائر القبائل، وهم أشجع قبائل العرب. (٢)

والطريف في الأمر أن جيش الإمام عليه السلام في الكوفة قد بلغ عشرات الآلاف، بل بلغ طبق روايه منه ألف جندي (٣)، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يتمنى استبدال كل هذا الجيش بألف من فرسان بني فراس؛ الأمر الذي يدل على مدى ضعف جيش الكوفة وعجزه، ومدى شجاعه أبناء قبيله بني فراس، فقد تضاعفت شجاعتهم الذاتية في ظل الإسلام والإيمان. كما جاء في القرآن الكريم: «كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ». (٤)

ص: ٦٨

١-١ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١ / ٣٤١. [١]

٢-٢ بلوغ الأدب ٢ / ١٢٥.

٣-٣ المصدر السابق.

٤-٤ سورة البقره / ٢٤٩. [٢]

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف العرب قبل البعثه ثم يصف حاله قبل البيعه له نظره إلى الخطبه.

نظره إلى الخطبه

يرى بعض المحققين أنّ الدافع من هذه الخطبه (أو بتعبير آخر كتابه هذه الرساله) أنّه سأل البعض علياً عليه السلام عن رأيه بمن سبقه من الخلفاء بعد أن استولى أصحاب معاويه على مصر وقتلوا محمد بن أبي بكر. فاستنكر عليهم الإمام عليه السلام ذلك بعد أن استولى معاويه على مصر وقتل شيعته، فكتب الإمام عليه السلام هذا الكتاب. (1) ويتصور أحياناً بأنّ الخطبه اختتمت بالدعوه إلى الجهاد وهذا ما يتنافى وما ذكر، حيث يدل ذلك على أنّ الكلام صدر عن الإمام عليه السلام قبل معركة صفين، لكن يمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى معركة أراد الإمام عليه السلام أن يعب الناس لها قبل شهادته، غير أنّ شهادته عليه السلام حالت دون ذلك. على كل حال فالخطبه على ثلاثة أقسام: القسم الأول في وضع العرب في الجاهليه وعلى أعتاب انبثاق الدعوه الإسلاميه وبعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي أنقذتهم ممّا لا يمكن تصوره من البؤس والشقاء.

والقسم الثاني في الحوادث التي أعقبت رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وكيفيه غضب حق الإمام عليه السلام في الخلافه، وسكوته حفظاً للإسلام والقرآن بينما كان يعيش حاله من التدمير والاستياء.

ص: ٦٩

والقسم الثالث إشاره إلى البيعه المشروطه لعمر و بن العاص على معاويه والتي أدت إلى تلك الويلايت والمصائب والأضرار الفادحه فى الأرواح والأموال، ثم يختتم الخطبه بحث أتباعه بالتأهب للقتال.

ص: ٧٠

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ - مَعْشَرَ الْعَرَبِ - عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارِهِ خُشْنٌ وَحَيَاتٍ صُمٌّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْرِفُكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصِيْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْأَثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ» .

الشرح والتفسير

يتطرق الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه إلى أوضاع العرب في الجاهلية في رسم صورته واضحه الملامح عن حياتهم من خلال الأبعاد الفكرية والعاطفية والاقتصادي والاجتماعية، بحيث لا تتوصل لهذه الصوره التي رسمها الإمام عليه السلام ولو طالعنا كافة المؤلفات التي صنفت بشأن العرب في العصر الجاهلي. ويبدو أنّ الإمام عليه السلام استهل الخطبه بهذا الكلام ليذكرهم بالعصر الجاهلي الذي سبق الإسلام فيقارنونه بما بعد البعثه النبويه الشريفه فيقفوا على قيمه الإسلام ولا يضحوا بهذه القيمه والنعمه من خلال هذه الفرقه والاختلاف وأتباع الأهواء والشهوات، ولا غرو فقيمه النعم تبقى مجهوله ولا يعرف قدرها إلا إذا فقدت فقد قال عليه السلام: «إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل» .

الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أكد على جانب الانذار في رساله النبي صلى الله عليه وآله، بينما نعلم أنّ الانذار قد قرن بالبياره، كما ورد ذلك في عده آيات قرآنيه، كآيئه الشريفه «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» (١) وسائر الآيات القرآنيه. (٢) غير أنّ الانذار بالعقاب

ص: ٧١

١- ١) سورة الأحزاب / ٤٥. [١]

٢- ٢) سورة سبأ / ٢٨؛ [٢] سورة فاطر / ٢٤؛ [٣] سورة الفتح / ٨ [٤] وسورة البقره / ١١٩. [٥]

والتهديد بالعذاب غالباً ما يكون الدافع لحركة الأمانة نحو القيام بوظائفها والتحفظ عن تركها كان التأكيد أكثر على مسأله الانذار، ومن هنا ورد التأكيد فى أغلب الآيات القرآنيه على الانذار بشأن رساله النبى صلى الله عليه وآله وسائر الأنبياء، ولم تطالعنا أى من الآيات التى اقتصرت على البشاره. وهذا هو الاسلوب الذى اعتمدته القوانين المعاصره، حيث ركزت على جانب العقوبه بصفتها الضمانه الإجرائيه الناجحه، ونادراً ما يعتمد الحث والتشجيع من أجل تحقيق الغرض المذكور. بصوره عامه فإن الهدف النهائى للانذار هو إثارة الشعور بالمسئوليه تجاه الوظائف والتكاليف الملقاه على عاتق الإنسان. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأن انذار النبى صلى الله عليه وآله يشمل كافه الكائنات؛ الأمر الذى يدل على عالميه الدين الإسلامى وخلوده، لأن للعالمين مفهوم واسع يشمل كافه أفراد البشرى فى كل عصر ومصر. قوله عليه السلام: «أميناً على التنزيل» تلويح ضمنى بعصمه رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو صائن لكتاب الله ومبلغه للعالم دون أدنى تغيير. ثم تطرق عليه السلام لأوضاع العرب زمان الجاهليه فى عشره عبارات مقتضبته عظيمه المعانى تشير إلى أربعه محاور، فقال: «وأنتم معشر العرب على شر دين» وأى دين أسوأ من الوثنيه؟ أن ينحت عاقل قطعه من الحجر أو الخشب بيده ثم يسجد لها ويعبدها ويرى مقدراته بيدها ويلوذ بها فى حل المشاكل التى تواجهه فى حياته، أو أن يصنع صنماً من التمر يتخذه إلهاً فاذا جاع أكله. أضف إلى ذلك الانحراف الخطير فان طقوس هؤلاء القوم مملوءه بالخرافات والعقائد السخيفه البعيده عن المنطق التى سطرته كتب تاريخ العرب فى العصر الجاهلى، وسنعرض لجانب منها لاحقاً.

هذا على مستوى العقائد والأفكار. ثم تطرق عليه السلام إلى أوضاعهم الاقتصاديه المزريه فقال عليه السلام: «وفى شر دار منيخون» (1) بين حجاره خشن وحيات صم، تشربون الكدرو تأكلون الجشب». (2)

تعبيره عليه السلام «شر دار» بالنسبه لمحل إقامه عرب الجاهليه، رغم أن أغلبهم (ولاسيما من

ص: ٧٢

١- ١) «منيخون» من ماده «نوخ» بمعنى تنويم الجمل، ومن البديهي أن يكون موضع استراحه الأفراد هو ذلك الموضع الذى ينومون فيه الجمال بين حجاره خشن.

٢- ٢) «الجشب» على وزن «خشن» بمعنى الطعام الغليظ أو ما يكون منه بغير آدم.

خاطبهم الإمام عليه السلام بهذه الكلمات) كانوا يقطنون في مكة أو المدينة يفيد أن هاتين المنطقتين قد فقدتا قدسيتهما ومكانتهما المعنوية إثر تبدلتهما إلى مركز للأصنام والأوثان والفساد والانحراف. وقد أحاطت بهم عواصف الرمل والرياح المحرقة في تلك الصحارى الجرداء، بحيث إذا تمكن أحدهم من العثور على بقية ماء في بعض البرك والآبار فانه كان على درجه من التلوث والتعفن بسبب هبوب الرياح أو تلويثه من قبل بعض الأفراد حتى ليشعر شاربه بالغثيان، غير أن هؤلاء كانوا مضطرين لشربه، ولم يكن طعامهم بأفضل ممّا عليه الشراب.

نقل أحد شراح نهج البلاغه أنّ إعرابياً سئل: «أى الحيوانات تأكلون في البادية؟» قال: «نأكل كل ما دبّ ودرج الا أم جبين». (١)

أمّا التعبير بالحيات الصم، هو أن الحيه الصماء أخطر من غيرها لأنها صماء لا تنزجر بالصوت، أو لعل سمها أخطر.

أما المحور الثالث فقد أشار فيه الإمام عليه السلام إلى أوضاعهم الاجتماعيه المزريه وإنعدام الأمن والاستقرار فقال عليه السلام: «وتسفكون دمائكم» والتعبير بالمضارع «تسفكون دمائكم» كسائر الأفعال في عبارات الخطبه يفيد استمرار هذه الأوضاع المتفاقمه. والواقع لا- تحتاج قضيه سفك الدماء المتعارفه بينهم إلى دليل، فسوفهم تشهر لا-تفه الأسباب ليخوضوا أعنف المعارك وأشرسها لشهور بل لسنوات - ولعل نظره عابره إلى معاركهم المعروفه بحرب الفجار والتي ستشير إليها لاحقاً تفيد أنّ أولئك الجهال كانوا يخوضون أشرس القتال من أجل أهون الأشياء. وأخيراً أشار عليه السلام إلى المحور الرابع المتمثل بأوضاعهم العاطفيه المترديه «وتقطعون أرحامكم» ولعل العبارة إشاره إلى قضيه وأد البنات ودفنهن أحياء، حيث كانوا يرون البنت تجر عليهم الخزي والعار، فكان أحدهم يتوارى عن الأنظار خجلاً إذا ولدت له بنت، وهذا ما أشارت إليه الآيه ٥٨ و ٥٩ من سورة النحل «وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي

ص: ٧٣

١- ١) شرح نهج البلاغه، ابن ميثم ٢ / ٢٤ أما كيف ضبطت مفرده (أم جبين) فليل بيائين وقيل باء وياء وقيل بالجيم كما قيل بالماء (أم جبين) و (أم جبين) ، كما كثر الكلام بشأن هذا الحيوان فليل هو نوع من العضايا وتنفر منه عرب البادية لأنه سام عند الأكل.

التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» وقد لا يكتفى البعض بالاعتصار على هذا القتل على البنات فيعمد إلى قتل ولده خشية الفقر؛ الأمر الذى نهى القرآن عنه بشده، فقد نهت عن ذلك الآية ٣١ من سورة الاسراء «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ» بل كان الوالد يقتل ولده والولد والده والأخ أخيه عبثاً، فقد عاشت الرحم فاجعه لم يشهد لها التاريخ مثيل.

ويختتم الإمام عليه السلام كلامه بخلاصه مفاسدهم المعنويه والماديه بالقول «الأصنام فيكم منصوبه والآثام بكم معصوبه». وكان تعبيره (منصوبه) إلى أنهم كانوا يفتخرون بهذه الأصنام فينصبونها فى كل مكان فضلاً عن عبادتها والسجود لها. ومعصوبه من ماده عصب (مايربط العضلات بالعظام) إشاره إلى أنواع المعاصى من قبيل سفك الدماء وقتل النفس وقطع الرحم والتعرض للنواميس ونهب الأموال وشرب الخمر والقمار و... التى اجتاحت عرب الجاهليه وعليه فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى انحرافاتهم العقائديه والأخلاقية وأزماتهم الاقتصادية والعاطفيه ومدى الانحطاط والسقوط الذى بلغوه على هذه المستويات.

تأملات

١- آفاق العصر الجاهلى

ضرورى هو البحث حول العصر الجاهلى والمسائل المختلفه المرتبطه به من أجل التعرف على الإسلام وعظمه النبى صلى الله عليه وآله، فقد سعى المؤرخون لإحصاء المسائل المتعلقة بذلك العصر، وقد أشرنا إلى هذه المسأله فى شرح الخطبه الثانيه، وحيث أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأول من هذه الخطبه إلى ذلك الموضوع فإننا نرى ضروره الإشاره إلى بعض الأمور:

أ الحديث طويل فى عقائدهم الخرافيه فالوثنيه كانت هى الحاكمه والمنصوبه فى جوف الكعبه فهناك أوثان القبيله والاسره، ولبعضها أشكال وأخرى دون شكل. من عقائدهم أن الملائكه بنات الله، فى حين ينفرون أنفسهم بشده من البنات. وينكرون القيامه ويشاورون أصنامهم فى الأمور المهمه، وطريقه ذلك أنهم يكتبون على السهام «افعل» و «لا تفعل»

فيجعلونها مع بعضها ويخرجون واحد منها على أنه الأمر الذي أصدره الوشن. ومن خرافاتهم العقائديه الإيمان بالغيلان وطيور الشؤم والبركه وما إلى ذلك.

ب - على الصعيد الإقتصادي فقد كان يدفعهم الفقر وعلاوه على وأد البنات إلى قتل الأولاد. وأغلب دخلهم كان عن طريق السلب والنهب، وكان الأ-غلب وبسوء الوضع الإقتصادي يعيش حافيا شبه عريان، وإن كان لأحدهم لباس متواضع دعا، ذلك للفخر فينشد: من يك ذابت فهذا بتي مقيظ مصيّف مشّت!

ج - على المستوى العاطفي فكفاهم أنهم لم يرحموا أى شىء وذلك بسبب طبيعتهم الوحشيه كما يقول ابن خلدون حيث يميلون إلى السلب والتهب ولذتهم بذلك وفخرهم بالقتل - روى أن أحدهم سمع قول النبي صلى الله عليه وآله فى وصف الجنه ونعمها، فسأل هل فيها قتال - قيل: لا- قال إذن لا خير فيها. قيل فى بعض التواريخ أن الحروب التى نشيت بين عرب الجاهليه بلغت ١٧٠٠ حرب دام لبعضها مئه عام وتعاقبت عليها الأجيال، وما أكثر الحروب التى كانت تنشب لأتفه الأسباب.

ى - أما على الصعيد الإجتماعى فقد كانت أوضاعهم مزريه بفضل إنتشار الفساد والخمر حتى كان الشراب هو المتبادر إلى الأذهان من التجاره والشجاعه تعنى القتل والغيره والعفه تعنى وأد البنات - كانوا يعشقون ثلاث: المرأه والخمر والقتال حتى قال شاعرهم: إذا مت فادفنى إلى جنب كرمه

كانوا يعتقدون بوجوب نصره الصديق على الحق كان أم الباطل. كما كان القمار بارزا عندهم حتى أنهم كانوا يخسرون فيها نسائهم. كان الزنا منتشرًا بينهم حتى إشتهر عندهم الزانيات من أصحاب الرايات، وهكذا سائر المفاصد التى لا مجال لإحصائها.

(١)

نعم هكذا كان العرب وقد أتقدمهم الله بالإسلام، فلم ينجو من الخرافات والوثنيه

ص: ٧٥

١- ١) للوقوف على المزيد راجع بلوغ الأدب والإسلام والجاهليه والتأريخ الكامل (ج ١) وسيد المرسلين وشرح العلامه الخوئى لنهج البلاغه.

والعقائد المنحطه، بل تغيرت حتى أوضاعهم الإجماعية والإقتصادية والعاطفيه وقد صنع من إنسانهم المتوحش مثال الفرد المتحضر الأسوه كمن على شاكلة أبي ذر والمقداد وعمار وبلال. وتتضح عظمه الإسلام ورساله النبي صلى الله عليه وآله من هذه المقارنه، أما ظهور آثار الجاهليه فى عصرنا باشكالها الأوسع والأقسى - بسبب الإبتعاد عن تعاليم الأنبياء سيما تعاليم نبي الإسلام صلى الله عليه وآله لهي شهاده أخرى على عظمه هذه الرساله.

٢- شر دار أم خيرها

النقطه الجديده بالذكر فى الخطبه المذكوره وصفه لموضع سكن عرب الجاهليه بشر دار، بينما وصف ذلك العصر فى الخطبه الثانيه بالقول «خير دار وشر جيران» ولما كان المراد فى العبارتين أرض مكه فيبدو هناك تناقضاً، إلا أنّ أدنى تأمل يفيد عدم وجود أى تناقض - فأرض مكه ذاتاً مركزاً لأفضل دار يعنى الشعبه، ولكن بالعرض فإن جميع هذه الأرض المقدسه حتى بيت الله فقد لوثت بالشرك والوثنيه والمفاسد الأخلاقيه. وعليه فهى شر دار باعتبار وخير دار باعتبار آخر.

ج ج

ص: ٧٦

«فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظْمِ، وَعَلَى أَمْرٍ مِنْ طَعْمِ الْعَلَقَمِ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه - إلى الحوادث التي أعقبت رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله ولاسيما حادثه الخلافه، ويتطرق إلى السبب الذي دعاه إلى السكوت وعدم المطالبه بحقه المسلم في الخلافه، أي خلافه رسول الله صلى الله عليه وآله - والتي كانت في الواقع حق المسلمين - فقال عليه السلام: «فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي». من الواضح أنَّ القيام بالأمر تجاه تلك الطائفه المتحزبه - التي تشهد التواريخ بأنَّها خططت للالتفاف على الخلافه قبل وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله - لا ينسجم وأى منطق؛ لأنَّ مثل هذا القيام ليس فقط لا يتمخض عن نتيجه، بل سيؤدي ذلك القيام إلى قتل طائفه من صفوه أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، أضف إلى ذلك فان هذه المواجهه قد تقود إلى شق صفوف المسلمين بما يعود بالنفع للمنافقين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين مثل هذه الحوادث بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يفضل الصمت والسكوت ومن هنا واصل الإمام عليه السلام خطبته بهذا الشأن فقال: «وأغضيت (1) على

ص: ٧٧

١ - ١) «أغضيت» من ماده «غضى» تعنى السكوت على مضمض، كما تعنى اغماض العين - ومن هنا تطلق الليالى الغاضيه على الليالى الظلماء.

القذى (١) وشربت على الشجا (٢)، وصبرت على أخذ الكظم (٣) وعلى أمر من طعم العلقم (٤) .

تأملات

١ - الأحداث المبرره بعد رسول الله صلى الله عليه وآله

تشبه هذه العبارات تلك التي وردت في الخطبه الثالثه المعروفه بالخطبه الشقشقيه، بل هي أشد وقعاً منها، وتفيد أنّ الإمام عليه السلام قد قضى ساعات ولحظات غايه في المراره إبان تلك السنين - ما يقارب خمس وعشرين سنه - التي قضاها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله جليس الدار حين دفع عن حقه في الخلافه.

ولم يكن تدمر الإمام عليه السلام كونه لم يتزعم الحكومه، فقد أعلن صراحه عن عدم إكترائه لهذا الأمر وأشار كراراً إلى أن هذه الخلافه لا تساوى عنده شىء إلا أن يقيم حقاً أو يدحض باطلاً، فهي مسؤوليه إلهيه وليست وسيله للفخر والمباهاه، وإنّما كان تدمره لأنّه كان يشهد تنصل الأمه شيئاً فشيئاً عن الإسلام وابتعادها عن القيم وحياتها لسنن الجاهليه حتى حدث ما كان يخشى منه، فقد تسلم معاويه زمام أمور الدوله الإسلاميه وأصبحت خلافه رسول الله صلى الله عليه وآله ملكيه وراثيه ليرثها من بعده ولده يزيد الذى ارتكب أفظع الجرائم والجنايات بحق المسلمين وتكشف عبارات الإمام عليه السلام عن مدى الدعايات الشديده التي مارسها القائمين على شؤون الحكومه من جهه وتهديد الأمه وارعابها من جهه أخرى في إقصاءه عن حقه المسلم في الخلافه بحيث لم يكن معه من ينهض بالأمر سوى أهل بيته، فقد نقل المؤرخون عن الإمام عليه السلام أنّه قال: «لو وجدت أربعين ذوى عزم لقاتلت» (٥) والذى يستوحى من عباراته عليه السلام أنّ

ص: ٧٨

١- ١) «قذى» على وزن قضا الصفاء والاحلاص، ومن هنا يطلق القذى على الشىء الذى يقع فى الماء فيلوته، كما يطلق على ما يقع فى العين.

٢- ٢) «شجا» من ماده «شجو» ما يعترض فى الحلق من عظم أو نحوه، كما يطلق على الشده والهم والغم.

٣- ٣) «كظم» على وزن غضب من ماده «كظم». قال الراغب فى المفردات الكظم بمعنى مخرج النفس، والكظوم بمعنى الاختناق وحبس النفس، كما تستعمل بمعنى ربط القربه بعد ملئها بالماء، ومعنى العبارة صبرت على الخناق رغم الضغط الذى مارسه العدو.

٤- ٤) «العلقم»، قال صاحب مجمع البحرين هي شجره شديده المراره، وتسمى الحنظل أيضاً، كما جاءت علقمه بمعنى المره.

٥- ٥) رواها نصر بن مزاحم عن الإمام عليه السلام؛ شرح نهج البلاغه، ابن ميثم ٢ / ٢٦، شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ /

٢٢. [١]

المتحمسين لغضب الخلفه لم يكونوا يتورعون حتى عن سفك دماء أهل البيت عليهم السلام، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: «فضنت بهم عن الموت»؛ الأمر الذى يبدو عجباً ورهيباً للغاية، وان كانت مثل هذه الأمور الأخلاقية ليست عجيبة فى عالم السياسة والحكومة! كما يحتمل أن يكون أولئك المتعصبين للخلفه يتربصون الدوائر بذريه الإمام عليه السلام التى كانوا يرون أنها ستتصدى للخلفه مستقبلاً، فهم يهمون بقتلهم لكى لا تبقى لأهل البيت من باقيه تنهض بمسؤوليه الخلفه.

أمّا السؤال عن مدى لوعه الإمام عليه السلام وشده تلك الأيام التى كانت تمر عليه وهو جليس الدار، يتطلع بذهول لتلك الأفعال التى ارتكبت باسم الحكومه الإسلاميه من قبيل تحريف العقائد والانحراف فى فهم النصوص والأحكام الإسلاميه وتضييع العدالة وبالتالى استبدال الحكومه الإسلاميه بالملكيه الوراثيه كحكومته فرعون وقيصر وكسرى، فالإجابة عليه قد وردت فى الخطبه الثانيه والستين من نهج البلاغه التى قال فيها الإمام عليه السلام: «أما بعد، فان الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين، ومهيماً على المرسلين، فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كن يلقى فى روعى ولا يخطر ببالى أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عنى من بعده! فما راعنى إلا انشغال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعه الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام، وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولا يتكلم التى إنما هى متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب؛ فنهضت فى تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه» فالإمام عليه السلام كان يشهد آنذاك مشكلتين خطيرتين؛ الاولى ذهاب حقه المسلم فى الخلفه؛ الحق الذى أدى زواله إلى انحرافات عظيمه برزت على الساحة الإسلاميه، والثانيه تكمن فى الخطر الذى كان محدقاً بالإسلام، والفرصه التى كان ينتظرها تيار النفاق من أجل الاجهاز عليه، فما كان منه عليه السلام إلا أن يعمل بالقاعده المنطقية العقلانيه والشرعيه فى تقديم الأهم على المهم عند التزاحم، فسكت على مضض عن حقه فى الخلفه حفاظاً على بيضه الإسلام.

كثر الكلام بين المؤرخين والمحدثين بشأن موقف الإمام على عليه السلام من خلافه الأول والبيعة التي تمت له في سقيفه بنى ساعده. وليس هنالك من اتفاق بين علماء الشيعة والسنة بهذا المجال، فقد صرح الشارح البحراني أنّ أغلب علماء الشيعة يعتقدون أنّ الإمام على عليه السلام امتنع عن مبايعه الخليفة الأول، وقد انضم إليه عدد من بنى هاشم، إلّا أنّهم اضطروا آخر الأمر لبيعته بعد أن أُجبروا عليها. وقيل أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام لازم البيت ولم يخرج، فلما رأوا أنّه وحيد تركوه ولم يحملوه على البيعه. أما محدثوا العامه فقد ذهبوا إلى أنّ الإمام عليه السلام قد امتنع عن البيعه ستة أشهر حتى توفت الزهراء عليها السلام فبايع طوعاً. وللمرحوم العلامة السيد شرف الدين صاحب المراجعات تحليل رائع بهذا الشأن، خلاصته أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يؤكد حقه المسلم في الخلافة ونص النبي صلى الله عليه وآله بالوصيه عليه من جانب، ومن جانب آخر أراد أن يفوت الفرصه على المنافقين - الذين كانوا يتربصون الدوائر بالإسلام ويرون السبيل قد تمهد أمام أطماعهم بالقضاء على الدين من خلال الاختلافات بين الأنصار والمهاجرين - فامتنع عن البيعه مده (ليعلن عن حقه في الخلافة)، ثم بايع حفظاً للإسلام ودرءاً لخطر المنافقين والمتربصين بالدين. (١) وقد وردت بعض العبارات التي تشير إلى هذا المعنى في الخطبه ٦٢ من نهج البلاغه «.. فأمسكت يدي حتى رأيت راجعه الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به على أعظم من فوت ولايتكم..».

وستحدث إن شاء الله بما يناسب المقام حين شرحنا للخطب والرسائل المرتبطه بهذا البحث.

ص: ٨٠

ومنها: «وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَنًا، فَلَا ظَفَرَتْ يَدُ الْبَائِعِ، وَخَزِيَّتْ أَمَانُهُ الْمُبْتَاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أَهْبَتَهَا، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا فَقَدْ سَبَّ لَهَا، وَعَلَا سَنَاها، وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى المساومه الفاضحه التي اشترطها عمرو بن العاص على معاويه كثمن للبيعه، فقال: «ولم يبايع حتى شرط أن يؤتية على البيعه ثمناً» . فقد ذكر المؤرخون: لما نزل على عليه السلام الكوفه بعد فراغه من أمر البصره، كتب إلى معاويه كتاباً يدعوه إلى البيعه، أرسل فيه جرير بن عبدالله البجلي. فقدم عليه به الشام، فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وطاول جرير بالجواب عن الكتاب، حتى كلم قوماً من أهل الشام في الطلب بدم عثمان، فأجابوه ووثقوا له، وأحب الزياده في الاستظهار، فاستشار بأخيه عتبه بن أبي سفيان، فقال له: استعن بعمر بن العاص فإنه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشد اعتزلاً؛ إلا أن يثمن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا. فكتب إليه معاويه «أما بعد، فانه كان من أمر علي وطلحه والزبير ماقد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصره، وقدم علينا جرير بن عبدالله في بيعه علي، وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أذاكرك أموراً لا تعدم صلاح مغبتها، إن شاء الله» - فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنه: عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو، فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبد الله: قر في منزلك فلسك مجعولاً خليفه، ولا تزيد علي أن تكون حاشيه لمعاويه علي دنيا قليله. أما ولده

الآخر فقال: الحق بجماعه أهل الشام فلما دخل عمرو بن العاص الأشم، خاطبه معاوية قائلاً: «يا أبا عبد الله أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشق عصى المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعه وقطع الرحم» (١). فقال له عمرو: من هو؟ قال: علي. فقال عمرو بن العاص: «والله ما أنت وعلى بجملى بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه». ووالله إن له مع ذلك لحظاً في الحرب ليس لأحد غيره، ولكنى قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاءً جميلاً؛ فما تجعل لى إن شايعتك على حربيه، وأنت تعلم مافيه من الغرر والخطر؟ قال معاوية: حكمك، فقال عمرو: مصر. فتلكأ عليه معاوية وقال: يا أبا عبد الله إنى أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنك إنمأ دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا، قال عمرو: دعنى عنك. فأشار عليه عتبه بأن يجيب عمرو، فأجابه وأعطاه مصر. (٢) جدير بالذكر إن مصر كانت فى نفس عمرو بن العاص لأنه هو الذى فتحها فى سنه تسع عشره من الهجره فى خلافه عمر، فكان لعظمها فى نفسه وجلالتها فى صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعه الدنيا، لا- يستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه. أضف إلى ذلك فقد ولاها أربع سنوات على عهد الخليفة الثانى، وأربع أخرى على عهد عثمان حتى عزله. ثم قال الإمام عليه السلام: «فلا ظفرت يد المبايع، وخزيت أمانه المبتاع» (٣). فالواقع كلامه عليه السلام يتضمن الدعوه ضد المشتري والبائع. نعم صحيح أن معاوية قد وفى له بوعده وأعطاه مصر، إلا أنه لم يحكمها مده طويله بعد أن وافاه الأجل، إلى جانب ما نقل عنه أواخر عمره عن مدى خشيته من عاقبته ومصيره، فلم يذق طعم النصر الذى كان يحلم به. كما أن معاوية وإن وطد دعائم حكومته بهذا العمل إلا أنها آلت إلى الانهيار المخزى بعد أن انفرج عنه كافة الصحابه من المهاجرين والأنصار والأفراد المشهورين بحسن السمع من أهل الورع والتقوى ولم يتمحور حوله سوى تلك الثله التى ورثت العداء للإسلام وسليلى زعماء الجاهليه، فكانوا أعوانه الذين يبطش بواسطتهم الناس ويجرعونهم أبشع غصص القتل والارعاب والتهديد والوعيد. كما يحتمل ألا تكون العبارة من

ص: ٨٢

١-١) يقصد قرابه عثمان من بنى هاشم.

٢-٢) «المبتاع» بمعنى المشتري والمراد به هنا معاوية والبائع عمرو بن العاص.

٣-٣) انظر أسد الغابه فى معرفه الصحابه (عمرو بن العاص).

قبييل الدعاء، بل هي جملة خبريه؛ أي أن بيع الدين بالدنيا لا- يقود إلى النصر أبداً، بل ستكون الخساره من نصيب البائع والمشتري؛ الأمر الذي أشارت إليه بعض الآيات القرآنيه «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّالَّةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» (١) والآيه «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَّرُونَ» (٢). وتعبير الإمام عليه السلام بالأمانه عن حكومه مصر و حقوق أهلها من المسلمين إشاره صريحه إلى أن حكومه الأمه وإداره شؤونها إنما هي أمانه إلهيه لا بد أن ينهض بعينها الأخيار الصالحين بغيه ضمان مصالح الأمه، وأما أولئك الذين يتخذون هذه الحكومه وسيله لتحقيق مآربهم وأغراضهم الشخصيه إنما يخونون هذه الأمانه الإلهيه وهذا ما سيؤدي في آخر الأمر إلى فضيحتهم وزوال حكمهم. ومن هنا صرح أغلب المفسرين بأن المصداق الوحيد أو المصداق البارز للأمانه الوارده في الآيه الشريفه «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» (٣) إنما هي الحكومه والولايه. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بحث الأمه على الاستعداد والتأهب لِمنازله العدو «فخذوا للحرب أهبتها» (٤)، وأعدوا لها عدتها فقد شبَّ (٥) لظاها (٦) وعلا سناها (٧). فالعبارة تفيد أن الإمام عليه السلام قد اعتمد كافة الطرق السلميه من أجل وضع حد لذلك النفاق والعداء ولاسيما غدر أهل الشام وحكامهم إلّا أن كل ذلك لم يجد نفعاً، فكان حجم التآمر والفساد يزداد كل يوم، فما كان منه عليه السلام إلّا أن أمر بالتأهب للقاء العدو؛ فقد شبَّ لظي نيران الأعداء وتصاعدت ألسنتها، ولا بد من مواجهتها والعمل على اطفائها. كما يشير التاريخ الإسلامي إلى أن أعداء الإمام عليه السلام كانوا يسارعون للاستعداد للقتال وقد بعثوا بكتبهم ورسائلهم إلى طلحه والزبير. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام بالإشاره إلى الصبر بفضل أحدهم مقومات النصر فقال «واستشعروا

ص: ٨٣

[١- ١] سورة البقره / ١٦. [١]

[٢- ٢] سورة البقره / ٨٦. [٢]

[٣- ٣] سورة النساء / ٥٨. [٣]

[٤- ٤] «أهبه» على وزن لقمه بمعنى العده والتأهب والاستعداد للقيام بعمل وإهاب على وزن كتاب بمعنى الجلد الذي لم يدبغ وقد أعد للدباغه.

[٥- ٥] «شب» من ماده «شبب الشباب»، ويستعمل في شب النار.

[٦- ٦] «لظا» بمعنى شعله النار كما تطلق على نفس النار (الراغب في المفردات).

[٧- ٧] «سنا»، قال صاحب المقاييس تتضمن العلو والارتفاع وقد وردت في العبارة بمعنى تصاعد ألسنه النيران.

الصبر فإنه أدعى إلى النصر». واستناداً إلى مفردة الاستشعار من ماده (ش ع ر) التي تعنى الثياب الداخليه (فى مقابل الدثار بمعنى الثياب الخارجيه) يتضح أنّ الصبر والاستقامه لا يبدآن تسود باطن الإنسان وتمد الإنسان بمعانى الصمود إزاء الحوادث المريره.

تأملات

١ - السياسات الدينويه لا تعترف بالأصول الأخلاقيه

هناك عبارته ما انفكت الألسن ترددها حتى صارت مثلاً، وهى قولهم «الملك عقيم» التى تفيد تنكر السياسه الماديه - القائمه على أساس القيم الدينويه والأنايه والأطماع الشخصيه - حتى للقرابه بما فيها الزوجه والولد والوالدين والتضحيه بها من أجل تحقيق أهدافها وأغراضها؛ ولا - غرو فالساسه لا - يرون من قيمه تفوق حفظ مواقعهم، وعليه فمن الطبيعى أن يضحون بالغالى والنفيس ويضربون كل قيمه عرض الحائط من أجل حفظ مصالحهم. وقوله عليه السلام: «فضنت بهم عن الموت» تشير إلى أنّ المتعطين للخلافه كانوا مستعدين حتى لقتل أهل البيت من بنى هاشم فيما لو استعان بهم الإمام عليه السلام ونهض بالأمر للمطالبه بحقه فى الخلافه. والحديث النبوى المعروف «جَبَكْ للشىء يعمى ويصم» (١) لأصدق على الرغبه بالجاء والمقام منه على سائر الأمور، ونموذج ذلك ماورد فى الخطبه التى نحن بصدددها. ويحفل التأريخ بسير أولئك الذين عبروا على كل شىء وسحقوه من أجل الظفر بأهدافهم فى السلطه والرئاسه.

٢ - باعه الدين بالدنيا!

تعرضنا إلى حد ما فى البحث السابق إلى مسأله بيه الدين والقيم والمثل المعنويه بالمنافع الماديه الرخيصه، ولمسنا نموذج ذلك فى شخصيه عمرو بن العاص الذى أشارت إليه الخطبه المذكوره، حيث صرحت بأنّه ومن أجل حكومه مصر ولو لمدته قصيره قد باع دينه وقيمه،

ص: ٨٤

وقد أعرب آخر عمره كما أورد ذلك المؤرخون عن مدى ندمه، ولكن حيث لم ينفع الندم وقد أغلقت كاهه سبل العوده.

القرآن الكريم من جانبه أشار إلى هذا الأمر بصفته أحد العوامل الرئيسيّه المؤديه إلى الانحراف ولاسيما بالنسبه للعلماء من عبده الدنيا. ومن ذلك ما أورده القرآن بشأن فريقاً من علماء بنى اسرائيل - الذين كانوا يبشرون بظهور النبي قبيل انبثاق دعوته على ضوء العلم الذى كان لديهم والأخبار الوارده فى كتبهم (التوراه والانجيل) إلّا أنّهم حرفوا الكلم حين تعرضت بعض مصالحيهم الماديه للخطر - فقد صرحت الآيه ١٨٧ من سوره آل عمران قائله: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ» .

فمن الواضح أنّ القرآن الكريم يذمهم من أجل أنّهم حرصوا على متاع قليل، بل المراد أنّ المتاع المادى - وأن تضمن أرفع المقامات وأكثر الثروات - يبقى قليلاً مقارنة بالمتاع المعنوى «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (١).

على العموم فإنّ كاهه الأفراد الذين يقدمون طاعه المخلوق على طاعه الخالق ويؤثرون أطماعهم ومنافعهم على الآخره ويضربون الأحكام الشرعيه عرض الحائط ولا- يكثرثون للحلال والحرام من أجل تحقيق أهوائهم الشخصيّه إنّما هم فى زمرة باعه الدين بالدنيا. ويقابلهم اولئك الأفراد الذين لا يرون فى أعمالهم سوى رضى الله والتسليم لإرادته، وهؤلاء هم الذين وصفهم القرآن بحزب الله الذين لا يرون حتى فى الأهل والقرايه من عائق أمام رضى الله «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...» (٢).

٣ - علاقته النصر بالثبات

إن كان النصر يقوم على عده عوامل، فإنّ أحد أهم هذه العوامل هو الصبر، وتبدو الرابطه

ص: ٨٥

١- ١) سوره التوبه / ٣٨. [١]

٢- ٢) سوره المجادله / ٢٢. [٢]

بين النصر والصبر على درجه من الوضوح بحيث إن الأدباء ومنذ قديم الزمان قد قرنوا الظفر بالصبر «من صبر ظفر». وقد أشار القرآن الكريم صراحه إلى هذه الحقيقه حتى اعتبر أنّ النصر حليف جند الإسلام مهما كان عدد وعده العدو إذا ما تحلوا بالصبر والاستقامه «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا» (١). وهذا هو السبب الذى يكمن وراء انتصار المسلمين فى كافه الغزوات رغم عدم الموازنه والتفاوت الفاحش بين ما عليه الأعداء من عده وعدد ومعدات وما عليه المسلمين، حيث كانوا يتحلون بالصبر النابع من إيمانهم بالله واليوم الآخر.

وهذا ما أكده الإمام عليه السلام فى خطبته اذ قال: «واستشعروا الصبر فانه أَدْعَى إِلَى النِّصْرِ». ولا يسعنا هنا إلّا أن نكتفى بهذا المقدار ونوكل المزيد من الكلام إلى الأبحاث القادمه. أما المسأله الجديره بالذكر فهى أن استشعار الصبر - بمعنى نفوذته إلى عمق النفس البشريه - أو دثاره - بمعنى التحلى به على مستوى الظاهر؛ الأمر الذى يدخل الرعب إلى قلوب الأعداء - إنّما يقود إلى النصر وهزيمة العدو.

ص: ٨٦

إشاره

ومن خطبه له عليه السلام

وقد قالها يستنهض بها الناس حين ورد خبر غزو الانبار بجيش معاويه فلم ينهضوا. وفيها يذكر فضل الجهاد ويستنهض الناس ويذكر علمه بالحرب ويلقى عليهم التبعة لعدم طاعته.

سند الخطبة وزمانها ومكانها

إشاره

قال ابن أبي الحديد هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام؛ قد ذكرها كثير من المحققين والمحدثين (غير المرحوم الشريف الرضى) ورواها أبو العباس المبرد في أول (الكامل) وأسقط من هذه الرواية ألفاظاً وزاد فيها ألفاظاً، وقال في أولها: إنه انتهى إلى على عليه السلام أنّ خيلاً وردت الأنبار (1) لمعاويه، فقتلوا عاملاً له يقال له: حسان بن حسان، فخرج مغضباً يجر رداءه، حتى أتى النخيله، وأتبعه الناس، فرقى رباوه في الأرض، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وآله ثم قال: أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنّة، فمن تركه رغبه عنه، ألبسه الله الذل وسيم الخسف» (2).

كما أوردها المرحوم الكليني في كتابه الكافي في بحث الجهاد. (3)

ص: ٨٧

١-١) الانبار محافظه من محافظات العراق التي تقع غرب بغداد.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢ / ٧٥. [١]

٣-٣) الكافي ٥ / ٤.

ونقلها صاحب مصادر نهج البلاغه عن عشره مصادر معروفه قبل المرحوم السيد الرضى ومنها: «البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبه والأخبار الطوال للدينورى والغارات للثقفى والعقد الفريد لابن عبد ربّه والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى. . .» (١)

وعليه فإنّ الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبه فى النخيله حين أخبر عليه السلام بهجوم سفيان بن عوف الغامدى - والذى عبّر عنه الإمام عليه السلام ب (أخو غامد) - على الأنبار وقتل عامله عليها حسان بن حسان وطائفه من المسلمين وقد نهبوا أموالهم وخرّبوا بيوتهم دون أن يواجهوا أدنى مقاومه ثم عادوا إلى الشام سالمين. فأما أخو غامد الذى وردت خيله الأنبار فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدى؛ وغامد قبيله من اليمن، وهى من الأزدي، أزد شنوءه - واسم غامد عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد - وسمى غامداً لأنه كان بين قومه شر فأصلحه وتغمدهم بذلك. قال سفيان بن عوف الغامدى، قال: دعانى معاويه، فقال: إني باعثك فى جيش كثيف، ذى أداه وجلاده، فألزم جانب الفرات، حتى تمر بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل فى المدائن؛ ثم أقبل إلى واتق أن تقرب الكوفه. واعلم انك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنتك أغرت على الكوفه؛ إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو الينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب. قال: فخرجت من عنده فعسكرت، وقام معاويه فى الناس فخطبهم، فقال: أيها الناس، انتدبوا مع سفيان بن عوف، فإنه وجه عظيم فيه أجر، سريعه فيه أوبتكم إن شاء الله - ثم نزل. قال: فوالذى لا إله غيره ما مرت ثالته حتى خرجت فى سته آلاف، ثم لزمت شاطئ الفرات، فأغذذت السير حتى أمر بهيت، فبلغهم أنى قد غشيتهم فقطعوا الفرات، فمررت بها وما بها عريب، كأنها لم تحلل قط، فوطئتها حتى أمر بصند وداء، ففروا فلم ألق بها أحداً، فأمضى حتى أفتتح الأنبار،

ص: ٨٨

وقد نذروا بي، فخرج صاحب المسلحه إلى، فوقف لى فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية. فقلت لهم: أخبروني كم بالأنبار من أصحاب على عليه السلام؟ قالوا: عدده رجال المسلحه خمسمائه، ولكنهم قد تبددوا ورجعوا إلى الكوفه؛ ولا ندرى الذى يكون فيها، قد يكون مائتى رجل، فنزلت فكتبت أصحابى كتائب، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبه بعد كتيبه، فيقاتلهم والله ويصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه فى الأزقه، فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين، وأتبعتهم الخيل، فملا حملت عليهم الخيل وأمامها ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان فى الأنبار من الأموال؛ ثم انصرفت، فو الله ما غزوت غزاه كانت أسلم ولا أقر للعيون، ولا أسر للنفوس منها. وبلغنى والله أنها أرعبت الناس، فلما عدت إلى معاويه، حدثته الحديث على وجهه، فقال: كنت عند ظنى بك، لا تنزل فى بلد من بلدانى إللقضيت فيه مثل ما يقضى فيه أميره، وإن أحببت توليته وليتك، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دونى، قال فو الله ما لبثنا إللىسيراً، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الابل هزّاباً من عسكر على عليه السلام. وكان اسم عامل على عليه السلام على مسلحه الأنبار أشرس بن حسان البكرى. قال ابراهيم بن عبدالله بن قيس كنت مع أشرس بن حسان البكرى بالأنبار على مسلحتها، إذ صبحنا سفيان بن عوف فى كتائب تلمع الأبصار منها، فها لونا والله، وعلمنا إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقه بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرقنا فلم يلقهم نصفنا، وايم الله لقد قاتلناهم فأحسننا قتالهم؛ حتى كرهونا، ثم نزل صاحبنا، وهو يتلو قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا». ثم قال لنا: من كان لا يريد لقاء الله، ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية مادمننا نقاتلهم، فان قاتلنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار، ثم نزل فى ثلاثين رجلاً، فهمت بالنزول معه، ثم أبت نفسى، واستقدم هو وأصحابه، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله، وانصرفنا نحن منهزمين. (١)

ص: ٨٩

كما ذكرنا سابقاً فإن هذه الخطبة - المعروفة بخطبة الجهاد - من أشهر خطب أمير المؤمنين عليه السلام التي تدور حول محور الجهاد. فقد استهل الخطبة بشرح أهميه الجهاد ومعنياته والعواقب الوخيمة التي تنتظر الأمة في حاله تركه. ثم عرض باللوم لأهل الكوفة بعد أن تعرض لحمله «سفيان الغامدي» على مدينة الأنبار وشهادته «حسان بن حسان» - العامل الوفى والأمين لأمير المؤمنين عليه السلام على الأنبار - والجرائم التي ارتكبتها أهل الشام في سلب الأموال وهدم البيوت - وفي القسم الثالث من الخطبة إلى ذم أهل العراق آنذاك ثانيه والتعلل ببعض الأمور بهدف التقاعس عن الجهاد - وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته ببيان استعداداه التام لجهاد العدو وسوابقه المشرقه بهذا الخصوص وفي الختام فهي خطبه ذات تأثير بليغ في نفوس السامعين، حتى قال الشارح المعروف ابن أبي الحديد بهذا المجال: واعلم أنّ التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثر، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ فمن جيد ذلك ما قاله ابن بناته الخطيب بشأن الجهاد «. . فانّ الجهاد أثبت قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان.». ثم أضاف: فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الانصاف، تجدها بالنسبه إليها كمخنت بالنسبه إلى فحل، أو كسيف من رصاص بالاضافه إلى سيف من حديد. (١)

ج ج

ص: ٩٠

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصِّهِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِيَّةِ بَيْنَهُ، وَجَنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الدُّلِّ، وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ، وَدَيَّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءِ، وَضْرَبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ، وَأَدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَسِيَمَ الْخُسْفَ، وَمُنِعَ النَّصْفَ» .

الشرح والتفسير

لقد تعرضت الخطبه إلى فلسفه الجهاد وبركاته في عبارات قصيره ذات عده معان، إلى جانب الآثار السيئه لترك الجهاد، فقد قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه «أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنّة» وبالطبع هناك عده أسباب وردت في الأحاديث بصفتها «أبواب الجنّة» التي تؤدي إلى نيل الرحمه والفوز بالرضوان والجنّة يكمن أهمها في الجهاد، فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «للجنّة باب يقال له «باب الجهاد» يمضون إليه فاذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم، والجمع في الموقف، والملائكة ترحب بهم» (١). ونعلم أنّ الجهاد في الإسلام على نوعين: جهاد العدو وجهاد النفس. وقد اصطلح على الأول بالجهاد الأصغر وعلى الثاني بالجهاد الأكبر، وكل منهما باب من أبواب الجنّة.

ص: ٩١

ولا يتيسر لقاء الله دون الجهاد الأكبر كما تتعذر العزه والرفعه فى الدنيا والآخرة دون الجهاد الأصغر. ثم قال عليه السلام «فتحته الله لخاصه أوليائه». صحيح أن جهاد العدو والنفس يعد وظيفه جميع المسلمين، إلّا أنّ أولياء الله فقط الذين يسعهم خوض غمارهما حتى النهايه على أساس الاخلاص والنيه الحسنه، بينما قد تكون نيات الآخرين مشوبه بالطمع ونيل الغنام أو الحصول على الحياه والمنصب والشهره وبالتالي فهم لا يواصلون المسيره إلى آخرها. فأولياء الله فقط الذين يقتحمون الميدان ويصبرون على الأذى فى حركتهم الجهاديه فيركعون كاه قوى الشر والظلام.

ونخلص مّياً سبق إلى عدم ورود الإشكال على الإمام عليه السلام فى أنّه خص باب الجهاد بخاصه أولياء الله بينما كتب على جميع المسلمين. كما نفهم من قوله عليه السلام أن من طوى مسيره الجهاد الأصغر والأكبر فهو من خاصه أولياء الله سبحانه. ثم يصف عليه السلام الجهاد فيقول «وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينه، وجنته الوثيقه» ونعلم أنّ اللباس زينه للإنسان وجمال له من جانب، ومن جانب آخر فانه حافظ لبدنه من شده الحراره والبروده التى تؤذيه فيما لو كان عرياناً، كما يشكل أساس عزه الأقوم والشعوب ودرعها من أنواع المخاطر والآفات؛ الأمر الذى أكدّه الإمام عليه السلام فى عباراته اللاحقه.

وأخيراً فالجسد العارى عرضه لأنواع الأذى موصوفاً بالقبح والشناعه، وعليه فالأمّه التى تولى ظهرها للجهاد هى أمّه ذليله مهدده بكافه عناصر الزوال والانهيّار. أمّياً علّه إضافه اللباس للتقوى فى العبارة فلعل ذلك يفيد تعذر حفظ أصول التقوى دون توفر الأمن، كما يتعذر الأمن دون الجهاد. كما يحتمل تفسيرها على أنّها اشاره إلى الآيه ٢٦ من سوره الأعراف التى عدت التقوى نعمه الهيه بعد ذكر اللباس الظاهر «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ». .

وبناءً على هذا فالمراد هو أن لباس التقوى الذى ورد فى القرآن إنّما مصداقه الكامل هو الجهاد الذى يجعل المجتمع يعيش الأمن والأمان على كافه المستويات (١)وهو مصدر الحسن والجمال.

ص: ٩٢

١- ١) لا بدّ من الالتفات إلى أنّ الاضافه (لباس التقوى) فى التفسير الأول من قبيل الإضافه اللاميه وفى التفسير الثانى إضافه بيانیه.

ثم شبه الإمام عليه السلام الجهاد بالدرع الحصينه والجنه الوثيقه، والوسيلتان من المعدات الدفاعيه فى القتال، حيث لم يكن من أمان لاولئك الذين يخوضون المعارك سابقاً ولم يتدرعوا، وهذا هو حال الأُمه التى تترك الجهاد فهى ضعيفه خاويه تجاه ضربات العدو. ولعل هذه العبارة تشير إلى حقيقه وهى أنّ الجهاد لا يراى به الهجوم على الآخرين ومن أجل التوسع والسيطره ونهب الأموال والثروات وفرض الأفكار والعقائد، لأننا نؤمن بأن الإسلام والقرآن إنّما يستند إلى منطق قوى يغنيه عن شهر السيف بوجه المقابل. وعليه فأنما شرع الجهاد من أجل حفظ المجتمع الإسلامى وإزاله الموانع التى تعترض أساليب التبليغ والقضاء على الموانع التى تحول دون حريه البيان.

أمّا الحروب المعاصره فهى وإن نحت الدروع القديمه إلّا أنّها تعتمد اليوم الوسائل التى تفوقها فى الدفاع من قبيل المدرعات والمصفحات والمواقع المحصنه، كما تلجأ إلى بعض الملابس الخاصه بغيه مواجهه الهجمات الكيمياءيه بحيث لا تتأثر من قريب أو بعيد بخطر هذه الأسلحه.

جدير بالذكر أن ما ذكر بشأن تفسير عباره الجهاد الأصغر (العدو الخارجى) يصدق تماماً على الجهاد الأكبر (جهاد النفس)؛ حيث لا- طاقه للإنسان بهجمات الشيطان دون جهاده لنفسه. ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الآثار السلبيه التى يتمخض عنها ترك الجهاد ليوجزها فى سبع نقاط، فقال: «فمن تركه رغبه عنه ألبسه الله ثوب الذل» وقوله عليه السلام (رغبه عنه) إشاره إلى استثناء الأفراد من هذا الحكم ممن يمتلكون الأعذار الموجهه التى لا- تجعلهم قادرين على خوض الجهاد من قبيل العجز والمرض ونحو ذلك؛ الأمر الذى أكدته بعض الآيات القرآنيه. (١) الأثر السلبي الثانى لترك الجهاد «وشمله البلاء» فمثل هذا الفرد أو الأُمه إنّما يعتكف فى موضع أعزل يجعله عرضه لحملات الحيوانات المفترسه بحيث تدخل عليه دون أدنى مقاومه، والجهاد وحده هو الذى يشكل السد الحديدى إزاء مثل هذا البلاء فىناى بالإنسان بعيداً عن هذه الحيوانات. أمّا الأثر السلبي الثالث فقد أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله «وديث (٢) بالصغار (٣)

ص: ٩٣

١- ١) سورة التوبه / ٩١- ٩٢.

٢- ٢) «ديث» من ماده «ديث» بمعنى الذله والهوان، ومن هنا يصطلح بالديوث على من لا يكثرث لعفه أهله، كأنه قد ذلل حتى صار كذلك.

٣- ٣) «صغار» بمعنى الذله.

والقماءه (١)» وكيف لا يعيش الذل والهوان والضعه من ضيع هذا السند العظيم؛ أى الجهاد. وصحيح أن العبارتين قريبتان من بعضهما بالمعنى، إلّا أنّ هناك فارقاً طفيفاً، حيث كان الكلام هناك عن الذله وهنا عن الحقاره والضعه. فالمفهومان مختلفان إلّا أنّها من قبيل اللازم والملزوم. وأمّا المصيبه الأخرى التى تطيل تارك الجهاد فهى «وضرب على قلبه بالأسهاب» (٢) فالأفراد الضعفاء والعجزه والمهزومون إنّما يعانون من الأوهام على الدوام فلا يسعهم تقييم الحقائق كما هى. فخشيته العدو تجعلهم يعيشون فى هاله من الخيالات المرعبه، أو أنّهم يلجأون إلى بعض الخرافات من أجل تحقيق النصر كأن يتخلوا عن السيف والمقاومه ويلوذوا بالسحره والكهنه.

وقد حفل التأريخ بنماذج حيّه لمثل هؤلاء الأفراد، الذين لا يكشفون بذلك سوى عن ضعفهم وعجزهم، بينما يتنزه المجاهدون الشجعان عن مثل هذه السفاسف.

ثم ذكر الأثر السلبي الخامس بقوله عليه السلام «وأدبيل (٣) الحق منه بتضييع الجهاد»، وذلك لأنّ الحق - كما ورد فى المثل المعروف - يؤخذ ولا يعطى. فالطواغيت وأصحاب المنطق الغاشم والمستبدون لا يفوضون الحق لأصحابه أبداً، ولا بدّ من التحلى بالقوه من أجل انتزاع الحق من برائن اولئك الطغاه؛ الأمر الذى نوه له الإمام عليه السلام فى الخطبه التاسعه والعشرين بقوله «لا يدرك الحق الا- بالجد» وأمّا الأثر السلبي السادس «وسيم الخسف» وبالالتفات إلى اطلاق الخسف والخسوف على زوال نور القمر والاختفاء فى الأرض، وان «سيم» من ماده «سوم» بمعنى الحركه إثر شىء فان مفهوم الجمله سيكون: أنّ تاركى الجهاد فى الواقع إنّما يسيرون باتجاه الزوال والانقراض؛ الأمر الذى لاحظناه بوضوح فى الأمم والبلدان التى آلت إلى السقوط والانهيال إثر تقاعسها عن الجهاد. (٤)

ص: ٩٤

١-١) «القماءه» بمعنى الصغار والذل.

٢-٢) الأسهاب ذهاب العقل أو كثره الكلام، أى حيل بينه وبين الخير بكثره الكلام بلافائده، وقدورت بهذا المعنى فى الخطبه.
٣-٣) «أدبيل» من ماده «دوله»، قال صاحب المقاييس لها معنيين؛ الأول التحول و الانتقال، والآخر الضعف، وارىد بها هنا المعنى الأول.

٤-٤) فسرّها جمع من شراح نهج البلاغه بالذله والهوان على أنّها من قبيل تكرار وتأكيد العبارات السابقه، أمّا ما أوردته فى المتن فانه ورغم انسجامه مع المتون اللغويه الا أنه ينطوى على معنى جديد يأبى التكرار، وعليه يبدو هو التفسير الأنسب.

ثم قال عليه السلام فى إطار ذكره للآثر السلبي السابع «ومنع النصف» (١) ودليل ذلك واضح؛ لأنّ أتباع العدالة عادة ما يشكلون الأقلية، ولو لم يكونوا كذلك كميّه فهم أقلية من حيث الكيفيه والقدرة.

ومن هنا فان أصحاب السطوه يندفعون بكل ما أوتوا من قوه لهضم حقوق الشعوب المظلومه ويسعون لمضاعفه ثرائهم وأموالهم. وليس لهذه الشعوب من وسيله لاستعادة حقوقها وخلصها من براثن الظلم والاضطهاد وتحقيق العدالة الاجتماعيه سوى فى خوض غمار الجهاد. وهنا تكمن أهميه العبارات التى أوردها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه بشأن الجهاد وفلسفته ومعطياته الايجابيه والسلبيه فيما لو تخلت عنه الشعوب والأمم.

كما يتضح ممّا أوردنا أنّ الجهاد لم يندب بفعل الثواب المعنوى المترتب عليه، بل بسبب الآثار والمعطيات الكبيره التى يفضى إليها فى هذه الحياه الدنيويه. فهل هناك من يطلب الذل والهوان ويرضى بغصب الحقوق وتضييعها وبالتالي يحث الخطى نحو الزوال والفساد؟! فان كان الجواب بالسلب، كان علينا أن نشدد حيازيمننا ونهب لخوض الجهاد والتحلّى بالصبر والاستقامه من أجل درك معطياته العظيمه فى الدنيا والآخره وتحمل كفه الآلام والمصاعب كاحتمال المريض لمراره الدواء من أجل التماثل للعافيه والشفاء.

تأملان

١ - الجهاد سر رفعه الشعوب وعزتها

كثير الكلام بشأن الجهاد، ولدينا المزيد من الكلام بهذا الخصوص طالما تواتت خطبه عليه السلام فى نهج البلاغه فى الحديث عن هذه المسأله.

أمّا الشىء المهم الذى نود التطرق إليه بصفته مبدأ حيويّاً هو أنّ الجهاد قانون الحياه الذى يمنحها الدوام والبقاء وأنّ الإنسان وكل كائن ينبض بالحياه مازال مقبلاً على الجهاد وبخلافه

ص: ٩٥

١-١) النصف والانصاف من ماده واحده بمعنى العدل.

يبدأ عده العكسى فى الموت والفناء. فالنبات يواجه عده آفات يسعى للتغلب عليها من أجل البقاء حياً، وجذور الأشجار هى الأخرى تغوص فى أعماق الأرض من أجل امتصاص الماء والأملاح فإذا ما اعترضت بعض الموانع كالصخور سعت لاختراقها ومواصله تغلغلها فى أعماق التربه وإن عجزت عن ذلك فتشت عن طريق آخر واستمرت فى مسيرتها. وهكذا الحال بالنسبه للحشرات والحيوانات التى تواجه الأخطار التى تهدد كيانها باستمرار فتبدى مقاومتها من أجل مواصله حياتها. فهناك بعض الطيور التى تهاجر إلى مسافات شاسعه قد تنطلق من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى مقاومه كافة الظروف المحيطه بغيه مواصله حياتها. أما الإنسان فيعيش حركه جهاديه مريه على مستوى أعضائه الداخليه ودورته الدمويه، فالجنود التى تدافع عن البدن - التى يصطلح عليها بكرىات الدم البيض - طيله عمر الإنسان إنما تتصدى ببساله لكافه الأعداء المتمثلين بالمكروبات والفايروسات التى تحاول اختراق بدن الإنسان عن طريق الماء والغذاء والهواء والشقوق التى تحدث فى الجلد.

وقد الهمت هذه الكرىات سبل الصمود بوجه كافة الأسلحه الكيمياءيه والفيزيائيه بحيث تبيدها وتبقى على البدن سالمأً صحيحاً. فإذا ضعفت هذه الجنود لأى سبب من الأسباب وتقااست فى وظيفتها هجمت جميع الأمراض على الإنسان، وما المرض الخطير الذى يطلق عليه «الايذر» إلمانتيجه طبيعيه لاختلال عمل هذه الكرىات وتوقفها عن العمل، ومن هنا فإن المصابين بهذا المرض الخطير إنما يكونون عرضه للاصابه بأخطر الأمراض. وزبده الكلام فان الجهاد رمز الحياه وسر السعاده والسبب الرئيسى للنصر والغلبه وعامل الرفعه والعزه، لكن ليس ذلك سوى الجهاد من أجل تحقيق الحق والعدل وإلّا فليس ذلك سوى الجريمه والظلم والعدوان.

ومن هنا تظافرت الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه بما فيها الخطبه المذكوره التى أكدت على قضيه الجهاد بما لم تول مثل هذه الأهميه لغيره من المفاهيم، ولاسيما الجهاد بالمعنى الأشمل الذى يتضمن الوقوف بوجه العدو الخارجى والداخلى. فقد جاء فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً فى نفسه وفقراً فى معيسته

ومحققاً في دينه» (١) ويستفاد من هذا الحديث أن ترك الجهاد إنّما يهدد بالخطر الحياه المعنويه للإنسان فضلاً عن حياته الماديه. وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إغزوا تورثوا أبنائكم مجداً» (٢) كما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام في قصار حكمه في نهج البلاغه ضمن إطار بيانه لفلسفه الأحكام الشرعيه فقال: «والجهاد عزاً للإسلام» (٣). وأخيراً فهناك عده خطب شحن بها نهج البلاغه بشأن الجهاد سنعرض لها في الأبحاث القادمه.

٢ - هل الجهاد الإسلامي دفاعي فقط؟! !

منذ سنوات وقد شغل هذا السؤال أذهان الأوساط الإسلاميه بما فيها العلماء، فقد ذهبت طائفه إلى أنّ كافه غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله كانت دفاعيه حذراً من اتهام الإسلام من أنّه قد انتشر بالسيف ورهبه السلاح! أو بعباره أخرى خشيه اتهام الإسلام بالروح السلطويه والفتوحات العسكريه. وبالمقابل هناك طائفه أخرى ترى أنّ الغزوات الإسلاميه على قسمين؛ بعضها هجوميه وبعضها دفاعيه، وترى أنّ هذين القسمين حق ثابت للمسلمين اليوم، وتعتقد أنّ الإسلام موظف بتحرير المسلمين الذين يرزحون تحت نير السلطات الظالمه؛ الأمر الذي يدخل ضمن الجهاد الهجومى، كما ترى أنّ الإسلام مكلف بتمهيد السبيل أمام ممارسه الاعلام المنطقى وإزاله كافه العوائق التى تعترض هذا السبيل ولو اضطر للجوء للقوه وهذا نوع آخر من الجهاد الهجومى. كما هنالك رأى ثالث يقول أنّ طبيعه القتال فى الإسلام هى طبيعه دفاعيه، إلّا أنّ المسائل الدفاعيه قد تجعل الهجوم ضروره. مثلاً الدفاع عن المظلومين، أو بعباره أخرى التدخل الإنسانى وإن كان يبدو ظاهرياً هجوماً إلّا أنّه فى

ص: ٩٧

١-١) بحار الأنوار ٩٨ / ٩. [١]

٢-٢) اصول الكافى ٨ / ٥.

٣-٣) نهج البلاغه، الكلمات القصار، ٢٥٢.

الواقع دفاع عن قوم يرضحون تحت الظلم والاضطهاد، وعليه فالدفاع عنهم ضرورى بالنسبه لكافه الأفراد من أهل الإيمان. والهجوم بالمعنى الثانى - يعنى تمهيد السبيل أمام حرية الأعلام المنطقى وممارسه التبليغات - هو الآخر دفاع تجاه بعض الموانع، فإنّ الإسلام يأذن بقتال العدو إذا ما خلق بعض الموانع والعراقيل.

أمّا العبارات التى وردت فى بدايه هذه الخطبه إنّما هى دليل واضح على دفاعيه طبيعه الجهاد؛ فقد شبه فى موضع باللباس وفى آخر بالدرع وفى ثالث بالجنه، ونعلم بأنّ جميع هذه الأمور من قبيل الوسائل الدفاعيه. وأمّا العبارات القادمه فقد تضمنت إشارات إلى الهجوم الذى يختزن بعداً دفاعياً، ومن ذلك قوله عليه السلام: «قلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم». ويمكن أن يكون هناك استثناء واحد لهذا القانون الكلى وهو الجهاد والقتال من أجل إزالة الصنميه والوثنيه؛ وذلك لأنّ الإسلام يرى فى الوثنيه أكبر خطر يهدد المجتمع البشرى من الناحيه المعنويه والماديه، فيصرح بالجهاد من أجل القضاء على الوثنيه فى حاله عدم جدوى التبليغ.

لاشك أنّ بعض الطغاه والجباره سيستغلون مسأله الدفاع عن المظلومين أو مواجهه الانحطاط الفكرى والثقافى كوسيله للتغطيه على أهدافهم العدوانيه والتوسعيه، إلّا أنّ ذلك لا يحد من قيمه هذه المفاهيم أبداً. فاستغلال هذه المفاهيم المقدسه ليس بالشىء الجديد. وللوقوف على أهداف الجهاد فى الإسلام يمكن مراجعه المجلد الثانى من تفسير الأمثل، الآيه ١٩٣ من سوره البقره.

«ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم اغزؤهم قبل أن يغزؤكم، فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا. فتواكلتم وتخاذلتهم حتى شئت عليكم الغارات وميلت عليكم الأوطان».

وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحتها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والمأخرى المعاهدة فيتنزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعتها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترجاع ثم انصبروا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أن امرأة مسلماً مات من بعيد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً».

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمة المقتضبة، تطرق إلى نموذج بارز من الافرازات المشؤومة لترك الجهاد فقال عليه السلام: «ألا- وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم: اغزؤهم قبل أن يغزؤكم» يذكر الإمام عليه السلام بأنه أشار إلى طبيعه هؤلاء الظلمة المردة الذين ينطوون على الروح العدائية التي تبرز على السطح إذا ما سنحت الفرصه فلا يتورعون عن قتل الأبرياء وسبي النساء ونهب الأموال والثروات، وعليه فان العقل والشرع يجيز الوقوف بوجه هؤلاء الطغاه وقبر مؤامراتهم في مهدها وكسر شوكتهم

وإخماد فتنهم قبل أن يتأهبوا للقتال والعدوان.

ثم يعرض عليه السلام الدليل على ما أورده فقال: «فوالله ما غزى قوم في عقر (١) دارهم إلا ذلولاً». ومن الواضح أن من يتعرض للهجوم في عقر داره إنما يفقد معنوياته ويشعر بالهزيمة والفشل في نهايه الأمر من جانب آخر فإن المهاجم الذي يتعرض إلى قوم في عقر دارهم لا يفكر أبداً في حفظ حرمة الدار، بل يدمر كل شيء فيها، أضف إلى ذلك فإن مثل هذه الدار تصبح مسرحاً للقتال؛ الأمر الذي يؤدي إلى سفك دماء من فيها بما فيهم الصبية والنساء، وعليه فإن مثل هذه الأمور تشكل بمجموعها العناصر التي تؤدي إلى هزيمة القوم الذين يتعرضون للهجوم في عقر دارهم. ومن هنا ورد التأكيد على المقاتلين في كافة الغزوات الإسلامية (باستثناء بعض الغزوات والمعارك التي اكتفتها بعض الظروف والملابسات كمعركة الأحزاب) بترك المدن والتصدي للأعداء خارجها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة «فتواكلتم (٢) وتخاذلتم حتى شنت (٣) عليكم الغارات وملكتم عليكم الأوطان». التواكل يعني إيكال كل فرد عمله إلى آخر، بعبارة أخرى هو تخلى الفرد عن مسؤوليته والقائها على عاتق الآخرين بحيث تخلو الساحة. والتخاذل يعني عدم مد يد العون إلى الآخرين، بما يؤدي في خاتمه المطاف إلى تصدع عرى الاتحاد، بحيث لا يشعر العدو بأي رادع أو مانع يحول دون شنه لهجماته، وهذه أحد أشنع الصفات التي تسود المجتمعات البشرية بحيث يتقاعس كل فرد عن مسؤوليته ويقلدها ربه الآخرين وينهمك كل في شؤونه الشخصية دون أن يوفر الدعم والإسناد لأخيه إذا ما تعرض لحملات الأعداء المسعوره، فلا يؤدي ذلك سوى إلى تلك النتيجة التي خلص إليها الإمام عليه السلام في أن العدو سيرى الميدان مفتوحاً أمامه فيشن حملاته - لتسقط المدينة تلو الأخرى دون أن يجابه بأدنى مقاومه. ثم يستشهد الإمام عليه السلام بمثال حي متطرقاً إلى واقعه الغامدى فيقول: «وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكرى وأزال خيلكم عن

ص: ١٠٠

١ - ١) «عقر» على وزن ظُهر بمعنى أساس الشيء وأصله ومنه عقر الناقة، وذلك لزوال أساس الناقة بحيث تفقد توازنها وتقع على الأرض.

٢ - ٢) «تواكلتم» من مادة «وكل»، وكل كل منكم الأمر إلى صاحبه، أى لم يتوله أحد منكم، بل أحاله كل على الآخر.

٣ - ٣) «شنت» من مادة «شن»، وشنت الغارات مزقت عليكم من كل جانب كما يشن الماء متفرقاً دفعه بعد دفعه. والعبارة إشارة إلى الغارات المتواليه التي كان يشنها عليهم الشام.

مسالحها». ويبدو أنّ الأنبار كانت منطقته حدوديه عراقيه متاخمه للشام، لأنّ مسالح جمع مسلحه تعنى الحدود والثغور - وذلك لأنّ الأسلحه تجمع هناك لتستخدم فى الدفاع عن الحدود - وقوله عليه السلام: «أزال خيلكم عن مسالحها» تفيد اجتياز الحدود لهذه الحدود دون مقاومه وقد مرّ علينا شرح ذلك. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الجنایات التي ارتكبتها الغامدى بحق أهل الأنبار من المسلمين والمجاهدين من أهل الكتاب الذين ينبغى الدفاع عنهم من قبل الدوله الإسلاميه، فقال عليه السلام: «ولقد بلغنى أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأه المسلمه، والأخرى المعاهده فينتزع حجلها (١) وقلبها (٢) وقلاندها (٣) ورعشها (٤) ما تمتنع منه إلّما بالاسترجاع والاسترحام»، فالإمام عليه السلام أشار بوضوح إلى أنّ أحداً من المسلمين لم يهب للدفاع عن هذه النسوه المسلمات أو تلك المعاهدات. أمّا الاسترجاع فقد فسره بعض شراح نهج البلاغه بالبكاء المصحوب بالعويل فى حين فسره البعض الآخر بكلمه «إنا لله وإنا إليه راجعون» التي تقال عاده عند النوائب والشدائد التي يتعرض لها الإنسان. ثم قال عليه السلام «ثم انصرفوا وافرین مانال رجلاً منهم كلم ولا أريق لهم دم» آنذاك يخلص عليه السلام إلى هذه النتيجة «فلو أن أمراً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندى جديراً» فقد كشف الإمام عليه السلام عن عمق اللوعه التي كانت تعتلج فى صدره مستغرباً ما حدث، كيف يضعف المسلمون إلى هذه الدرجه ولا تهتر لهم قصبه تجاه هذه الحملات المروعه التي أهلكت الحرث والنسل وقد طالت الأموال والأنفس والأعراض، وقد رجع المهاجمون غانمين سالمين دون أن يتكبدوا أیه خساره! أجل لا يسع المسلم الغيور تحمل مثل هذه الحادثه المأساويه قط، بل لو مات كمداً من جرائمها لما كانت عليه من لائمه. والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يفرق بين المرأه المسلمه والمعاهده لما تعرضت له من انتهاك الحرمه والتطاول على حليها ووسائلها، كما يكشف عن مدى ضروره التزام الدوله الإسلاميه بالدفاع عن حقوق الأقليات الدينيه التي تعيش ضمن المجتمع الإسلامى، مع ذلك فان غرض الإمام عليه السلام كان يكمن فى تصوير عمق

ص: ١٠١

-
- ١-١) «حجل» على وزن فعل و «حجل» على وزن فصل بمعنى الخلل التي تزين به النساء العربيات أرجلهن.
 - ٢-٢) «قلب» بضمين جمع قلب بالضم فسكون بمعنى السوار المصمت وتعنى فى الأصل التغيير.
 - ٣-٣) «قلانده» جمع «قلاده» على وزن اجاره، تطلق على كل شىء يحيط بآخر.
 - ٤-٤) «رعش» بضم الراء والعين جمع «رعش» على وزن رأس ما تعلقه المرأه [١] من الزينه فى أذنها.

الفاجعه المأساويه. وبالطبع فان هذا الكلام لا يختص بزمان دون آخر، كما لا يقتصر على هجوم جيش معاويه على الأنبار، بل يتضمن قاعده كليه يجب أن تسود الحياه الإسلاميه على الدوام. وكأئى بالإمام عليه السلام قد خاطب بهذه العبارات كافه المسلمين الذين يتعرضون اليوم لأبشع هجمات الشرق والغرب التى تنوى السيطره على أموالهم وثوراتهم ومسخ قيمهم وضروره التصدى لهم والدفاع عن حياض بلدانهم، بحيث لو مات أحدهم غصه وكمداً لما يرتكبه العدو الطامع من جرائم وجنایات لما كان ملوماً بل كان جديراً.

تأملات

١ - معادلات الهزيمة والانتصار

لقد أشار الإمام عليه السلام من خلال بصيرته الثاقبه وروحه الساميه وخبرته الوافيه فى ميادين الحرب والقتال إلى العناصر المهمه التى تقف وراء الهزيمة والانتصار والتى ينبغى أن يجعلها المسلمون نصب أعينهم من أجل دحر الأعداء والحفاظ على بيضه الإسلام. فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى أخلاء الساحة أمام العدو ومنحه الفرصه بشن هجماته بفضلها تشكل أحد عوامل الفشل والانهمام؛ الأمر الذى لا يختلف عليه إثنان وقد خضنا فى تفاصيله سابقاً.

العامل الآخر التواكل (بمعنى وكل كل الأمر إلى صاحبه، أى لم يتوله أحد بل أحاله كل على الآخر). فلو قام كل فرد فى المجتمع بوظيفته ولم يحمل الآخرين مسؤوليه أعماله لما كان هناك من مجال للفشل والهزيمة، بينما ليس هنالك من سبيل للهروب من الفشل والهزيمة المنكره أمام العدو اذا ما تخلى كل فرد عن مسؤولياته ووظائفه وأكلها إلى الآخرين من أفراد المجتمع.

العامل الثالث التخاذل بمعنى ترك الآخرين ومشاكلهم دون معونتهم ومساعدتهم، فاذا تعرضت منطقته إلى غاره أو غزوه لم تنجدها سائر المناطق. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبه ١٦٦ «أيا الناس! لو لم تتخاذلوا عن نصره الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقو من قوى عليكم».

٢ - حمايه الأقليات الدينيه

ص: ١٠٢

لعل البعض يتصور أن قضيه احترام الأقليات الدينيه التي تعيش في كنف الإسلام وتكفل بحفظ أموالها وأرواحها إنما هي شعار لا- يرقى إلى العمل والتطبيق، إلماً أنّ أدنى نظره إلى الفقه الإسلامي في كيفية تعامله مع أهل الذمه وكلمات المعصومين عليهم السلام بما فيها كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبه، تكشف بجلاء أنّ الإسلام يرى نفسه السند والدعم الحقيقي لهم ما دامهم لم ينقضوا العهود ويشهروا السلاح ضد الإسلام والمسلمين، وعليه فأموالهم وأرواحهم محترمه ومحفوظه. فقد أعرب الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عن بالغ حزنه وأسفه لما تعرضت له المرأه اليهوديه أو النصرانيه التي تعيش كمواطنه في المجتمع الإسلامي ولم يفرق بينها وبين المرأه المسلمه قط، ثم ذم أهل العراق ووبخهم على ما أبدوه من ضعف وعجز حيال العدو وعدم الدفاع عن هذه النساء.

٣ - الغيره الدينيه

المراد بالغيره الدينيه الحساسيه تجاه أى خروج عن مسار الحق والعدل وتجاهل الأحكام الشرعيه والتعامل بشده وصرامه مع هذه الحاله بما يتناسب وحجمها والابتعاد عن اللامبالاه، ويفتقر لهذه الغيره كل من تعامل ببرود مع هذه الأمور ولم يبد أيه حساسيه تجاهها. وقد صرح القرآن الكريم بخصوص بعض المقاتلين المؤمنين الذين لا يمتلكون المعدات التي تؤهلهم للاشتراك في المعارك قائلاً: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» (١).

فالآيه تشير إلى مسأله تجعل الأفراد الذين لا يمتلكون الوسائل المطلوبه في القتال وتحول دون التحاقهم بصفوف المقاتلين يتحولون إلى دموع غزيره؛ القضيه لا يمكن تفسيرها سوى بالغيره الدينيه. وقد أشارت الخطبه إلى أحد مظاهر هذه الغيره، حين قال عليه السلام: «فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً». فالغيره تشكل أحد العوامل المهمه من أجل الدفاع عن حريم القوانين الإسلاميه وإحياء الأمر بالمعروف

ص: ١٠٣

والنهي عن المنكر. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عن بعض أصحابه قال: إنَّ الله بعث ملكين إلى أهل المدينة ليقلباها على أهلها فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلاً يدعو الله ويتضرع إليه، فقال أحدهما للآخر: أما ترى هذا الداعي فقال: قد رأيته ولكن أمضى لما أمرني به ربي فقال: ولكني لا أحدث شيئاً حتى أرجع إلى ربي، فعاد إلى الله تبارك وتعالى فقال: يا ربّ إني إنتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرع إليك فقال: إمض لما أمرتك فان ذلك رجل لم يتغيّر وجهه غضباً لي قط. (١)

ج ج

ص: ١٠٤

«يَا عَجَبًا! عَجَبًا - وَاللَّهِ - يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنْ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرَّقَكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَفُجِبًا لَكُمْ وَتَرَحًّا، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى: يُعَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيَّرُونَ وَتُغْرُونَ، وَلَا تَغْرُونَ وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضُونَ فَإِذَا أَمَرْتُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حِمَارَةُ الْقَيْظِ؛ أَمَهَلْنَا يَسْبِخُ عَنَّا الْحَرُّ. وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ، قُلْتُمْ: «هَذِهِ صَيِّبَارَةُ الْقَرِّ أَمَهَلْنَا يَنْسَلِخُ عَنَّا الْبَرْدُ! كُلُّ هَذَا فِرَارًا مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرِّ تَفِرُّونَ؛ فَأَنْتُمْ - وَاللَّهِ - مِنَ السَّيْفِ أَفْرًا!».

الشرح والتفسير

يتناول الإمام عليه السلام بالتحليل العوامل الأخرى لتقهقر أهل الكوفة وتراجعهم إلى جانب ذمهم ولومهم، بما يوقظ ضمائرهم ويدفع بهم باتجاه الصمود بوجه العدو والحؤول دون تسلله إلى البلاد، فقد قال عليه السلام «يا عجباً (١) عجباً - واللّه - يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم». إنّما يكون التعجب والاندعاش حيث الأمور التي تخرج عن المسار الطبيعي أو تكتنفها العوامل المجهولة أو غير المألوفة؛ الأمر الذي يطالب أنصار الحق ويوازع من إيمانهم القوى بالدفاع والصمود والمقاومة، بينما يقف أتباع الباطل

ص: ١٠٥

١ - ١) يا عجباً عجباً، قال بعض شراح نهج البلاغه أن عبارته «يا عجباً عجباً» أصلها «عجبت عجباً...»؛ أي منصوبه على أنها مفعول مطلق. كما احتمال أن تكون عجباً الأولى من قبيل المفعول المطلق والثانيه للتكرار والتأكيد (شرح نهج البلاغه لابن ميشم ٢ / ٣٦) [١] وقال البعض تقديرها «يا عجبى احضر» (شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئي ٣ / ٣٩٢) ويبدو هنا التفسير أنسب لأن تكون «عجباً» منادى.

مكتوفى الأيدى وعدم الدفاع عن الحق لافتقارهم للدوافع التي تؤدي إلى ذلك الدفاع، ومن هنا فإذا شوهد أصحاب الحق يعيشون الفرقة والاختلاف وضعف الإرادة، بينما تحكم الوحده والأخاء أتباع الباطل، فإن ذلك مدعاه للذهول والعجب. فإمام أهل العراق هو علي بن أبي طالب عليه السلام الذى نص رسول الله صلى الله عليه وآله على ولايته إلى جانب مبايعته من قبل أهل المدينة ومكة من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين من المناطق الإسلاميه، كما كانت دلائل أحقيته من زهد وعلم وفضيله وعداله واضحه للجميع، بينما كان إمام الشام معاويه المعروف بطغواه وحبه للجاه والمنصب وسوابقه المشينه فى الإسلام والجاهليه والتي لم تكن خافيه على أحد، أفليس من العجب أن يهب أهل الشام لنصره باطلهم ويقفون بوجه الحق، وينفرج أهل الحق عن الإمام عليه السلام فينقضون ميثاقهم وينكثون بيعتهم؟! ومن هنا اشتد استياء الإمام عليه السلام عليهم فجعل يذمهم ويلومهم، بعد أن جعلوا أنفسهم فى هذه الحاله المزريه «فقبحاً لكم وترحاً (١) حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون». فالواقع يوجز الإمام عليه السلام ما يدعوه لذمهم فى أمر واحد يكمن فى الضعف والتواكل والخذلان إلى الحد الذى يمنح الأعداء الجراء فى شن الحملات تلو الحملات والغارات تلو الغارات فيسفكون دماء الأبرياء، وليس لهؤلاء من ردود فعل سوى الصمت والسكوت تجاه هذه المجازر المروع!

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى دليل آخر دعاه لدم هؤلاء والذى أدى بهم إلى ذلك الضعف والذى يكمن فى التعلل بحر الجو وبرودته التى لا تلعب دوراً فى القتال، فقال عليه السلام: «فاذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتهم هذه حماره (٢) القيط (٣)؛ أمهلنا يسبخ (٤) عنا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء، قلتهم: هذه صباره (٥) القر، أمهلنا ينسلخ (٦) عنا البرد؛ كل

ص: ١٠٦

- ١-١) «ترحاً» تعنى الحزن والغم فقد دعا عليهم الإمام عليه السلام بهذه العبارة بالحزن والهم.
- ٢-٢) «حماره» من ماده «حمر» بمعنى اللون الأحمر، ويطلق على شدة حراره الصيف المحرقه، وكأن شدة الحراره كحمره النار.
- ٣-٣) «قيظ» على وزن فيض بمعنى الحراره الشديده للصيف، وعليه فاضافه حماره إلى قيظ تأكيد للحراره.
- ٤-٤) «يسبخ» من ماده «سبخ» بمعنى التخفيف والتسكين.
- ٥-٥) «صباره» من ماده «صبر» بمعنى حبس الشئ وحفظه، وتطلق الصباره على شدة البروده.
- ٦-٦) «ينسلخ» من ماده «سلخ» بمعنى إزاله القشر ومن هنا يطلق السلخ على من يزيل جلد الحيوان، ثم اطلقت على كل فصل وإزاله.

هذا فراراً من الحر والقر (١)، فاذا كنتم من الحر تفرون، فأنتم - والله - من السيف أفر!». .

وكأنّ الميدان لا يصلح للقتال إلّا في أيام الربيع وفي ظل الأرض المخضرة والحشائش النظرة والطيور المغردة والمياه المتدفقة، فيدحر الجند أعدائهم بعضاً سحريه دون الحاجة إلى العده والعدد.

وكان هؤلاء الجهال قد تناسوا تأريخ الإسلام رغم عدم مرور فتره عليه بحيث زحف النبي صلى الله عليه وآله بصحبه من المدينه إلى تبوك بعد أن قطعوا تلك المسافه الشاسعه خلال الصحراء الجرداء وفي ظل حراره الشمس المحرقه على تلك الرمضاء ولم يكن لديهم ما يكفى من الماء والغذاء، وهكذا تحملوا سائر الصعاب والمعضلات فى الحروب والغزوات ليقفوا كالليوث أمام الأعداء من خصوم الدعوه، ولو كانوا يأتون ما أتى جيش الكوفه ويتعللون بما تعللوا به لما نمت شجره الإسلام ولا اخضر لها عوداً، بل لم يكتب النصر لأى جيش فى العالم حين يعيش الجنود حاله من الضعف والوهن والجبن، ولم يكن نصيبهم سوى الفشل والهزيمه والذله والهوان. والواقع أنّ كلام هؤلاء ليشبه ما قاله الكفار والمنافقون من قبل فى صدر الإسلام «لا تنفروا فى الحر» فرد عليهم القرآن بالقول «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» (٢). فأهل الكوفه كانوا يريدون بهذه الأعداء الواهيه التهرب من مواجهه العدو وقتاله، حيث تسرب إليهم النفاق بفعل ضعف ايمانهم بمبادئ الإسلام وإمامهم على بن أبى طالب عليه السلام.

على كل حال فإنّ المجاهدين الحقيقيين الذين يقتحمون الميدان ويخوضون غمار الجهاد ويسطرون الانتصارات إنّما هم أولئك الذين لا- يبالون بمصاعب الطقس والمناخ ولا يكثرثون إلى مشاكل الطريق وتحمل العناء فى هذا المجال، وممّا لاشك فيه ان العدو اذا شعر بأنّ خصمه يتحفظ عن القتال بسبب بعض المشاكل الطبيعيه من قبيل حراره الجو وبرودته فأنّه سيستغل هذا الأمر كنقطه ضعف ويوظفها لصالحه بشن الحرب أملاً بتحقيق الانتصار.

ص: ١٠٧

١ - ١) قر له معنيان؛ الأول البرد والثانى الاستقرار فى مكان، ولا يبعد أن يعود المعنى الأول إلى الثانى، لأنّ البرد الشديد يصد الإنسان عن العمل.

٢ - ٢) سورة التوبه / ٨١. [١]

إن أذنى نظره إلى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام فى هذه الخطبه تشير السؤال التالى: لم كل هذا الظم من الإمام عليه السلام لأهل الكوفه حتى خاطبهم لاحقاً «لوددت أنى لم أركم ولم أعرّفكم معرفه والله جرت ندماً وأعقبت سدماً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وجر عتمونى نغب التهام أنفاساً، وأفسدتم على رأىى...». ولعل أذنى نظره إلى تأريخ الكوفه وأهلها ونقض المواثيق ونكث البيعه والنفاق والضعف والوهن الذى سادها تفسر لنا فلسفه هذا الظم القاسى والشديد. وكأن الإمام عليه السلام سلك السبيل الأخير الذى من شأنه علاج مرضهم العضال حيث لم تعد لهم حساسيه تجاه أى شىء، فقد لجأ الإمام عليه السلام إلى هذا الاسلوب لعله يثير ما تبقى لديهم من مشاعر وأحاسيس تجاه عدوهم، وقد أثبتت الدراسات أن هذا الأسلوب عملى جداً تجاه بعض الأفراد من الناحيه النفسيه. فهذه الكلمات فى الواقع تشير إلى مدى اليأس من تلك العناصر الضعيفه الهزيله التى لم تجد معها النصائح والمواعظ أيه فائده. بل الأعجب من ذلك أن كل هذه الكلمات اللاذعه لم تتمكن من إثارة يقظه وجدانهم، بحيث لم يلتحق به إلا النفر القليل حين تجهز للقاء الأعداء، ممّا اضطره إلى دعوه أولئك الأفراد الذين كانوا يقطنون القرى والمناطق المتاخمه لأطراف الفرات ويعبئها للقاء العدو. ولعل حاله أهل الكوفه تشبه إلى حد بعيد تلك الحاله التى سادت بنى اسرائيل حين حرضهم نبىهم موسى عليه السلام على قتال عدوهم وتحرير بيت المقدس، فقد ردوا عليه بالقول: «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين و إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون... فاذهب أنت وربك فقَاتِلَا إنا ههنا قاعدون» (١)

ج ج

ص: ١٠٨

«يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال! لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفه - والله - جرت ندماً، وأعقت سداً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلوبى قبحاً وشحنتم صدى غيظاً وجرتموني نعب التهمام أنفاساً، وأفسدتم على رأبى بالعضيان والجدلان حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهن! وهل أحد منهم أشد لها مراساً، وأقدم فيها مقاماً منى؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على السنين ولكن لا رأى لمن لا يطاع!». .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بصب جام غضبه على أولئك الأفراد الضعاف الذين تواكلوا وتقاوسوا عن إداء وظائفهم عليه يثير حفيظتهم فيلتهتوا إلى عظم المخاطر التي كانت تترصد بهم، ولاسيما أهل الشام الذين كانوا يشنون عليهم الغارات تلو الغارات دون أن يتورعوا عن سفك دمائهم وانتهاك حرمتهم وسلب أموالهم، حيث بالغ عليه السلام هذه المره في ذمهم فخاطبهم قائلاً: «يا أشباه الرجال ولا رجال» يامن يعيشون آمال الأطفال فيسرع فيهم الخداع «حلوم (1) الأطفال» ويامن يحملون عقول ربات الحجال من العرائس اللائى لا يفكرن سوى برغد العيش ووسائل الزينه «وعقول ربات (2) الحجال (3)» فقد وبخهم الإمام عليه السلام فى العبارة

ص: ١٠٩

١-١) «حلوم» من ماده «حلم» بمعنى ضبط النفس وقد وردت هنا بمعنى الآمال الفارغه الشبيهه بأحلام الأطفال.

٢-٢) «ربات» جمع «ربه» صاحب الشىء ومالكه، واستناداً إلى تاء التأنيث فأنها تستعمل فى المؤنث.

٣-٣) «حجال» جمع «حجله» وصحيحه حجله على وزن عجله وهى القبه، موضع يزين بالستور، والمراد بربات الحجال النساء.

الأولى بعدم امتلاكهم الشجاعه والحميه والغيره والمروءه والرجوله التي كانوا يتمتعون بها ظاهرياً ولم يكن لهم من معانيها شيئاً على مستوى العمل. ثم اندفع في ذمهم أكثر ليخاطبهم بقوله: «لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم معرفه - واللّه - جرت ندماً وأعقت سدماً». فالتأريخ يشهد بأن ثمره علاقته أهل الكوفه والعراق بالإمام عليه السلام طيله فتره خلافته لم تكن سوى الهم والغم الذى تمخض عن ضعفهم ونقضهم العهود وتفرقهم عن الحق وتلبسهم بالنفاق والرياء، فكان من الطبيعى أن يتمنى الإمام عليه السلام عدم رؤيتهم والتعرف عليهم، حتى دعا عليهم «قاتلكم الله (١) فقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وقد جرعتونى الهموم غصه بعد غصه، فجعلتمونى غرضاً لسهام الأعداء، حتى ذهبت بهم المذاهب أنى رجل شجاع، بينما ليست لى من درايه بالحرب «قاتلكم الله لقد ملأتم قلبى قيحاً وشحنتم صدرى غيظاً وجرعتونى نغب (٢) التهمام (٣) أنفاساً، وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب». عاده ما تعزى الأمم والشعوب ضعفها وتخلفها وفشلها إلى قلّه تدبير زعمائها، بينما قد تكون القضية بالعكس؛ أى أنّ الزعيم شخصيه كفوءه بينما تعيش الأمه حاله من التخلف الفكرى والثقافى والاجتماعى؛ الأمر الذى يعتبر مأساه حقيقه بالنسبه للزعيم والقائد الناجح الذى يتولى بمثل هذه الجماعه المسلوبه الإراده، ومما يؤسف له أنّ مسؤوليه النتائج المريره التى تفرزها طبيعه هذه المسيره قد يلقبها الناس على عاتق ذلك الزعيم.

ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالرد على قريش التى تخرست بعدم علم الإمام عليه السلام بفنون القتال والحرب رغم شجاعته وبسالته:

«لله (٤) أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً (٥) وأقدم فيها مقاماً منى». فقد اقتحمت

ص: ١١٠

١ - ١) لا بد من الالتفات هنا الى ان التعبير بقتالكم الى انهم كانوا فى مقام محاربه الله و احكامه، و انهم لا- محاله ملعونين مطرودين من رحمه الله _ و من هنا فان اغلب المفسرين ذهبوا الى ان الايه ٣٠ من سوره التوبه ([١] قاتلهم الله) تعنى الطرد من رحمه الله (انظر المفردات للراغب و نشر طوبى للمرحوم العلامة الشعرانى).

٢ - ٢) «نغب» جمع «نغب» على وزن لقمه بمعنى شربه الماء كجرعه و جرعه و قد شبه هنا الحزن بالماء المر الذى شربه الامام جرعه جرعه.

٣ - ٣) «التهمام» من ماده «همم» بمعنى الهم، و يستعمل هدا الوزن عاده بمعنى المصدر مثل تكرار و تذكّار.

٤ - ٤) «لله ابوهم» تقال هذه العبارة للمدح، كما تطلق فى بعض الاحيان للتعجب، و مفهومها رحم الله والديهم.

٥ - ٥) «مراساً» و «ممارسه» بمعنى واحد، أى عالجه وزاوله وعاناه.

ميادين الحرب وأنا ابن العشرين وها أنا ذا أخوض غمارها وقد ناهزت الستين من عمري (وعليه فقد مارست تجربته ضخمه في الحروب كقائد لمدّه أربعين سنه) ولكن ماذا عساني أن أفعل وليس هنالك من يطبع «لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت (1) على الستين! ولكن لا رأى لمن لا يطاع» .

تأملات

١ - الاتباع الطلحاء والقاده الأكفاء

لاشك أنّ معادلات الهزيمة والانتصار ليست عبثيه، وأنّ اولئك الذين ينسبون النصر أو الهزيمة إلى بعض الأسباب المجهوله والعوامل الغامضه من قبيل المصادفه والحظ إنّما يسعون للقرار من الحقائق المريره والابتعاد عن تحليلها والوقوف على كنهها. وعاده ما تذهب التحليلات إلى أنّ العامل الأصلي الذي يكمن وراء النصر والهزيمة إنّما يتمثل بقدره القياده وحكمتها في إداره شؤون الأمم، بينما تكون القضية معكوسه في بعض الحالات، فقد تتحلى القياده بالقوه والافتدار وارتفاع المعنويه والاحاطه بفنون الإداره والتعامل مع الاحداث؛ الأمر الذي يفيد بما لا يقبل الشك أنّ العنصر الذي يقف وراء الهزيمة إنّما يتمثل بالاتباع الضعفاء الذين لا يتحلون بالاراده إلى جانب سذاجتهم وقلة تجربتهم بما يجعل من المتعذر عليهم مواكبه قيادتهم في ادراك الأهداف فضلاً عن تطبيقها في الواقع، وهنا تتلاشى قدره الزعيم الكفوء في ظل فساد وانحراف مثل هؤلاء الأتباع؛ الأمر الذي يؤرق فكر القائد ويقض مضجعه. وهذا هو السر في تلك الكلمات الشديده التي أطلقها الإمام عليه السلام بحق أهل الكوفه، فقد بلغت الفرقه والشقاق والنفاق حدّاً جعل حتى أصحاب الإمام عليه السلام - فضلاً عن أعدائه - من أولئك الذين شهدوا بطولات الإمام عليه السلام وصولاته في الغزوات الإسلاميه يتهمونه بعدم العلم بفنون القتال! فما كان منه عليه السلام إلّا أن ذكرهم بتاريخه المشرق ومواقفه المشهوره التي تنكفى فيها

ص: ١١١

١- ١) «ذرفت» من ماده «ذرف» بمعنى سيل الدمع، وقد وردت هنا بمعنى زدت على الستين.

الأبطال؛ لقد نهضت بأمر القتال ولم أبلغ العشرين وقد ذرفت الآن على الستين، فكيف أتهم بعدم العلم بالحرب؟ نعم قد بليت باتباع بعيدين عن الانضباط من أهل الهوى والطيش الذين يتصرفون على ضوء ما تمليه عليهم أهوائهم، وعليه فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمة والفشل. وأفضل شاهد على ذلك النتيجة المريره لمعركة صفين والخدعه التي عمد إليها معاويه وعمرو بن العاص فى حمل المصاحف على أسنه الرماح، والأنكى من كل ذلك قضيه التحكيم وترشيح أبى موسى الأشعري وفرضه على الإمام عليه السلام. فيكاد يجمع الجميع اليوم بما فيهم المحققون وغيرهم أن النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى فى صفين لولا حاله النفاق والفرقه والعصيان التى دبت فى جيش الإمام عليه السلام ولما وقعت تلك الأحداث التى سود بها الأميون وجه التاريخ ومن هنا تعتبر موقعه صفين من أقسى الأحداث التى شهدها التاريخ الإسلامى وبالذات سيره الإمام على عليه السلام. وليت ذلك الأمر اقتصر على زمان على عليه السلام، بل مازال هنالك اليوم الكثير من الجهال الذين يشككون فى سياسه الحريه لأمير المؤمنين عليه السلام وكيفيه إداره شؤون البلاد، وما هذا إلدليل صارخ على عمق مظلوميه الإمام عليه السلام، الإمام عليه السلام الذى جعل التاريخ يدين بالفضل لذلك العهد العظيم الذى عهد له عامله على مصر مالک الأشر فى كيفيه إداره شؤون البلاد، فما زالت مبادئه وأسس قائمه فاعله رغم مرور أربعة عشر قرناً عليه، ليكون ذلك العهد مصداقاً لقوله سبحانه «كَشَجَرِهِ طَيِّبُهُ أَصْلُهُ ثَابِتٌ وَفَرْعُهُ فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أكلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» (١). فقد أذعن العدو والصدى لعمق الأصول والتعاليم التى أوردها الإمام عليه السلام فى نهج البلاغه والتى تمثل عمق سياسه الإمام عليه السلام، مع ذلك ينبى هذا وذاك من الحين إلى الآخر لاتهام الإمام عليه السلام. وقد أشار الإمام عليه السلام فى عده مواضع إلى هذه الحقيقه المريره المتمثله بالغدر والخيانه ونقض العهود والمواثيق. فقد خطبهم عليه السلام بعد حادثه الأنبار وغارت أهل الشام قائلاً: «والله ما تكفونى أنفسكم فكيف تكفونى غيركم إن كانت الرعايا قبلى لتشكوا حيف رعاتها واننى اليوم لأشكو حيف رعيتى كأننى المقود وهم القاده أو الموزوع وهم الوزعه» (٢). كما قال عليه السلام فى موضع آخر: «أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى»، ثم شكاهم عليه السلام بالقول: «اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى وكتلت النزعه بأشطان

ص: ١١٢

١-١) سورة ابراهيم / ٢٤ - ٢٥. [١]

٢-٢) نهج البلاغه، [٢] الكلمات القصار / ٢٦١.

الركى! أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها» (١).

٢ - الإجابة على سؤال

لقد أثار بعض شرّاح نهج البلاغه سؤالاً وهو: هل كانت تلك السياسة التي انتهجها الإمام عليه السلام ازاء الأمة (بتلك الشده والحده من الذم واللوم) صائبه؟ ألم تكن تدعو تلك الكلمات الأفراد إلى النفرة والشعور بالغربه والعزله؟ ويبدو هذا الإشكال أعمق وأرسخ إذا أخذنا بنظر الاعتبار مدى صبر الإمام عليه السلام وحلمه وشفوه وصفحه، فكيف ارتضى الإمام عليه السلام مخاطبتهم بتلك الكلمات؟ ويتضح الجواب على هذا السؤال من خلال ما ذكرناه سابقاً من أن ذلك الاسلوب كان يمثل الوسيله الأخيره التي من شأنها إثارة عواطف الأمة وتفعيل حركتها ونشاطها واخراجها من حاله الضعف والوهن التي كانت تسيطر عليها، ولعل ذلك الأسلوب يشبه ما تعارف لدى عوام الناس حين تعجز عن اصلاح أحدهم فتقول لابدّ من العمل بما يثير غيرته ويوقظ ضميره. وعليه فان تلك الكلمات تكشف بدورها عن بلاغه الإمام عليه السلام فى ايراده الكلام الذى ينطبق ومقتضى الحال. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأنّ الإمام عليه السلام عمد إلى ذلك الاسلوب بعد أن مارس كافه الطرق من قبيل حثهم على الجهاد وتذكيرهم بالقيم والمبادئ، واطرائهم والثناء عليهم - وعليه يبدو من المستبعد رأى بعض شرّاح نهج البلاغه (٢)، من أن الإمام عليه السلام أورد ذلك الكلام على ضوء «لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزه ولا تفرقهم عنى وحشه»؛ لأنّ الكثره المقتدره فى الحروب والمعارك مطلوبه ولا يسع أحد بمفرده أن يهب القتال جيش جرار طمعاً بتحقيق النصر.

٣ - سؤال آخر

لقد قال الإمام عليه السلام فى الخطبه المذكوره «لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا

ص: ١١٣

١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ١٢١. [١]

٢- ٢) فى ظلال نهج البلاغه ١ / ١٩٢. [٢]

قد ذرقت على الستين» فيقتدح إلى الذهن هذا السؤال: كان لعلي عليه السلام على الأقل ثلاث وعشرين عاماً حين الهجرة، واننا نعلم بأنّ المعارك الإسلاميه وقعت بعد الهجرة، فكيف ينسجم هذا الأمر وما ذكره الإمام عليه السلام ونقول في الجواب صحيح أنّ الحروب والمعارك وقعت فعلياً بعد الهجرة، إلّا أنّ السنوات الأخيره من الدعوه في مكه قد شهدت تصعيداً في مجابهه النبي صلى الله عليه وآله بما لا يقل شيئاً عن إعلان حاله الحرب. ونموذج ذلك محاصره بيت النبي صلى الله عليه وآله من قبل كافه رجالات قريش حين بات الإمام عليه السلام على فراشه لينجو رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه، كما صرحت بعض التواريخ بأنّ المشركين كانوا قد أعدوا قبل ذلك بعض الخطط لقتل النبي صلى الله عليه وآله؛ الأمر الذي كان يثير قلق أبي طالب. حتى أورد صاحب البحار أنّ صبيه المشركين كانوا يرمون رسول الله صلى الله عليه وآله بالحجاره حين يخرج من بيته في مكه، فكان على عليه السلام يدافع عنه وينقض عليهم فيولون هاربين (١).

فالواقع تشير مثل هذه الأحداث وما شابهها أنّ العهد المكي كان يعيش حاله الحرب رغم عدم نشوبها بصورة فعليّه حيث كان المسلمون يشهدون أذى الكفار باستمرار، الأمر الذي كان يتطلب بعض التدبير والتفكير من أجل كسب المعركه.

ولعل قوله عليه السلام: «نهضت فيها وما بلغت العشرين» - الذي ورد في الخطبه - إشاره إلى التأهب للحرب لا لنشوب الحرب.

٤ - الخاتمه المريره للواقعه

ذكر بعض شراح نهج البلاغه أن علياً عليه السلام حين أخبر عن غاره أهل الشام وقتلهم لعامله فخطب الناس.

ثم سكت عنهم رجاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم، فلم ينس أحد منهم بكلمه، فلما رأى صمتهم نزل، وخرج يمشى راجلاً حتى أتى النخيله، والناس يمشون خلفه حتى أحاط به قوم من أشرفهم، فقالوا: ارجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك، فقال: ما تكفونني ولا تفون

ص: ١١٤

أنفسكم. فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله، فرجع وهو اجم كئيب، ودعا سعيد بن قيس الهَمْدَانِيَّ، فبعثه من التَّخِيلَة في ثمانيه آلاف، وذلك أنه أخبر أن القوم جاءوا في جمع كثير.

فخرج سعيد بن قيس على شاطئ الفُرات في طلب سفيان بن عوف؛ حتى إذا بلغ عانات، سرح أمامه هانئ بن الخطاب الهَمْدَانِيَّ، فاتبع آثارهم حتى دخل أدانِيَّ أرض قنسرين وقد فاتوه، فانصرف.

وأتاه قوم يعتذرون، فقام حُجْر بن عدِي الكندي وسعيد بن قيس الهَمْدَانِيَّ، فقالا: لا يسوءك الله يا أمير المؤمنين، مُزْنَا بأمرك نتبعه، فوالله ما نَعْظَم جَزَعاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرنَا إن قُتِلتْ في طاعتك. فقال: تجهَّزوا للمسير إلى عدونا.

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه، قال لهم: أشيروا عليَّ برجل صليب ناصح، يحشر الناس من السواد. فقال له: سعيد بن قيس: يا أمير المؤمنين، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب، معقل بن قيس التميمي، قال: نعم.

ثم دعاه فوجهه، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عليه السلام (١).

ص: ١١٥

ومن خطبه له عليه السلام

وهو فصل من الخطبه التي «الحمد لله غير مقنوط من رحمه»

وفيه احد عشر تنبيها

نظرة إلى الخطبه

هذه من الخطب المعروفة للأمير المؤمنين على عليه السلام، وهي كما ذهب الشيخ المفيد في الإرشاد من خطبه الخالده التي حفظها أرباب الفهم والعقل، أو كما قال السيد الرضى: إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاعتاظ والازدجار. فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه القصيره - والتي يراها بعض المحققين جزءاً من الخطبه الخامسه والعشرين - إلى عشره جوانب مهمه بشأن الآخرة والزهد في الدنيا وعدم الاغترار بنعم الدنيا وزبرجها والاستعداد والتأهب للدار الآخرة، والتحذير من الأخطار التي تهدد سعادته الإنسان - فالحق أن الخطبه من الخطب العظيمة التي تسوق الإنسان إلى الزهد في الدنيا وعدم الإكتراث لزخرفها والانتباه إلى الآخرة، وقد انطوت على عبارات واضحة صريحه توقظ الإنسان من غفلته ورقدته.

ص: ١١٧

١ - ١) تعتبر هذه الخطبه من الخطب المهمه للأمير المؤمنين على عليه السلام التي رواها كبار علماء الفريقين في كتبهم ومؤلفاتهم، ومنهم ١ - الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ١ / ١٧١؛ ٢ - الباقلاني في كتاب إعجاز القرآن / ٢٢٢؛ ٣ - الحسن بن على بن شعبه في تحف العقول؛ ٤ - ابن عبد ربه في العقد الفريد ٢ / ٣٦٥؛ ٥ - ابن قتيبه في عيون الأخبار ٢ - ٢٣٥؛ ٦ - المسعودي في مروج الذهب ٣ / ٣٦٥؛ كما رواها المرحوم العلامة المجلسي في البحار عن كتاب مطالب السئول لمحمد بن طلحه الشافعي وكتاب الإرشاد للمفيد مع بعض الاختلاف.

«أَمَا بَعِيدٌ فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ، وَأَذْنَتْ بِوَدَاعٍ وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ، أَلَا وَإِنَّ اليَوْمَ المِضْمَارَ وَغَدًا السَّبَاقَ وَالسَّبَقَهُ الجَنَّةَ وَالغَايَةَ النَّارَ؛ أَفَلَا- تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَبِيتِهِ أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ! أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ. فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ وَلَمْ يَضُرُّهُ أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ وَضُرَّه أَجَلُهُ».

الشرح والتفسير

أشرنا سابقاً إلى أنّ الإمام عليه السلام تطرق إلى عشره أمور مهمّة في هذه الخطبة الغراء لدفع الناس باتجاه الزهد وعدم الاغترار بزخارف الدنيا؛ فقد ورد في الأخبار - كما أثبتت ذلك تجربته طيله التاريخ - أنّ حبّ الدنيا رأس كل خطيئته، وعليه فإنّ عدم الإكتراث لهذه الدنيا والزهد فيها يمثل الخطوة الاولى المهمه لإصلاح النفوس ومواجهه الفساد الفردى والاجتماعى.

فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصدير الدنيا ووداعها لأهلها «أما بعد فان الدنيا قد أدبرت، وأذنت (1) بوداع». وهنا يطرح هذا السؤال: كيف آذنت الدنيا بالأدبار والوداع؟ هناك الشواهد والأدلة الحيّة على هذا الأمر ومن ذلك قبور الماضين التي تضم بقايا رفات وعظام الملوكة والسلاطين والحكام والأمراء والكهول والفتيان والصبيان، والأظهر المحدود به للكهول

ص: ١١٩

١-١) «آذنت» من ماده «اذن» بمعنى الاعلان، ومنه الاذان الذى يعلن وقت دخول الصلاة.

واشتعال الرأس شيئاً والأمراض الفتاكة التي تودي بحياه الأفراد، حقاً لقد أصيبت الدنيا بالصمت والسكوت، إلّا أنه مازالت تتحدث بلسان العبره! وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في احدى خطبه «فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للعالم عماراً وكان الآخري لم تنزل لهم داراً». (١)

ثم أشار عليه السلام في النقطة الثانيه إلى موضوع إقبال الآخري «وإن الآخري قد أقبلت، وأشرفت باطلاع» (٢). إن الموت يعد المنزل الأول من منازل الآخري والذي يبتلع أبناء الدنيا، وهذا بدوره من علامات إقبال الآخري. ومن هنا فقد أوصى الإمام عليه السلام الجميع بالاستعداد إلى الآخري ومغادره الدنيا والتزود لتلك الدار المحفوفه بالخطر قبل فوات الأوان. وذكر عليه السلام في النقطة الثالثه بالرابطه القائمه بين داري الدنيا والآخري فقال «ألا وإن اليوم المضممار (٣) وغدا السباق (٤) والسبقه الجنّه والغايه النار» فقد شبه عليه السلام بهذه العبارة الرائعه الإنسان بالخيال الذي يخوض السباق، فمن الواضح أنّ مثل هذا الإنسان وعلى غرار الخيال يحتاج إلى التمارين والتدريبات المسبقه، حيث تصطلح العرب بالمضممار على الموضوع أو الزمان الذي يضم فيه الحيوان، بل يطلق على الحيوان الذي ينحف إثر التمارين لا على كل حيوان كما صرح الراغب في المفردات. آنذاك يبدأ السباق الذي يتضمن الفوز والخساره وتسلم الجوائز من قبل الفائزين. فالإمام عليه السلام يرى الدنيا ميدان التأهب والاستعداد والآخري ميدان السباق والجوائز، وسوف تكون جائزه الفائزين الجنّه ونصيب الخاسرين النار. ومن البديهي أنّ أحداً لا يسعه التمرين في ميدان السباق، بل عليه أن يتمرن ويعد نفسه قبل السباق؛ وهكذا الحال في المحشر،

ص: ١٢٠

١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ١٨٨. [١]

٢- ٢) «اطلاع» من ماده «طلع» بمعنى الظهور، وطلوع الشمس بمعنى ظهورها، ويرى البعض أنّها تطلق على العلم المفاجئ، وأشرفت باطلاع، أقبلت بغيره.

٣- ٣) «المضممار»: الموضوع والزمن الذي تضم فيه الخيل، وتضمير الخيل أن تربط ويكثر علقها وماؤها حتى تسمن، ثم يقلل علفها وماؤها وتجري في الميدان حتى تهزل، ثم ترد إلى القوت، والمدّه أربعون يوماً، وقد يطلق التضمير على العمل الأول أو الثاني، واطلاقه على الأول لأنّه مقدمه للثاني وإلّا فحقيقه التضمير احداث الضمور وهو الهزل وخفه اللحم، وإنّما يفعل ذلك بالخيل لتخف في الجري يوم السباق.

٤- ٤) «السباق» من ماده «سبق» ومسابقه من باب مفاعله ولسباق نفس المعنى. وسبقه بمعنى الهدف المطلوب الذي يتسابق من أجله أو بمعنى الجائزه.

فليس هنالك من مجال للحسنات والتوبه من السيئات وتهذيب النفوس وتطهيرها، ولا بدّ من إعداد هذه الأمور في الحياه الدنيا. وعليه فلا ينبغي أن ينسى الأفراد هذه الحقيقه وهى إن عدم التزود فى الدار الدنيا والتأهب الروحى والمعنوى فإنّ النتيجة النهائيه للسباق فى الآخره لن تكون سوى الفشل والخيبه والخسران التى تعنى هناك نار جهنم. والجدير بالذكر هنا أنّ الفائزين هناك يتفاوتون فى الدرجات، فهناك الفائز الأول والثانى والثالث وهكذا؛ الأمر الذى يتجسد بوضوح فى عالم الآخره ودرجاتها. فيتضح ممّا تقدم أنّ السباق بمعنى المسابقه والسبقه بمعنى الهدف والغايه التى ينبغى للمتسابق أن يصل إليها، والسبقه على وزن لقمه بمعنى الجائزه وقد علق المرحوم السيد الرضى (ره) - فى ذيل هذه الخطبه كما سيأتى - على تعبير الإمام عليه السلام: «والسبقه الجنّه والغايه النار» فقال: لم يقل عليه السلام السابقه النار كما قال السابقه الجنّه؛ لأنّ الاستباق إنّما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفه الجنّه وليس هذا العنى موجوداً فى النار، فخالف الإمام عليه السلام بين اللفظين لاختلاف المعنيين. ولا يبدو هنالك من تعارض بين كلامه عليه السلام والآيه الشريفه «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (١)؛ لأنّ «سابقوا» لا تعنى السباق فى هذا العالم، بل تعنى التأهب من أجل سباق الآخره، والدليل على ذلك أنّها جعلت الجنّه هى الهدف النهائى لهذه المسابقه، بعبارة أخرى فان السباق هنا نحو الخيرات والصالحات، أمّا السباق هناك نحو الجنّه التى تمثل حصيله الأعمال. ثم أشار عليه السلام فى النقطة الرابعه إلى واحده من أهم أمتعته السفر الأخرى الخطير وهى التوبه فقال: «أفلا- تائب من خطيئته قبل مبيته (٢)، ألا- عامل لنفسه قبل يوم يؤسه» فهذه التعبيرات - التى تهدف إلى إثارة العارفين والعمل على تشجيعهم إلى جانب تنيبه الغافلين وإيقاظهم - هى فى الواقع تمثل النتيجة المنطقية للعبارات السابقه، وذلك إذا كانت الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع وإنّ الآخره قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق والسبقه الجنّه والغايه النار فلم لا يتوب أهل الحجى والعقل وينيبوا إلى

ص: ١٢١

(١-١) سورة الحديد / ٢١. [١]

(٢-٢) «منيه» من ماده «منى» على وزن نقى، قال صاحب مقاييس اللغه بمعنى تقدير الشىء، ثم أطلقت على الموت والأجل، لأنّ الموت أمر مقدر، وتطلق المنى على الأمانى التى تدور فى خلد الإنسان.

اللّٰه ويغتتموا الفرصه بالأعمال الصالحه ويستعدوا لسفر الآخره؟ ولعل هذا هو الذى أشار له الإمام عليه السلام فى خطبه أخرى «فاعملوا وأنتم فى نفس البقاء، والصحف منشوره والتوبه مبسوطه» (١).

أما تعبیره عليه السلام عن يوم القيامه بيوم البؤس فلما يكتنفه من أحداث مهوله وعذاب شديد وهلع وخوف عظيم. وقد أشارت أغب الآيات القرآنيه لذلك العذاب لتحذر الإنسان وتحثه على اغتنام الفرصه والتزود لذلك اليوم العصيب الملىء بالمخاطر التى لا ينجى منها سوى العمل الصالح. أمّا فى النقطه الخامسه فقد أشار عليه السلام إلى الفرص التى تمر مرّ السحاب والتى يقود عدم اغتنامها إلى الندم «ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرره أجله» ويخسر بالمقابل من يقصر فى العمل، كما أنّ أجله يصبح عليه وبال «ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه أجله». وتعبيره عن الحياه الدنيا بأيام الأمل لهو تعبیر لطيف يشير إلى قصر وإيجابيه عالم الدنيا؛ لأنّ دقائق عمر الإنسان تمثل أعظم فرصه من أجل بلوغ السعاده والفوز بالفلاح الأخرى الخالد.

فعلل التوبه فى لحظه من اللحظات تطفئ بحاراً من نيران جهنم كانت تتربص بهذا الإنسان، ولعل العمل الصالح الخالص فى ساعه من عمره ينتهى به إلى جنان الخلود والرضوان.

تأملات

١ - الدنيا والآخره فى الأحاديث

يرى الدين الإسلامى الحنيف وجميع الأديان السماويه أنّ الدنيا دار طارئه متبدله جعلت ليتزود منها الإنسان ويكسب فيها السمو والكمال والمعرفه التى تحلق بها إلى عالم الخلود، ومن هنا فإنّ اللّٰه يتلى العباد فيها بأنواع البلاء والامتحان من خلال العبادات والطاعات وترك الشهوات وتحمل المصائب والمشكلات التى من شأنها تربيّه الإنسان وصقل شخصيته

ص: ١٢٢

(١-١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٣٧. [١]

وتهيئته لعالم الآخرة المفعم بالخير والبركه. وقد تضافرت الروايات التي تعرضت لبيان حقيقه الدنيا بعده تعبيرات مختلفه رائعه، ومن ذلك الخطبه التي نحن بصدددها والتي شبّه فيها الإمام عليه السلام الدنيا بالدوره التدريبيه التي يستعد فيها الإنسان لسباق الآخرة، الذي يحصل فيه الغالب على الجنّه والخاسر النار. وقد جاء في الحديث أن «الدنيا مزرعه الآخرة» (١) ومن الواضح أنّ المزرعه ليست مكاناً للحياه والاستقرار بل هي مكان للتزود من أجل مكان آخر، وقد عبّر عنها بالمتجر ودار الموعظه والمصلى، كما أورد ذلك الإمام على عليه السلام في نهج البلاغه فقال «إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها. . . ودار موعظه لمن اتعظ بها، مسجد أحبّاء الله ومصلى ملائكه الله ومهبط وحى الله ومتجر أولياء الله» (٢). وروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنّ المسيح عليه السلام قال للحواريين: «إنّما الدنيا قنطره فاعبروها ولا تعمروها» (٣). كما عبر عنها الإمام على عليه السلام بأنّها «دار ممر» (٤) و«دار مجاز» (٥). وأخيراً فقد وصفها الإمام الهادى عليه السلام بالسوق الذي يتضمن الربح والخساره «الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون» (٦). والخلاصه فإنّ كل هذه العباره ترشد إلى عدم النظر إلى الدنيا على أنّها هي الهدف النهائى، بل هي وسيله لادخار العمل الصالح وكسب المعارف من أجل الظفر بالدار الآخرة. ولعل البعض يرى أنّ هذا الموضوع ساذج، إلّا أنّ الواقع هو أنّ أهم مسأله مصيريه فى حياه الإنسان فى أنّه كيف يتعامل مع الإمكانيات الماديه التى زود بها فى هذه الحياه وكيف ينظر إلى هذه الدار، هل يراها وسيله وأداه من أجل الوصول إلى هدف معيّن، أم يراها هي الهدف النهائى وليس وراءها شىء. والواقع أنّ تأكيد الإمام عليه السلام فى بدايه الخطبه على أنّ الدنيا ميدان الإستعداد لسباق الآخرة إنّما يشكل الدعامه الأساسيه الراسخه لسائر المواعظ المهمه التى وردت فى هذه الخطبه.

ص: ١٢٣

١-١) ورد هذا الحديث النبوى فى غوالى اللثالى ١ / ٢٦٧.

٢-٢) نهج البلاغه، [١] الكلمات القصار / ١٣١.

٣-٣) بحار الأنوار ١٤ / ٣١٩ ح ٢١. [٢]

٤-٤) نهج البلاغه، الكلمات القصار / ١٣٣.

٥-٥) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٣. [٣]

٦-٦) بحار الأنوار ٧٥ / ٣٦٦، [٤] مواعظ الإمام الهادى [٥] عليه السلام

النقطه التى تعرضت لها الخطبه والتى ينبغى الالتفات إليها، إنّما تكمن فى عدم إمكانية تدارك الخسران الذى يطيل الإنسان فى هذه الحياه وفقدانه للفرص التى كان من شأنها أن تجعله يفوز بالدار الآخره، والواقع إنّ السباق الذى ينتظر الإنسان إنّما يقام لمره واحده فقط، فهناك ميدان للتمرين وآخر للسياق ليس للتكرار إليه من سبيل، ومن خسر فليس أمامه من فرصه لتدارك خسارته، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله». أما الندم فلا يداوى جرحاً ولا يصلح فاسداً هناك فليصرخ الصارخون: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ» (١) فيأتى الجواب «كَلَّا» .

ص: ١٢٤

«ألا- فاعملوا في الرغبه كما تعملون في الرهبه! ألا وإني لم أر كالجنيه نام طالبيها، ولا كالتار نام هاربيها، ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجز به الضلال إلى الردى. ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فترودوا في الدنيا من الدنيا ما تحززون به أنفسكم غداً» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى مسأله مهمه ربما غفل عنها أغلب الناس: «ألا فاعملوا في الرغبه كما تعملون في الرهبه» فعباده الله وطاعته لا- تعنى الفرع إليه فى الشده والبلاء والتولى عنه فى اليسر والرخاء؛ ولو كان الأمر كذلك لكان مشركوا الجاهليه من خلص العباد، فقد وصفهم القرآن الكريم بالقول: «فإذا ركبوا فى الفلك دعو الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يُشركون» (١) ثم خاطبهم فى آيه أخرى «وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً» (٢). والواقع أن العبره ليست فى الاقبال على الله عند الفرع، بل العبره أن يقبل العبد عليه حين الرخاء والرفاه والشعور بالقوه والافتدار، فما كان مع الله فى هذه الظروف كان الله معه فى الظروف العصيبه. فعلامه الإيمان الخالص أن يتوجه العبد إلى الله ويذكره على كل حال فى العافيه والسقم والفتوه

ص: ١٢٥

١-١) سورة العنكبوت / ٦٥. [١]

٢-٢) سورة الاسراء / ٦٧. [٢]

والكحول والفقر والغنى والهزيمه والانتصار والحريه والسجن وما إلى ذلك. ومن هنا نرى الأنبياء والأوصياء والأولياء لا ينفكون في حال من الأحوال عن التضرع إلى الله والتوجه إليه. فالمتتبع لسيره الإمام على عليه السلام لا يرى في عبادته من تفاوت بين جلوسه في البيت حين زحزت عنه الخلافة ونهوضه بالأمر وإدارته لشؤون البلاد الإسلاميه، فالزهد والتهجد وإعانه الضعفاء والفقراء وطلاق الدنيا إلى غير رجعه كان من المعاني الواضحه في عبادته الإمام عليه السلام: ثم قال عليه السلام: «ألا وإني لم أر كالجنه نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها». لقد رأينا عدّه أفراد من الذين يعيشون الأرق ليالي حين يهتمون ببعض الأسفار القريبه التي تدر عليهم بعض الأرباح والفوائد، فكيف ينام طالب الجنّه الباقيه - النعمه التي لا تفوقها نعمه أو الخائف من نار جهنم التي لا يتصور عذابها وأن رؤيته غير سماعه - ولا يكثرث لهذه الأمور؟! ولعل ذلك يعزى إلى ضعف ايمان الفرد بالعالم الآخر، أو إلى سكر النعم والمنافع التي يتمتع بها في حياته، ومهما كان السبب فإنّ الغفله عن الآخره لمن الظواهر المأساويه الاليمه التي ينبغي للإنسان التوقف عندها ومعالجتها. ولاشك أنّ من وظائف أئمه الدين وزعماء المسلمين ايقاظ الناس من غفلتهم وترسيخ دعائم ايمانهم ولفت أنظارهم إلى الدار الآخره وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا والذوبان فيها. وفي النقطه الثامنه يشير الإمام عليه السلام إلى مسأله ذات صلّه بهذا الموضوع فيقول: «ألا وإنّه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى». طبعاً لا يتضح عمق هذا الكلام مالم نقف على التعريف الصحيح للحق والباطل. فالحق عباره عن الواقعيات، سواء كان هذا الحق تكوينياً أم تشريعياً. ويراد بالحق التكويني واقعيات عالم الوجود، ويقابل ذلك الباطل المتمثل بالخيال والسراب الذي لا واقع له ولا وجود سوى في عالم التصور والوهم. أما الحق التشريعي فيتمثل بالقوانين والتعاليم الإلهيه التي شرعت من أجل الفرد أو مجموعه الأفراد على ضوء المصالح والكفاءات الذاتيه أو الاكتسابيه، ويقابله الباطل الذي يتجسد بعرقه القوانين والتمرد عليها باسم القانون وتضييع العدالة وسلب الحريات وذبحها بمرأى ومسمع من الناس. ومن البديهي أنّ من يولى ظهره للحق سواء على مستوى التشريع أو التكوين فإنّه يقع في حبال الباطل من قبل الوهم والخيال والسراب الذي يحسبه الظمآن ماء؛ الأمر الذي لا يرتقى بالإنسان إلى الشىء،

والواقعيات هي التي تبلغ بالإنسان الهدف لا الوهم والخيال الذي لا يجر على الإنسان سوى الخذلان والخسران. ولعل الإنسان يستطيع عن طريق الباطل اغفال الآخرين مدّه من الزمان، إلّا أنّ مصيره المحتوم إنّما يؤول إلى البؤس والشقاء لا محاله في خاتمه المطاف وعليه فان قوله عليه السلام: «ألا وإنّه من لا ينفعه الحق، يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى» إنّما يمثل حقيقه واقعيه واضحه. طبعاً صحيح أن الاقرار بالحق واقتفاء آثاره إنّما يقترن غالباً بتحمل الشدائد المريره، إلّا أنّ هذه المراره تبدو كمراره الدواء التي تجعل السقيم يتماثل للشفاء، ولا يجنى من تلك المراره سوى السلامه والصحه والعافيه من المرض الذي ربّما يؤدى بصاحبه إلى الموت. ويتضح ممّا تقدم أنّ الحق والباطل ليسا من قبيل الوجودات الاصطناعيه والأمر الاعتباريه؛ فالحق في عالم التكوين هو ذلك الوجود العيني وفي عالم التشريع هو عبارته عن الواجبات والمحظورات التي تستند إلى المصالح والمفاسد والتي تمثل بدورها واقعيات عينيه، وستتناول هذا الموضوع بالشرح في الأبحاث القادمه.

على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام هدف بهذه العبارة إلى إفهام الآخرين - علاوه على تنبيههم إلى أصل كلى له بالغ الأثر في مصير الناس - بأنّهم اذا لم يلتزموا بوصايا المنسجمه والحق والعدل فإنّهم سيقعون في مخالبا الظلم والجور والاضطهاد وإن أضرار الباطل ستجتاح حياتهم؛ الأمر الذي شهدوه في حياتهم ومسيرتهم. ثم تعرض الإمام عليه السلام - في النقطة التاسعه - إلى موضوع مهم يحكم حياه البشريه شاءت أم أبت «ألا- وإنكم قد أمرتم بالظعن (1) ودللتم على الزاد». والأمر بالظعن هو قانون الموت الذي يحكم حياه الناس، فالأطفال يسرون نحو الشباب، والشباب يتجهون نحو الكهوله وهذه الأخيره إنّما تنتهى بالموت. فهو قانون شامل جارى لا- يعرف الاستثناء والشواذ، كما أنّه قانون لا يقوى أحد على تجاوزه مهما كانت قوته وقدرته وعلمه ومعرفته فهو القانون الذي شرعته يد القدره الإلهيه لسمو الإنسانيه وتكاملها وقد تعرضت أغلب آيات كتاب التشريع.

ص: ١٢٧

١ - ١) «ظعن» على وزن «ظعن» بمعنى الرحيل من مكان إلى آخر ومن هنا اطلقت الظعينه على اليهودج لأنّه من وسائل السفر، وتستخدم أحياناً كنايةً عن النساء، لأنّهم غالباً مايركبن اليهودج.

لهذا الأمر التكويني كآلآيه: «كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» (١) والآيه: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ» (٢). وقد خوطب بهذا الأمر رسول الله صلى الله عليه وآله الذى يمثل أشرف كائنات عالم الخلقه «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» (٣) والآيه: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» (٤).

كما يحتمل أن يكون المراد بقوله عليه السلام «أمرتم بالظعن» الأمر بالاستعداد للرحيل من الدنيا، كما ورد ذلك فى الخطبه ٢٠٤ «تجهزوا رحمكم الله فقد نودى فيكم بالرحيل» (٥). وأما الأمر بالتجهز والتزود فإنه يمثل رساله جميع الأنبياء إلى البشرىه وتنبيهها إلى الطريق الخطير الذى ينتظرها؛ وهو طريق طويل يشمل الفاصله بين الدنيا والآخره ولا يمكن السير عليه دون حمل الزاد، ولا معنى للزاد هنا سوى الإيمان والتقوى والورع والعمل الصالح «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٦) ولا ينفع فى الآخره سوى القلب السليم المفعم بالإيمان وحب الله «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (٧).

وعليه فلا ينبغي أن يلتفت سالكوا هذا الطريق إلى الدنيا وما فيها وينخدعوا بزخارفها، بل عليهم الهم بالعمل الصالح الذى لا يبلغ بهم الهدف المنشود سواه «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً» (٨).

ص: ١٢٨

[١-١] سورة آل عمران / ١٨٥. [١]

[٢-٢] سورة النساء / ٧٨. [٢]

[٣-٣] سورة الزمر / ٣٠. [٣]

[٤-٤] سورة القصص / ٨٨. [٤]

[٥-٥] على ضوء المعنى الأول فإن الأمر فى قوله «أمرتم بالظعن» هو أمر تكوينى وأجل الهى ولكن ليس فى الجملة من تقدير، وهو أمر تشريعى على ضوء المعنى الثانى وفى عبارته تقدير هو التجهز والاستعداد، أو الظعن بالمعنى المجازى.

[٦-٦] سورة البقره / ١٩٧. [٥]

[٧-٧] سورة الشعراء / ٨٨ - ٨٩. [٦]

[٨-٨] سورة الكهف / ٤٦. [٧]

وأخيراً بعد أن لفت انتباه الأمة إلى الآخرة وزهداها في الدنيا وأوصاها بالتزود لتلك الدار وحذرهما من ذلك الطريق الخطير الذى ينتهى سالكه إلى السعادة والقرب الإلهى إذا سار عليه بعمله الصالح وورعه وتقواه، عاد عليه السلام ليحذر من عقبتين خطيرتين تصدان الإنسان عن السعادة والفلاح «وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتياع الهوى، وطول الأمل» وهو المعنى الذى ورد فى الخطبه ٤٢ بعد أن تناوله الإمام عليه السلام بشيء من التوضيح فقال: «أيها الناس وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتياع الهوى وطول الأمل، فأما إتياع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسى الآخرة». وتفيد الأحاديث النبويه والأخبار والروايات أنّ هذه التعاليم قد احتذاها أمير المؤمنين عليه السلام من معلمه الأول الأكرم صلى الله عليه وآله؛ فقد وردت هذه المعانى فى بحار الأنوار نقلاً عن النبى صلى الله عليه وآله (١).

والواقع هو أنّ هذين المرضين يعدان من أعظم عوامل الذنوب والمعاصى، لأنّ إتياع الهوى لا يعرف معنى للحدود والقيود، فإذا سيطر على الإنسان أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه بحيث لا يطيق سماع الحق من النبى صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام ولا تعد لديه قدره على رؤيه الحقائق التى تحيط به، وعليه فهو يعيش حياته الدنيا كالصم البكم العمى الذين لا يفقهون؛ الأمر الذى يجعله عرضه للسقوط فى الهاويه. أمّا طول الأمل فأنّه يزين الدنيا بما ينسى الآخرة ويقتصر بهمه الإنسان على الدنيا التى يرى فيها مقامه الأخير وهدفه النهائى. ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بقوله «تزدوا فى الدنيا من الدنيا ما تحرزون (٢) به أنفسكم غداً» نعم فهناك سفر طويل على الأبواب، سفر يتطلب المتاع والزاد الكثير، وعليه فينبغى للعاقل أن يلتفت إلى نفسه ويجهزها بما يجعلها تجتاز ذلك السفر الطويل قبل فوات الأوان، ويتعد عن الأخطار والمطبات التى يمكنها عرقله هذه السفر، فيطويه بكل إيمان وثبات ليصل إلى هدفه المنشود.

تأملان

١ - خير الزاد

لا نرانا نبالغ إذا شبهنا الناس بالمسافرين الذين يغادرون منطقته صغيره ملوثة نحو عالم

ص: ١٢٩

١-١) بحار الأنوار ٧٠ / ٩١. [١] فقد روى هذه الحديث جابر بن عبدالله الأنصارى عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى باب حب الدنيا.

٢-٢) «تحرزون» من ماده «حرز» بمعنى الحفظ، و«الحرز» على وزن الحرص بمعنى الموضع الآمن لحفظ الأشياء.

كبير مفعم بالطهر والخير والعطاء، بل هذا هو السفر الواقعي والحقيقي الذي ينقل الإنسان من هذا العالم السفلى والتمهات للدينا إلى عالم الآخرة العلوى والسامى الخالد، كما أنّ لوازم السفر التى يهيئها المسافر، هى الأخرى لا بد أن توفر فى هذا السفر الشاق من قبيل الزاد والمتاع والمركب ومعرفة نقطه الانطلاق والغايه ومطبات الطريق والمخاطر التى تعترض السبيل والتى ينبغى دراسه كل واحه منها بصوره مستقله - فقد صرح القرآن الكريم بأنّ زاد هذا السفر إنّما يكمن فى الورع والتقوى فى اجتناب المعاصى وطاعه أوامر الله والإتيان بالأعمال الصالحه. وهو المعنى الذى أكدّه أمير المؤمنين على عليه السلام كراراً فى نهج البلاغه، ومن ذلك ماورد فى الخطبه ١٨٣ حيث قال عليه السلام: «وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم وقد أؤذنتم منها بالارتحال وأمرتم فيها بالزاد» وهن يبرز هذا السؤال: إنّما يستفاد من الزاد والمتاع طيله السفر لا- فى المقصد والغايه، والحال إنّ الورع والتقوى تستفاد فى الآخرة وتشكل مفتاح أبواب الجنان، فكيف اعتبرت التقوى هى الزاد والمتاع؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بد من القول بأنّ مبدأ هذا السفر طويل يبتدأ من لحظه الموت وسكراته ويستمر حتى عالم البرزخ وما يتخلله من مواقف القيامة ومنازل السؤال والحساب والصراط - والتى تتسم بتعدها وهول مطلعها - حتى تنتهى بالجنان. ومما لاشك فيه أنّ التقوى هى زاد فى عالم البرزخ كما أنّها الزاد والمتاع فى مواقف القيامة ومنازلها قبل الدخول إلى الجنّه - نعم فإنّ زاد التقوى هو الذى يجعل الإنسان يجتاز هذه المنازل الخطيره بسلام ويقوده إلى منزله الأخير المتمثل بالجنه.

جدير بالذكر أنّ الآيه الشريفه «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» جعلت التقوى هى المعيار الرئيسى لكرامه الإنسان وقيمته؛ الأمر الذى يؤكد المعنى المذكور فى أنّ السبيل الوحيد للنجاه غداً إنّما يكمن فى التقوى والتى عبّر عنه أحياناً بالزاد وأحياناً أخرى بصفتها تمثل ملاك الكرامه الإنسانيه. وهذا ما وضحته بعض العبارات الوارده فى الخطبه ٢٠٤ من نهج البلاغه «وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فإنّ أمامكم عقبه كؤودا ومنازل مخوفه مهوله لا بدّ من الورود عليها والوقوف عندها». نسال الله سبحانه أن يوفقنا لتوفير هذا الزاد القيم قبل فوات الأوان، فلا نرد ذلك السفر بأيدى خاليه، والحق أنّها خاليه مقارنة بما عليه تلك الدار.

لابد من التعامل بصورة جاده مع التحذير الذى أختتمت به الخطبه بشأن الأخطار الكبرى التى يفرزها إتباع الهوى وطول الأمل؛ فهما مكنم الخطر والمأساه التى تصيب الإنسان. فاتباع الهوى يعد أعظم عقبه تعترض سبيل سعادته الإنسان. فالاستسلام المطلق للشهوات والأهواء النفسيه يعد العدو اللدود لسعادته البشريه. القرآن الكريم من جانبه حذر حتى الأنبياء من هذا العدو الفتاك، ومنهم نبي الله داود عليه السلام الذى قال بشأنه «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» (١) كما صور هوى النفس فى موضع آخر بالصنم الذى يعبد من دون الله «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (٢). والحق أن إتباع الهوى ليعمى البصيره ويصم السمع ويختم على العقل والفكر ويحول دون الإنسان وتميز بديهيات الحياه، فهل هنالك من خطر أعظم وأفدح منه؟! ومن هنا اقتصر القرآن بوعدده الجنه لأولئك الذين يخشون الله ويسيطرون على أهوائهم «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» (٣).

طول الأمل هو الآخر من أسوأ وأخطر العقبات التى تعترض سبيل السعاده الإنسانيه؛ فقد دلت التجارب على مدى التأريخ أن آمال الإنسان الخياليه لا تقف عند حدود، فلا يزداد نحوها إلا تعطشاً. ومن الطبيعى أن مثل هذه الآمال تشل حركه الإنسان وتسلبه جميع طاقاته الفكرية والبدنيه ولا تبقى له شيئاً يشده نحو الآخره. فاننا نعرف بعض الأفراد الذين عاشوا هذه الآمال الكاذبه حتى اللحظات الأخيره من حياتهم دون أن يلتفتوا حتى لتربيته فلذات أكبادهم. ومن عجائب هذه الآمال، أن الإنسان كلما تقدم أكثر كانت هذه الآمال أكذب بحيث تضاعف غرور الإنسان وتصدده عن الواقع. وهذا هو الوضع السائد لدى الكفار والذى أشار إليه القرآن فى خطابه لرسول الله صلى الله عليه و آله «ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

ص: ١٣١

١-١ (١) سورة ص / ٢٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة الجاثيه / ٢٣. [٢]

٣-٣ (٣) سورة النازعات / ٤٠ - ٤١. [٣]

يَعْلَمُونَ» (١)، المعنى الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى قصار كلماته فى نهج البلاغه «من أطال الأمل أساء العمل» (٢).

ويبدو أن تلك الآمال متعذره النيل من خلال الأسباب المشروعه، وهى لا تيسر إلّا من خلال خلط الحلال بالحرام وهضم حقوق الآخرين ونسيان الله والآخره. ومن هنا حذر الإمام عليه السلام فى الخطبه ٨٦ من نهج البلاغه أولئك الذين ينشدون السعاده بالقول «واعلموا أنّ الأمل يسهى العقل وينسى الذكر فأكذبوا الأمل فانه غرور وصاحبه مغرور» ويبدو قصر الأمل على درجه من الأهميه بحيث اعتبره الإمام عليه السلام الركن الأصلى للزهد، وهذا ما أورده فى الخطبه ٨١ من نهج البلاغه «أيها الناس، الزهاده قصر الأمل والشكر عند المنعم والتورع عند المحارم». وآمال الإنسان كانت ومازالت أبعد وأطول من عمر الإنسان وإمكاناته وقدراته؛ الأمر الذى لا يجعل أهل الهوى وطلاب الدنيا يحققون تلك الآمال ويظفروا بها أبداً، وغالباً ما يودعون الدنيا بمنتهى الانزجار والاستياء فى لحظات نزع أرواحهم. وبالطبع لا- ينبغى الغفله عن الأمل بشكل الدافع الأساس لسعى الإنسان وجهده وانطلاقته فى هذه الحياه، وعليه فالأمل حسن وليس بقبيح ولا يمكن مواصله الحياه من دونه، إلّا أنّ المذموم إساءته وطوله وبعده عن الواقع واستناده إلى الوهم والخيال. ومن هنا ورد فى الحديث «الأمل رحمه لامتى ولولا الأمل ما رضعت والده ولدها ولا غرس غارس شجراً» (٣).

وبناءً على ما تقدم فان وظيفه أساتذه الأخلاق خطيره ثقيله؛ وذلك لأنهم لابد أن يضيئوا نور الأمل فى قلوب الناس من جهه ومن جهه أخرى ينبغى أن يبقوا عليه متوازنًا بعيداً عن الإفراط. والآمال المنطقيه هى تلك التى تنسجم ومتطلبات الإنسان وقدراته الواقعيه بحيث لا تبعده عن هدفه المنشود. وبالطبع فإنّ الإسلام لا يعارض التخطيط والبرمجه من أجل المستقبل والتطلع إلى الغد ولا سيما بالنسبه للأنشطه الاجتماعيه التى تعود بالنفع على المجتمع الإسلامى وتضع حداً للتبعيه لأعداء الإسلام، فإنّ مثل هذه الأنشطه ليست مذمومه فحسب،

ص: ١٣٢

١-١ (١) سورة الحجر / ٣. [١]

٢-٢ (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار / ٣٦.

٣-٣ (٣) بحار الأنوار / ٧٤ / ١٧٣. [٢]

بل تعتبر عباده والمذموم في الإسلام أن الإنسان يغرق في هاله من الآمال الفارغه التي تنسى الآخرة، وبالتالي لا يظفر الإنسان بها مهما جند طاقته وإمكاناته.

وفي الحياه الفرديه مطلوب هو التفكير في العاقبه والذي إصطلحت عليه الروايات بالحزم. والمذموم في الإسلام أن يغرق الإنسان في الأمل حتى ينسى الآخرة، ويفنى كل طاقته وقواه في ذلك الأمل الذي لن يبلغه قط.

تكملة

قال السيد الشرف (رض) وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالاعتاق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاعتاظ والازدجار ومن أعجبه قوله عليه السلام: «ألا وإنَّ اليوم المضمار وغداً السِّباق، والسِّبْقُ الجَنَّةُ والغايه النَّارُ»، فإن فيه - مع فخامه اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل، وواقع التشبيه - سرّاً عجيباً ومعنى لطيفاً، وهو قوله عليه السلام: «والسِّبْقُ الجَنَّةُ، والغايه النَّارُ» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ولم يقل: «السِّبْقُ النَّارُ». كما قال، «السِّبْقُ الجَنَّةُ»؛ لأن الاستباق إنما يكون إلى امر محبوبٍ وغرضٍ مطلوبٍ وهذه صفه الجَنَّةِ وليس هذا المعنى موجوداً في النار، نعوذ بالله منها...!

ومن خطبه له عليه السلام

بعد غاره الضحاك بين قيس - صاحب معاويه - على الحاج بعد قصه الحكمين، وفيها يستنهض أصحابه لما حدث في الأطراف.

نظره إلى الخطبه

كما ورد في أسناد الخطبه فان بعض المحققين يرون أن هذه الخطبه جزء من الخطبه السابعه والعشرين؛ ويبدو أنّها كذلك، لأنّ مضامينها واحده تفيد مدى ضعف أهل الكوفه والعراق تجاه حملات معاويه وأهل الشام، وكأنّهم لم يشعروا بما كان يدور حولهم والجرائم البشعه التي كان يرتكبها الشاميون. فقد جعل الإمام عليه السلام يمطرهم بوابل الدم والتشنيع لعلهم يفيقون إلى أنفسهم ويتبها إلى الأخطار التي كانت محدقه بهم. فقد قال ابن أبي الحديد:

ص: ١٣٥

١-١) قال صاحب مصادر نهج البلاغه هذه من الخطب المعروفة التي رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى (ره) ومنهم: ١ - الجاحظ في البيان والتبيين ١ / ١٧٠. ٢ - ابن قتيبه الدينورى في الإمامه والسياسه ١ / ١٥٠. ٣ - ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤ / ٧١. ٤ - البلاذرى في كتاب أنساب الأشراف (في شرح سيره على عليه السلام) ٥ / ٣٨٠. ٥ - القاضى نعمان المصرى في دعائم الإسلام ١ / ٣٩١ (مع اختلاف وما ورد في النهج وقال الشارح الخوئى يستفاد من بحار الأنوار والاحتجاج والإرشاد أنّ هذه الخطبه جزء من الخطبه ٢٧ (شرح نهج البلاغه، الخوئى ٤ / ٢١).

كانت غارہ الضحاک بن قیس بعد الحکمین، قبل قتال النهروان، وذلك أن معاوية لمّا بلغه أنّ عليّاً عليه السلام بعد واقعه الحکمین تحيّل إليه مُقبلاً هاله ذلك، فخرج من دمشق معسكراً، وبعث إلى كور الشام، فصاح بها: إنّ عليّاً قد سار إليكم. وكتب إليهم نسخه واحده، فقرئت على الناس:

ج ج

فعد ذلك دعا معاوية الضحاک بن قيس الفهري، وقال له: سرّ حتى تمرّ بناحية الكوفه وترتفع عنها ما استطعت، فمنّ وجدته من الأعراب في طاعه عليّ عليه السلام فأغز عليه، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغز عليها، وإذا أصبحت في بلده فأمس في أخرى، ولا تُقيمّن لخيّل بلغك أنّها فقد سرّحت إليك لتلقاها فتقاتلها. فسرحه فيما بين ثلاثه آلاف إلى أربعة آلاف.

فأقبل الضحاک، فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب، حتى مر بالشُعبيّ فأغار على الحاجّ، فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقى عمرو بن عميس بن مسعود الدّهليّ، وهو ابن أخ عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقتله في طريق الحاجّ عند القططانه. وقتل معه ناساً من أصحابه.

استصرخ أمير المؤمنين عليه السلام الناس عُقيب غاره الضحك بن قيس الفهري على أطراف أعماله، فتقاعدوا عنه، فخطبهم. (١)

ص: ١٣٦

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١٣ / ١١٧. [١]

القسم الأول: عوامل ضعف أهل الكوفة

«أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَيْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلَفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ! كَلَامُكُمْ يُوهِي الصَّمَّ الصَّلَابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمَعُ فِيكُمْ الْأَعْدَاءُ! تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَمَاذَا حِجَاءُ الْقِتَالِ قُلْتُمْ: حَيْدَى حَيَادٍ! مَا عَزَّتْ دَعْوُهُ مِنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَّاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلٍ وَسَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلَ، دَفَاعَ ذِي الدَّيْنِ الْمَطْوِلِ» .

الشرح والتفسير

ذكرنا سابقاً أنّ الخطبة أُلقيت في ظروف عصيبة جداً، حيث شنت الغارات تلو الغارات على أهل العراق، جعلت الإمام عليه السلام يسعى جاهداً لا عداد الناس، إلّا أنّ الضعف والوهن كان قد بلغ مبلغه منهم بحيث لم تعد لهم من قوه تذكر، فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من سبيل سوى اللجوء إلى آخر حربه من أجل تعبئتهم واستنفار طاقاتهم وهي توبيخهم وذمهم عليهم يلتفتون إلى أنفسهم ويصبروا الأخطار التي كانت تترصص بهم.

فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالتعرض إلى العامل الرئيسي الذي يقف وراء ذلك الضعف والذلة والهوان والذي يعزى إلى عدم الانسجام بين الأقوال والأفعال الذي يستند إلى ضعف الاعتقاد الباطني بالأهداف المقدسه النبيله فقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَيْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلَفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ» ، أمّا كلامهم فقد كان شديد يخرق الصخور، أمّا أعمالهم فقد كانت هزيلة لا تنسجم وذلك الكلام «كلامكم يوهي (١)الصم (٢)الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء» .

ص: ١٣٧

١- ١) «يوهي» من ماده «وهي» ، عنها صاحب المقاييس بالضعف ومن هنا يصطلح على الكلام الضعيف بالواهي. فالعبارة تعنى أن كلامكم يضعف ويفتت.

٢- ٢) «الصم» جمع «أصم» وهو من الحجاره الصلب المصمت، و «الصلاب» جمع صليب، والصليب الشديد.

أجل إن ذلكم وهوانكم إنما أفرزه شقاقكم وفرقتكم. إنكم متحدون ظاهراً، مختلفون باطناً، وهذا ما أدى بكم إلى الاكتفاء بالأقوال الطنانه الرنانه بدلاً من الأفعال والأعمال؛ الأمر الذى يؤدى إلى تآكل المجتمعات وانهارها إذا ما عاشت هذه الحالة «تقولون فى المجالس: كيت وكيت (١)، فإذا جاء القتال قلت: حيدى حيد (٢)» .

فالواقع هذه بعض الصفات البارزه للمناققين والأفراد الضعاف النفس المسلوبى الإراده الذين يكثرون الحديث فى المجالس الخاصه والعامه ويستعرضون معانى الشجاعه والبساله والعزم والإراداه الراسخه، وكأن قدره هؤلاء لا تتجاوز هذه الأحاديث، فإذا وردوا ميدان القتال استحوذ عليهم الخوف والهلع وكأنتهم يصرخون، إليك عتاً أيها القتال فارقنا وابتعد، بل هم مرعبون من ميدان الحرب والقتال ويختلفون مختلف الأعذار للفرار من الميدان. والعباره «حيدى حيد» من ماده حيد بمعنى الميل والانحراف عن الشىء وتقابلها العبارة «فيحى فياح» بمعنى الرغبه فى الشىء. ولعل المخاطب بالعباره «حيدى حيد» الجنود والمقاتلون الذين تدعوهم عناصر النفاق والانزهاج إلى اعتزال الميدان، وعلى العكس من ذلك دعوه عناصر القوه والاعتدال إلى القتال بقولها «فيحى فياح» . كما يحتمل أن يكون المراد قولهم للمعركه ابتعدى عنا؛ الأمر الذى يكشف عمق خوفهم من قتال العدو، كما يمكن أن يكون المراد أنهم كانوا يخاطبون أنفسهم بهذه العبارة بغيه الاسراع فى الابتعاد والاعتزال. وما أشبه هذه الطائفه المنافقه بمنافقى عصر الرساله الذين صورتهم سوره الأحزاب: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّهٗ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّهٗ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْتُكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ

ص: ١٣٨

- ١ - ١) «كيت وكيت» من ماده «تكييت» بمعنى اعداد جهاز الناقه أو ملاء ظرف الماء، إلّا أن العبارة كيت وكيت تستعمل حيث يريد الفرد عمل كل شىء عن طريق الكلام، وهما كلمتان لا تستعملان إلّا مكررتين ككنايه عن الحديث.
- ٢ - ٢) «حيدى حيد»: صيغه فعل أمر من ماده «حيود» كترال بمعنى أنزل، وهى كلمه يقولها الهارب عند الفرار والكتمان تأكيد لاحداهما الأخرى حيث تعنى الميل والانحراف عن الشىء.

أَعْمَالُهُمْ وَكَانَ ذَلِكُمْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» (١). لقد كانت هناك عدّة معدوده على هذه الشاكلة على عهد النبي صلى الله عليه وآله، غير أنّه من المؤسف أنّ الأكثرية الساحقه لأهل الكوفه - التي كانت تمثل جيش الإمام عليه السلام - كانت كذلك. ثم قال عليه السلام: «ما عزت دعوه من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم» يبدون أنّ هذه العبارة تشكل رداً على أولئك الذين يشكلون على مثل هذه الخطب في أنّ الإمام عليه السلام لم يكتف بالموعظه ولا- يمارس الضغوط من أجل حشدهم للجهاد؛ الأمر المتعارف لدى الحكام في كافه أرجاء المعموره؟ فالإمام عليه السلام يقول: لو تركتكم وحالكم أحراراً ودعوتكم للجهاد لم تلبوا دعوتي، ولو شددت عليكم في هذه الدعوه فأنتم كذلك، وما ذلك منكم بعجيب فأنتم أفراد ضعاف النفس والإرادة ولستم إلّا إلباً لأعدائكم على أوليائكم. وقد أثبت التاريخ أن هؤلاء الأفراد أصبحوا جنوداً مجنده لبنى أميه ومن كان على شاكلة ابن زياد والحجاج إثر خشيتهم من التهديدات التي تطيل أموالهم وأعراضهم، ولكن ليس لحكام العدل ولا سيما على عليه السلام من اتباع هذا الاسلوب في تعبئه الأفراد. ثم قال عليه السلام «أعاليل بأضاليل (٢)» كل ذلك قعوداً عن الجهاد ودفعاً بي إلى تأخيره، كالمدين الذي يناشد الدائن تمديد الأجل «وسألتموني التطويل دفاع ذى الدين المطول» نعم هذا هو حال الأفراد الضعاف من أهل المزاعم والإدعاءات دون الأفعال، ليس لهم من هم سوى خلق الأعذار والتشبث بالذرائع من أجل التهرب من المسؤوليه، القرآن من جانبه صور حاله المنافقين على عهد النبي صلى الله عليه وآله الذين كانوا يحاولون بشتى الطرق التملص من خوض القتال فعزى ذلك إلى حبهم للدنيا وإيثارها على الآخره «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (٣).

ص: ١٣٩

١-١ (١) سورة الاحزاب / ٢٨.

٢-٢ «أعاليل» جمع اعلوله، ما يتعلل به و «أضاليل» جمع اضلوله بمعنى أسباب الضلاله، أى انكم تتشبثون بأسباب واهيه من أجل إضلال أنفسكم والآخرين.

٣-٣ (٣) سورة التوبه / ٣٨. [١]

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: لم كل هذا الضعف الذى ساد أهل الكوفة مع وجود ذلك الإمام العادل والحكيم المعروف والمجرب فى ساحات الوغى، فى حين كان أهل الشام أكثر قوه وفاعليه منهم والحال كان حاكمهم معاويه؟ ويبدو أنّ الجواب على هذا السؤال كما أشرنا سابقاً يكمن فى الآليه الاجتماعيه التى كانت عليها الناس آنذاك. فالكوفه لم تكن تتمتع بسابقه تاريخيه تذكر، بل كانت منطقته حديثه ضمت أقواماً مختلفه ذات ثقافات متنوعه، عاشت حاله من التنافس الظاهرى والباطنى، خلافاً لأهل الشام الذين كانوا يتمتعون بالوحده واللحمه. أضف إلى ذلك فإنّ أغلب خصوم الدعوه من منافقى المدينه وسائر المناطق كانوا قد اتجهوا صوب الكوفه وأخذوا يمارسون دعاياتهم المغرضه التى تهدف إلى شق الصفوف وزرع بذور الفرقة والاختلاف فى صفوف أهل الكوفه، إلى جانب العمل على إضعافهم فى مجابهه العدو. من جانب آخر فإن الفتوحات الإسلاميه آنذاك قد جرت ثروات طائله، ولا يخفى أن طبيعه الثروه إنّما تختزن الدعوه والرفاه والعافيه؛ الطبيعه التى لا تنسجم وروح القتال والجهاد.

ومن هنا كان أهل الكوفه يقتنصون الأعدار التى تمكنهم من أداء وظيفتهم الجهاديه حتى فى أحلك الظروف التى شنت عليهم الغارات وجرعوا فيها غصص الذل والهوان من قبل بنى أميه وجيوش الشام. نعم إنّ الأمه كانت تلهث وراء الحكام الذين عبثوا ببيت المال وأغدقوا مافيه على الرعيه، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام مستعداً للتفريط بصاع من بيت مال المسلمين لأقرب المقربين كائناً من كان. وهذه هى العله الأخرى التى ساقها أمير المؤمنين فى كشفه النقاب عن روحيه الأمه «وإنى لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكنى لا أرى صلاحكم بافساد نفسى» (١).

ص: ١٤٠

«لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الدَّلِيلُ وَلَا يُدْرِكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ! أَيُّ دَارٍ بَعِيدٍ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؟ الْمَغْرُورُ - وَاللَّهِ - مَنْ غَرَزَتْهُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ، فَقَدْ فَازَ - وَاللَّهِ - بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقٍ نَاصِلٍ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى ركن مهم في الحياه الإنسانية فقال «لا يمنع الضيم (1) الدليل، ولا يدرك الحق إلا بالجد» ما أجدر أن تكتب هذه العبارة بماء الذهب وتلى صباح مساء في أفنيه مستضعفى العالم حتى تصبح جزءاً من ثقافتهم وترسخ في أعماقهم. نعم إن الطغاه جرعوا الأذلاء والعجزه صنوف العذاب والظلم والاضطهاد ولم ينصفوهم ويمنحوهم حقوقهم، فالحق يؤخذ بالقوه إستناداً لمعاني العمل والسعى الدؤوب والاثره وحمل السلاح وخوض غمار القتال، فالطغاه الجابره لا يفهمون سوى لغه الحديد والنار ولا بد من مجابهتهم بالقوه. ويبدو أن طبيعه العالم كذلك فى أن سبيل بلوغ الأهداف العليا الماديه والمعنويه إنما عبد بالمطبات والعقبات الكؤود، ولا يظفر بهذه الأهداف من لم يقاوم هذه العقبات. ثم يقطع الإمام عليه السلام كافه الأعذار على هؤلاء فيخاطبهم ماذا تنتظرون، وعن أى دار تدافعون، ومع من تقاتلون وأنا بين أظهركم «أى دار بعد داركم تمنعون ومع أى إمام بعدى تقاتلون؟». نعم لن يسعكم الدفاع عن أى دار طالما تخاذلتم فى الدفاع عن داركم بصفتها دار الإسلام، وإذا لم تلتحقوا بى فى القتال

ص: ١٤١

(١-١) «الضيم» يعنى الظلم والاضطهاد.

فلن يسعكم القتال مع أى أحد بعدى. وعليه فليس أمامكم سوى الأسر والعبودية للعدو فيسلبوكم الإرادة والاختيار - فالواقع هو أن الإمام عليه السلام أراد حثهم على القتال من خلال بعض المعانى التى تثير فى نفوسهم الحميه والغيره، فالوطن لا يسلم دون الدفاع عنه، وإن كانت لهم أدنى رابطة بإمامهم فهم مطالبون بالقتال فما عسى أن يكون الإمام من بعده والذى يسعهم القتال معه. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى عدم إمكانيه خوض القتال بمثل هذه العناصر الضعيفه الهزيله التى فقدت مقومات المقاومه والثبات «المغرور - والله - من غررتموه» (١).

فالمحتمل الخادع قد يتلاعب ببعض ممتلكات الناس ويمدّ يده إلى بعض حاجاتهم، أما أنتم فقد سلبتموني كل شىء وقد وليتم ظهوركم للعدل والطهر والتقوى والعزه والرفعه فضيعتم حقوق المسلمين ولاسيما المستضعفين والمحرومين. ثم قال عليه السلام: «ومن فاز بكم، فقد فاز - والله - بالسهم الأخبى» (٢). إشاره إلى أن مساعدتكم ونصرتكم ليست بشىء، ومن يعتمد عليكم كمن يشترك فى اقتراح لا تنطوى نتيجه سوى على الخسران.

فالإمام عليه السلام يرى فى نصره أهل الكوفه الهزيمه الفشل وقد شبهها تشبيه رائع فى أن الفوز بهم كالفوز بالسهم الأخبى الخاسر. ثم أورد شبهاً آخر فقال عليه السلام: «ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل» فى إشاره إلى أن أهل الكوفه فاقدون لكافه مقومات الهجوم على العدو من قبيل قوه الإيمان التقوى والشجاعه، وقد فقدوا كافه القيم إثر تعلقهم بالحياه الدنيا والاعتزاز بزخارفها وزبرجها.

تأملان

١ - الحق يؤخذ ولا يعطى

ما نفهمه من قوله عليه السلام «لا يدرك الحق إلّابالجد» أن الحق يؤخذ ولا يعطى؛ أى لا يمكن التطلع إلى الحصول على الحق فى ظل الحكومات الغاشمه التى تعتمد اسلوب القوه وتمارس الظلم والاضطهاد بحق الطبقات المحرومه والمستضعفه؛ ولا غرو فأساس قوتهم وقدرتهم إنما

ص: ١٤٢

١-١) ان تقديم المغمور - الخبر للمبتدأ - يفيد الحصر، أى المغرور الواقعى هو هذا الفرد.

٢-٢) «أخبى» من ماده «خبى» بمعنى فقدان الشىء.

تكنم في غضبهم لحقوق الآخرين، وعليه فلا تعنى إعادة هذه الحقوق المغتصبه سوى تجريدهم من هذه القوه؛ الأمر الذى لن يحدث قط. وهنا يحث الإمام عليه السلام كافة المحرومين والمستضعفين على الوحده وحرص الصفوف لاستعادته حقوقهم السلبيه من الظلمه والطواغيت وأنهم غالبون لا محاله، فالطغاه ليسوا مستعدين للتضحيه، بينما يضحى المستضعفون بالغالى والنفيس من أجل إحقاق حقوقهم. طبعاً ملئت الدنيا اليوم بالشعارات التى تتبنى حقوق الإنسان وتطالب بإعادة حقوق المحرومين، غير أن التجربه أثبتت بالأدله القاطعه أن هذه الشعارات لاتعد كونها مصائد تهدف اغفال الطبقات المسحوقه والمعدمه والاستسلام إلى اراده الأقوياء؛ الأمر الذى يثبت أن الحق يؤخذ ولا يعطى. فالمؤمنون لا يسعهم الوقوف مكتوفى الأيدى حيال الظالمين الذين يتلاعبون بمقدراتهم. وعليهم أن يتعلموا الدروس والعبر التى لَقَّنها الإمام الحسين عليه السلام البشريه جمعاء فى الصبر والتضحيه والفداء، فما زالت صرخاته تدوى فى الاسماع «ألا وإنّ الدعى ابن الدعى قد تركنى بين السله والذله! وهيهات له ذلك! هيهات منى الذله! أبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحدود طهرت وحجور طابت، أن نؤثر طاعه اللثام على مصارع الكرام» (١). كما أكد القرآن الكريم على جانب الصبر والصمود والمقاومه لدى المؤمنين، ومن ذلك الآيه ٢١٤ من سوره البقره «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصِيرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصِيرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». وهى الحقيقه التى نلمسها بوضوح فى كافه الغزوات الإسلاميه من قبيل بدر وأحد والأحزاب وتبوك وحنين، التى كان ينتصر فيها المسلمون بسلاح الإيمان والصبر، صحيح أن النصر من عند الله، إلا أن الامداد الغيبي والعنايه الإلهيه كانت مكمله للأسباب الظاهريه والعدده والعدد التى كان عليها المسلمون. فهذا أحد القوانين التاريخيه الثابته، فلا يقتصر على صحب النبى صلى الله عليه و آله والإمام الحسين عليه السلام، كما لا يرتبط بالأمس واليوم، بل يشمل المستقبل كالماضى على حد سواء.

ص: ١٤٣

لقد لجأ الإمام على عليه السلام إلى مختلف الأساليب من أجل إثارة مشاعر أهل الكوفة وتعبئتهم لقتال العدو، ومن ذلك تأكيد على مسأله الدفاع عن الوطن «أى دار بعد داركم تمنعون»؟ فى إشاره واضحه إلى علاقته كل فرد بوطنه وأنه يهب للدفاع عن هذا الوطن إذا تعرض للخطر مهما كانت المدرسه والفكره التى يؤمن بها وينتمى إليها، إلّا أنّ المؤسف له أنّ هذه الروح هى الاخرى قد ماتت فيهم. وهنا يبرز هذا السؤال: هل حرمه الوطن فى الإسلام بصفته يمثل دار الإسلام أم هناك شىء آخر؟ أى البلد الإسلامى يكتسب حرمة كونه بلداً إسلامياً، أم هناك حرمه ذاتيه لكل بلد بحيث تتضاعف هذه الحرمة لو أصبح جزءاً من دار الإسلام؟ يمكن العثور على أجوبه هذه الاسئله فى الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه؛ الأمر الذى يؤكد العقل أيضاً. فقد توالى الآيات التى ذهبت إلى أنّ الاخراج من الوطن إنّما يضاد القيم الإنسانيه؛ الأمر الذى يعنى حرمه الوطن الذاتيه، وهذا ما نلمسه بوضوح فى الآيات القرآنيه الثامنه والتاسعه من سوره الممتحنه «لا- يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» فقد اعتبرت الآيتين الكريمتين الاخراج من الوطن بمثابه المقاتله فى الدين، الأمر الذى يؤكد قيمه الوطن كما صرحت بذلك الآيه ٢٤٦ من سوره البقره على لسان بنى اسرائيل «قالوا وما لنا أَلانُقَاتِلَ فى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا» فهى تدل على أنّ دافعهم الجهادى إلى جانب حفظ الدين ينطوى على انقاذ الوطن، وقد أقر نبيهم هذا الدافع دون أن يعترض عليه، ونوكل الحديث فى الآيات الأخرى الوارده بهذا المجال إلى محلها.

رسول الله صلى الله عليه وآله كان شديد التأثر اثر هجرته من مكه، طبعاً صحيح أنّ مكه كانت تمثل قيمه دينيه كبيره، إلّا أنّها كانت تعنى إلى جانب ذلك بالنسبه للنبي صلى الله عليه وآله و آله ووطنه ومسقط رأسه، ومن هنا خفف عنه القرآن بقوله «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ» (١).

ص: ١٤٤

وورد في الحديث عن علي عليه السلام: «عمرت البلدان بحب الاوطان» (١) وقال أيضاً «من كرم المرء بكائه على ما مضى من زمانه وحنينه إلى أوطانه» (٢).

وجاء في الحديث المعروف «حبّ الوطن من الإيمان» (٣).

فالذي نخلص إليه أنّ حبّ الوطن والتعلق به يستند إلى جذور قرآنيه ونبويه إلى جانب تأييد العقل والمنطق. الا ان هذا لا يعنى تعلق الفرد بوطنه بصوره مطلقه بحيث لا- يتركه طلب العلم والتكامل ونيل المنافع المعنويه والقيم الإلهيه ومن هنا ورد الحديث عن علي عليه السلام: «ليس بلد بأحق بك من بلد، خير البلاد ما حملك» (٤). وأخيراً فان الوطن يكتسب قيمه مضاعفه إذا ما انضمت إليه الجوانب المعنويه علاموه على الجوانب الماديّه، فيصبح دار الإسلام، فيهب الفرد بكل ما أوتى من قوه للدفاع عنه والذود عن كيانه.

ص: ١٤٥

١-١) بحار الأنوار ٧٥ / ٤٥. [١]

٢-٢) بحار الأنوار ٧ / ٢٦٤. [٢]

٣-٣) سفينه البحار، ماده وطن.

٤-٤) نهج البلاغه، [٣] الكلمات القصار، ٤٤٢.

«أَصْرِيحْتُ وَاللَّهِ لَا- أَصِدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا- أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوْعِدُ الْعِدُوَّ بِكُمْ. مَا بِالْكُمْ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ أَقْوَالًا بَغَيْرِ عِلْمٍ؟ وَعَقْلَهُ مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ؟! وَطَمَعًا فِي غَيْرِ حَقٍّ؟»

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام هذه الخطبه - التي تعدّ من الخطب الأليمه للإمام عليه السلام بمعاوده ذم أولئك القوم الذين ماتت أرواحهم عليهم يفيقون قليلاً فيعبثوا أنفسهم ويستغلوا إمكاناتهم ويهبوا للقاء عدوهم فيريحوا الأُمه الإسلاميه من شر أهل الشام الذين يمثلون حثالات زمان الجاهليه، فقد قال عليه السلام: «أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أواعد العدو بكم».

نعم إنّ الإيداره الناجعه تتطلب ثقه متبادله بين الأُمه والقائد، وإنّ ثقه القائد بالأُمه والعمل على تشجيعها ورض الطرف عن أخطائها وتذكيرها بنقاط قوتها من شأنه أن امال القائد وأحلامه قد تبديد من جراد الأُمه التي تعيش الخواء الروحي والضعف والتشتت والتمزق والجهل بحيث لا يعدد للتشجيع والثقه من دور في إثارها وحشد طاقاتها، بحيث يستفعل مرضها بما يجعل من الصعقه الاسلوب الامثل للشقاء.

- فالعباره وإن كانت تصور الأوضاع المزريه لأهل الكوفه، إلّا أنّها تشير إلى مدى عمق المشاكل التي إستنزفت أمير المؤمنين على عليه السلام في ذلك الزمان، فقد كان محقاً في اعلانه عدم الوثوق بهم، فقد خالفوا كراراً وعودهم ونقضوا محارم عهودهم ونكثوا بيعتهم.

لم يكونوا يحسنون سوى الكلام في المجالس وإطلاق الشعارات الرنانه والكلمات

الحساسه، فاذا دقت ساعه القتال ولوا زحفاً إلى مخادعهم وهربروا هرب الشاه من الذئب.

ثم قال عليه السلام: «ما بالكم؟ مادواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم» .

أو تعتقدون أنّ أهل الشام خلقوا من غير طينتكم، أم لهم بقيه جسميه وروحيه تختلف عنكم؟ كلا.

اللهم الافارق واحد بينكما هو الاخلاق والمعنويات.

فهم يعملون ماذا يلزمهم من أجل القتال، إلّا أنكم لستم كذلك رعم النعمه العظيمه التي من الله بها عليكم بان جعل لكم إماماً عادلاً مقتدرًا. . . لقد أربعتكم إمكاناتهم حتى انتهى بكم ذلك إلى الذل والهوان.

يا للاسف أن يتلى زعيم مثلى برعيه مثلكم.

نعم دواؤهم كان فيهم كما ورد ذلك في الشعر الذي يتسب إلى الإمام عليه السلام: دواؤك فيك وما تبصر ودواؤك منك وما تشعر

ثم يختتم عليه السلام خطبته بالقول «أقولاً بغير علم؟ وغفله من غير ورع؟ وطمعا في غير حق؟» .

أجل هذه هي العناصر التي تقف وراء بؤسكم وتعاستكم، فأنتم ترسلون الكلام على عوايته دون أن تستندوا إلى علم أو معرفته، ثم وليتم ظهوركم للورع والتقوى وانهمكتكم في الدنيا وغفلتم عن الآخرة، وأخيرا فأنكم تحلمون بالنصر دون أن تعدوا له عدته.

هذه هي العوامل الثلاث (القول دون العمل والجهل المشوب بعدم التقوى والأمل بالنصر دون إعداد مقدماته) التي تهدد بالفشل والهزيمه كل أمه وقوم.

أسباب الهزيمه والفشل

لاشك أن جيش الإمام عليه السلام وبفضل زعيمه الرباني المعروف بالجهاد والشجاعه في ميدان الحرب كان يمتلك كافه أسباب الانتصار على العدو من جميع النواحي، إلّا أنه وللأسف قد شهد حاله من الضعف سلبيته زمام المبادره وزعزعت عوامل النصر، والمفروغ منه ان ذلك الضعف والوهن إذا دبّ في أمه فأنها لن تنتظر مصيراً أحسن من ذلك المصير الذي ساد جيش الكوفه.

وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه التي نحن بصدرها إلى عناصر هذا الضعف والتي كان في مقدمتها تركهم للعمل وتمسكهم بالقول.

فقد كانت مجالسهم عامره بالكلام ولا سيما عن القتال والحرب دون أن يعدوا العده اللازمه و يأخذوا للحرب اهبتها، يكثرون من الكلام خلف الجبهات دون أن يجراً أحدهم على الاقتراب من الخطوط الأماميه.

وكأن قدره الأفراد الضعاف العجزه تتركز عاده في الأقوال والمزاعم، ولعل الإمام عليه السلام أشار إلى هذا المعنى بقوله: «أقوالاً بغير علم؟» سواء كان هذا العلم يعنى المعرفة أو الاعتقاد أو العمل، فالنتيجه واحده لكل من هذه التفاسير الثلاثه، لأنّ المعرفة بالشىء والاعتقاد به تدعو إلى العمل، أما ضعف العمل فانما يستند إلى عدم المعرفة والاعتقاد، الأمر الذى صرح به الإمام عليه السلام بقوله «العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل» (١).

العامل الآخر هو الغفله وفقدان الورع، وبعبارة أخرى فإنّ عدم الالتفات إلى الحقائق والواقعيات - الذى تفرزه حاله عدم التقوى.

إنّما يؤدى إلى إختراق الصفوف من قبل العدو، فى حين لا تصيب سهام هذا العدو اذا ما تحلت الأمه بالفطنه والذكاء المشوب بالتقوى بدلاً من الغفله والتحلل من الورع والتقوى.

والعامل الاخير هو الطمع فى ما لا يستحقون، أو بعبارة أخرى الطمع فى الشىء دون توفير أسبابه.

فاننا نعلم بأنّ هنالك الأسباب التى ينبغى توفرها لتحقيق بعض الأهداف.

فقانون العله والمعلول إلى جانب الإراده الإلهيه هى التى تحكم الوجود برتمته، وإن ظن بعض الجهال بيعض الاوهام والخيالات والمعادلات الساذجه كمقدمه لتحقيق الاهداف.

وقوله عليه السلام «طمعاً فى غير حق» يمكن أن يكون إشاره إلى هذا المعنى، فإنّهم كانوا يطمعون فى شىء لا يستحقونه، إلّا أنّ بعض شرّاح نهج البلاغه ذهبوا إلى أنّ المراد بهذه العبارة أنّهم كانوا يطمعون بالمزيد من عطائهم فى بيت المال، ويتمنون على الإمام عليه السلام أن يعطيهم من بيت

ص: ١٤٩

المال أكثر من إستحقاقهم، فلما لم يلب الإمام عليه السلام طلبهم غير المشروع صابهم الضعف والوهن فى القتال.

ومن الطبيعى أن يكون هذا التفكير المادى أينما كان عاملاً من عوامل الفشل والهزيمة، كما فشل الجيش الإسلامى فى معركة أحد إثر انهماك الجنود فى جمع الغنائم واهتمامهم بالجوانب الماديه فى ذلك الميدان الجهادى العظيم.

على كل حال فإنّ هذه العوامل التى تؤدى إلى الهزيمة والفشل لا تقتصر على جيش الكوفه فحسب، بل تهدد بالفشل كافة الجيوش على مدى الدهور والعصور وأخيراً فالخطبه تصور مدى لوعه الإمام عليه السلام.

وذروه إستيائه، وهى كافيه فى توضيح عمق الظروف العصبيه التى عاشها الإمام عليه السلام.

ص: ١٥٠

ومن كلام له عليه السلام

فى معنى قتل عثمان وهو حكم له على عثمان وعليه وعلى الناس بما فعلوا وبراءه له من دمه.

نظره إلى الخطبه

نعلم بأن الآراء قد اختلفت فى قتل عثمان، فهناك من ذهب إلى تقصير عثمان وأنه كان مستحقاً للقتل؛ فقد سلط بطانته على بيت المال وأغدق عليهم المناصب الحساسه فى الحكومه، حتى قام الناس ضده دون أن يهب أحد من المسلمين لنجده فکان الجميع راضياً بقتله.

بينما هناك من يعتقد بعدم صوابه قتله وكان ينبغى أن يمنح فرصه التوبه ليتدارك بعدها ما فرط منه، وإن كان ولا بدّ يخلعونه من الخلافه، أمّا قتله بتلك الصوره العلنيه إنما هو بدعه، أضف إلى ذلك فإن قتله أصبح ذريعه للمنافقين من أجل بث الفرقة والشقاق فى صفوف المسلمين.

و أخيراً هناك طائفه ضيقه النظر ممن لا تكلف نفسها عناء التحقيق والتفكير فى سيره

ص: ١٥١

١- ١) جاء فى مصادر نهج البلاغه أن هذه الخطبه جزء من رساله كتبها الإمام عليه السلام حين خلافته، ثم ضمنها الحوادث التى أعقبت وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أمر عليه السلام بقراءتها على الناس من أجل وحده الرأى العام بهذا الشأن، كما احتمال أن تكون الخطب ٢٦، ٥٤، ٧٨ هى الأخرى جزء من هذه الرساله. ثم صرح بأن هذه الخطبه وردت مع بعض التغييرات فى كتاب أنساب الاشراف (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٠٨).

الخليفه الثالث تراه الخليفه المظلموم الذي قتل شهيداً، كما تنزه ساحته من كل نقص و عيب.

الإمام عليه السلام من جانبه وفي خضم هذه الآراء المتضاربه يكشف النقاب عن الحقيقه ويعرض بالتحليل للمسائل المرتبطه بقتل عثمان.

ص: ١٥٢

«لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلًا أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، لَكُنْتُ نَاصِرًا، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «حَدَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» وَمَنْ حَدَلَهُ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي» وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرُهُ، اسْتَتَأْتَرُ فَاسِيَاءَ الْأَثَرَةِ، وَجَزِعْتُمْ فَاسَأْتُمْ الْجَزَعَ وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَقَعَ فِي الْمُسْتَأْتَرِ وَالْجَزَاعِ».

الشرح والتفسير

عوامل قتل عثمان

كما ذكر في بدايه الخطبه فأنها تعالج قضيه قتل عثمان والتعرض إلى العوامل التي دفعت إلى هذا القتل. فكلنا نعلم بان لقتل عثمان جذور معلومه نابعه من طبيعه أعماله وأفعاله، فقد أجمع المحققون على أنّ سوء تدبير عثمان في ادارته دفعه الحكم وتبديل الحكومه بموروث قبلي والتطاول على بيت المال والظلم والاضطهاد الذي مارسه أقربائه وبطانته بحق الناس قد أدى إلى غضب عام حتى انبرت طائفه مؤلفه من بضعه مئات لتحصره في داره وتهجم عليه وتقتله، وقد وقف ذلك الجيش الجرار الذي فتح مصر وبلاد الروم متفرجاً دون أن يحرك ساكناً؛ فقد كان ذلك الجيش ساخطاً عليه ويرى ضروره قتله، غير أنّ الناس إنقسموا طائفتين بعد قتله:

طائفه - لعلها كانت تشكل الاكثريه - كانت راضيه بهذا القتل أو على الأقل غير مكترثه له بينما ترى الطائفه الثانيه أنه قتل مظلوماً.

وفي ظل هذه الظروف إنتهز المنافقون الفرصه لبث بذور الفرقة في صفوف المسلمين وحرف مسير الخلافه عن محورها الأصيل أمير المؤمنين على عليه السلام - والذي كان يخطى بتأييد كافه أفراد الأمه - واستغلوا قضيه قتل عثمان كذريعه لتحقيق أطماعهم ومآربهم، وبعبارة أخرى فأنهم أحوالوا قميص عثمان إلى مناوره سياسيه هدفها إغفال الأمه وصددها عن الحق.

ص: ١٥٣

وبالطبع فإنّ أفراد من كلا الطائفتين كانوا من ضمن صحب الإمام عليه السلام واتباعه، وإن كانت الطائفة الثانية وعلى ضوء تصريحات بعضى المؤرخين تشكل الأقلية، وعليه فمن الطبيعي أن تكثر هذه الطائفة من سوالها لعلى عليه السلام عن قتل عثمان، فلم يكن أمام الإمام عليه السلام من بد سوى الاجابه التي تتضمن عكس الحقائق التاريخيه من جانبه وعدم منح هذا وذاك الفرصه بغيه إستغلالها ضد الدين.

فالخطيه رد على مثل هذه الاسئله الذى يتطرق فيه الإمام عليه السلام إلى بيان الحقائق التاريخيه دون منح العناصر الفاسده الحجج والذرائع فقد قال عليه السلام: «لو أمرت به، لكنت قاتلاً، أو نهيت عنه، لكنت ناصراً» .

فمفهوم هذه العبارة هي أنى كنت محايداً فلم أطح يدي بدمه ولم أدافع عن زلاته، فالأمران ينطويان على محاذير.

و هنا يبرز هذا السؤال: كيف يمكن التوفيق بين مضمون هذه العبارة والوقائع التاريخيه؟

لأننا نعلم جميعاً (و قد ذكر ذلك أغلب المؤرخين) أنّ الإمام عليه السلام نهى الناس عن قتل عثمان و قد بعث بالحسن والحسين عليه السلام إلى دار عثمان ليحولاً- دون زحف المعترضين، بل دخل عليه الإمام عليه السلام بالماء حين منعه منه. وقد أورد الشراح جوابين على السؤال المذكور:

فقال البعض المراد من عدم النهى هو النهى العملى؛ أى أننى لم أشهر السيف عملياً ولم أقتحم الميدان دفاعاً عنه، وهذا لا يتنافى ونهيه اللفظى عليه السلام وبعثه بالحسين عليه السلام هناك.

بينما يرى البعض لآخر أنّ هذا الكلام يفيد أن الإمام عليه السلام لم يأمر قط بقتل عثمان، وإن كان يراه مستحقاً للعقاب على أعماله، وعليه وبغيه عدم تردى الاوضاع لأسوأ ممّا كانت عليه فقد دعا الناس إلى ضبط النفس والتخلى عن العنف، إلّا أنّه لم يفعل ما من شأنه توفير الدعم الصريح لعثمان وأعماله وما يدر منه؛ وذلك لأنّه كما أن سفك دمّه يخلق بعض المشاكل فى المجتمع الإسلامى، فإنّ توفير الدعم له والدفاع عن أعماله هو الآخر يسبب مشاكل لا تقل عن سابقتها، وعليه فإنّ الإمام عليه السلام لم ير فى أى من الأمرين (الأمر بالقتل والنهى عنه) ممّا تمليه عليه وظيفته الإسلاميه.

وقد أراد الإمام عليه السلام أن يعلن موقفه الصريح ويحول دون تفاقم الخلافات بشأن قتل عثمان من قبل الطائفتين التي تذهب إحداهما لضروره قتله وتلك التي لاتراه مستحقاً للقتل.

ثم قال عليه السلام: «غير أن من نصره، لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني»،

فالعبارتان تبيان موضوعاً واحداً وهو إتفاق الجميع على أن حماه عثمان آنذاك كانوا من طلحاء الأمة، بينما كان الأفراد الذين لم يمدوا له يد العون من كبار الصحابه من المهاجرين والأنصار.

فالشواهد التاريخية تفيد تواجد كبار صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار حين هجم الناس على بيت عثمان، ولو كانوا يرتضون عثمان وأعماله لحالوا دون وصول الناس إليه، الأمر الذى يدل على تخليهم عنه وعدم تقديم أى دعم أو إسناد له.

أمّا الأفراد الذين هبوا للدفاع عن عثمان آنذاك فقد كانوا يمثلون أراذل المجتمع الإسلامى، و ما ذلك الدفاع إلّا لمنافعهم اللامشروعه التى كانوا يحظون بها آنذاك.

وعليه فقد كانت هذه المسألة واضحه فى أنّ حماه عثمان من أمثال مروان لم يجرأوا على الزعم أنّهم خير من المهاجرين والأنصار الذين لم يدعموا عثمان.

ومن المسلم به أن أولئك الذين تخلوا عن دعم عثمان لم يكونوا يرووا أن حاشيه عثمان وبطانته أفضل منهم، ومن هنا فقد إتفقت الآراء على أن حماه عثمان لم يكونوا من أختيار الأمة.

فالعبارة غايه فى الروعه وقد أماطت اللثام عن أعمال عثمان بالشكل الذى أثار حفيظه كافة المسلمين.

ومن ذلك توزيعه أموال بيت المال على قرابته وبطانته وتسليطهم على رقاب الناس إلى جانب الظلم والجور والاضطهاد وتضييع العدل والقسط.

وقد صرح بعض شراح نهج البلاغه (1) بان الكلام هو ردّ الإمام عليه السلام على من قال بحضرته أنّ الفتنة من أولئك الذين لم ينصروا عثمان، فلو نصره كبار الصحابه لما إجتراً جهال الأمة على سفك دمه، ولو رأى كبار الصحابه وجوب قتله لكان عليهم إعلان ذلك وإزاله الشبهات عن أذهان الأمة.

فعلم الإمام عليه السلام أنه المقصور بذلك الكلام، فورد هذه الكلمات.

ص: ١٥٥

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ٢/٥٧. [١]

على كل حال فإنّ الخطبه تبين أنّ الإمام عليه السلام إذا لم ينصر عثمان فانه لم يكن وحيداً في هذا الأمر، بل كان هذا موقف كبار الصحابه، فلم الإشكال على الإمام عليه السلام؟ ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بتحليل دقيق عن قتل عثمان، فقال عليه السلام: «و أنا جامع لكم أمره، استأثر (1) فأساء الاثره، و جزعتم فأسأتم الجزع، والله حكم واقع في المستأثر والجازع» .

لقد صرح أحد الادباء العرب المشهورين بأنّ عبارات الإمام عليه السلام إتصفت بقله الألفاظ وسعه المعانى، فالعبارة على قلبه لفظها جامع شامله حيث أوضح الإمام عليه السلام فيها أنّ عثمان إرتكب خطأ جسيماً وأنتم كذلك.

فقد انتهج اسلوب الاستبداد والحكم الفردى وسلط بنى أميه على رقاب الناس وأغدق عليهم بيت المال فلما تعالت أصوات المعارضه وقام المسلمون لم يعرهم آذاناً صاغيه، فحاصروه وهجموا عليه فتركه كبار الصحابه من الأنصار والمهاجرون، من جانب آخر فإنّ الناس لم يكتفوا بهذا الحد، وبدلاً من خلعه من الخلافه وطرده أزالاه من مواقع الحكومه عمدوا إلى اراقه دمه فخلقوا فتنه إمتدت لسنوات فى التاريخ الإسلامى، إلى جانب استغلالها من جانب المنافقين الذين تذرعوا بالمطالبه بدم عثمان ليسفكوا كثيراً من الدماء.

وبناءً على ما تقدم فإنّ الفريقين قد سلكوا الافراط، وعليه فإنّ الله جازى كل منها بأعماله.

لقد كثر الكلام بشأن خلافه عثمان وآثارها: إلّا أنّ كلام الإمام عليه السلام ورغم قصر عباراته إلّا أنه أوجز كبد الحقيقه إلى جانب اصداره الحكم العادل بشأنه وشأن الجماهير التى قتلته.

كما يستفاد من العبارة أن الاستبداد - رغم إنّه سيئ مهمما كان - على أنواع بعضها أسوأ من البعضى الآخر، واستبداد عثمان كان من النوع الاخير.

كما أنّ التعبير بالجزع عن الناس يشير إلى مدى الغضب والاستياء الذى سيطر على الناس إثر الأعمال الشائنه لعثمان وبطانته.

ج ج

ص: ١٥٦

١-١) «إستأثر» من ماده «أثر» ، بمعنى الاستبداد كما صرح بذلك القاموس ومنه الحكومه الاستبداديه لأنها حكومه فرديه، يستعبد فيها الفرد سائر الناس.

ومن كلام له عليه السلام

لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير يستفيئه إلى طاعته قبل حرب الجمل.

«لَا تَلْقَيْنِ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلَقْتَهُ تَجِدُهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصًا قَرْنَهُ، يَزَكُّبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ «هُوَ الذَّلُولُ» وَلَكِنَّ الْقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَهُ فَقُلْ لَهُ: «يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَأَ» .

الشرح والتفسير

السعي لانقاذ الخاطئين

نعلم أنّ المعركة الاولى التي فرضت على أمير المؤمنين عليه السلام كانت معركة الجمل، حيث إتحد أنصار عثمان ومعارضيه بعد أن إصطحبوا معهم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله عائشه فنقضوا البيعه واشعلوا فتيل واقعه الجمل طمعاً في الخلافة.

ثم انتهت المعركة بهزيمتهم وقتل مؤججى تلك النار طلحه والزبير.

وتفيد كافة الشواهد التاريخيه أنّ الإمام عليه السلام كان حريصاً على عدم وقوع القتال ليس في

ص: ١٥٧

١ - ١) قال صاحب مصادر نهج البلاغه [١] نقل هذا الكلام طائفة من العلماء ممن سبقوا المرحوم السيد الرضى، منهم الزبير بن بكار (طبق نقل ابن أبي الحديد والجاحظ...) وابن قتيبه في عيون الأخبار وابن عسدر في العقد الفريد. والطريف، نقله حتى ابن خلكان في وفيات الأعيان وشهد بصحته وهو من رفع رايه مخالفه نهج البلاغه. [٢] مصادر نهج البلاغه ١ / ٤١٨. [٣]

الجمال فحسب، بل في صفين والنهروان، وكان يسعى جاهدا لاطفاء نار الحرب.

والخطبه التي نحن بصددھا تعد أحد تلك الشواهد، فقد بعث الإمام عليه السلام قبل نشوب القتال برسوله عبد الله بن عباس إلى الزبير بهذه الكلمات، فأثرت عليه وانسحب من المعركة، حتى أدركه ابن جرموز في صحراء البصره فقتله.

فقد خاطب الإمام عليه السلام ابن عباس قائلاً: «لاتلقين طلحه فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً (١) قرنه، يركب الصعب ويقول: هو الذلول» .

تشبيهه لطلحه بالثور الذي يعقص قرنه إما أن يكون أراد به طغيانه وسوء خلقه، أو عدم سماعه للحق بفعل طاعته لهوى نفسه.

فالواقع أنّ العبارة تفيد تحليله لنفسيه لطلحه ويأسه من تأثير الكلام فيه بشأن الكف عن القتال وإلّا فانسحاب من المعركة، إلّا أنّه لم يقطع أمله من الزبير (وقد دلت الحوادث اللاحقه أنّ الإمام عليه السلام كان محققاً في أمله) فأضاف عليه السلام قائلاً: «ولكن الق الزبير فأنّه ألين عريكه» . (٢)

فالعباره: «ألين عريكه» واستناداً إلى «عريكه» التي تعني الطبعه، تفيد تسليم الزبير للحق إذا سمعه، ولا سيما إذا كان قد صدر من رسول الله صلى الله عليه وآله، على العكس من طلحه الذي كان يتصف بالأنانيه واللجاجه والطغوى وحبّ الجاه والمقام الذي أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه عن سماع الحق.

ومن هنا ذكر المؤرخون أنّ الزبير أخذته رعبه شديده حين دخل البصره وعلم أنّ عمار في جيش الإمام عليه السلام حيث تذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله لعمار:

«ويحك يا بن سميّه تقتلك الفئه الباغيه» .

فخشى أن يقتل عمار في المعركة، فيكون هو جزءاً من الفئه الباغيه.

على كل حال قال الإمام عليه السلام لابن عباس: «فقل له يقول لك ابن خالك: عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق؟ فما عدا ممّا بدأ؟» .

ص: ١٥٨

١- ١) «عاقصاً» من ماده «عقص» بمعنى التوى قرناه على أذنيه

٢- ٢) «عريكه» من ماده «عرك» بمعنى الطبعه، ولين العريكه بمعنى السلس، كما تأتي بمعنى إشتباك الشئ ومن هنا أطلقت المعركة على إشتباك الأفراد.

فالعباره إشاره إلى التأريخ الجهادى العظيم للإمام على عليه السلام على عهد النبى صلى الله عليه وآله والذى لم يكن خافياً على أحد بما فيهم الزبير الذى كان يقاتل إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد ورد فى الاخبار أنّ علياً عليه السلام برز بين الصفيين حاسراً، وقال: ليرز اللى الزبير، فبرز إليه مدججاً، فقبل لعائشه: قد برز الزبير إلى على عليه السلام، فصاحت: وزيراها!

فقبل لها: لا بأس عليه منه، إنّه حاسر والزبير دارع.

فقال له عليه السلام: ما حملك يا أبا عبد الله على ما صنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، قال: أنت وطلحه وليتماه، وإنما نوبتك من ذلك أن تقيد به نفسك وتسلمها إلى ورثته، ثم قال له: نشدتك الله أتذكر يوم مرت بي ورسول الله صلى الله عليه وآله متكى على يدك، وهو جاء من بنى عمرو بن عوف، فسلم عليّ وضحك فى وجهى، فضحكت إليه، لم أزده على ذلك، فقلت: لا يترك ابن أبى طالب يا رسول الله زهوه!

فقال لك «مه إنه ليس بذى زهوه، أما إنك ستقاتله وأنت له ظالم»

فقال الزبير: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد كان كذلك، ولكن الدهر أنسانيه، ولانصرفن عنك. فانصرف من المعركه (1).

فالعباره السابقه قد تكون إشاره إلى هذا الأمر. جدير بالذكر أن الزبير كان من محبى على عليه السلام وقد هب للدفاع عنه حتى فى حادثه السقيفه وشهر سيفه، فقام له القوم وكسروا سيفه، إلى جانب ذلك فقد منح رأيه لعلى عليه السلام فى الشورى التى شكلها عمر لانتخاب الخليفه من بعده.

على كل حال فان هذه العبارة أثرت فى الزبير وكان شكه يتزايد يوماً بعد آخر.

بمشروعيه الطريق الذى سلكه حتى إتخذ قراره باعتزال القتال فاتجه الصحراء ليكمن له أحد الظلمه - ابن جرموز - فارداه قتيلاً ولم يسعه تدارك ما فرط منه.

أمّا قوله عليه السلام: «ابن خالك» فهو تعبير لطيف جداً، وهو من باب الاستماله والاذكار بالنسب والرحم، فقد كان الزبير ابن صفيه أخت أبى طالب، وعليه فالزبير ابن عمه على عليه السلام وعلى عليه السلام ابن خاله.

ص: ١٥٩

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ١٦٧. [١]

والعبارة تهدف إلى بيان كافة الأمور التي سمعها الزبير من رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن علي عليه السلام ومن هنا فقد كان شديد الحب لعلی، إلّا أنّ حب الجاه - الذى كان الدافع الرئيسى لحرب الجمل - كالحجاب الذى حال دون رويته لتلك الحقائق، فكان لهذه العبارة فعلها فى نفسه حيث أزالته عنه ذلك الحجاب وجعلته يعود إلى الحق.

قال المرحوم السيد الرضى فى ذيل هذه الخطبه: «وهو عليه السلام أول من سمعت منه هذه التلمه؛ أعنى فما عدا ممّا بدا» .

وهى عبارة بعیده المعنى، تشير إلى مسأله وهى: ما الذى صرفك عن الحق بعد أن اتضح لديك إلى الباطل (١). والعبارة من الروعه واللفافه بحيث أصبحت مثلاً فى الادب العربى.

تأملات

١- رد فعل الزبير تجاه رساله الإمام عليه السلام

ورد فى بعض الروايات أنّ ابن عباس قال: حين أبلغت الزبير رساله الإمام عليه السلام أجابنى: قل لعلی عليه السلام إنى أريد ما تريد. (٢)

أى إنك تبتغى الحكومه، فلم لا أطلبها أنا. فقد بلغ به الطمع وحبّ الجاه درجه جعلته يعتقد بأنّ علیاً عليه السلام إنّما نهض بالأمر طلباً للحكومه - ولكن وكما أوردنا سابقاً فإنّ الزبير لم يستطع الوقوف بوجه الحق، فما كان منه إلّا أنّ إعتزل القتال وانصرف وإن كانت خطوته متأخره.

٢- قطوف من سيره طلحه والزبير

طلحه من قريش وأبوه عبدالله بن عثمان من السابقين فى الإسلام وقد شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يشهد يدرا حيث وجهه رسول الله صلى الله عليه وآله حينها إلى الشام فلما عاد طالب بسهمه من الغنائم.

ص: ١٦٠

١- ١) «عدا» به معنى الصرف والاعاده، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى ما، ويحتمل أن تكون من فى ممّا بمعنى عن، و بدا من ماده بدو بمعنى الظهور.

٢- ٢) مصادر نهج البلاغه ١ / ٤١١. [١]

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: لك سهمك وأجرک. وقيل آخى رسول الله صلى الله عليه وآله فى مكه بين طلحه و الزبير، وآخى بين طلحه وأبى أيوب فى المدينه. وروى عن طلحه أن النبى صلى الله عليه وآله أسماه يوم أحد طلحه الخير. أما قتاله مع رسول الله صلى الله عليه وآله فى حربه فمما لا شك فيه مع ذلك فقد كان محباً للجاء والمقام حتى تغيير نهجه بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله، كما كانت تسمع منه بعض الكلمات ومن ذلك قوله أن رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر بنات أعمامنا بالاحتجاب منا، ويتزوج بنسائنا بعد إنفصالهن عنا: فما الذى يغنيه حجابهن اليوم وسيموت غدا فنكحهن، وهنا نزلت آيه التحريم بالزواج من نساء النبى صلى الله عليه وآله (١) فقد ذكر الفخر الرازى فى سبب نزول الآيه أن طلحه قال: «سأتزوج من عائشه إذا مات رسول الله صلى الله عليه وآله». فنزلت آيه تحريم الزواج من نساء النبى صلى الله عليه وآله بعد وفاته. (٢)

وورد فى قصه الشورى التى شكلها عمر أنه أقبل على طلحه وقال: أقول أم أسكت؟ فقال طلحه: قل، فأتك لا تقول من الخير شيئاً. فقال عمر: لقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ساخطاً عليك بالكلمه التى قلتها يوم أنزلت آيه الحجاب. (٣)

على كل حال كان من أشد الناقمين على عثمان، ومن هنا كان يراه مروان من قتله عثمان، وقد رماه بسهم فى الجمل فقتله، وقال: الآن أدركت دم عثمان من طلحه. وقد دفعه حب الجاه لاشعال فتيل الجمل وسفك دماء المسلمين ولم يظفر بالخلافه حتى قتل فى معركة الجمل. وذكر البعض أن الإمام عليه السلام حدثه ببعض الكلمات على غرار الزبير فندم وانصرف من المعركة فرماه مروان بسهم فقتله. إلا أن الخطبه تفند هذا الكلام، فهى تفيد بأس الإمام عليه السلام من هدايته وعودته إلى الحق. وفى روايه أن أمير المؤمنين عليه السلام مر يقتلى الجمل فقال بشأن طلحه هذا من نكث بيعتى وأشعل نار الفتنة وألب الناس على قتلى وأهل بيتى» ثم خاطبه عليه السلام: يا طلحه إنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً فهل وجدت ما وعد ربك حقاً، ثم انصرف. فقال له بعض أصحابه: أتكلمه بعد الموت يا أمير المؤمنين. فقال عليه السلام والله لقد سمعنى كما سمع الكفار كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وهم قتلى فى قلب يدر (٤).

ص: ١٤١

١-١) سورة الاحزاب / ٥٣؛ الدر المنثور / ٥ / ٢١٤.

٢-٢) تفسير الفخر الرازى / ٢٥ / ٢٢٥.

٣-٣) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد / ١ / ١٨٤. [١]

٤-٤) الاحتجاج للطبرسى، نقلا عن سفينه البحار، ماده (طلح).

وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يثنى أحياناً على طلحه، حتى ذهب البعض إلى أنّه من العشره المبشره بالجنّه، فكيف يصح هذا الثناء؟ ونقول في الجواب على فرض أنّ هذا الكلام صحيح، فإنّ الإنسان يعيش بعض المراحل المتألقه في سنى حياته بحيث يكون يوماً إلى جانب الحق ويستحق الجنّه، ويوماً يخرج من هذا الحق ويلتحق في صفوف الباطل فيستحق غضب الله وسخطه. فالتأريخ الإسلامى حافل بالأفراد الذين كانوا على الحق وهجروه إلى الباطل أو بالعكس، وإلّا فمن يسعه القول بأحقّيه من أجاج نار الحرب ضد إمام زمانه وسفك كل هذه الدماء؟ فهل من انسجام بين هذا الكلام والمنطق؟ والشاهد على ما قلنا ما صرح به القرآن الكريم بشأن السابقين فى الإسلام من المهاجرين والأنصار والتابعين، الذين وعدهم بالجنّه «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». (١)

فالآيه تشمل جميع المهاجرين والأنصار، بينما نعلم هنالك من انحرف منهم عن الحق كعبد الله بن أبى سرح (٢) وثعلبه ابن حاطب الأنصارى (٣) فاستحقوا غضب الله وسخطه، وقد كانوا من المهاجرين والأنصار الذين وقفوا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ كما نعلم أن بعض المنافقين الذين ذمهم القرآن بشدّه كانوا من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله. وعلى هذا الضوء فلا بدّ من تقييم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على ضوء أعمالهم حتى آخر أعمارهم، وإلّا شهدنا حاله من التناقض لا- يمكن الخروج منها بتبرير وأما الزبير فهو الزبير بن العوام وأمّه صفيه عمه رسول الله صلى الله عليه وآله اسلم فى الخامسة عشره من عمره وهو رابع أو خامس من أسلم، هاجر إلى الحبشه ثم قدم

ص: ١٦٢

١-١ (١) سورة التوبه / ١٠٠. [١]

٢-٢ (٢) ورد ذمه فى تفسير الآيه ٩٣ من سورة الانعام فى الدر المنثور (الدر المنثور ٣ / ٣٠) [٢] وذكر صاحب أسد الغابه أنه كان من كتاب الوحي ثم ارتد فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بقتله (اسد الغابه، شرح أخبار عبدالله بن سعد بن أبى سرح).
٣-٣ (٣) جاء فى أسد الغايه فى معرفه الصحابه فى أخبار هذا الرجل أن النبي صلى الله عليه وآله طرده، كما طردها الخلقاء الثلاثة (ابوبكر وعمر وعثمان) ولم يقبلوا زكاته، رغم قوله أنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى توفى فى خلافه عثمان.

المدينه، وقد أخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينه وبين عبدالله بن مسعود. شهد غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله في بدر وأحد والخندق وحنين وقد أبلى فيها بلاءً حسناً حتى أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله. وكان أحد أعضاء الشورى الذى بايع علياً عليه السلام ولم يبايعه طلحه. وللأسف فإن حب الجاه وتأثير طلحه قد دفعه للانحراف عن الحق فاشترك مع طلحه فى تأجيج نار الجمل التى فرقت صفوف المسلمين وأراقت دمائهم بعد أن نقض البيعه. وقد ذكر المؤرخون انه إستمع لمواعظ على عليه السلام قبل بدء المعركة فعاد إلى الحق وانسحب من الميدان فاتجه صوب صحراء تعرف باسم «وادي السباع» فلما وقف للصلاه تقدم نحوه ابن جرموز فقتله حين الصلاه وانتزع خاتمه وسيفه فاتى بها إلى الإمام عليه السلام.

فاستاء الإمام عليه السلام وقال: «هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله» وقيل إن الإمام عليه السلام لم يأذن لابن جرموز بالدخول عليه وقال: «بشر قاتل ابن صفيه بالنار» وقال البعض أن ابن جرموز غضب غضباً شديداً فقتل نفسه. وقد صرحت بعض المصادر التاريخية أن معاوية هو الذى شجع طلحه والزبير على نقض البيعه والقيام ضد على عليه السلام (1).

لا شك إن قضية طلحه والزبير ينبغي أن تكون لنا درساً وعبره فلا نغتر بأعمالنا، وكيف أن الإنسان يعيش مع الحق ويجاهد فى سبيله ثم يستل حب الدنيا والحياء إلى قلبه فيقوده إلى الباطل اللهم إجعل عاقبه أمرنا خيراً.

٣- شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد تضمنت رساله الإمام عليه السلام الإشاره إلى أحد الشروط المهمه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألا وهو احتمال التأثير.

فقد قال عليه السلام: «لا تلقين طلحه فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، ولكن إلق الزبير فانه ألين عريكه» فمن الطبيعى أن طاقه الإنسان وقدرته محدوده ولا بد له من استهلاكها فى محلها الذى يتوقع فيه التأثير.

فاذا أحتمل عدم التأثير فلا ينبغي له أن يصرف جهده عبثاً، وبالطبع فقد قلنا احتمال التأثير وليس اليقين فيتعلل بعدم الأمر لعدم وجود اليقين فى التأثير! كلا إلى جانب ذلك

ص: ١٤٣

ينبغي معرفه المعروف والمنكر وعدم وجود الخطر آنذاك تبرز وظيفه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويفهم من رساله الإمام عليه السلام أنّ لبعض الناس طباع كطباع الحيوانات فالبعض كالثعلب أو الذئب وبعضهم شجاع كالأسد وآخر من أهل الشهوات كالخنزير وبعضهم جاهل كالبقرة... وقد شبه الإمام عليه السلام طلحه بالبقرة العاقص القرن حيث يستكبر في التسليم إلى الحق ويخطئ في إدراك الواقع وتمييزه، وإذا اتجه صوب الأعمال العصيه ظنها سهله حتى تؤدي به إلى الفشل.

ص: ١٦٤

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف زمانه بالجور، ويقسم الناس فيه خمسه أصناف، ثم يزهد في الدنيا.

نظره إلى الخطبه

تألف الخطبه من أربعة أقسام:

القسم الأول يتحدث عن الوضع المأساوي للمجتمع على عهد الإمام عليه السلام والمشاكل التي كانت تعترض سبيل الصلحاء والأتقياء. ويصنف الإمام عليه السلام الناس في القسم الثاني آنذاك (ولعله في كل عصر ومصر) إلى أربعة أصناف:

أ - الصنف الأول من يقعد به عن طلب الإمرة قلبه ماله، وحقارته في نفسه. فهو مغتم في الواقع لعدم إمتلاكه الامكانيات.

ب - الصنف الثاني من يشمر ويطلب الاماره ويفسد في الأرض ويكاشف

ج - الصنف الثالث من يتظاهر بالدين ويطلب به الدنيا لا الآخرة

د - الصنف الرابع من لامال له أصلاً، ولا يكاشف، ويطلب الملك ولا يطلب الدنيا بالرياء والناموس، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعه، ويتحلى بحليه الزهاده في اللذات الدنيويه، لاطلباً للدنيا، بل عجزاً عن الحركه فيها، وليس بزاهد على الحقيقه.

ص: ١٦٥

١ - ١) نقل هذه الخطبه محمد بن طلحه الشافعي في كتاب مطالب السؤل وأضاف أنّ الإمام عليه السلام خطبها في مسجد الكوفه، ويتضح من هذا أنّ له سند غير نهج البلاغه، لأنّ نهج البلاغه لم يشر إلى موضع الخطبه. كما رواها الجاحظ في البيان والتبيين، وأنّ أخطأ في البدايه حيث نسبها إلى معاويه إلّا أنه يعترف أخيراً بأنها لاتشبه كلام معاويه وهي من كلمات علي بن أبي طالب. مصادر نهج البلاغه ١ / ٤١٧.

ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى بيان خصائص كل صنف من هذه الأصناف الأربعة - التي تعيش في كل مجتمع، ويتحدث القسم الثالث عن صنف آخر ذكره الإمام عليه السلام بصورة مستقلة وهم الأبرار الأتقياء الذين أراق دموعهم خوف الآخرة.

ثم يقسمهم الإمام عليه السلام إلى عدّة أقسام ويذكر صفات كل قسم منهم، أمّا القسم الرابع والأخير من الخطبه فيدعو فيه الإمام عليه السلام الناس إلى الزهد وعدم الاغترار بالدنيا الذي يقود إلى الذنوب والمعاصي. وقد بين حق الكلام بعبارات قصيره.

ج ج

ص: ١٦٦

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصَبْنَا فِي دَهْرٍ عُنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسَيِّئًا وَيَزِدُّهُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُورًا. لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلَّمْنَا، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهَلْنَا وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَهُ حَتَّى تَحُلَّ بِنَا» .

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام الكلام بخطاب عامه الناس ثم أشار الإمام عليه السلام في الخطبه إلى الزمن الذي كان عليه الناس فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا قَدْ أَصَبْنَا فِي دَهْرٍ عُنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ» .

طبعاً ليس المراد بالزمن الأيام واليالي والشهور والسنين بحيث توصف بالقبح والحسن والبغض والتنكر، بل أهل العصر والزمان الذين يتصفون بهذه الصفات، فاذا ما ذكر الزمان بالحسن والقبح فالمراد الناس، وإلا فليس هنالك من تغيير في شروق الشمس أو القمر ولا في حركة القمر حول نفسه أو حول الشمس.

فالشمس تشرق والمطر ينزل والأرض تخرج بركاتها للبشر ولا من تغيير، إلا أن الناس هم الذين يوصفون بسوء الأعمال وحسنها.

فقد عاش الإمام عليه السلام في عصر لم يسع أغلب أفراده - سوى النزر اليسير - إدراك عظمه روحه وسعه فكره والاحاطه بفضائله ومناقبه، وقد أدت بهم الثروات العظيمه التي أفرزتها الفتوحات الإسلاميه واتساع رقعه البلاد إلى التكالب على الدنيا والتهافت على زينتها والحرص على جمع الأموال وحب الجاه والمقام وتناسي القيم والمبادئ.

ثم تناول الإمام عليه السلام بعض خصائص الزمان آنذاك والذي يتصف بعناد الناس وجحودهم ليصفه في خمس عبارات فقال: «يعد فيه المحسن مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتوا» أو يمكن أن يتهم المحسن بالاثم ويشنى على الظالم؟ بلى إذا تغيرت قيم المجتمع عد المحسن مسيئاً والمسييء محسناً.

فإذا كان المال والثراء والقوه هي القيم ومعايير الشخصيه، فستكونصداره في ذلك المجتمع للظلمه والطغاه والجباره، بينما تميم في هذا المجتمع شخصيه المحسنين الذين يمدون يد العون إلى الفقراء والضعفاء وينفقون عليهم الأموال وينعتونهم بالحقاقه والبلايه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض نماذج الفساد الذي طال المجتمعات البشرية بفعل فساد التعامل مع القيم والتكر لها ومن ذلك ما أورده بشأن قوم لوط الذين عزموا على إخراج نبيهم ومن معه من المؤمنين الصالحين ولا- ذنب لهم سوى الطهر والعفاف «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» (١).

كما اعتبر الظلمه من قوم نوح تلك الثله الخيره التي آمنت بالله والنبي بأنها من أراذل القوم والسذج الذين ليس لهم من مزيه على من سواهم «مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» (٢).

نعم إذا فسد الناس وازداد حجم الظلم والاضطهاد تغير وجه المجتمع وغيبت فيه القيم، وازداد الظالم طغياناً وتجبراً وعدّ المحسن مجرماً فيقصي من ذلك المجتمع.

وليس هنالك من نتيجة سوى ما أشار إليها الإمام عليه السلام: «لانتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا» .

والواقع أنّ هذه أسوأ حاله يعيشها الفرد أو المجتمع، أى أنّه لا يستثمر علومه ومعارفه في حل مشاكله ولا يهتم بالقضاء على الجهل والاقبال على العلم، وليس هنالك من نتيجة لهذين الأمرين سوى العوم في بحر الجهل والجريمه، وهذا هو حال كافة الأفراد الذين يغضون الطرف عن مفاسد المجتمع ولا يرون لأنفسهم من مسؤوليه في ردعها سواء من خلال اليأس من

ص: ١٤٨

١-١ (١) سورة النمل / ٥٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة هود / ٢٧. [٢]

الإصلاح أو التعود على هذا الفساد والتكيف معه.

ثم قال: «ولا- نتخوف قارعه حتى تحل بنا.» الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام أورد العبارات الأخيره بصيغه التكلم مع الغير وينسبها إلى نفسه ومن حوله؛ مع القطع بأنّه مبرأ من ذلك بفضل عصمته وورعه وتقواه، ولعل العبارة تهدف عدم جرح مشاعرهم وإثارة حفيظتهم فيجعل نفسه كأحدهم في مثل هذه الأمور.

تأملان

١- ما مفهوم فساد الزمان؟

ذكرنا آنفا أنّ الزمان لا يراد به هنا المدة الزمنية لحركة الشمس والقمر (أو دوران الأرض حول نفسها والشمس) فالأزمنة متشابهة ذاتاً، والأشخاص هم الذين يتغيرون والحوادث والوقائع التي تجعل العصر والحياه حلوه أو مره.

و عليه فاذا قيل بفساد الزمان فالمراد فساد الناس.

ويصدق هذا الأمر على المكان أيضاً، فاذا قيل أنّ المنطقه الفلانيه أو البلد الفلاني فاسد فالمقصود فساد أهل تلك المنطقه أو ذلك البلد.

وبالطبع فان هنالك من يحاول استغلال هذه العبارات ليجعل من فساد الزمان أو المكان ذريعه لفساده وانحطاطه.

فاذا سئل عن سبب فساد وانحرافه، إنبرى للجواب: وماذا أفعل فقد فسد العصر أو البيئه التي أعيش فيها، والحال هو ومن حوله مصدر الفساد. ولعلنا نلمس هذا المعنى في الاشعار التي تنسب إلى عبدالمطلب جد النبي صلى الله عليه وآله حيث أنشد قائلاً: و يعيب الناس كلهم زمانا

و من البديهي أنّ زوال فساد الزمان مرهون بتغيير الناس فيشملوا بلطف الله وعنايته «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (١). وبذلك فالإنسان هو المقصر الأصلي على كل حال.

٢- التنكر للقيم

المسألة التي تلعب دوراً مهماً في مصير المجتمعات البشريه والتي قد يغفل عنها الأعم الأغلب من الناس إنّما تتمثل بنظام القيم والمبادئ التي تسود المجتمع.

فالمجتمع إنّما ينطلق في مسيرته نحو المثل والقيم التي يلهمها لأفراده والمقره من قبلهم، وعليه فالمجتمع يتجه نحو التأكل والزوال إذا ما شهد تغييب القيم والمبادئ.

ونقصد بالمجتمع حركه جميع أفراده ولا يقتصر ذلك على بعض الأفراد الذين يتحلون بالايمان والتقوى فيقفون دائماً ضد حالات الفساد والانحراف.

وبناءً على ما تقدم فإنّ القيم المقره فى المجتمع إذا كانت تتجسد فى المال والثروه فإنّ كافه الأفراد سيتجهون نحو الشراء كهدف دون الإكتراث لمسائل الحلال والحرام.

والإنسان يتجه بوحي من طبعه إلى صنع الشخصيه ولايأل جهدا فى السعى لتحقيق هذا الأمر، فاذا كانت القيم السائده تتمثل بالشخصيه الكاذبه فان الأفراد سيتحركون لامحاله لمثل هذه الشخصيه.

والشباب عاده يلهثون خلف السمعه والشهره ويعشقون الابطال، و عليه فلا يبدو غريباً تقليد الشباب لهؤلاء الابطال حتى فى الثياب واسلوب المشى، ولو كان هؤلاء الابطال هم العلماء والمفكرين فمن الطبيعى أن ينطلق الشباب نحو العلم والمعرفه.

بالمناسبه هنالك قصه طريفه مشهوره بشأن العلامه الكبير الشيخ البهائى، حيث قرر الشاه عباس الصفوى مكافئه جهوده العلميه وخدماته العمرانيه بتقديم هديه تليق بشأنه، فطلب الشيخ أن يستقل مركبه الخاص ويمشى الشاه خلفه لمسافه معينه فى الشوارع والازمه -

ص: ١٦٩

و من البديهي أن زوال فساد الزمان مرهون بتغيير الناس فيشملوا بلطف الله وعنايته «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١)» وبذلك فالإنسان هو المقصر الأصلي على كل حال.

٢- التنكر للقيم

المسألة التي تلعب دورا مهما في مصير المجتمعات البشريه والتي قد يغفل عنها الأعم الأغلب من الناس إنما تتمثل بنظام القيم والمبادئ التي تسود المجتمع.

فالمجتمع إنما ينطلق في مسيرته نحو المثل والقيم التي يلهمها لأفراده والمقره من قبلهم، وعليه فالمجتمع يتجه نحو التآكل والزوال إذا ما شهد تغييب القيم والمبادئ.

ونقصد بالمجتمع حركه جميع أفراده ولا يقتصر ذلك على بعض الأفراد الذين يتحلون بالامان والتقوى فيقفون دائما ضد حالات الفساد والانحراف

وبناء على ما تقدم فإن القيم المقره في المجتمع إذا كانت تتجسد في المال والثروه فإن كانه الأفراد سيتجهون نحو الشراء كهدف دون الإكتراث لمسائل الحلال والحرام والإنسان يتجه بوحى من طبعه إلى صنع الشخصيه ولايأل جهدا في السعى لتحقيق هذا الأمر، فإذا كانت القيم السائده تتمثل بالشخصيه الكاذبه فإن الأفراد سيتحركون لامحاله لمثل هذه الشخصيه.

والشباب عاده يلهثون خلف السمعه والشهره ويعشقون الأبطال، و عليه فلا يبدو غريبه تقليد الشباب لهؤلاء الأبطال حتى في الثياب واسلوب المشى، ولو كان هؤلاء الأبطال هم العلماء والمفكرين فمن الطبيعي أن ينطلق الشباب نحو العلم والمعرفه.

بالمناسبه هنالك قصه طريفه مشهوره بشأن العلامه الكبير الشيخ البهائي، حيث قرر الشاه عباس الصفوى مكافئه جهوده العلميه وخدماته العمرانيه بتقديم هديه تليق بشأنه، فطلب الشيخ أن يستقل مركبه الخاص ويشى الشأه خلفه لمسافه معينه في الشوارع والازمه

ص: ١٧٠

فالواقع أراد الشيخ بهذا العمل أن يثبت بأن القيم والمثل التي تسود المجتمع ينبغي أن تتمحور حول العلم والمعرفة.

وقد قيل أنّ إقبالاً منقطع النظر قد حدث للعلم بما لم يشهده أبداً في السابق. جدير بالذكر أنّ القيم والمثل التي كانت تحكم المجتمع الجاهلي قبل الإسلام مصداقاً لقوله عليه السلام: «بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم» . (١)

حيث أبطالها هم أبوسفیان وأبوجهل وأمثالهما، حتى انبثق الإسلام ليرفع شعار التقوى «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» فيقضى على اولئك الابطال الكاذبين ويستبدلها بالابطال من قبل أبي ذر وأمثاله. ومما يؤسف له أن هناك بعض الأعمال الخاطئة التي وقعت في عصر الخلافة الراشدة فادت إلى تغييب تلك القيم الإسلاميه المثلى لتعود النعرة الجاهليه من جديد فتصدر المجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بدلاً من مالك الاشرى وأبي ذر وعمار بن ياسر؛ الأمر الذي كان يدمى قلب الإمام عليه السلام، وأدنى ذلك ما أورده عليه السلام بقوله «يعد فيه المحسن، مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتواً» .

ومن هنا كان هدف الإمام عليه السلام في أغلب خطبه في نهج البلاغه يكمن في إحياء القيم والمثل التي كانت سائده في صدر الإسلام.

ج ج

ص: ١٧١

«فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةً نَفْسِهِ، وَكَالَالَهُ حَيْدُهُ، وَنَضَبَ يَضُّ وَفَرِهِ. وَمِنْهُمْ الْمُصَيَّلَاتُ لِسِيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجَلِّبُ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُوْدُهُ، أَوْ مِثْرٍ يَفْرَعُهُ. وَلَيْسَ الْمَتْجِرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَنًا، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عَوْضًا!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللَّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنِ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُمُؤْلَهُ نَفْسِهِ، وَانْقِطَاعُ سَيْبِهِ فَقَصَصَ رُتَّهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقِنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَعْدَى.»

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام - في هذا القسم من الخطبة - بالتحليل لطلاب الدنيا الذين يصنفهم في أربعه أصناف وبالطبع فإن هذه الأصناف لا تختص بمجتمع دون آخر ولا زمان دون آخر بل هي عامه شامله فقال عليه السلام:

«فالناس على أربعه أصناف، منهم من لا يمنع الفساد في الأرض إلامهانه نفسه،

وكلاله (١) حده ونضيض (٢) وفره» .

فالمشكلة فى عدم وجود الماء والا فهم سباحون ماهرون، فباطنهم مفعم بالشر والفساد الا أنهم يفتقرون للاله التى يمارسون بها الظلم والفساد، ومن الطبيعى أن مثل هولاء الأفراد إنما يترصبون بظواهرهم الوديع الذى لا يشوبه أذى.

كما يتوجب على قاده المجتمع إذا ما تعرفوا على هولاء الأفراد الحذار من تزويدهم بالا مكانات فيعيشوا فى الأرض فسادا، وقد أشار القرآن إلى ذلك «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلْمُدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» . (٣)

ثم تطرق عليه السلام إلى الصنف الثانى «و منهم المصلت (٤) لسيفه والمعلن بشره والمجلب بخيله ورجله» فقد أعد هذا الصنف من الناس باطنه للظلم والفساد ومحق دينه «قد أشرط (٥) نفسه وأوبق (٦) دينه» .

ولكن ما هدف هولاء؟ لا شك أن هدفهم ما أشار إليه الإمام عليه السلام وليس ذاك سوى الحصول على شى من متاع الدنيا أو الأمره على بعض الأفراد او إرتقاء المنبر ليظهر نفسه للناس بمظهر الخطيب الواعظ «لحطام (٧) ينتهزه (٨)، أو مقتب (٩) يقوده، أو منبر يفرعه (١٠)» .

ص: ١٧٤

١-١) «كلاله» على وزن ضلاله بمعنى ضعف السلاح عن القطع فيقال كل السيف إذا لم يقطع.

٢-٢) «نضيض» بمعنى قليل، والنضيض وفره، بمعنى القليل ماله.

٣-٣) سورة البقره ٢٠٤-٢٠٥. [١]

٤-٤) «مصلت» من ماده «صلت» بمعنى الاظهار و السيف الصلت بمعنى السيف المشهور المصقول، ويقال المصلت لمن شهر سيفه.

٥-٥) أشرط من ماده شرط بمعنى العلامه، و معنى العبارة أنه أعد نفسه للفساد و الاهلاك، و كانه ميز نفسه بهذا الامر.

٦-٦) «اوبق» من ماده «وبق» بمعنى الهلاك، أى اهلكك نفسه.

٧-٧) «الحطام» على وزن الغلام بمعنى المتكسر الذى لا قيمه له، و من هنا يطلق على المال حطام الدنيا لزهاده قيمته.

٨-٨) «ينتتهزه» من ماده «نهز» بمعنى الحركة من أجل القيام بعمل، كما وردت بمعنى الحركة من أجل نيل غنيمه، و عليه ينتتهز بمعنى يغتمه.

٩-٩) «مقتب» على وزن محور تعنى طائفه من الخيل، وقد وردت فى العبارة بمعنى طائفه من الناس، ولعل العبارة أشاره لجهلهم وعدم علمهم.

١٠-١٠) «يفرع» من ماده «فرع» أعلى الشئ وقد وردت هنا بمعنى علا المنبر وارتقاءه.

فالعبارة رغم قصرها فقد أشارت إلى أعمالهم الظاهرية إلى جانب فسادهم الباطني واهدافهم الرخيصة، فهؤلاء الأفراد يستفرون ما في وسعهم ليصبحوا على غرار فرعون أو قارون أو السامري. وما أولئك الذين أججوا نيران الجمل وصفين إلامصاديق بارزه لذلك الصنف من الأفراد، فالبفض اندفع من أجل المال وآخر من أجل المقام والمنصب والآخر من أجل الخلافه. ثم تطرق عليه السلام إلى نتيجة أعمال هؤلاء فقال «و لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، وممالك عند الله عوضا»، ومن الطبيعي أن هذا الصنف من الناس الفاسد والشرير - الذي يخطط خبطا عشواء من أجل الظفر بالمال والمقام - لا يقيم لأحكام الله وزنا ولا يصغى لصوت الضمير والوجدان ولا ينقاد لدليل العقل، فقد باع هذا الخزين الثمين بذلك الثمن البخس، باع الدين بالدنيا «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» (١).

بينما تضافرت الروايات التي تؤكد على قيمه الإنسان وأنه لا ينبغي له بيع نفسه إلابثمنها وثمرتها الجنّه. كما صرحت الآيه القرآنيه بأن بيع النفس بغير الجنّه ورضى الله لا يستبطن سوى الخسران المبين «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاهِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ» (٢).

فالآيه تفيد أن بعض الناس (كعلى عليه السلام الذي نام على فراش رسول الله صلى الله عليه و آله ليله الهجره) يبيعون أنفسهم من أجل رضى الله سبحانه. وقد ورد عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّه فلا تبيعوها إلابها» (٣).

ثم تعرض عليه السلام للصنف الثالث الذى يتصف بالتزوير - وأوضح صفاته «و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخره، ولا يطلب الآخره بعمل الدنيا» .

فهدف هذا الصنف هو ذات الهدف الذى ينشده الصنف الثانى المذكور مع فارق بسيط هو أن أولئك يجنون حطام الدنيا من خلال المنطق الغاشم والظالم والجور، بينما يعتمد هؤلاء على التزوير والخداع والغرور.

ص: ١٧٥

١-١) سورة البقره / ١٦. [١]

٢-٢) سورة البقره / ٢٠٧. [٢]

٣-٣) نهج البلاغه، الكلمات القصار ٤٥٦.

فالصنفان وإن كانا ضالين ظالمين وخاطئين، إلّا أنّ حال هذا الصنف أسوأ من الصنف الذى سبقه؛ وذلك لأنه جعل دين الله جسراً لدنياه، وعليه فقد أهلكوا دنيا الآخرين إلى جانب إهلاك دينهم.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام فى صفات هذا الصنف «قد طامن (١) من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر (٢) من ثوبه، وزخرف من نفسه للامانه، واتخذ ستر الله ذريعه إلى المعصيه.»

فالعباره تشير إلى ظاهر متواضع وسكين ووقار وعدم إلتفات إلى الدنيا وحطامها والتزين بشعار الصالحين واستغلال ستر الله سبحانه للعيوب فى حين هنالك حركه نحو الذنب والمعصيه.

وقد يؤمن هذا الصنف بالله واليوم الآخر على مستوى الظاهر، إلّا أنّ هذا الإيمان يقتصر على الظاهر ولم يخترق قلوبهم أبداً، وإلّا فكيف إرتضوا لأنفسهم هذه المعامله المجحفه بحيث باعوا آخرتهم بدنياهم ومن هنا وردت الروايات التى تصرح بأنّ هؤلاء الخاسرين يوم القيامه - حين تطرح الحجب وتوضح حقيقه كل فرد كما هى - ينادون يا كافر!

يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! وينادون «حبط عملك وبطل أجرك فلا خلاص لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له» (٣).

ومما لاشك فيه أن هذا الصنف - كسائر الأصناف الأربعة - لا يقتصر فى وجوده على عصر الإمام عليه السلام، بل هو موجود فى كل عصر و مصر وأنّه لأعظم خطراً من سائر الأصناف على دين المجتمع ودنياه.

وعليه فلا بدّ لاتباع الحق من مراقبه هؤلاء والحذار من الوقوع فى فخهم ولحسن الحظ فإنّ أغلب هؤلاء الأفراد يفتضحون عملياً فاذا بلغوا مفترق طرق بين الدين والدنيا ولوا ظهورهم للدين وتهافتوا على الدنيا وآثروا سخط الله على رضى خلقه طمعاً فى الدنيا

ص: ١٧٦

١ - ١) «طامن» و «اطمينان» من ماده واحده بمعنى السكينه والهدوء، وهى تشير فى العباره إلى الوقار والتواضع الصورى والظاهرى.

٢ - ٢) «شمر» من ماده «شمر» بمعنى الترتيب والاعداد.

٣ - ٣) وسائل الشيعه ١ / ٥١. [١]

وحطامها، فأفكارهم منحطه وهمتهم وضعه وروحهم ملوثة وباطنهم قبيح والازدواج هو الغالب على شخصيتهم.

وأخيرا يتعرض الإمام عليه السلام للصنف الرابع - أهل التقى الكاذب والزهد الفارغ - فيقول «ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤوله (١) نفسه، وإنقطاع سببه فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعه، وتزين بلباس أهل الزهاده وليس من ذلك فى مراح (٢) ولا مغدى». (٣)

فهم أفراد ضعفاء عجزه لا- كفاءه لهم يحاولون التستر بالزهد للتغويه على عجزهم وانعدام جدارتهم والتظاهر بالقوه لاخفاء ضعفهم، والحال ليس لديهم شمه من الزهد والقناعه باطنهم وهم على قسمين: فمنهم من يتستر لخداع النفس ومنهم يخدع نفسه محاولاً إقناع نفسه بأنه من أهل الزهد والتقوى لا الضعف والعجز يدفعه للتظاهر بذلك. أمّا المراح والمغدى فقد ذهب أغلب أرباب اللغه وشرّاح نهج البلاغه إلى أنّها اسم مكان لاستقرار الماشيه فى الصباح والمساء بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّها اسم زمان بمعنى الذهاب والاياب ليل نهار.

كيفما كان فان المفردتين تعبران عن حماقه هؤلاء الأفراد وبلاهمتهم التى تجعلهم بهيئه الزهد والقناعه. هناك كلام كثير بين بين المفسرين بشأن فارق الصنف الرابع والأول من جهه والصنف الرابع والثالث من جهه أخرى.

ويبدو أنّ الصنف الأول الذى ينشد الدنيا قد قبع فى زاويه إثر ضعفه وعجزه ولم ينطلق نحو المال والحياه والمقام، وهو لا يصر على ابراز ضعفه وعجزه على أنّه قوه وإقتدار، فى حين يحاول الصنف الرابع أستغلال ضعفه وعجزه بغيه الظفر بمكائنه فى المجتمع على أنّ ذلك الضعف زهد وقناعه. أمّا فارق الصنف الرابع مع الصنف الثالث هو أنّ الصنف الثالث يعتمد النفاق والتزوير لتحقيق أطماعه ومآربه، بعبارة أخرى ما يجنيه الظلمه من حطام الدنيا بواسطه الظلم والجور يحصل عليه هؤلاء من خلال الرياء وخداع الناس.

ص: ١٧٧

١-١) «ضؤوله» بمعنى الضعف والعجز.

٢-٢) «مراح» من ماده «روح» مصدر ميمى من راح إذا ذهب فى العشى

٣-٣) «مغدى» من ماده «غدو» مصدر ميمى من غدا إذا ذهب فى الصباح، وقيل مكان الحيوانات فى النهار فى مقابل المراح فى الليل.

فهم يبيعون دينهم بدنياهم ويحصلون على الدنيا ومتاعها من خلال الدين، أمّا الصنف الرابع فهو لا يحصل على جاه ومقام، ويكتفى بأن المجتمع ينظر إليه كزاهد قانع.

وأخيراً يشترك الصنف الأول والرابع فى أنه ليس أقل تكالبا من الصنفين الآخرين إذا ما توفرت الأرضيه الخصبه أمامهما للظلم والفساد.

الأصناف الأربعة فى كل مجتمع.

لقد أماط اللثام عن حقيقه هذه الأصناف الأربعة ولفت إنتباه المجتمع إلى الأخطار التى تفرزها حركتها فى المجتمع بفعل فسادها وظلمها وريائها وزهداها الكاذب، ثم خاض عليه السلام فى صفات كل صنف ليتعرف عليه أفراد المجتمع فلا يقعوا فى شباكههم.

وتشترك هذه الأصناف جميعاً فى الفساد العقائدى والتعلق بالدنيا والجاه والمقام، إلّا أنها تختلف فى إعداد الأسباب والمقدمات التى تمكنها من الوصول إلى أهدافها، وبعبارة أخرى فإنّ الأصناف الأربعة يمكن تقسيمها إلى طائقتين:

طائفه تحقق أهدافها الرخيصة عن طريق الرياء والتزوير: وطائفه لا تحقق أهدافها إلّا أنها تخفى هذا الفشل فى الزهد والقناعة، ولو تأملنا التاريخ لرأينا هذه الأصناف فى كل عصر ومصر.

ومما يؤسف له اليوم أنّ المجتمعات الإسلاميه هى الأخرى تشهد تغلغل هذه الأصناف؛ الأمر الذى جر عليها الويلات والمصائب. والحق ليس هنالك من وسيله للحد من أخطار هذه النماذج سوى فى اتباع كلام الإمام عليه السلام وتشخيص هؤلاء الأفراد وفضح مخططاتهم وموامرتهم وتحذير الأمه من الوقوع فى شباكههم أو الاغترار بزهدهم الكاذب.

القسم الثالث: الصنف الخامس: أولياء الله

«وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرَ الْمَرْجِعِ وَأَرَاقَ دُمُوعِهِمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ وَدَاعٍ مُخْلِصٍ وَتُكْلَانٍ مُوجِعٍ قَدْ أَحْمَلَتْهُمْ التَّقِيَّةُ وَشَمَلَتْهُمْ الدَّلَّةُ فَهُمْ فِي بَحْرِ أُجَاجٍ أَفْوَاهُهُمْ ضَامِرَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِيحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا وَقَهَرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقَتَلُوا حَتَّى قَلُّوا» .

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من ذكر الأصناف الأربعة، تطرق إلى الصنف الخامس، وهم أولياء الله وجنود الحق وأخيار الأئمة الذين اقتصوا عن المجتمع وعادوا غرباء فيه بفعل تسلّم زمام الأمور من قبل الأصناف الأربعة المذكوره.

وقد لفت الانتباه إلى عظمتهم بالتعبير عنهم بالرجال، بينما عبر عن الأصناف الأربعة بالناس.

والحق أنّ الإمام عليه السلام يرى الصنف الخامس هو محور المجتمع ويحث أتباعه لأن يكونوا ضمن هذا الصنف. فقد قال عليه السلام: «وبقى رجال غضّ أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر» .

وقوله: «غضّ أبصارهم» لا يراد به إغماض العين، بل النظره الشمولية والشعور بمسؤوليتهم تجاه الله سبحانه ويوم القيامة، الشعور الذي إرعش قلوبهم وأراق دموعهم.

فليس هنالك أكثر خشية من ذلك اليوم لمن آمن بالله واليوم الآخر ومحكمه العدل الإلهي،

كيف لا وهو اليوم الذى تطرح فيه الحجب وتبلى فيه السرائر وتتمثل الأعمال التى صدرت من الإنسان طيله عمره فتنظر الحساب والجزاء.

ويرى بعض شراح نهج البلاغه (١) أن المرجع فى العبارة المذكوره بمعنى القبر والمحشر القيامة، ولكن بالاستناد إلى التعبيرات القرآنيه فان المفردتين وردتا بمعنى واحد، وعليه فيبدو الفارق فى عدم تكرار اللفظ لا المعنى.

والواقع أن هذه التعبيرات قد اقتبست من الآيه القرآنيه الشريفه «رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ». (٢)

ثم تطرق عليه السلام إلى مصير هذا الصنف فى المجتمعات التى تسودها الأصناف الأربعة، بحيث لا ينجو كل فرد فيه من خمس: النزوح من البلد والتشريد والتغريب، الخوف واللواذ فى زاويه، السكوت والصمت، الاشتباك بفعل عدم إعارتهم الاذان الصاغيه وسماع كلماتهم الحق أو الدعوه إلى الله باخلاص بعيون باكيه وقلوب حرى أملا- فى التأثير «فهم بين شريد (٣) ناد (٤) وخائف مقموع (٥) وساكت مكعوم (٦) وداع مخلص وثكلان (٧) مومج».

وبالالتفات إلى «شريد» وناد من ماده فد بمعنى المنفرد الهارب من الجماعه إلى الوحده (٨) فإن العبارات المذكوره إشاره إلى أن هؤلاء الأفراد ليسوا مع بعضهم حتى فى المنفى، وكل واحد منهم قد قذف فى بقعه؛ فالطغاه يخشون حتى اجتماعهم فى المهجر والعبارة «خائف مقموع» إشاره إلى أن الطغاه لا يكتفون بتهديد هؤلاء الأفراد وإرعابهم، بل لا يتورعون عن التضيق

ص: ١٨٠

١- ١) فى ظلال نهج البلاغه، الخطبه المذكوره.

٢- ٢) سوره النور / ٣٧. [١]

٣- ٣) «شريد» من ماده «شرد» بمعنى هروب الناقه، ثم اطلقت على كل من يهرب من قومه.

٤- ٤) «ناد» من ماده «ند» بمعنى المنفرد الهارب من الجماعه إلى الوحده.

٥- ٥) «مقموع» من ماده «قمع» بمعنى المقهور والمغلوب، وتعنى الاقتلاع أيضاً.

٦- ٦) «مكعوم» من ماده «كعم» ، كعم البعير بمعنى شد فاه، ثم اتسعت لتطلق على كل فم يشد.

٧- ٧) «ثكلان» من ماده «ثكل» بمعنى فقد الاحبه، كما وردت بالنسبه للإنسان الذى يعيش العزاء بمعنى الشخص الباكي الحزين.

٨- ٨) شرح نهج البلاغه محمد عبده والعلامه الخوئى وابن أبى الحديد.

عليهم واستئصال شأفتهم واجتثاث جذورهم.

والعبارة «ساكت مكعوم» أنّ الظلمه لا-يقتنعون بصمت هؤلاء الأفراد وسكوتهم، بل يسعون دائماً لكم أفواههم دون أن ينسوا بنت شفاه.

والعبارة «داع مخلص» لا تفيد دعوه الناس من أجل نيل المقام والثروه أو ليست هي دعوه دنيويه، بل المدافع من هذه الدعوه هو رضى الله وقيل بل المراد بالعبارة والداعى المخلص من يدعو الناس إلى الله والارتقاء بالمجتمع.

وأخيراً تشير العبارة «ثكلان موجع» إلى أنّ الحزن والآسى، يخترق ظاهرهم ليعيشوه في قلوبهم وأرواحهم. ثم عرض عليه السلام إلى سائر صفاتهم بعبارات قصيره بعيده المعانى يتخللها الآسى والأسف فقال عليه السلام: «قد أحملتهم (١) التقيه» .

فهؤلاء وإن كانوا مجاهدين أشداء، ولكن لما كان جهادهم لاينطوى سوى على أبادتهم فلم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى التقيه؛ التقيه التى تؤدى بهم فى خاتمه المطاف إلى العزله والانطواء ليراهم الأعداء على أنهم أفراد جنباء، كما يراهم الأصدقاء حاملين ليسوا بذات قيمه، والحال أنّ الظروف تجعل من تقيتهم جهاداً ونهوضاً بالوظيفه «وشملتهم الذله» هم أعزه عند الله وفى أنفسهم إلّا أنّ غياب القيم والمثل فى المجتمع جعله يراهم ضعفاء أذله «فهم فى بحر أجاج» . (٢)

كيف لايعومون فى بحر مالح لايسعهم شرب ماء والأّمه لم تقف إلى جانبهم وتدعم نهضتهم «أفواههم ضامزه (٣)، وقلوبهم قرحه» .

ليس هنالك من قلق لدى الأفراد الذين يعيشون اللأباليه فى مثل هذه المجتمعات، ولايقلقهم سوى منافعهم الشخصيه، أمّا المجاهدون الذين تكف أفواههم بالقوه، إنّما يتحرقون الماً وقلوبهم تشعر عمق الفاجعه ذهب بعض شرّاح نهج البلاغه (٤) إلى أنّ المراد بقلوبهم قرحه أنّها تخاف الله، بينما تشير قرينه الكلام إلى أنّ قروح قلوبهم إنّما تعزى الى الفساد الذى

ص: ١٨١

١-١) «أخمل» من ماده «خمل» بمعنى أسقط ذكره حتى لم يعد له بين الناس نباهه.

٢-٢) «أجاج» من ماده «أجج» بمعنى الملوحة والمراره.

٣-٣) «ضامزه» من ماده «ضمز» بمعنى السكوت والتحفظ عن الكلام

٤-٤) شرح نهج البلاغه لابن ميثم، والعلّامه الخوئى وفى ظلال نهج البلاغه لمحمد عبده.

لا يستطيعون القضاء عليه ولعل هناك من ينسب هذه المفردات من قبيل الضعف والعجز والسكوت والتقية إليهم كنتيجة لأعمالهم وعدم قيامهم فى الوقت المطلوب، ومن هنا نبه الإمام عليه السلام إلى إزالة هذا الظن فقال عليه السلام: «قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوبا» .

فقد خاضوا الجهاد على كافة المستويات وبشتى الطرق والأساليب، من خلال الوعظ باللسان إلى جانب النهضة المسلحة وتقديم الضحايا حتى كثر القتل فى صفوفهم فقل عددهم، وذلك لأنه لم يكن لهم نصير و لم يكن هنالك من توازن فى القوى مع أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وعده. فقد قاتلوا على أمل تحقيق النصر وإجتثاث جذور الفساد ولم تبق منهم إلّا قلّة لم يكن أمامها سوى التقية حفظا لنفسها ودينها.

والعبارة «قتلوا حتى قلوبا» لا- تعنى أنهم وتروا ولم يبق منهم إلّا القليل، بل تعنى أستشهد فريق منهم وبقى فريق آخر، والعبارة من قبيل إسناد أوصاف الجزء إلى الكل.

وهنا يطرح هذا السؤال: الاستضعاف المذكور يتعلق بأى زمان، والإمام عليه السلام كان هو الذى يحكم المجتمع؟ وتأمل تأريخ عصر الإمام عليه السلام يوضح الاجابه على هذا السؤال، كما ورد ذلك فى بعض كلماته من أنّ الفساد الاجتماعى كلمه فى عصره بلغ درجه بحيث خفت شعاع شمس حكومه الإمام عليه السلام فى الكوفه وأطرافها، وقد اجتمعت لكه سائر المناطق من قبيل الشام ومصر التى عاشت ذروه الشر والفساد والانحراف على إقصاء الصالحين عن مرح الأحداث.

«فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالِهِ الْقَرْظِ وَقُرَاضِهِ الْجَلْمِ وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْزُقُوهَا دَمِيمَةً، فَإِنَّهَا قَدْ رَفُضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ» .

الشرح والتفسير

يدعو الإمام عليه السلام الناس في ختام هذه الخطبه بعبارات مقتضيه بعيده المعاني إلى الزهد في الدنيا بصفته مفتاح سعادته الإنسان بعد أن ذكر صفات الأصناف الأربعة الأئيمه والصنف الخامس الذي يمثل الاتقياء من أولياء الله، مؤكدا على أن البؤس والشقاء الذي طال الأصناف الأربعة إنما يستند إلى حب الدنيا والتعلق بزخارفها.

فقال عليه السلام: «فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثاله (١) القرظ وقراضه (٢) الجلم (٣)» .

والتشبيهات رائعه غايه في الدقه، فالقرظ (على وزن مرض) بمعنى ورق الأشجار الذي يستفاد منه لدبج الجلود حتى يشدها ويجعلها أكثر فائده، وبالطبع فإن الحثاله التي تطرح بعد الاستفاده تكون قذره ومتعفنه ومدعاه للنفره، وكذلك حين تقص أصواف الحيوانات تطرح بعض القطعات الصغيره منه على الأرض دون أن يكون لها أدنى فائده. فالتشبيه الأول

ص: ١٨٣

١ - ١) «حثاله» بالضم: القشاوه وما لاخير فيه، وأصله ما يسقط من كل ذى قشر، ومن هنا تطلق الحثاله على حشاشه الدهن المتساقطه.

٢ - ٢) «قراضه» من ماده «قرض» بمعنى قطف الشى وتطلق على القطع الصغيره المتناثره من المقراض ومن هنا يطلق المقراض على المقص.

٣ - ٣) «جلم» على وزن قلم بمعنى المقراض.

استبطن النفرة والثاني التفاهة وعدم القيمة والاعتبار، والإمام عليه السلام يوصى بأن تكون الدنيا أهون من هذا في الأعين، الدنيا التي أدى عشق أموالها إلى ظهور القوارين، وعشق مناصبها إلى ظهور الفراعنة والطواغيت الظلمة، وأن حبها رأس كل خطيئة.

من جانب آخر فقد أشار عليه السلام إلى قصر مدة الدنيا وضروره الاتعاض بها «واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم» .

لقد جمعوا لها وجهدوا من أجلها وانصرفوا، ولم تعد قصورهم الخاوية وتيجانهم البالية وقدرتهم الجوفاء التي خلفوها هنا وهناك سوى عبره لمن اعتبر، فان اعتبر بها فهو المطلوب، وإلا ستكونون أنتم عبره يعتبر بكم من يأتي بعدكم.

القرآن الكريم من جانبه لم ينفك عن دعوها للناس للاعتبار بالماضين، فقد أورد عبارات توقظ الضمير وتهز الأعماق بشأن الفراعنة وضروره الاتعاض بهم «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» . (١)

غير أنه من المؤسف أن بنى إسرائيل لم يعتبروا بهذه الدروس حتى أصبح مصيرهم عبره لغيرهم.

ثم قال عليه السلام: وارضوها ذميمه، فإنها قد رفضت من كان أشغف (٢) بها منكم» .

ومن الطبيعي أن يكون مراد الإمام عليه السلام بهذه الدنيا المذمومه هي الدنيا التي تقود صاحبها إلى الظلم والطغيان والهوى والفساد لا الدنيا التي تشكل الجسر لعبور أولياء الله إلى الآخرة.

كلام السيد الرضى

قال الشريف الرضى: وهذه الخطبه ربما نسبها من لاعلم له إلى معاويه، وهى كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذى لا يشك فيه، وأين الذهب من الرغام، وأين العذب من الاجاج! وقد دل على ذلك الدليل الخريت ونقده الناقد الباصر عمرو بن بحر الجاحظ، فإنه ذكر هذه الخطبه

ص: ١٨٤

١-١) سورة الدخان / ٢٥ - ٢٩. [١]

٢-٢) «أشغف» من ماده «شغف» بمعنى أكثر تعلق بالدنيا وحبها. وقد أخذت فى الأصل من شغاف وهو الغلاف الذى يضم القلب، كما تستعمل فى العشق الشديد الذى يجتاح القلب وينفذ إلى أعماقه.

فى كتاب البيان والتبيين وذكر من نسبها إلى معاويه، ثم تكلم من بعدها بكلام فى معناها، جملة أنه قال: وهذا الكلام بكلام على عليه السلام أشيه، وبمذهبه فى تصنيف الناس، وفى الأخبار عما هم عليه من القهر والاذلال، ومن التقية والخوف، أليق. قال: ومتى وجدنا معاويه فى حال من الأحوال يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ومذهب العباد.

الدنيا فى عين أولياء الله.

ماورد فى الخطبه بشأن الأصناف الخمسه فى عصر الإمام عليه السلام (من يقعد به عن طلب الإمرة قلّه ماله، ومن يطلب الاماره ويفسد فى الأرض، ومن يظهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا، ومن لامال له أصلاً ويطلب الملك ولايطلب الدنيا، وأولياء الله الاتقياء الأبرار) لا يقتصر على عصر الإمام عليه السلام وزمانه، وهم متواجدون فى كافه المجتمعات الماضيه والمعاصره والآتيه، وإن كافه المشاكل التى تعانى منها المجتمعات إنّما تنشأ من الأصناف الأربعة المذكوره، التى سفكت الدماء وأحرقت الاخضر واليابس وجرعت اتباع الحق صنفوف الأذى والعذاب.

مع ذلك فان الدنيا لم تف لهم وقد أتت عليهم حتى آخرهم ليكونوا عبره لمن بعدهم.

أما العبارات التى أوردتها الإمام عليه السلام بشأن كل صنف وعلاماته وصفاته جعلت من اليسير التعرف عليهم.

ولما كان حبّ الدنيا والتعلق بحطامها هو مصدر الشر والفساد الذى سلكته هذه الأصناف، فإنّ الإمام عليه السلام إختتم خطبته بتصوير حقيقته الدنيا بما يجعل العاقل لا يعيرها أدنى أهميه، فقد وصفها بادی ذى بدء بانها اتفه من حثاله القرظ (و هو ما يسقط من ورق السلم أو ثمر السط يدبغ به ممّا لاخير فيه ولا قيمته له)، ثم أشار إلى تقلب حال الدنيا وعدم دوامها وكيف قضت على الماضين وجعلتهم عبره للآخرين.

فقد ورد فى حديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله مر بجثه حيوان متعفنه ملقاه على الطريق فأوماً إليها قائلاً: أترون هذه هنيه على أهلها؟ فو الله الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها» ثم واصل صلى الله عليه وآله حديثه عن الدنيا قائلاً: الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وشهواتها يطلب من لافهم له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له» (1).

ص: ١٨٥

وجاء فى حدِيث أن الدنيا مثلت للمسيح عليه السلام كعجوز شماء فسألها: كم تزوجت.

قالت: كثير. كلهم طلقتم. قالت: بل كلهم قتلتم. قال عليه السلام: يا ويح أزواجك الباقين، ألا يتعظون بأزواجك الماضين (١)». .

ص: ١٨٦

(١ - ١) منهاج البراعه ٤ / ٥٨؛ بحار الانوار ١٤ / ٣٢٨. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

عند خروجه لقتال أهل البصره، وفيها حكمه مبعث الرسل، ثم يذكر فضله ويذم الخارجين. قال عبد الله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف (٢) نعله فقال لي: «ما قيمه هذا النعل؟» .

فقلت: «لا- قيمه لها!» فقال عليه السلام: «و الله لهي أحب إلي من أمرتكم (٣) إلما أنت أقيم حقا أو أدفع باطلاً» . ثم خرج فخطب الناس.

نظره إلى الخطبه.

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه في ظل ظروف دعا فيها أصحابه للتعبئه وإطفاء نار الفتنة التي

ص: ١٨٧

١- ١) روى السيد الرضى (ره) هذه الخطبه في موضعين من نهج البلاغه: [١] مره هنا و أخرى في الخطبه ١٠٤ حيث قال هناك: وقد مر جانب من هذه الخطبه (إشاره إلى هذه الخطبه ٣٣) وقد ذكرتها ثانيه بسبب إختلاف بعض العبارات. قال صاحب مصادر نهج البلاغه: [٢] ومن هنا يتضح مدى إحتياط السيد الرضى في نقل كلمات أمير المؤمنين عليه السلام. ثم قال: يفهم من روايه الشيخ المفيد في الإرشاد [٣] أن الإمام عليه السلام خطبها في الربذه حيث توقف هناك جمع من حجاج بيت الله وقد تجمعوا حين سمعوا بالإمام عليه السلام ليصغوا إلى كلامه ولم يكن الإمام عليه السلام قد خرج من خيمته. قال ابن عباس دخلت الخيمه فرأيت الإمام عليه السلام يخصف نعله. فقال: يابن عباس: ما قيمه هذا النعل؟ فقلت: لا قيمه لها. قال: قل. قلت: أقل من درهم. قال: والله، لهي أحب إلي من إمرتكم، إلا- أن أقيم حقا أو أدفع باطلا. فقلت: لقد إجتمع حجاج بيت الله ليسمعوا ما تقول. هلا أذنت لي أن أخطبهم؟ قال عليه السلام: لا أنا أحدّتهم. فخرج من الخيمه فخطب بهذه الخطبه (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٢١ -

٤٢٢). [٤] قال صاحب المستدرک ومدارك نهج البلاغه رواها الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد، المستدرک، ص ٢٤٢. [٥]

٢- ٢) «يخصف» من ماده «خصف» بمعنى وصل الأشياء ورقعها.

٣- ٣) «إمره» على وزن فطره بمعنى الحكومه.

أشعلها طلحه والزبير في البصره.

وقد أطلق الإمام عليه السلام - قبل إيراد الخطبه - تلك العبارات التاريخيه الخالده لابن عباس؛ العبارات التي تتحدث عن سمو روح الإمام عليه السلام ومقامه الشامخ ومدى معرفته بالله سبحانه، فقد قال عليه السلام «والله لهي - النعل - أحب إلى من إمرتكم الا أن أقيم حقا أو أدفع باطلاً» .

هذه هي أهداف الإمام عليه السلام من الامر والخلافه. ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلى بيان خصائص العصر الجاهلي وانبثاق الدعوه الإسلاميه، في اشاره إلى بروز مبادئ العصر الجاهلي ثانيه وانه لابد أن يقتفى آثار رسول الله صلى الله عليه وآله ويقتدى بهديه فيقبر الفتن وبيقبر الباطل ليخرج منه الحق.

ثم إختتم عليه السلام الخطبه بدم طائفه من قريش ممن أشعلوا نار الجمل ولم تكن دوافعهم من تلك المعركه سوى الحسد والبغض وحب الدنيا.

ص: ١٨٨

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبُوَّةَ فَسَاقِ النَّاسِ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنَاجَاتَهُمْ فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ وَأَطْمَآنَنَتْ صِيَمَاتُهُمْ - أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحِذَائِهَا مَا عَجَزْتُ وَلَا جَبُنْتُ وَإِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا: فَلَا تُقْبَنَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - كما ذكرنا - إلى بعثه النبي الإكرم صلى الله عليه وآله وظهور الدعوه الإسلاميه فى الجزيره العربيه وكيف كانت حياه الناس فى العصر الجاهلى وكيف أصبحت إبان انطلاقه الدعوه، ومدى السعاده التى ظفروا بها، فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبُوَّةَ» .

أثار بعض شراح نهج البلاغه هذا السؤال: كيف يقال لم يكن لاحد من العرب كتاباً سماوياً ولم يكونوا يتبعون نبياً من الأنبياء، والحال كانت طائفه من اليهود والنصارى تعيش هناك ولديها التوراه والانجيل؟ ثم أجابوا على السؤال من خلال الاشاره إلى تحريف التوراه والانجيل، وعليه فلم يكن لديهم كتاباً بالحق، كما أن اليهود والنصارى كانوا أتباعاً كاذبين، ثم إستدلوا على ذلك بالايه الكريمه «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا» . (١)

ص: ١٨٩

كما إحتمل البعض أن يكون المراد بذلك العرب الذين كانوا يشكلون الأكتريه وكانوا على الشرك والوثنيه.

الإجاباه الأخرى التى يمكن الرد بها على ذلك السؤال أنّ اليهود لم يكونوا من سكنه الجزيره العربيه بمعنى المواطنه، بل تفيد السير التاريخيه أنّهم حين قرأوا فى كتابهم البشاره بظهور نبي الإسلام وأنّ ظهوره بات وشيكا قدموا هناك لدركه، وإن شعروا فى ما بعد بالخطر على مصالحهم فسلكوا سبيل النفاق وعادوا النبي صلى الله عليه و آله، النصارى أيضاً كانوا من المهاجرين ويشكلون الاقليه هناك.

على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام أشار إلى إبتعاد الأقوام الجاهليه عن أجواء الوحي والنبوه، الأمر الذى يصور مدى غرقهم فى وحل الشرك والفساد.

ثم تطرق عليه السلام إلى الأوضاع التى بلغوها فى ظل إنبثاق الدعوه والاستضاءه بنور الوحي وبزوغ شمس الإسلام «فساق الناس حتى بوأهم محلثهم وبلغهم منجاتهم» (١) فهو لم يخلصهم من الشرك والكفر والانحراف العقائدى وينقذهم من الفساد الأخلاقى والظلم والجور وسوء العدل فحسب، بل أخذ بيدهم إلى حيث القوه والعزه والحكومه والحضاره والمدنيه، ومن هنا قال عليه السلام «استقامت قناتهم (٢) واطمأنت صفاتهم (٣)» .

وعليه فقد ظفروا بالنصر المعنوى إلى جانب شمولهم بالنعم الماديه و ما ذلك إلّاببركه النبي صلى الله عليه و آله ونزول القرآن الكريم والتعبير بمحلثهم إشاره إلى المنزل الراقيه التى ينبغى أن يبلغها الإنسان الفاضل، ومنجاتهم إشاره إلى نقطه النجاه التى ليس معها خوف وخشيه ولا قستبطن سوى الفلاح والصلاح.

والعباره «إستقامت قناتهم» وعلى اضواء الاستقامه التى تعنى الاستواء والثبات والقناه بمعنى الرمح تعنى القوه والقدرة والانتصار على العدو.

ص: ١٩٠

١- ١) «بوأ» من ماده «بوء» بمعنى تعبيد المكان ضد النبوه بمعنى المرتفع وغير المعبد، وقد وردت هنا بمعنى تنظيم وترتيب موقع الاستقرار.

٢- ٢) «قنات» من ماده «قنو» بمعنى جذع الشجره، كما تغنى العود والرمح، والمراد بها هنا القوه والغلبه والدوله، وقوله إستقامت قناتهم تمثيل لاستقامه أحوالهم.

٣- ٣) «صفات» ، حجر مستوى وكبير ومحكم وواسع.

أمّا بعض شراح نهج البلاغه فقد ذهب إلى أنّ الاستقامه هنا تشير إلى الرمح كناية عن أنتظام الأمور ونظم الحكومه والدوله والمجتمع والقوه والمنعه، ولكن لما كان الرمح عاده مستقيم وإذا أعوج كسر ولا يمكن تسويته (لأنّه يصنع عاده من الخشب لا الفزات)، فإنّ العبارة يمكن أن تكون إشاره إلى اطمينان البال واستقرار الذهن؛ لأنّ الجنود يغرسون حراهم في الأرض وتبقى مستويه مستقيمه حين الهدوء والاستقرار؛ الأمر الذي يفيد أنّهم كانوا آمنين من حملات العدو.

أمّا العبارة «إطمأنت صفاتهم» فهي تشير إلى إستحكام منزلتهم في ظل ظهور الإسلام ونهضة رسول الله صلى الله عليه وآله بحيث إستقرت حياتهم الفرديه والاجتماعيه.

فالصحارى التي كانت تردد عليها العرب، كانت مليئه بالرمال والحصى المتحرکه بحيث يصعب اجتيازها، بينما تسهل حرکته وذهابه وإيابه وجلوسه إذا إستقر على حجر كبير واسع ومحکم ومستقيم.

ثم قال عليه السلام: «أما والله إن كنت لفي ساققتها (١) حتى تولت بحذا فيرها (٢)» .

ففي الاوضاع التي يكون فيها الجيش مستجد أو العدو قوى بحيث يحتمل التقهقر والانسحاب، فان أمر الجيش يجعل بعض مساعديه الشجعان في المؤخره ليسوقوا الجيش إلى الإمام ويحثونهم على التقدم كما يحولوا دون تراجعهم.

وكأنّ الإمام عليه السلام أشار إلى هذه المسأله في أن النبي صلى الله عليه وآله قلدني مسؤوليه في سوق الجيش إلى الإمام وتجاوز المخاطر والمشاكل التي تواجهه، أو المراد أنّي والنبي صلى الله عليه وآله في موخره هذا الجيش ونسوقه إلى الإمام وقرينه ذلك قوله فساق الناس» على كل حال فإنّ كل هذه إشارات إلى عصر نهضة النبي الإكرم صلى الله عليه وآله والدور الهام الذي لعبه الإمام على عليه السلام في إنتصار الجيش الإسلامى على معسكر الكفر والشرك.

ص: ١٩١

١- ١) «ساقه» من ماده «سوق» جمع سائق، واصلها سوقه واصحب ساق بيت الاعلال.

٢- ٢) «حذا فير» جمع حذ فور بمعنى الشريف والجمع الكثير، وقد جاءت هنا بمعنى جميع جوانب الموضوع. وهنا ينبغى الالتفات إلى أن ضمير الهاء في ساققتها يعود إلى الناس في عصر الجاهليه الذين إعتنقوا الإسلام، ويمكن أن يكون الضمير في تولت وحذا فيرها عائدا إلى أعداء الإسلام الذين تقهقروا ابان نصر الإسلام، كما يمكن أن يعود إلى أهل الجاهليه الذين أقبلوا على الإسلام.

وفى إشاره إلى قيامه بوظيفته على أحسن وجه وبلائه الحسن قال «ما عجزت ولا جبت» فمن البديهي أن الانسحاب إنما يستند إلى الضعف والعجز أو الخوف والرعب، فقله عليه السلام «ما عجزت ولا جبت» يتضمن نفيه لعوامل الضعف والتقهقر.

ثم يربط عليه السلام هذه المقدمه بذي المقدمه فالإمام عليه السلام أشار إلى نقطه مهمه وهى أنّ الأمه الإسلاميه آنذاك بدأت تعود إلى الافكار والسنن الجاهليه وهى تبتعد كل يوم أكثر من ذى قبل عن مسيره النبي صلى الله عليه وآله والقرآن والإسلام، ونموذج ذلك الحركه الظالمه لمشعلى نار الجمل من أجل الحصول على المناصب من خلال نكث البيعه وسفك دماء المسلمين.

فقد أراد الإمام عليه السلام الوقوف بوجه هذه العوده إلى الجاهليه وتجديد رسالته ووظيفته التاريخيه فى الحفاظ على المسيره الإسلاميه.

ومن هنا قال «فلا نقب (١) الباطل حتى يخرج الحق من جنبه.» وبالالتفات إلى أن «أنقبن» من ماده «نقب» بمعنى ثقب الشئ وشقه، فإنّ العبارة تشير إلى حقيقه هى أنّ الحق لا يظهر ما لم تتبدد حجب الباطل، بعبارة أخرى فإنّ الباطل يسعى على الدوام ليغطى على الحق وبكتمه، فاذا شقت حجب الباطل، تنفس نور الحق واتضح عياناً للجميع. ويمكن أن تكون العبارة إشاره الى قيام أساس العالم على الحق، وإنّ الحق كامن فى باطن كل موجود، ولاسيما فى الفطره البشريه، بينما الباطل أمر عارض طارىء على الإنسان.

فاذا زال هذا العارض ظهر الحق من باطن الأشياء. وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبه ١٠٤ «وآيم الله لابقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته» .

تأملات

١ - من أخبار يوم ذى قار

كما ورد فى شرح الخطبه فان «ذى قار» موضع بين البصره والكوفه شهد معركه قبل

ص: ١٩٢

(١ - ١) «أنقبن» من ماده «نقب» بمعنى الثقب والشق ويطلق النقب على الآبار تحت الأرض وذلك لأنها تنقب الأرض - ومنه البحث والتنقيب حين تأمل المطالب وإظهار الحقائق والتنقيب العالم بحال القوم.

الإسلام بين العرب والجيش الساساني الذي هزم في المعركة وانتصر فيها العرب. (١) وقيل في تسميته أنه كان فيها بئراً ماؤه أسود كالقير.

عن ابن عباس، قال: لما نزلنا مع عليّ عليه السلام ذا قار، قلتُ: يا أمير المؤمنين، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ! فقال: والله ليأتيني منهم ستة آلاف وخمسمائه وستون رجلاً؛ لا يزيدون ولا ينقصون.

قال ابن عباس: فدخلني والله من ذلك شكٌّ شديد في قوله، وقلت في نفسي: والله إن قدموا لأعدّتهم.

ثم نفر إلى عليّ عليه السلام إلى ذي قار من الكوفة في البحر والبرّ ستة آلاف وخمسمائه وستون رجلاً. أقام عليّ بذي قار خمسة عشر يوماً، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله. قال: فلما سار بهم منقله، قال ابن عباس: والله لأعدّتهم، فإن كانوا كما قال، وإلّا أتممتهم من غيرهم؛ فإنّ الناس قد كانوا سمعوا قوله. قال: فعرضتهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلاً، ولا ينقصون رجلاً، فقلت: الله أكبر! صدق الله ورسوله! ثم سرنا.

لعل كلام ابن عباس إشاره إلى أن الإمام عليه السلام سمع هذه الأمور من رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أخبر بها.

قال ابن أبي الحديد بعد ذلك: فلما قدم أهل الكوفة على عليّ عليه السلام، سلّموا عليه، وقالوا: الحمد لله يا أمير المؤمنين، الذي اختصنا بموازرتك، وأكرمنا بِنصرتك؛ قد أجبناك طائعين غير مكرهين، فمَرنا بأمرك.

قال: فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال:

مرحباً بأهل الكوفة، بيوتات العرب ووجوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشدّ العرب مودّة لرسول الله صلى الله عليه ولأهل بيته.

(٢)

٢- جاهلية العرب

مهما قيل ويقال بشأن عظمه الإسلام وانبثاقه وسط أمّة متخلفة ومتعصبه فهو قليل. فقد

ص: ١٩٣

١-١) الكامل لابن أثير ١/٤٨٢.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢/١٨٧ - ١٨٨ (١) [بتصرف].

إنطوت الأمة في العصر الجاهلي على سلسله من الانحرافات والصفات الرذيله، ونكتفى هنا بالاشاره فقط إلى التعصب الذى كان سائدا آنذاك والذى لم يكن يسمح لأفكار الآخرين باختراقه.

ويعتقد أحد المحققين المسيحيين بالارتباط الوثيق بين التعصب الجاهلي ومناخ الحجاز، فيقول: «تتصف تلك المنطقه بالجفاف، فكانت طبيعه الناس هي الاخرى الصلابه والشده، وكان من الاعجاز تسلل الأفكار الإسلاميه إليه» .

وإذا أضفنا إلى ذلك الجهل والابتعاد عن العلم وهبوط المستوى الفكرى والضحاله الثقافيه والتلوث بأنواع الخرافات التى تدعو إلى التعصب والعناد لأدركنا حجم الاعجاز فى هدايتهم وانتشالهم من تلك الدوامه.

وقد تعرض القرآن الكريم إلى جانب من تلك العصبية، ومن ذلك قوله «سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ» (١) وقوله «وَ إِذِ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّا كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً . . .» (٢) .

وتشير أسباب نزول مثل هذه الآيات إلى عمق التعصب الذى كان يحكمهم بحيث كانوا مستعدين للتضحية بانفسهم تعصبا حقا إن هدايه مثل هذه الاقوام تبدو من المعاجز الكبرى؛ الأمر الذى أشيرله فى الخطبه المذكوره، وإن عادت تلك الأمة للأسف بعد رحيل النبى الإ-كرم صلى الله عليه و آله بمدّه قصيره إلى جاهليتها الاولى وتسلمت بعض المناصب الحساسه فى الحكومه الإسلاميه لتذهب جهود النبى صلى الله عليه و آله أدارج الرياح، ومن هنا فقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لاعاده الأمة إلى عصر الرساله.

٣- حديث خاصف النعل

لقد ورد فى بدايه الخطبه عبارته «يخصف نعله» التى تذكرنا بحديث النبى صلى الله عليه و آله بشأن فضائل على عليه السلام خاصف النعل. حيث جاء فى سنن الترمذى أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله كان يكلم

ص: ١٩٤

[١- ١] سورة المعارج / ١. [١]

[٢- ٢] سورة الانفال / ٣. [٢]

مشركى قريش فخطبهم قائلاً: «لتنتهن أو ليعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد إمتحن الله قلبه للايمان» فسأله من حضر: ومن ذاك؟ وسأله أبوبكر: من هو؟ وسأله عمر: ومن هو؟ فقال صلى الله عليه و آله: هو خاصف النعل: حيث كان على عليه السلام يخصف نعلى رسول الله صلى الله عليه و آله. . . ثم نقل الترمذى عن أبى عيسى أنه حديث صحيح. (١)

ومن الطبيعى أنّ ذلك العمل الذى صدر من الإمام عليه السلام على عهده وعهد النبى صلى الله عليه و آله إنّما يفيد تواضع الإمام عليه السلام للناس وانصرافه عن الدنيا.

ج ج

ص: ١٩٥

١-١) صحيح الترمذى ٥/٦٣٤ (طبعه دار إحياء التراث العربى) كما ورد هذا الحديث فى كتاب ينابيع الموده/٥٩. [١] وورد فى كتب أعلام الشيعة ومنها بحار الانوار، ٣٢/٣٠٠ [٢] وإحقاق الحق، ٦/٤٢٥. [٣]

«ما لى ولقريش؟ والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلتهم مفتونين وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم! والله ما تنقم منا قريش إلا أن الله اختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيزنا فكانوا كما قال الأول: أدمت لعمرى شربك المخص صابحاً

الشرح والتفسير

يشير الإمام عليه السلام هنا إلى طبيعه علاقته فى السابق والحاضر بقريش، لأنه أورد هذه الخطبه على هامش موقعه الجمل: حيث نعلم بأن مؤججى نار الجمل هم طلحه والزبير وسائر الأفراد من قريش الذين خططوا لهذه المعركه بدافع من أحقادهم تجاه الإمام عليه السلام. فقد كانوا يديرون هذه المعركه علانيه أو خفيه ومن هنا فإن كلمات الإمام عليه السلام تضمنت تحذير الأئمه من عدم الوقوع فى شباكهم إلى جانب تنبيهها إلى الدوافع الأصلية لهذه المعركه، فاستهل عليه السلام كلامه قائلاً: «مالي ولقريش؟ والله لقد قاتلتهم كافرين ولا قاتلتهم مفتونين (1)» نعم فهؤلاء كانوا على الشرك، وقد التحقوا بالمسلمين بسيف على عليه السلام ودعوه النبى صلى الله عليه وآله، إلا أنهم وبعد وفاه النبى صلى الله عليه وآله وبدافع من حب الجاه قد إبتعدوا عن الحق حتى هبوا لقتال وصى رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن بايعوه طواعيه.

ص: ١٩٧

١ - ١) «مفتونين» من ماده «فتنه» بمعنى الامتحان والابتلاء كما جاءت بمعنى العذاب والخداع والضلال، وقد وردت هنا بمعنى الضلال.

مفتون من ماده فتن بمعنى الانحراف كما تأتي بمعنى الشرك والكفر، ولعلها تشير في العبارة إلى انحرافهم عن الإسلام نحو الكفر وقد ورد في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: «يا علي حربك حربي وسلمك سلمى» (١). وعلى ضوء هذا الحديث فقد خرج من ربه الإسلام من قاتل علياً عليه السلام في الجمل وصفين ونهروان؛ لأن مما لاشك فيه هو كفر من قاتل النبي صلى الله عليه وآله. وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: لو كان الأمر كذلك لوجب على جيش علي عليه السلام في الجمل أن يأسر من هب لقتاله ويستولي على أموالهم كغنائم، بينما لم يعاملهم الإمام عليه السلام كذلك؟ قيل في الجواب لقد كان للإماماً عليه السلام الحق في أن يفعل هكذا، إلا أن بعض الأمور من قبيل شرائط الزمان والمكان جعلته ينصرف عن هذا الأمر. أضف إلى ذلك فإنه ليس هنالك من ضروره في تكافى أحكام جميع الكفار، فممكن أن يستثنى من حكم الأسر ومصادره الأموال كغنائم حريه هذه الطائفه من المسلمين التي خرجت على إمام زمانها ودخلت الكفر. فقد جاء في بعض الروايات أن مروان بن الحكم.

قال: إنَّ علياً عليه السلام أعاد الأموال إلى أهلها لما غلبنا في البصره، فكان يعيد أموال كل من أقام البينه أو يأتي بالشهود، ويحلف من ليس له بينه. ولما سئل عن توزيع الغنائم سكت ثم قال: أيكم يأخذ أمه في سهمه (٢).

وتفيد بعض الروايات أنه عفى عن أهل البصره كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله حين فتح مکه. كما يستفاد أنه لم يرد أن تكون هذه المسئله سنه، لأنه كان يعلم بان شيعته ستخضع لضغوط الظلمه ولعلها تعاملهم بهذه المعامله (٣).

ص: ١٩٨

١- ١) رواها ابن المغازلي الشافعي في كتاب مناقب أمير المؤمنين وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغه والمحقق الكركي في نفحات اللاهوت لاحقاق الحق (٦ / ٤٤٠). وقد قال ابن أبي الحديد في شرحه للرساله ٦٥ من نهج البلاغه [١] لو فرضنا أن النبي صلى الله عليه وآله لم يوص بعلي عليه السلام - كما تقول الإماميه - ولكن ألا- يعلم معاويه وغيره من الصحابه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال ألف مره في علي عليه السلام: «أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت» وقال «اللهم عاد من عاداه ووال من والاه» وقال «أنت مع الحق والحق معك» (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١٨ / ٢٤). [٢]

٢- ٢) وسائل الشيعه ١١ / الباب ٢٥ من أبواب جهاد العدو، ح ٧، [٣] وللوقوف بصوره أعمق راجع كتاب أنوار الفقاهه، كتاب الخمس والانفال / ٧٠. [٤]

٣- ٣) للوقوف أكثر على هذه الروايات راجع أنوار الفقاهه (كتاب الخمس والانفال) / ٧٥.

على كل حال فان مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنه لا يكن أى بغض أو عداة لقريش، أما بذور حسدهم للإمام عليه السلام فسببها وقوف الإمام عليه السلام بوجههم فى ميادين صراع الحق ضد الباطل إبان إنبثاق الدعوة الإسلاميه، ولم يكن ذلك سوى إمتثالاً لأوامر الله. ثم قال عليه السلام:

«وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم» فما زال السيف الذى جندلت به الابطال فى بدر وأحد والاحزاب بيدي، فالواقع هذا تهديد صريح لمؤججى نار الجمل. وتساءل البعض أن مثل هذا الكلام يصدق على معاويه و عمرو بن العاص و مروان وأمثالهم الذين هبوا لقتال رسول الله صلى الله عليه و آله، إلّا أنه لا يصدق على طلحه والزبير، فقد وقفا إلى جانب رسول الله صلى الله عليه و آله فى معاركه. وقد أجيب على هذا السؤال بأن الإمام عليه السلام لم يرد شخصاً معيناً، إلّا أنّ الهدف بيان حقيقه أنه كان يقاتل فى سبيل الحق ضد الباطل على عهد رسول الله صلى الله عليه و آله ومازال بعد النبى صلى الله عليه و آله يقاتل فى هذا السبيل (ونعلم أن قريشاً كانت تقاتل آنذاك ضد المسلمين). أضف إلى ذلك صحيح أنّ طلحه والزبير كانا مع رسول الله صلى الله عليه و آله، إلّا أنّ أغلب أصحابه الجمل ومنهم مروان كانوا من قريش. ثم أشار عليه السلام إلى أحد دوافع أصحاب الجمل فقال «والله ما تنقم منا قريش إلّا أنّ الله إختارنا عليهم، فأدخلناهم فى حيزنا» ثم وصفهم بأنهم أصبحوا كما قال الشاعر (١). أدمت لعمري شربك المحض (٢) صابحا وأكلك بالزبد (٣) المقشره (٤) البجرا (٥) ونحن وهبناك العلاء ولم تكن عليا وحننا حولك الجرد (٦) والسمرا (٧)

نعم فهؤلاء يحسدوننا ويبغون علينا، إلّا أنّ إرادته الله هى التى إختارتنا للنبوه والإمامه،

ص: ١٩٩

١- ١) لم يرد فى شروح نهج البلاغه شئ بشأن الأول هل يقابل الثانى، أم أنّها إشاره إلى أحد الشعراء الأوائل، أم المراد به اسم شاعر غير معروف. ويبدو الإحتمال الأول أنسب.

٢- ٢) «المحض» بمعنى اللين الخالص بلا رغو الذى لم يخالطه ماء، ثم إطلاق على كل شئ خال ص.

٣- ٣) «زبد» من ماده «زبد» بمعنى استخراج شئ من آخر، ومن هنا يطلق الزبد على ما يستخرج من الحليب.

٤- ٤) «مقشره» من ماده «قشر» وتطلق على التمره بعد نزع نواتها.

٥- ٥) «بجر» على وزن برج من ماده «بجر» بمعنى ظهور السره، كما وردت بمعنى التهم فى الأكل، ويطلق الأبجر على صاحب البطن والحريص.

٦- ٦) «جرد» من ماده «جرد» بمعنى الخيول الصغيره قليله الشعر

٧- ٧) «سمراء» من ماده «سمر» بمعنى السهره والسامر تقال لمن يقضى الليل صاحيا لسهره أو حراسه أو هدف آخر.

مع ذلك لم نعاملهم بالمثل فقد عفونا عن أخطائهم وحفظنا هم من الاعداء، إلا أنهم لم يتنكروا لهذه النعمة فحسب، بل شهبوا سيوفهم علينا وهبوا لقتالنا، فقد قطعوا الرحم وقابلوا الاحسان بالجحود وأشعلوا نار حرب الجمل فسفكوا الدماء وزرعوا الفرقة فى صفوف المسلمين.

فقرىش تشبه بعملها هذا ذلك الحسود الذى يعترض على حكمه الله، فقد قال سبحانه «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» (١).

وقال «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» (٢).

وقال «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٣).

ومن الطبيعى أن الإنسان المؤمن بالمفاهيم القرآنيه والاصول الإسلاميه لا يشعر بالحسد تجاه من يشمله الله على ضوء حكمته بالنبوه والإمامه، فلا يرى نفسه سوى مسلمهم لهذه الحكمه.

الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعى

قلما نجد صفه رذيله كالحسد كانت السبب وراء هذه الأحداث الأليمه والفجائع المأساويه التى شهدتها المجتمعات البشره طيله التاريخ. فأغلب الناس إثر قلله العلم وهبوط المستوى الثقافى وضعف الإيمان وعدم الثقه بالنفس ما إن يرى بعض النجاحات التى يحققها أقرانه أو أمثاله حتى تشتعل فى قلبه فتائل الحسد فلا يهتم سوى فى كيفيه تحطيم نفسه المقابل عن طريق الاتهام والتحقير والذم ومحاولة الانتقاص أو إيجاد بعض الموانع والمعوقات فى طريقه، بدلاً من الشعور بالفرح والسرور والاحتذاء به من أجل تحقيق النجاح والتغلب على الصعاب

ص: ٢٠٠

١-١) سورة الانعام / ١٢٤. [١]

٢-٢) سورة النساء / ٥٤. [٢]

٣-٣) سورة آل عمران / ٢٦. [٣]

والانفتاح على تجاربه وارشاداته. وقد يشتد هذا الحسد حتى يبلغ درجه تدعو إلى إراقه دم المحسود من قبل الحاسد. ولا ننسى هنا أنّ أول دم إريق كان سببه الحسد، الذى دفع بقايل لقتل أخيه هايبيل حيث قبل قربان الثانى ولم يقبل قربان الأول، الأمر الذى تكرر كثيرا فى التاريخ حتى قتل الأخ أخاه والابن أباه وبالعكس.

وهكذا تعود أغلب الحوادث الأليمه التى وقعت فى صدر الإسلام ولا سيما فى عصر خلافة أمير المؤمنين على عليه السلام إلى الحسد؛ الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه. وقد تعرضت أغلب الروايات إلى ذم هذه الرذيله التى لا تجر سوى الفساد على المجتمع، فقد قال على عليه السلام: «إذا أمطر التحاسد نبت التفاسد» (١). أما النقطه المهمه التى أرشدت إليها الخطبه فتكمن فى ضروره عدم مقابله المحسود للحاسد بالمثل، بل يسعى جاهدا لاطفاء نار الحسد من قلبه من خلال شكر النعمه ومداراه الحاسد وإطفاء حسده بمعاملته بالحب والإحسان، وما أحسن ما قال الشاعر: إصبر على حسد الحسود فان صبرك قاتله النار تاكل نفسها إن لم تجد ما تأكله (٢).

ص: ٢٠١

١-١) غر الحكم، الرقم ٥٢٤٢

٢-٢) بحار الانوار ٧٠ / ٢٥٨. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

فى إستنفار الناس الى أهل الشام بعد فراغه من أمر الخوارج. وفيها يتأفف بالناس، وينصح لهم بطريق السداد.

مناسبه الخطبه

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه كما ورد آنفا بعد فراغه من معركة النهروان. ويستفاد من ظاهر كلام ابن أبى الحديد أن الإمام عليه السلام خطبها فى النهروان، بينما نقل عن نصر بن مزاحم أنها أول خطبه خطبها بعد قدومه من النهروان لما كره القوم المسير إلى الشام عقيب واقعه النهروان، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفه، فلما رأى ذلك دخل الكوفه فخطبهم (٢).

وصرح البعض من شراح نهج البلاغه أن الإمام عليه السلام كان حريص فى النهروان على الحركه إلى الشام دون ضياع الفرصه، لأنّه كان يرى أنّ العوده إلى الكوفه تعنى إسترخاء الجيش وصعوبه تجهزه ثانيه، إلّا أنّهم كانوا يتعللون ببروده الجو ووجود الجرحى وعدم كفايه الأسلحه فلم يطيعوا أوامر الإمام عليه السلام. فاضطر الإمام عليه السلام إلى دخول الكوفه ليجهزهم للقاء

ص: ٢٠٣

١- ١) رواها الطبرى فى تاريخه ٦ / ٥١ وابن قتيبه فى الإمامه والسياسه ١ / ١٥٠ والبلاذرى فى أنساب الاشراف / ٣٨٠، وكذلك المرحوم الشيخ المفيد فى الامالى (المجلس ١٨) بصوره أكثر إختصارا ممّا وردت فى نهج البلاغه ([١] مصادر نهج البلاغه ١ / ٤٢٥) ورواها المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الانوار عن مطالب السئول محمد بن طلحه الشافعى (بحار الانوار ٧٤ / ٣٣٣).

[٢]

٢- ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ١٩٢. [٣]

العدو، ولكن (وكما تكهن سابقاً) تشبثوا بالحجج، فتأثر الإمام عليه السلام وخطب الناس بهذه الخطبه (١).

نظرة إلى الخطبه

تعالج هذه الخطبه ثلاثه مواضع وهى:

١- التأكيد على جهاد العدو والعواقب الوخيمه لترك الجهاد. والذى يمثل أطول جانب من الخطبه فالإمام عليه السلام يعرض باللوم لأهل الكوفه - فى هذا القسم من الخطبه الذى يشكل معظمها - ويذمهم بمختلف العبارات الشديده القسوه. وبالطبع فأن ذلك جاء بعد عدم جدوى كافه الأساليب عن طريق الاستدلال والبرهان والمنطق والمحبه لتعيثتهم للجهاد ومواجهه العدو، فلم يكن أمامه سوى هذا الاسلوب، فقد كان يشبههم أحياناً بالمجانين الذين فقدوا شعورهم وأحاسيسهم فلم يعودوا يدركوا ما يضرهم وينفعهم، وأحياناً أخرى يشبههم بالابل التى ضل رعاتها، ثم يسعى لتعبثهم من خلال تنيبهم إلى قسوه عدوهم.

٢- عزمه الراسخ فى مجابهه العدو سواء كان هناك من يهب لنصرته أم لم يكن.

٣- الحقوق المتبادله بين الإمام والأمة، فيعرض بادية ذى بدء إلى حقوق الأمة على الإمام، فيلخصها فى أربع عبارات، ثم يبين باربع عبارات أخرى حقوق الإمام على الأمة. وكان الإمام عليه السلام أراد أن يختم الخطبه بما يحيل مراره ذمه حلاوه عل ذلك يجدى نفعاً فى علاج ضعفهم وتقاعسهم.

ص: ٢٠٤

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم البحرانى ٢ / ٧٧ والعلامة الخوئى ٤ / ٧٢.

«أَفُّ لَكُمْ لَقَدْ سَيِّئْتُ عِتَابَكُمْ! أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عَوَظًا وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلْفًا؟ إِذَا دَعَوْتُمْ إِلَى جِهَادٍ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرِهِ وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَيِّكْرِهِ يُزْتَجُّ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ، وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ! مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ، وَلَا زَوَائِرٍ عِزٌّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ» .

الشرح والتفسير

يستهل الإمام عليه السلام خطبته بامطار أهل الكوفة بوابل عتابه ولومه وذمه لتجاهلهم المخاطر التي كانت تهدد البلد الإسلامي وعدم إكترائهم لها، لعل قصبتهم تهتز فيحولوا دون تفاقم تلك المخاطر. فقد كان أهل الشام يشنون الغارة تلو الغارة على مختلف المناطق الإسلامية ويسفكون دماء المسلمين وينهبون أموالهم وثوراتهم. فقد قال الإمام عليه السلام «أف لكم (١) لقد سئمت (٢) عتابكم» ودليل ذلك واضح، فالعتاب ولاسيما من شخص كعلى عليه السلام لا بد أن يكون له تأثيراً واضحاً في نفس المعاتبين ودفعهم لاعادة النظر في أعمالهم الطالحة، إمّا إذا لم يحصل هذا

ص: ٢٠٥

١ - ١) قال الراغب في المفردت «أف» في الأصل تعني كل شئ قذر وهي كلمه تضجر تطلق للمهانة والاستحقار. فمثلاً يقال «أفت بكذا» أي تضجرت منه واستقدرته. وقال البعض «أف» تعني مايجتمع من الأوساخ تحت الأظافر وقال البعض أن التراب والغبار إذا علق ببدن الإنسان فان نفخه يشبه القول «اوف» أو «اف» ثم استخدمت هذه المفردة بمعنى اظهار التضجر والنفره ولا سيما من الاشياء الصغيره. ونخلص ممّا ذكر ومن بعض القرائن إلى أن هذه المفردة كانت في الاصل إسم صوت.

٢ - ٢) «سئمت» من ماده «سئم» بمعنى الملل، التي تتعدى أحيانا بحرف من وأحيانا أخرى بدونها، وسئمته وسئمت منه. بمعنى واحد، وعليه سئمت عتابكم بمعنى سئمت من عتابكم.

التأثير بسبب غفله المقابل فان تكراره لا ينطوى سوى على الملل والتعب. ثم قال عليه السلام: «أرضيتم بالحياه الدنيا من الآخره عوضاً؟ وبالذل من العز خلفاً؟» إن هذا سكوتكم المميت وفراركم من الجهاد يدل على أنكم أويقتم آخر تكم واستبدلتموها ببيضه أيام من الدنيا من جانب، ومن جانب آخر فقد أفريتم دنياكم، وذلك لانكم استبدلتم العزه والرفعه بالذله والضعه؟ والحال إن موتاً بعزه أشرف بكثير من حياه بذله؛ الرساله التي لقنها أولياء الله والزعماء الربانيين أتباعهم على مدى العصور والدهور. فقد قال على عليه السلام فى نهج البلاغه «فالموت فى حياتكم مقهورين والحياه فى موتكم قاهرين» (1) وقال سيد الشهداء «ألا وإنّ الدعى بن الدعى قد ركزنى بين إثنين بين السله والذله وهيهات منا الذله» ثم خاطب جيش الكوفه «إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخشون المعاد فكونوا أحراراً فى دنياكم» فالواقع أنّ عبارات الإمام عليه السلام كانت تمثل دليل سئمه عتابهم وكأنّهم عقدوا العزم على إيثار الذله والحقاره وغضب الله على العزه والشرف ورضى الله، ومن هنا لم يعد للعتاب من أثر عليهم، حتى سئم الإمام عليه السلام عتابهم. أمّا فى العباره اللاحقه فيشير الإمام عليه السلام إلى ضعفهم ليلتفتوا إلى أنفسهم فيزيلوا ذلك الضعف فقال عليه السلام: «إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم، فأنتكم من الموت فى غمره (2) ومن الدهول فى سكره. يرتج عليكم حوارى (3) فتعمهون (4)». قوله عليه السلام «يرتج عليكم حوارى» - بالنظر إلى الحوار الذى يعنى الكلام المكرر ويرتج من ماده (رت ج) بمعنى يغلق - له معنيان: الأول ما ذكر سابقاً، أى أنّ كلامى المكرر لا يؤثر فيكم فأنتكم لا تدركوه، لأنّ باب الفهم أغلق بوجوهكم. والثانى أنّ لسانكم عقد عن جوابى، وذلك لأنّكم لا تمتلكون الرد المنطقى على كلامى - على كل حال فإنّ نتيجة المعنيين واحده تضمنتها العباره اللاحقه وهى حيرتهم وضلالهم «وكان قلوبكم مألوسه (5) فانتم لا تعقلون».

ص: ٢٠٦

١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ٥١. [١]

٢- ٢) «غمره» الواحد من غمر وهو الستر، وغمره الموت الشده التى ينتهى إليها المحتضر، وهى الحاله التى كان يعيشها جيش الكوفه.

٣- ٣) «حوار» من ماده «حور» بمعنى الرجوع وتطلق على المحادثه بين الأفراد التى يصطلىح عليها بالمحاوره، وقد وردت بهذا المعنى فى العباره.

٤- ٤) «تعمهون» من ماده «عمه» بمعنى تتحIRON وتتردون.

٥- ٥) «المألوسه» من ماده «ألس» تعنى فقدان العقل، ومن هنا تستعمل حيث الخدعه التى تسلب عقل المقابل، وهى تعنى المخلوطه بمس الجنون.

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة «ما أنتم لى بثقه سجيس (١) اللبالي». وبالنظر إلى أن سجيس اللبالي»

تعنى ظلمه الليل فإن معنى العبارة مادامت اللبالي بظلامها فليس لى من ثقه بكم، وهى كناية عن الأبدية والخلود، لأن الظلمه لا تفارق الليل أبداً. أما اختيار ظلمه الليل فينطوى على منتهى البلاغه إستنادا إلى أفكار أهل الكوفه وأعمالهم السوداء المظلمه. ثم أكد ذلك بقوله «وما أنتم بركن يمال بكم ولا زوافر (٢) عز يفتقر إليكم» وهكذا أعلن الإمام عليه السلام بهذه العبارات عدم ثقته واعتماده على هذه العناصر الضعيفه بعد أن تطرق لنقاط ضعفهم، أملا فى إثارتهم وتعبثهم لتوحيد الصف ومجابه العدو. ودخولهم الميدان بكل قوه وشجاعه.

جدوى الذم واللوم

نرى أنفسنا مضطرين مره أخرى لملاحقه هذا السؤال: لم كل هذا العتاب واللوم من قبل الإمام عليه السلام - وهو ما هو عليه من العلم والحكمه فى إداره شؤون الناس - لأهل الكوفه وامطارهم بوابل من الكلمات القاسيه العنيفه؟ أفلا يؤدى هذا الكلام الذى ينطوى على العتاب والذم وانعدام الثقه إلى نفرتهم وشده تعصيتهم وابتعادهم عن الحق؟ ولا بد من القول فى الجواب أن الإمام عليه السلام قد خبر نفسه وروحيه أهل الكوفه، وقد أثبت التأريخ أن اهل الكوفه لم يكونوا يتحركون إلما إذا داهمهم الخطر وعرضهم للزوال بالمره، بعبارة أخرى فإن العتاب لايجدى معهم نفعا ما لم يجرح مشاعرهم ويثير أحاسيسهم.

ويبدو أن المجتمعات البشريه إنما تشتمل دائما على طائفه - وإن كانت ضئيله - لا تفيق إلى نفسها ما لم تتلق ضربات موجهه متتاليه.

ولا يفهم من كلام الإمام عليه السلام إننا ينبغي أن نعتد هذا الاسلوب تجاه من عاش الغفله وتخلى عن وظيفته ومسؤوليته؛ لأن الأفراد على أنواع: بعضهم يعود إلى نفسه بأدنى إشاره فيستقيم

ص: ٢٠٧

١- ١) «سجيس» من ماده «سجس» بمعنى تغيير لون الماء وتكدره، ومن هنا اطلقت «سجيس اللبالي» على ظلمه الليل وكان أصل الاستعمال ما دامت اللبالي بظلامها، وهكذا وردت فى العبارة.

٢- ٢) «زوافر» جمع زافره من ماده «زفر» بمعنى التنهد وهو التنفس بصوت. كما يطلق الزفير على صوت النار، والزافره بمعنى الأنصار والأقوام والعشيره.

على الطريق، وبعضهم لا يتحرك ما لم توخره بابه.

وبناءً على هذا فان ذلك الاسلوب إنما يختص بتلك الجماعه بفضلها العلاج الأخير لدائهم.

وقد أثبت التاريخ أن ذلك الاسلوب كان قد أثر في أغلب أهل الكوفه فاندفعوا إلى النخيله وتأهبوا لقتال أهل الشام، غير أن شهاده أمير المؤمنين عليه السلام على يد عبدالرحمن بن ملجم أشقى الآخرين حالت دون ذلك.

والشاهد الآخر على ذلك أن الإمام عليه السلام كان كثيراً ما يثنى على أهل الكوفه أوائل حكومته (1)، إلا أنهم حين ضعفوا واستقوى عليهم أهل الشام فكانوا يهجمون كل يوم على منطقه من مناطق البلاد الإسلاميه، لم ير عليه السلام بدأ من مخاطبتهم بهذا الاسلوب.

ص: ٢٠٨

١-١) على سبيل المثال راجع نهج البلاغه، الخطبه ١٠٧ و١١٨

«ما أنتم إلا- كإبل ضلّ رعاتها فكلّمها جمعت من حبانٍ انشّرت من آخر لبئس لعمرُ الله سيهرُ نارِ الحربِ أنتم! تكادون ولا تكيدون وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون!

لا- ينام عنكم وأنتم في غفله ساهون، غلب والله المتخاذلون! وإيم الله إنني لأظن بكم أن لو حمس الوغى، واسيحر الموت، قد انفرجت عن ابن أبي طالب انفراج الرأس» .

الشرح والتفسير

يوصل الإمام عليه السلام عتابه وذمه لعسكر الكوفه «ما أنتم إلا كابل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب إنتشرت من آخر» فالمراد أن إرادتكم ضعيفه وأفكاركم مشتته ولا- تميزون مصالحكم، فقد شبههم عليه السلام بالابل لضيق أفقهم وضحاله أفكارهم، وقوله «ضل رعاتها» اشاره إلى عدم طاعتهم لائمتهم وأوليائهم.

ومن البديهي أن هؤلاء الأفراد لايسعهم أن يكونوا قوه أمام العدو ولذلك قال عليه السلام: «لبئس لعمر (1) الله سعر (2) نار الحرب أنتم» .

فالحره ظاهره ممجوجه غير محبيه وآثارها خراب البلدان وقتل الإنسان والفقير والجهل

ص: ٢٠٩

١-١) لعمر الله، مفهوم هذه العلمة القسم بالعمر ومدته الحياه، ولما لم يكن للعمر من معنى بالنسبه لله فإنّ المعنى هنا «قسماً بالله» وقد تقدم شرح هذه العبارة في الخطبه الرابعه والعشرين.

٢-٢) «سعر» جمع ساعر من ماده «سعر» بمعنى أوقد النار وسعر بمعنى شعله النار، والمراد لبئس موقدو الحرب أنتم.

والبؤس والشقاء والتخلف، إلّا أنّ نفس ظاهره اللوم هذه قد تكون دواءً حيويًا للمجتمع وذلك حين ينهض العدو ليهضم حقوق الأُمّة وينشر في ربوعها الذعر والفساد والانحراف.

فلا- يمكن إعادة الأمن والسلام والعدل إلى المجتمع إلّامن خلال الحرب. ومن هنا صرح القرآن الكريم قائلاً: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير» (١) وقال في موضع آخر «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» (٢).

وعليه فإنّ الإمام عليه السلام إذا أشار إلى الحرب، فإنّما ذلك لتكرّر إعتداءات وحملات أهل الشام وسفكهم للدماء ونهبهم للأموال بل هبوا في الواقع لمحاربه وصى رسول الله صلى الله عليه و آله من بايعته الأُمّة برمتها.

ومن هنا خاطبهم «تكادون ولا تكيدون، وتنتقض أطرافكم فلا تمتعضون، (٣) لا ينام عنكم وأنتم في غفله ساهون» .

ومن الواضح أنّ من لا يستعد لمواجهة العدو ويتأهب لخططه التدميريّه فإنّ قراه ومدنه الحدوديه إنّما تكون على الدوام مسرحاً لعمليات العدو ليمارس بحق أهلها القتل والدمار ونهب خيراتهم و ثرواتهم، وليس هنالك من مصير بافضل من هذا المصير ينتظر أولئك الذين يعيشون الغفله عن عدوهم.

وما أعظم قساوه إصدار الأحكام بشأن الإمام على عليه السلام واتهامه بالضعف وقلة التدبير في الحروب إذا لم يحط بحقيقه أهل الكوفة والضعف والوهن الذي كان سائدا لديهم إلى جانب عدم الطاعة والتمرد الذي طبعت عليه سجيتهم.

بعد ذلك يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة أعمالهم فيقول «غلب والله المتخاذلون» نعم فالفشل والهزيمة لا تقتصر على هؤلاء الذين تصدعت وحدتهم وتخلوا عن مجابهة العدو، بل الهزيمة من القوانين الثابته التي يمني بها كل من يعيش هذه المفردات من قبيل الفرقة والنفاق والضعف والوهن وعدم الطاعة.

ص: ٢١٠

١-١) سورة الحج / ٣٩. [١]

٢-٢) سورة البقره / ١٩٠. [٢]

٣-٣) «تمتعضون» من ماده معنى «معض» الابتئاس والغضب.

ثم قال عليه السلام: «وآيم الله (١) انى لاظن بكم أن لو حمس (٢) الوغى (٣) واستحر (٤) الموت، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب إنفراج الرأس» .

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدّه أمور بهذا التشبيه: الأول إنّ مكانته وإن كانت بمثابة الرأس من الجسد، ولكن هل للرأس - الذى يعتبر مركز الفكر ويضم العين والاذن واللسان - أن يفعل شيئاً دون سائر الاعضاء؟ والثانى: هل من حياه ووجود لهذا الجسد إن فصل عنه الرأس، وإن كان فيه فهل له فعل شئ دون معونه العقل والفكر والسمع والبصر.

وأخيراً يتعذر التثام الرأس بالجسد إذا ما فصل عنه، بينما ليست هنالك مثل هذه الصعوبه فى إلتئام سائر أعضاء البدن.

وعليه فان مراد الإمام عليه السلام هو أنكم تنفرون عنى وليس لكم العوده إلى اذا حمى الوطيس وأخذكم الخوف فهربتم منى كما احتمال بعض الشراح أنّ المراد بقوله: «أنفراج الرأس» هو فلق الرأس بضربه السيف التى تأبى الالتئام. (٥)

عوامل أخرى للضعف والهزيمة

يتطرق الإمام عليه السلام بفضله زعيماً إنسانياً وسياسياً وعسكرياً - فى هذا القسم من الخطبه - إلى العوامل التى تقف وراء الضعف والفشل والهزيمة، فيجملها بعبارات قصيره بعيده المعانى وفى مقدمتها التشتت والفرقه وعدم إمتلاك الزعيم الأوحده، الأمر الذى يشاهد بوضوح اليوم فى

ص: ٢١١

١- ١) أوردنا شرحاً وافياً فى المجلد الأول ذيل الخطبه رقم ١٠ لعباره «وآيم الله» التى تفيد مفهوم القسم.

٢- ٢) «حمس» من ماده (ح م س) بمعنى إشتد وصلب، والحماسه والتحمس بمعنى التشديد والتشدد ولاسيما فى الحرب ويقال الاحمس للرجل الشجاع الذى يقف بصلابه بوجه العدو.

٣- ٣) «الوغى» بمعنى الضجيج والصوت والجلبه فى ميدان القتال، كما يقال لنفس الحرب الوغى، وهكذا وردت فى العبارة.

٤- ٤) «إستحر» من ماده «حرر» بمعنى اشتداد الحر، وهو إشاره لا يثار الفرار على الثبات فى المعركه إذا إشتد القتال وبلغ حدته.

٥- ٥) يبدو هذا الاحتمال مستبعداً لوجود التقدير فى الجملة، لان العبارة «قد إنفرجتم عن ابن أبي طالب» تتطلب أن يكون تقدير العبارة «إنفراج الرأس» هو «إنفراج الرأس عن الجسد» أو «إنفراج الجسد عن الرأس» كما ورد مثل هذا التعبير فى الخطبه ٩٧ «انفرجتم عن على بن أبى طالب انفراج المرأه عن قبلها». والعجيب ما اورده شراح نهج البلاغه [١] من تفاسير غريبه لهذه العبارة، حتى ذكروا ثمانيه وجوه أو أكثر لانرى ضروره للخوض فيها.

البلدان الإسلاميه، حيث تؤدي الفرقه والانقسام إلى هذه الفوضى والانفلات في صفوف الأمه.

والطريف في الأمر أن الجميع يتحدث عن الوحده، بينما يسهم كل حسب قدرته بتأجيج نيران الفرقه والاختلاف.

والثاني عدم وجود الخطط والمشاريع الصحيحه التي يمكنها مواجهه مخططات العدو الخبيثه والتي أشير إليها بالعبارة «تكادون ولا- تكيّدون». الثالث استهانته ببعض الحوادث الصغيره - وهي كبيره في الواقع - والتي تعرض لها الإمام عليه السلام بقوله «وتنتقص أطرافكم فلا- تمتعضون» فاعلب الحوادث الصغيره تكشف عن عمق بعض المسائل المهمه الخفيه، فتغيير بسيط في البدن قد يعكس حاله مستعصيه في باطنه، وهذا ما عليه الحال بالنسبه للقضايا الاجتماعيه والسياسيه والعسكريه.

فاذا رأينا العدو قد هجم على منطقه حدوديه صغيره، أو إغتال شخصيه من البلد، لابدّ أن نعلم بأنّه إنّما يعدّ نفسه لمعركه أكبر وأعنف، وإلّا لما تجاسر وارتكب ذلك العمل.

وعليه لابدّ من الالتفات إلى الأعمال في بداياتها وعدم الغفله عن القضايا العضال التي تستبطنها وتختزنها. الرابع يقظه العدو وغفلتنا، فالعدو منهمك على الدوام في إعداد العده والعده، بينما ننظر بكل سداجه إلى الاوضاع القائمه على أنها تمثل السلام العادل والمشرف، فاذا قدر لنا أن نفيق من غفلتنا، رأينا زمام المبادره قد سلبت من أيدينا. الخامس خوف الموت والفرار من الشهاده في سبيل الله والتي أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله «وآيم الله! اني لأظن. . .». والواقع إن الإنسان ليغفل عن حقيقه مفادها أن خشيه الموت سبب الموت: والاستعداد للتضحيه والفداء يعد من أسباب حفظ النفس.

كانت هذه بعض النقاط المهمه المرتبطه بالضعف والهزيمه التي أوردها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه وستتابع تفاصيل هذه المسأله في الابحاث القادمه ذات الصله. فقد تطرق الإمام عليه السلام في الخطبه الخامسه والعشرين إلى سائر عوامل الضعف والفشل والهزيمه.

«وَاللَّهِ إِنَّ أَمْرًا يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرِقُ لَحْمَهُ وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ وَيَفْرِى جِلْدَهُ لِعَظِيمِ عَجْزِهِ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ. أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتِ فَأَمَّا أَنَا، فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرِفِيِّهِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشُ الْهَامِ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ» .

الشرح والتفسير

يتحدث الإمام عليه السلام عن العناصر الضعيفه والهزيله التي تمكن عدوها من نفسها فيقول «والله إن امرء يمكن عدوه من نفسه يعرق (١) لحمه ويهشم (٢) عظمه و يفري (٣) جلده لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح (٤) صدره»

فالعباره تبين بصراحه أنّ الضعف والوهن بلغ ذروته في جيش الكوفه بحيث اندفع العدو يكل ما أوتى من قوه ليسدد له الضربات التي تحز اللحم وتطحن العظام، وهى أروع عباره تجسد تسلط العدو وتحكمه فى مصير الضعفاء العجزه، كما تضمنت قمه الفصاحه

ص: ٢١٣

١-١) «يعرق» من ماده «عرق» بمعنى فصل اللحم عن العظم، كما ورد بمعنى فصل اللحم عن العظم بالأسنان وأكله.

٢-٢) «يهشم» من ماده «هشم» بمعنى كسر الشئ اليابس كما ورد بمعنى كسر مطلق العظام، أو عظام الرأى والوجه.

٣-٣) «يفرى» من ماده «فرى» بمعنيشق الشئ و تمزيقه.

٤-٤) «جوانح» جمع «جانحه»، وهى الضلوع تحت الترائب، اصلها من ماده «جبح» بمعنى الميل والانحراف، وقد اطلقت على الاضلاع لأنها ليست بشكل مستقيم.

والبلاغه بحيث تكفى لا ثاره من بقى لديه ثمه إحساس وشعور.

نعم هكذا كانت سيطره أهل الشام ومعاملتهم لأهل العراق، لم يرعوا إلأولا ذمه فى أحد، فكانوا يقتلون الأبرياء ولا يرحمون الضعفاء وينهبون الأموال والثروات ويخربون البيوت. فالواقع عمل هؤلاء أشبه بفعل القصاب بالذبيحه يسلخ جلدها ويحز لحمها عن عظمها ويعدها لقمه سائغه للأكل. أما بعض المفسرين فقد ذهبوا إلى أنّ كل عباره من هذه الجمل الثلاث مستقله، فقوله «يعرق لحمه» تعنى نهب الأموال و «يهشم عظمه» قتل الناس و «يفرى جلده» إشاره إلى الاخلاص بنظام المجتمع (١)، وبالطبع ليست هنالك من قرينه واضحه على هذا التفسير. أما الشيخ المرحوم مغنيه قد علق فى شرحه على هذه العباره فى أننا سمعنا كثيراً عن المقاومه السلبيه تجاه الطواغيت والظلمه كأن ينتحر الفرد أو يحرق نفسه إلأننا لم نسمع من يستسلم للعدو إلى الحد الذى يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده دون أن يدافع عن نفسه، فليس هنالك أربع وأشنع من هذا الخوف بحيث يلقى الجبان الضعيف بنفسه إلى قصابى البشريه ليذبحوه بهذه الطريقه ويجعلوه لقمه سائغه لهم (٢).

كما يحتمل إلأتكون العبارات الثلاث المذكوره بشأن فرد واحد، بل يفعل العدو هذه الأمور بشأن عدّه أفراد كأن يعرق لحم البعض ويهشم عظم الآخر ويفرى جلد الثالث وعلى ضوى هذا التفسير يمكن حل السؤال الوارد بشأن ترتيب العبارات فى أنّ الإمام عليه السلام لم جعل فرى اللحم فى آخر العباره. فكأنّ جواب الإمام عليه السلام أنّ جنائيات العدو تجاهكم فى مرحله هى فصل اللحم عن العظم، ثم يتقدم فى مرحله أخرى ليهشم العظم وأخيراً لا- يبقى أمامه سوى فرى جلد البدن. وذهب بعض المفسرين إلى أنّ هذه العبارات إشارات إلى بعض الحوادث التى وقعت بعد شهادته عليه السلام وسيطره معاويه وأهل الشام على العراق ولم يرحموا صغيراً ولا- كبيراً ولا- صحيحاً ولا- مريضاً ولا فقيراً ولا غنياً ولا رجلاً ولا نساءً (٣). ولكن يبدو أنّها ليست مختصه بذلك الزمان، وإن كانت أشد وأقسى آنذاك.

ص: ٢١٤

١-١ شرح نهج البلاغه ابن ميثم البحرانى ٢ / ٨١.

٢-٢ فى ظلال نهج البلاغه / ٢٢٨.

٣-٣ مفتاح السعاده ٦ / ٨٢.

أمّا العبارة «ما ضمت عليه جوانح صدره» - بالالتفات إلى أن الجوانح جمع جانحه بمعنى الاضلاع - فالمراد بها القلب، وهدف الإمام من قوله «ما ضمت عليه جوانح صدره» بيان روحه جيش الكوفه ومدى عجزه. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمه وأساسيه يكشف فيها عن إتخاذه القرار الحاسم بشأن المستقبل وما يحمله من أحداث «أنت فكن ذاك إن شئت فأما أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفيه تطير منه قرأش (١) الهام، وتطيح (٢) السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء»

وأمّا من المخاطب بقوله عليه السلام أنت فكن ذاك؟ هنالك احتمالان: الأول أن إنّما خاطب من يمكن عدود من نفسه كائنا من كان، غير معين ولا- مخصص، والاحتمال الاخر أنّه خاطب بذلك الأشعث بن قيس، فأنّه روى أنّه عليه السلام قال وهو يخطب ويلوم الناس على تشيبتهم وتقاعدهم:

هلاًّ- فعلت فعل ابن عفان! فقال له: «إن امرأ مكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفرى جلده. أنت فكن ذاك. . .» فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام فصل نفسه عنهم بعد أن يأس منهم، فافهمهم أنكم إن آثرتم الاستسلام للعدو فسبيلي غير سبيلكم وليس للعدو عندي إلّا السيف وسأقاتله بمفردي، فلكل وظيفه وليس أنا من يتقاعس عن إداء وظيفته، فان تخليتم عن وظيفتكم ورضيتم لأنفسكم الذل والهوان والاستسلام للعدو وعرضتم البلد الإسلامى للدمار والابتزاز وخليتم وأهل الشام لينهبوا الأموال ويعتدوا على الاعراض، فليس لى إلّا أن أقاتلهم وحدي وأنا مستعد للشهاده التي لا أوتر عليها شيئاً ولن أشعر بالضعف أبداً. وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن بهذه الكلمات أن يشد أزر ذلك النزر اليسير من الأفراد الشجعان الذين لا يخلو منهم جيش الكوفه، كما يزيل الشك عن قلوب بعض المترددين ليلتحقوا به، ويرشد التاريخ إلى مدى الأثر الذي لعبه كلام الإمام عليه السلام فيهم. فقد شعروا بقوتهم من جديد وتأهبوا لمنازله العدو.

ص: ٢١٥

١- ١) «قرأش» جمع «قراشه» بمعنى العظام الرقيقه التي تلى القحف أو عظام الجبهه والرأس، وهام جمع هامه بمعنى الرأس كما تطلق على زعيم القبيله.

٢- ٢) «تطيح» من ماده «طوح» بمعنى الهلاك أو الاشراف على الهلاك. ولما كان فصل اليد والرجل يشكل القضاء عليهم فقد أطلقت بهذا المعنى فى العبارة المذكوره.

قد تشهد الحياه الاجتماعيه والسياسيه بعض اللحظات الحساسه التي تجعل الزعماء فى موضع لا يحسدون عليه، وتتفعل هذه اللحظات حين يشتد الضعف والخلاف والترديد فى إتخاذ القرار؛ الأمر الذى يمنح العدو بعض عناصر القوه فى المباغته.

وهنا لابد أن ينبرى الزعيم الشجاع ليعلن قراره الحاسم بهذا الشأن ليفهم الجميع بأنه مستعد للقتال وخوض غمار الحرب بمفرده سواءً كان هناك من يقف إلى جانبه أم لا، فليس هنالك سوى الشهاده التي تأبى المقارنه بالخضوع والاستسلام. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبه، وقد وقفنا على مثيله من أبى الضيم والأحرار الإمام الحسين عليه السلام. فقد إتفقت كلمه الأصحاب ليله عاشوراء فى مواكبه إمامهم عليه السلام ولا- سيما حين رفع الإمام عليه السلام بيعته عن الجميع وأذن لهم بالانصراف، حيث انصرف أغلب الضعفاء والعجزه وانفجروا عن الإمام عليه السلام وهربوا من خوض الجهاد، ولم يبق معه إلآقله قليله، لينهض كل واحد منها ويعبر عن موقفه ومساندته للإمام عليه السلام وان قتل سبعين قتله، وآخر قال لو أقتل وأحرق ثم أقتل ويفعل بى ذلك سبعين مره لما تركتك، وما شابه ذلك من المواقف التي عبر عنها صحبه الاوفياء (١).

وقد أشار أمير المؤمنين على عليه السلام - فى رساله ٣٦ من رسائله فى نهج البلاغه - إلى هذا المعنى، حيث قال لأخيه عقيل «وأما ما سألت عنه من رأيى فى القتال: فان رأيى قتال المحليين حتى ألقى الله لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزه ولا تفرقهم عنى وحشه ولا تحسبن ابن أبيك - ولو أسلمه الناس - متضرعاً متخشعاً ولا مقرأً للضيم واهناً». كما نصطدم فى قصه موسى عليه السلام بقومه الذين أعربوا عن خوفهم من مجابهه العمالقه لما بلغوا بوابه بيت المقدس فضعفت إرادتهم وترددوا فى إتخاذ القرار، حتى تمردوا على نبيهم موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام واعلنوا موقفهم.

المخزى بكل صراحه «قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون» (٢).

ص: ٢١٦

١- ١) للوقوف على خطبه الإمام عليه السلام ليله عاشوراء وما قاله صحبه الاوفياء راجع بحار الانوار ٤٤ / ٣٩٢.

٢- ٢) سورة المائده / ٢٤. [١]

فما كان من موسى عليه السلام إلّا أن أعلن موقفه منهم وانفصاله عنهم «قال ربّ إنّي لا أملك إلّا نفسي وأخي فأفرّق بيننا وبين القوم الفاسقين» (١).

وهذا هو موقف نبي الله نوح عليه السلام «وا تُلّ عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبرّ عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم أقضوا إلّى ولا تنظرون» (٢).

ولا شك إنّ لهذا الموقف الصادم الذى يتخذه الزعيم أثره الكبير فى نفوس أتباعه، حيث يشعر الأفراد بارتفاع معنوياتهم وقوه شوكتهم إلى جانب عوده الضعفاء إلى الحق والشعور بالقوه والافتدار ويضطرها لاتخاذ ذات الموقف.

وأدنى معطيات ذلك الموقف أنه يشكل وثيقه تأريخيه حيه فى سيره هؤلاء الزعماء الابطال والذى يلهم الأجيال العزم والإرادة والقوه، وهذا ما نلمسه بوضوح فى الملحمة الحسينيه فى كربلاء والتي مازالت تلهم الامم والشعوب كل عناصر القوه والافتدار فى مواجهه الظلم والاضطهاد والطغيان.

ج ج

ص: ٢١٧

١-١) سورة المائدة / ٢٥. [١]

٢-٢) سورة يونس / ٧١. [٢]

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنِّصَّةُ يَحُهُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلًا- تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيئُكُمْ كَيْمًا تَعْلَمُوا وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالْوَفَاءُ بِالنَّبِيِّعِهِ وَالنِّصَّةُ يَحُهُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ وَالطَّاعَةُ حِينَ أَمُرُّكُمْ» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالتعرض لأهم القضايا المرتبطة بالحكومة والتي تكمن فى حق الإمام على الأمة وحق الأمة على الإمام، فيوجزها بعبارات مقتضيه عظيمه المعانى، حيث يشير إلى أربعة متبادله لكل منهما. فقد تحدث بادی زى بدء عن حقوق الأمة، ومن شأن تقديم حقوق الأمة على الإمام على العكس، أنه مدعاه للتأثير فى نفوس السامعين، إلى جانب كشفه عن البعد الشعبى والجماهيرى للحكومة الإسلاميه، كما يفيد عمق فارق هذه الحكومة مع الحكومات المستبده الغاشمه والحكام الطغاه الذين يرون أنفسهم ما لى رقاب الأمة فيعاملونها معاملة المالك والمملوك أو الاقطاع والمزارع.

فقد قال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ» .

والحق وإن ذكر بصوره مفرده إلمائه يفيد معنى جنس الحق الذى ينطوى على مفهوم عام، أما تنكيره فيشير إلى عظمه هذه الحقوق، لأنّ الاتيان بالنكره قد يفيد التعظيم أحياناً.

فيتطرق الإمام عليه السلام إلى الحق الأول للأمة فيقول «فأما حقكم على: فالنصحيه لكم» .

النصحيه تعنى الخلوص ومن هنا يصطلح على العسل الخالص بالناصح.

كما وردت بمعنى الخياطه، ولذلك يطلق الناصح على الخياط، ثم اطلقت على كل عمل خير خالص خال من الغل والغش.

وتستعمل هذه المفرده بشأن الله والنبي والقرآن وأفراد الأئمة والإمام والأئمة، حيث تتمتع بالإشاره إلى أحد مصاديقها الواسعه حسب مقتضى الحال ومورد الاستعمال.

وقد ورد فى بعض المصادر اللغويه أنّ النصيحة تشتمل على معان متفرقه، فمثلاً النصيحة لله تعنى الاعتقاد بوحدانيته واخلاص التيه له فى العباده ونصره الحق، والنصحية للقرآن تعنى التصديق به والعمل بأحكامه والدفاع عن آياته، تجاه تأويل الجهلاء وتحريف الغلاء، والنصحية للنبي هى التصديق بنبوته ورسالته وطاعه أوامره.

ومن هنا يبدو أنّ المراد بالنصيحة فى العبارة العمل من أجل الارتقاء بالجوانب الماديه والمعنويه للأئمة من خلال البرامج والمشاريع الصححيه، حيث تشكل هذه المشاريع الخطوه الاولى لتحقيق خير الأئمة، وعليه فلا بدّ أن يكون للإمام والولى والزعيم مشروعاً صحيحاً وجامعاً يتضمن تأمين المصالح الماديه والمعنويه لأفراد الأئمة ويأخذ بأيديهم إلى الكمال المنشود.

والحق إن هذه المسأله لمن المسائده الحيويه المهمه فى عالمنا المعاصر والتي تحظى بأهميه فائقه، حيث يعتقد أغلب العلماء والمنكرين أن العراقيل التى تنطوى عليها المسيره الاجتماعيه إنّما أفرزتها بالدرجه الأساس مشكله عدم وجود المشاريع والخطط الصححيه.

ثم يشير عليه السلام إلى الحق الثانى - ذات الصله بالجانب الاقتصادى - فيقول «وتوفير فيئكم عليكم».

فالعداله الاجتماعيه فى المجال الاقتصادى تعد من أهم مشاكل المجتمعات البشريه، فأغلب الحروب والنزاعات الدمويه ومعظم المفاسد الاجتماعيه إنّما تعزى إلى تغييب العداله الاجتماعيه.

ومن هنا فإنّ إعادته الأمن والسلام والنظام والاستقرار والوقوف بوجه المفاسد الاخلاقيه ومختلف الانحرافات إنّما تتطلب بادية ذى بدء إحياء العداله الاجتماعيه وتفعيلها فى المجتمع.

وإستناد إلى أنّ المفرده «فىء» حسب أرباب اللغه أنّها العوده والرجوع إلى حاله الخير

والاحسان، فإنها تطلق أيضاً على الظل حين يرجع من طرف الغرب إلى الشرق.

وتطلق هذه المفردة فى الآيات القرآنيه والاحاديث النبويه على الأموال التى تصل المسلمين من الكفار، فقد تطلق على الأموال التى تصل دون القتال، وحتى على مثل هذه الأموال والانفال التى تعنى الثروات الطبيعیه للحكومہ الإسلاميه التى ليست لها ملكيه شخصيه.

والفيئ فى العبارات المذكوره تعنى جميع أموال بيت المال، فقولہ عليه السلام توفير فيئكم تعنى أن وظيفه الحاكم الإسلامى تعنى إداء الأموال العامه إلى المحتاجين والمعوزين وأصحاب الحق، أى تنظيم الأمور الاقتصادية والمعاشيه للأمة أما الحق الثالث الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فيرتبط بالتعليم والشؤون الثقافيه «وتعليمكم كيلا تجهلوا» .

نعم فالإمام لابد أن يعتمد الاسلوب التعليمى الصحيح ويهب لمكافحه الجهل والأمية ويرفع المستوى الثقافى لدى الناس ويستأصل جذور الجهل التى تقود الأمة إلى التخلف والانحطاط. وأما الحق الرابع والأخير فهو «وتأديبكم كيما تعلموا» . فالواقع أن الإمام عليه السلام أوجز الحقوق المهمه للأمة فى أربع هي:

١- المشاريع والخطط الصحيحه

٢- العدالة الاجتماعيه فى المجال الاقتصادى

٣- التعليم

٤- التريه والتهديب والقضاء على الفساد الاخلاقى

جدير بالذكر أن الإمام عبر عن الحق الثالث بقوله «وتعليمكم كيلا تجهلوا» والحق الرابع «وتأديبكم كيما تعلموا» .

والحال أن نتيجة التعليم هي العلم والمعرفه، بينما يقود التأديب إلى تربيه الخصال الأخلاقيه لا العلم والمعرفه، إلّا أن مراد الإمام عليه السلام:

لابد أن تقفوا على آثار الفضائل وأضرار الرذائل، لتتحلوا بالاولى وتواجهوا الثانيه - فالحق الثالث يشير فى الواقع إلى العقل النظرى بينما يشير الحق الرابع إلى العقل العملى ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حقوق الإمام على الأمة الإسلاميه وأجزها هي الأخرى فى أربع

ص: ٢٢١

فقال عليه السلام: «وأما حقى عليكم: فالوفاء بالبيعه» .

والبيعه هى العهد بين الأُمّة والإمام؛ العهد الموثق الذى يجب العمل به، وعلى ضوء هذا العهد فإنّ الإمام والحاكم لابدّ أن يأخذ بنظر الاعتبار مصالحه الأُمّة ويرسى دعائم الأمن والاستقرار ويقاوم العدو ويمهد السبيل أمام الأُمّة للسمو والتكامل، كما يجب على الأُمّة أن تشد أزرها وتقف إلى جانبه وتتجنب كل ما من شأنه تشد أزرها وتقف إلى جانبه وتتجنب كل ما من شأنه المساس بهذا العهد والميثاق الحق الثانى الذى ذكره الإمام عليه السلام: «والنصيحه فى المشهد والمغيب» فلا يكونوا منافقين يظهرون المحبّه والاخلاص فى حضوره، فان غاب عاثوا الفساد وسلوكوا الخيانه.

فقد لا يكون الإمام حاضراً بينهم على الدوام، إلّا أنّ الله حاضراً لا يخفى عليه شئ ولا ينبغى أن يعيش المومن الغفله عن هذا الأمر أمّا الحق الثالث الذى ذكره الإمام عليه السلام: «والإجابة حين أدعوكم» فلا ينبغى أن تتعللوا ببعض الذرائع فراراً من مواكبتى، لابدّ أن تطيعوا أوامرى وتقتفوا أثرى، والحق الرابع والآخر «والطاعة حين آمركم» ففعل البعض يلبى دعوه الإمام، إلّا أنّه لا يطيع ما يصدره من أوامر، وعليه فاجابه الدعوه لابدّ أن تكمل بطاعه الاوامر.

وبالطبع فإنّ حقوق الإمام على الأُمّة إنّما تعود بالنفع مباشره على الأُمّة، وعليه فلا ينبغى لهم أن يمتنعوا عن الإمام، بل الإمام يمتنع على الأُمّة بانه يعتمد هذه الحقوق لاعاده الأمن والاستقرار إلى الأُمّة واعمار بلادها. وقد صرح بعض شراح نهج البلاغه بأنّ هذه الحقوق المتبادله إنّما تختص بالإمام العادل المنسوب من جانب الله سبحانه، لا لكل إمام صالح كان أم طالح، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «إنّ لى عليكم حقاً» (١).

لكن يبدو أنّ عبارته الإمام شامله عامه وهذا ما يفهم من قوله عليه السلام «لابدّ الناس من أمير بر أو فاجر» (٢) فكل من تزعم أمور المجتمع وأراد أن ينهض بالأُمّة لابدّ أن يحترم الحقوق الأربع التى ينبغى أن تتمتع بها الأُمّة والتى أشار إليها الإمام عليه السلام ويبدو أنّ العقل والمنطق يرشد إلى ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه.

ص: ٢٢٢

١-١) مفتاح السعاده ٦ / ٨٤ - ٨٥. [١]

٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ٤٠.

١- الحقوق المتبادله للإمام والأمة

إنَّ الحكومه رابطه بين الإمام والأُمَّه على غرار رابطه الرأس بالجسد، حيث يتعذر القيام بالوظائف دون تضافر جميع الجهود، بعبارة أخرى فإنَّ أولياء الله فى الوقت الذى يكتون فيه خلفاء الله فى الخلق، فهم خلفاء الأُمَّه من أجل ضمان مصالحها، ومن هنا كانت الحقوق المتبادله بين الإمام والأُمَّه من أثقل الحقوق وأعظمها.

وقد وردت الأبحاث المسهبه فى الروايات بشأن هذه الحقوق، والتى تفيد مدى إهتمام الإسلام بهذا الموضوع الحيوى.

فقد افرد المرحوم الكلينى باباً فى المجلد الأول من كتابه أصول الكافى بهذا الخصوص وقد نقل أول حديث فيه عن أبى حمزه انه سأل الإمام الباقر عليه السلام: «ما حق الإمام على الناس»؟

قال عليه السلام: «حقه عليهم أن يسمعوا له ويطيعوه» قال فقلت له: «وما حقهم عليه» .

قال: «يقسم بينهم بالسويه ويعدل فى الرعيه» .

ولا يستبعد أن تكون الجملة الاولى إشاره إلى المسائل الاقتصادية والثانيه إلى القضايا الاجتماعيه والسياسيه. ثم قال عليه السلام آخر الحديث: «فاذا كان ذاك فى الناس فلا يبالي من أخذ هاهنا وهاهنا» (١) فى إشاره إلى أن الناس على كل حال إنما يحصلون على حقهم. سواء كان مصداقه هنا أم هناك.

حقاً أن سيره أمير المؤمنين عليه السلام انموذج مهم لا بدّ من اعتماده كقدوة فى الحكومه الإسلاميه. فقد كان عليه السلام شديداً فى أمر العداله حتى وقف نفسه وضحى بها من أجلها. قال ابن أبى الحديد:

روى على بن محمد بن أبى يوسف المدائنى عن فضيل بن الجعد، قال: آكدُ الأسباب فى تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمر المال، فإنه لم يكن يُفْضَلُ شريفاً على مشروف، ولا عربياً على عجمي، ولا يُصانَعُ الرؤساء وأمرء القبائل، كما يصنع الملوك، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه. وكان معاويه بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاويه؛ فشكى على

ص: ٢٢٣

عليه السلام إلى الأشر تخذل أصحابه، وفرار بعضهم إلى معاويه، فقال الأشر: يا أمير المؤمنين؛ إنا قاتلنا أهل البصره بأهل البصره وأهل الكوفه، ورأى الناس واحد، وقد اختلفوا بعد، و وضعفت التيه، وقل العدد، وأنت تأخذهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتُنصف الوضيع من الشريف؛ فليس للشريف عندك فضلٌ منزله على الوضيع، فضجت طائفه ممن معك من الحق إذ عموا به، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائع معاويه عند أهل الغناء والشرف، فتاقت أنفس الناس إلى الدنيا، وقل من ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يجتوى الحق ويشترى الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الرجال، وتصف نصيحتهم لك، وتشي تخليص ودهم؛ صنع الله لك يا أمير المؤمنين! وكبت أعداءك، وفض جمعهم، أوهن كيدهم، وشئت أمورهم، إنه بما يعملون خبير.

فقال على عليه السلام: أما ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل؛ فإن الله عز وجل يقول: «مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»؛ وأنا من أن أكون مقصراً فيما ذكرت أخوف.

وأما ما ذكرت من أن الحق ثقل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم الله أنهم لم يفارقونا من جور، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عدل، ولم يلتمسوا إلادنيا زائله عنهم كان قد فارقوها؛ وليسألن يوم القيامة: ألدنيا أرادوا أم لله عملوا؟

وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال؛ فإنه لا يسعنا أن نوتى أمراً من الفياء أكثر من حقه، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق: «كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»، وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله؛ فكثره بعد القله، وأعز فتته بعد الذله؛ وإن يرد الله أن يولينا هذا الأمر يذل لنا صعبه، ويسهل لنا حزنه، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عز وجل رضاً؛ وأنت من آمن الناس عندي، وأنصحهم لى، أوثقهم فى نفسى إن شاء الله.

٢- تعارض الحق والمصلحه!

عاده ما يحدث تعارض بين الحق والمصلحه ليكون أحدهما مقابل الآخر. وغالباً ما يميل

ساسه الدنيا فى هذه الحاله إلى المصلحه ويقدمونها على الحق. والتأريخ مليء بنماذج هذا التعارض وما أكثره فى عصرنا الراهن حيث نشاهده كل يوم - أما أولياء الله والقاده الربانيين فهم لا- يترددون فى إثارة الحق. وفى مقدمتهم أمير المؤمنين على عليه السلام الذى سلك الحق مع أعدائه فضلاً عن أصحابه فقد قيل بأن العدل فى تقسيم بيت المال حقاً لكنه لا يتفق مع المصلحه ولا بد من تقديم الأشراف والأثرياء على غيرهم فى مقابل الحد من سهم الضعفاء، بينما كان الإمام عليه السلام لا يتهاون فى إجراء العدل وإن شقَّ على صحبه وإنفروا عنه وإلتحقوا بعدوه، ولعلنا نلمس ذلك فى هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه. ولعل أغلب هذه المشاكل لم تكن لتظهر على السطح لو تسلم الإمام عليه السلام ذمام الأمور بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله كما أمر الله ورسوله بذلك، إلا أن قضيه التمييز فى العطاء قد ظهرت على عهد الخلفاء وبلغت ذروتها على عهد عثمان الذى كان ينفق المال على بطائنه وقرابته دون حساب، حتى طبعوا على هذه الإمتيازات فصعب إعادتهم إلى الحق وجاده الصواب. أضف إلى ذلك فإن إزدياد حجم الغنائم وكثره أموال بيت المال هى الأخرى كانت سبباً لأن يضحى البعض كطلحه والزبير - وهما من السابقين إلى الإسلام وصحابه رسول الله صلى الله عليه وآله - بالحق من أجل مصالحهم الشخصيه، ومن هنا تعقدت المشاكل التى إعترضت حكومه الإمام عليه السلام - إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام ورغم علمه بظهور ما لا يحصى من المشاكل إن هو آشر الحق على المصلحه، لكنه لم يتخل عن سياسته المعهوده لعلمه بأن الهزيمه والخذلان تكمنان فى إثارة المصلحه على الحق، ناهيك عن كون نفس هذا الإيثارة يعنى تعطيل أحد القيم الإسلاميه، فى حين إحيائها ونقلها للأجيال المستقبليه يفوق أهميه تحقيق بعض الإنتصارات الوقتيه ولعل هذا الأمر يشكل رداً على أكثر الأسئلة التى تطرح بشأن حكومه على عليه السلام - وهذا ما سنتحدث عنه فى حينه فى الأبحاث القادمه إن شاء الله.

ومن خطبه له عليه السلام

بعد التحكيم وما بلغه من أمر الحكيم وفيها حمد الله على بلائه، ثم بيان سبب البلوى.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَا بَعِيدٌ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ
الْمُجْرَّبِ تَوْرَثَ الْحَسِيرَةِ، وَتُعَقَّبُ النَّدَامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعَ
لِقَصِيرٍ أَمْرًا!

فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالَفِينَ الْجُفَاءِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعَصَاهِ حَتَّى ازْتَابَ النَّاصِحُ بُصِيحِهِ، وَضَنَّ الزُّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ
أَخُو هَوَازِنَ: أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللُّوِي فَلَمْ تَشْتَبِيئُوا النَّصِيحَ إِلَّا ضَحَى الْعَدِي»

نظرة إلى الخطبة: نتيجة العصيان

كما ذكرنا سابقا فقد أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعد إنتهاء قضيه التحكيم. فقد كانت نتيجة

ص: ٢٢٧

١ - ١) وردت هذه الخطبة مع اختلاف طفيف في مروج الذهب للمسعودي والكامل لابن أثير وأنساب الأشراف للبلاذري
وتاريخ الطبري والإمامه والسياسة لابن قتيبة الدينوري وصفين لنصر بن مزاحم، كما رواها البسط بن الجوزي في تذكره الخواص
وأبوالفرج الإصفهاني في الأغاني (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٥٩). [١]

التحكيم شاقه على العالم الإسلامي. وقد دلت على أن الإمام عليه السلام نهى عن التحكيم وحث على مواصلة القتال خشية تلك النتيجة - ومن هنا شدد الإمام عليه السلام في ذمه لأهل الكوفة وحملهم مسؤوليه تلك النتيجة بسبب تمردهم وعدم طاعتهم.

الشرح والتفسير

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة في ظل ظروف عصيبة ومأساه عظيمه، فقد أثمرت مؤامره معاويه وعمرو بن العاص إثر استغلال جهل أبو موسى الأشعري ومن وقف إلى جانبه، فقد تمكن ابن العاص من حسم التحكيم لصالحه، ظاناً أنه عزل الإمام على عليه السلام عن الخلافة ونصب معاويه مكانه!

طبعاً الإمام عليه السلام كان قد شعر ببالغ الآسى والحزن لأنه تكهن بهذه النتيجة وقد أطلع أهل الكوفة عليها، إلّا أنّ الجهل والعصبيه والأنانيه والتخاذل حال دون الاتعاظ بإرشادات الإمام عليه السلام ومواعظه الحكيمه.

على كل حال إستهل الإمام عليه السلام الخطبه - كما درج عليه في سائر الخطب - بحمد الله والثناء عليه، الحمد والثناء الذى يستبطن نكهه خاصه، فقد أورد الإمام عليه السلام حتى في ظل هذه الحادته الأليمه والبلاء العظيم «الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب (١) الفادح (٢) والحدث الجليل» .

فالطريف أنّ الإمام عليه السلام أولاً يحمده الله على هذه الحادته ليعلم أنّ حمد الله والثناء عليه لا يقتصر على الحوادث المسره والتوفيقات والنجاحات والقيوضات المعنويه والماديه، بل يجب حمده على كل حال في السراء والضراء والعافيه والبلاء والغلبه والفشل، حتى الحوادث المريره تشتمل على فلسفه لو سير غورها لتبيّن أنّها جزء من النعم الإلهيه.

ص: ٢٢٨

١ - ١) «خطب» على وزن ختم العمل المهم بين الإنسان والآخرين ومن هنا يصطلح بالمخاطبه على الحوار الذى يدور بين فرد وآخر.

٢ - ٢) «فادح» بمعنى ثقيل ومن هنا يقال أفدحه الدين لمن أثقل كاهله.

ثانياً: أنه ينسب هذه الحادثة المريره إلى الدهر، ونعلم أن الدهر لا يعنى سوى أهله، وإلا فيزوغ الشمس والقمر وهطول المطر وهبوب الرياح وسائر الظواهر الطبيعیه ليست على شئ حتى تخلق مثل هذه الحوادث فالناس وبفعل أعمالهم الشائنه هم الذين يكونون السبب لمثل هذه الحوادث!

ولا شك إن هذه الحادثة لم تكن لتقع لو طاع أهل العراق الإمام عليه السلام والتفتوا إلى تحذيراته واتعظوا بنصائحه. والمراد بالخطب الفادح قضيه التحكيم التي جرت الولايات على العالم الإسلامي.

صحيح أن قضيه التحكيم - كما سيمر علينا في البحث القادم - لم تغير من حقيقه الأمر شيئاً، الا أنها كانت ذريعه كبرى لمعاويه ورهطه من أجل إغواء الجهال وتحريف الأفكار، كما أدت إلى ظهور البدع في العالم الإسلامي.

وقوله عليه السلام «حدث جليل» هو تأكيد آخر لآثار السوء لتلك البدعه المشؤومه.

ثم يردف عليه السلام الحمد والثناء بالشهادة لله بالوحدانيه ولمحمد صلى الله عليه وآله بالعبوديه والنبوه «وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأن محمداً عبده ورسوله» فالإتيان بالشهادتين في مطلع الخطبه وأن تضمن التأكيد من جديد على لزوم تقويه دعائم التكامل الإنساني وإحياء الاصول العقائديه الإسلاميه، إلا أن يشير إلى قضيه الحكمين، وذلك أن الأمة قد جاوزت أصل التوحيد واتجهت صوب أفعال الشرك وتجاهلت التأسى برسول الله صلى الله عليه وآله فاستسلمت لاهوائها.

ثم تطرق عليه السلام إلى الهدف الأصلي من الخطبه «أما بعد، فان معصيه الناصح الشفيق العالم المجرب (1) تورث الحسره وتعقب الندامه». فالعباره بمنزله الكبرى وبيان قاعده كليه في أن المستشار إذا تحلى بأربع صفات فإن مخالفته توجب الندامه والحسره لا محاله. الاولى صفه النصح واراده الخير ومقتضى ذلك السعى لاحقاق الحق.

الثانيه القلب المفعم بالعطوفه والرأفه والحب وإرادته السعاده والخير النابعه من أعماق

ص: ٢٢٩

١ - ١) «مجبرب» على وزن محقق ممن يتمتع بمعرفه عظيمه بفعل كثره التجارب إلماً أن العرب تلفظه مجرب بالفتح على وزن مقرب.

القلب لمن يطلب الاستشاره. الثالثه العلم والوقوف على كافه جوانب الأمر وتحليل جميع الملابسات ودراسه الحوادث والنتائج المتمخصه عنها الرابعه تجربه الكافيه فى القضايا الفرديه والاجتماعيه المهمه؛ أى التحلى بالعقل العملى إلى جانب العقل النظرى فاذا كان هنالك مثل هذا الفرد يتمتع بمثل هذه الصفات فإنه يبلغ بالإنسان واقع الأمر لا محاله، كما أن مخالفته لاتقود سوى إلى الحيره والضلال والندم والخسران الذى يفرزه الجهل والغرور.

وما إن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الكبرى (القاعده الكليه) حتى يتطرق إلى الصغرى والمصداق المطلوب فيقول «وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومه أمرى، ونخلت (١)لكم مخزون رأى، لو كان يطاع لقصير أمرا!» فقد كشف الإمام عليه السلام عن مخالفته لاصل التحكيم فضلا عن كفيته والطريقه التى تم فيها.

ولقد أخيرهم عن آثار هذه القضيه المشؤومه، إلّا أنّ تعصبهم ولجاجتهم حالت دون سماعهم لرأى الإمام عليه السلام فاصروا على باطلهم والآن يجنون ثمار جهلهم والعباره «لو كان يطاع لقصير أمر» مثل مشهور عند العرب، فهو قصير صاحب جذيمه، وحديثه مع جذيمه ومع الزياء مشهور فضرب المثل لكل ناصح يعصى بقصير، ويطلق على الأفراد الذين لا يصغون إلى الناصح المجرب الشفيق والذى لا يعقب سوى الندم.

فالإمام عليه السلام يشبه نفسه بقصير وأهل الكوفه بجزيمه الجاهل ومستشاريه البلهاء، حتى وقعوا فى شباك عمرو بن العاص ومعاويه. ثم قال عليه السلام: «فأبيتم على إباء المخالفين الجفاه والمنابذين (٢)العصاه، حتى إرتاب الناصح بنصحه، وضمن (٣)الزند (٤)بقدحه (٥)». .

لقد حذرتكم من أن رفع المصاحف على الحراب مكر وخديعه، فقد بلغ القتال مرحله

ص: ٢٣٠

١-١) «نخلت» من ماده «نخل» بمعنى تنقيه الشئى، واستعمال هذه المفرده فى الخطبه تشير إلى الرأى الصائب الذى طرحه الإمام عليه السلام على أصحابه بشأن التحكيم.

٢-٢) «منابذين» من ماده «نبد» بمعنى الابعاد، وتستعمل هذه المفرده فى نقض العهد، وذلك لان ناقض العهد إنمّا يطرح العهد بعيدا عنه.

٣-٣) «ضمن» من ماده «ضمن» بمعنى البخل والامساک.

٤-٤) «زند» بمعنى الخشب الذى يشعلون به النار (حيث كانوا يولدون النار سابقا بضرب خشبتين ببعضهما، ثم اطلق على كل وسيله لاشعال النار ومنه الزناد).

٥-٥) «قدح» ومنه القداحه ما يخرج منه النار.

خطيره وأوشك على نهايته وقد لاحت بوادر النصر، إلّا أنّكم لم تسمعوا كلامي وتركتم القتال وإذ عنتم للتحكيم. وقد قلت لكم إن كان ولا بد فابعثوا ابن عباس حكماً، فلم تقبلوا، ثم أشرت عليكم بما لك الأشر فلم تستجيبوا وأبتم إلّا أبى موسى الأشعري الاحمق الجاهل الذي لا يقوى على ابن العاص فلم تكن النتيجة سوى خيبتكم وخسرانكم وندمكم (١).

والعبارة «المخالفين الجهاه» ان مخالفتكم لى لم تقتصر على سوء تشخيصكم، بل كان ذلك بدافع من جفائكم وعصيانكم وطغيانكم. وقد أكد هذا المعنى بقوله «المنابذين العصاه» .

وأما قوله «ضمن الزند بقده» فهو مثل أيضاً يقال لمن يكف عن الافصاح بالحقايق لعدم وجود من يسمع، فقد إراد عليه السلام خالفتموني حتى ظننت أنّ النصح الذي نصحتكم به غير نصح، لا طباقكم واجماعكم على خلافي، وتعنى العبارة الأخيره أنه لم يقدر لى بعد ذلك رأى صالح لشده ما لقيت منكم من الابهاء والخلاف والعصيان. ثم قال عليه السلام فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن: أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى فلم تستينوا النصح إلّا ضحى الغد

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دريد بن الصمه، وأبياته مذكوره فى الحماسه. وكان من خير هذا الشعر أنّ عبدالله وهو اسم آخر لعارض وهو أخو دريد - كان أسود إخوته، فغزا ببني جشم وبني نصر إبنى معاويه بن بكر بن هوازن؛ وغنم مالاً عظيماً بمنعرج اللوى؛ فمنعه دريد عن اللبث، وقال: إنّ غطفان ليست بغافله عنا، فحلف أنه لا يريم حتى يقسم، وأوقعوا بعبدالله وقتلوه فهرب دريد بعد أن نجى منهم، فانشد هذا البيت الذى إستشهد به الإمام عليه السلام فى الخطبه (٢).

ص: ٢٣١

١-١) راجع مروج الذهب ٢ / ٢٩٠ وسترده بعض الايضاحات لهذه الخطبه لاحقاً.

٢-٢) الاغانى لآبى الفرج الاصفهاني ١٠ / ٣، شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئى ٤ / ٨٨، شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ /

إن الذى دعا إليه طلب أهل الشام له وإعتصامهم به من سيوف أهل العراق، فقد كانت أمارات القهر والغلبة لاحت، ودلائل النصر والظفر وضحت. وفى هذه الأثناء رفع أهل الشام المصاحف على الرماح. فسأل مالك الإمام عليه السلام مواصلة القتال. فقام الأشعث بن قيس مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين أجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال - فقال عليه السلام: هذا أمر ينظر فيه.

فنادى الناس من كل جانب: المودعه. فقال عليه السلام: أيها الناس إنى أحق من أجب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وصحبهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إنى أعرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالاً، فكانوا شر صغار وشر رجال، ويحكم إنهم كلمه حق يراد بها باطل، إنهم ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيده، أعيرونى سواعدكم وجماجكم ساعه واحده، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا. فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفاً مقنعين فى الحديد، شاكى سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود فنادوه باسمه لا بأمر المؤمنين: يا على أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم. فقال لهم: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجب إليه. إنى إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكنى أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وإنهم ليس العمل بالقرآن يريدون. قالوا: فإبعث إلى الأشتر ليأتينك - فقال الأشتر: قل لعلى عليه السلام ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى عن موقفى. فارتفع وهج القوم وعلت الأصوات وقالوا لعلى عليه السلام: والله ما نراك أمرته إلا بالقتال، فابعث إليه يأتيك وإلا فوالله إعتزلناك. فبعث له الإمام عليه السلام ثانيه. فقال الأشتر: أرفع هذه المصاحف؟ قال: نعم. قال: ألا ترى إلى الفتح. ثم أقبل الأشتر حتى إنتهى إليهم فصاح فيهم أمهلونى فواقا فإنى قد أحسست بالفتح. فلم يجيبوه. فلما إنتهى الأمر إلى الحكيم قال عليه السلام هذا ابن عباس أولئيه ذلك فهو لابن العاص. فلم يوافق الأشعث ورهطه. فقال عليه السلام: فإنى أجعل الأشتر. فقال الأشعث:

وهل سَعَرَ الأرض علينا إلا الأَشْر. ثم إضطر الإمام عليه السلام لقبول أبو موسى. فاتفق معه عمرو بن العاص على أن يخلع كل صاحبه ويدعون الناس للشورى. فتقدم أبو موسى ثم قال: أيها الناس أجمع رأيي ورأى صاحبي على خلع عليّ ومعاويه ويكون الأمر شورى بين المسلمين. فقام عمرو بن العاص وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاويه في الخلافة، فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه. (١)

٢- الاستفادة من آراء الآخرين

لاشك أن الشورى تشكل أحد أسس التعاليم الإسلامية التي حظت بأهميه فائقة في الآيات القرآنية والروايات والأخبار. فالقرآن يرى أن المشورة من علامات الإيمان، ويجعلها في مصاف الصلاة والزكاة - التي تعد من أركان الإسلام - «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ». (٢)

كما أمر الله سبحانه صراحه باستشاره المؤمنين في الأمور المهمه، رغم إتصال رسول الله صلى الله عليه وآله بالوحي وكونه العقل الكامل «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» (٣) والمهم في قضيه المشوره إنتخاب المستشار الذى يتحلى ببعض خصائص الصفات التى وردت فى الخطبه التى نحن بصددھا: «الناصح الشفيق العالم المجرب»، والحق أن مخالفه الفرد الذى يتصف بهذه الصفات لا تفضى سوى إلى الحسره والندامه.

صحيح أن المتعصبين فى صفتين لم يستشيروا الإمام عليه السلام إلا أن الإمام عليه السلام أبدى رأيه الذى يمثل رأى الناصح الشقيق والعالم المجرب، إلما أنهم وللأسف الشديد لم يستجيبوا لرأى الإمام عليه السلام وهبوا لمجابهته وهددوه بالقتل، فلم تتمخض النتيجة سوى عن ندمهم التاريخى الذى جر الويلات على العالم الإسلامى.

ص: ٢٣٣

١- ١) إقتباس وتلخيص لما ورد فى شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢/٢٠٦ - ٢٥٦. [١]

٢- ٢) سورة الشورى / ٣٨ [٢]

٣- ٣) سورة آل عمران / ١٥٩. [٣]

ومن خطبه له عليه السلام

فى تخويف أهل النهروان

«فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُضَيِّبُوا صِرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهْرِ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ، عَلَى غَيْرِ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَا سَيِّطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمْ الدَّارُ وَآخَتَبَلَكُمْ الْمُقْدَارُ. وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صِرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمُ وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخْفَاءِ الْهَامِ، سَفَهَاءُ الْأَخْلَامِ؛ وَلَمْ آتِ - لَا أَبَا لَكُمْ - بُجْرًا وَلَا أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرًّا» .

نظرة إلى الخطبه

واضح أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه فى النهروان جنب النهر فى يوم القتال عام ٣٧ هـ. وقد أشار عليه السلام ألى ثلاثه أمور:

١- عدم خوض القتال دون قيام الدليل الشرعى والبينه من الله، وإلّا فأنهم يقضون على أنفسهم.

ص: ٢٣٥

١- ١) وردت هذه الخطبه أو بعضها مسنده أو مرسله من قبل المؤرخين والمحدثين. م - قال ابن أبى الحديد (٢/٢٨٣) [١] نقلها ابن حبيب البغدادى (المتوفى عام ٢٥٤). ب - ابن قتيبه الدينورى فى الامامه والسياسه، ١/١٢٧. ج - البلاذرى فى أنساب الأشراف، ٢/٣٧١. [٢] - الطبرى فى تاريخ الرسل والملوك، ٦/٣٣٧٧. [٣]

٢- أن القوم تذرعوا بقضيه التحكيم، والحال أن الإمام عليه السلام كان يرفضها منذ البدايه.

٣- أنهم يقاتلون الإمام عليه السلام دون أن يصدر عنه ما يدعو لذلك من معصيه، فإن كان هنالك من خلاف فقد صدر منهم ومن بعض الأفراد، ومن الجهل تحميل الإمام عليه السلام مسؤوليه ذلك الخلاف، وهكذا أتم عليهم الإمام عليه السلام الحجه.

الشرح والتفسير

إتمام الحجه على الخوارج

كما أشرنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام خطبها قبل بدأ معركة النهروان التي أفرزتها قضيه التحكيم. فقد خرجت تلك الطائفة الجاهله على الإمام بعد التحكيم لتعتبره هو المسؤول عنه، في حين كان الإمام عليه السلام يعارض أصل التحكيم من الأساس إلى جانب رفضه الحكم. فالواقع أن الخطبه إتمام الحجه عليهم. فقد إستهل خطبته بالقول «نحن أهل بيت النبوه وموضع الرساله ومختلف الملائكه وعنصر الرحمه ومعدن العلم والحكمه - نحن أفق الحجاز، بنا يلحق البطيء وإلينا يرجع التائب» (١) ثم خاطبهم قائلاً: «فانا نذير لكم أن تصبحوا صرعى (٢) بإثاء هذا النهر، وبأهضام (٣) هذا الغائط (٤) على غير بينه من ربكم، ولا سلطان مبين معكم». فعبارته الإمام عليه السلام نبوءه صريحه بشأن عاقبه معركة النهروان حيث أخبرهم بأنهم سيصرعون دون النهر، والافضع من ذلك موقفهم العسير يوم القيامه واسوداد وجوههم، حيث ليس لهم من دافع للقتال سوى العصيه والجهل دون وجود أيه بينه.

شرعيه يمكنهم الاستناد إليها وعليه فهم يهلكون أنفسهم في الحياه الدنيا وليس لهم في الآخره إلا النار. ثم قال عليه السلام «قد طوحت (٥) بكم. الدار وأحتبلكم (٦) المقدار» والمفرد (دار) إشاره

ص: ٢٣٦

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢ / ٢٨٣. [١]

٢- ٢) «صرعى» جمع «صرع» بمعنى طريح، وتعني الجنازه أو المقتول الملقى على الأرض؛ كما يطلق على من يسقط على الأرض في المصارعه، و من هنا يطلق مرض الصرع على من يغمى عليه ويقع على الأرض.

٣- ٣) «أهضام» جمع هضم وهو المطمئن من الوادى وتعني الكسر والضغط.

٤- ٤) الغائط ما سفلى من الأرض والمراد هنا المنخفضات.

٥- ٥) «طوحت» من ماده «طوح» بمعنى السقوط والهلكه، وإذا ورد من باب التفعيل كما ورد في الخطبه فإنه بمعنى القذف فى المتاهه والمضله.

٦- ٦) «أحتبل» من ماده «حبل»، أوقعكم فى حباله، والمقدار القدر الإلهى.

إلى دار الدنيا أو بعبارة أخرى الاغترار بالدنيا والعبودية لها و «احتيل» من ماله حيل بمعنى الفسخ، والمراد بالمقدار حسب بعض شراح نهج البلاغه الفكر الخاطيء والتحليل العبثى لمختلف الحوادث، وقال البعض الآخر تعنى القدر الإلهى. وإذا تأملنا تأريخ الحادثه سيتضح لدينا الأثر البالغ الذى لعبه كلام الإمام عليه السلام فى هذه الطائفه، فقد كانت طائفه متعصبه لجوجه جاهله هزيله. ثم أشار عليه السلام إلى قضيه التحكيم فقال «وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومه فايتم على إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأبى إلى هواكم» إنكم لتحملونى مسؤوليه عمل أنتم إرتكبتموه، بل أبعد من ذلك جعلتم تهددونى بالقتل على قبوله، والآن بعد أن تبين لكم فداحه خطأ العمل وتحاولون إلقاء تبعته على «وأنتم معاشر أخفاء الهام (1) سفهاء الأحلام». يمكن أن تكون هذه العبارة تأكيد لسفاهه وبلاجه أصحاب النهروان.

كما يمكن أن تكون العبارد السابقه - كما ذكر ذلك بعض شراح نهج البلاغه - إشاره إلى خفه أهل النهروان الذين تتغير أفكارهم وحركتهم لأدنى شىء، فهم يتعصبون يوماً للتحكيم، وآخر يعادونه أشد العداه، أمّا العبارة الأخيره فهى تشير إلى ضحاله فكرهم، وذلك لأن مؤامرات العدو كانت تتكشف يوماً بعد آخر ولم تكن خافيه على أهل البصائر إلّا أنهم لم يكونوا يرونها أو يدركونها؛ الأمر الذى جعلهم يخدعون أكثر من مره بحيل معاويه وبطانته، فيرتكبون ما يؤدى إلى بؤسهم وشقائهم وجر الولايات والمصائب على المسلمين. ثم يختم الإمام عليه السلام خطبته بالتأكيد على هذه الحقيقه بأن كل ما يصيبكم من بلاء ممّا إرتكبته أيديكم ولست طرفا فيه أبداً، بل خالفتمونى وشهرتم سيوفكم لتهددونى بالقتل «ولم آت - لا أبا لكم! - بجرا ولا أردت لكم ضرراً». العبارة لا- أبا لكم يمكن أن تكون سباً ولعناً، تشير إلى أنكم لم تحظوا بتربيته أسريه إسلاميه صحيحه، ومن هنا فأنكم تفعلون الأفعال الشائنه وتنسبونها إلى الآخريين، ويمكن أن تكون دعاء عليهم؛ أى أمات الله آبائكم وهى فى الواقع كناية عن ذلتهم وهوانهم؛ لأن فقدان الأب فى ريعان الشباب تدعو إلى الذله والهوان.

ص: ٢٣٧

(١- ١) «الهام» جمع هامه رأس الإنسان أو سائر الكائنات الحيه، واخفاء الهام تغنى ضعاف الفعل.

ذكرنا حين شرحنا للخطبة الشقشقيه فى المجلد الأول أنّ الخوارج فئه متعصبه وجاهله قد ظهرت من بطن صفيين وقضيه التحكيم. فقد أقرت مسأله التحكيم (عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري) وفرضوها على الإمام عليه السلام. ولم يصفوا إلى قول الإمام عليه السلام أنها خدعه ولم يبق إلا- القليل على ختم فتنه أهل الشام وزعيمهم معاويه. لكنهم تدموا بعد نتيجة التحكيم وتابوا لكنهم أفرطوا هذه المره حيث حكموا يكفر قبول التحكيم وشعارهم الحكم لله فلايد أن يتوب على عليه السلام من هذه المعصيته. قال الإمام عليه السلام أن التحكيم ليس كفرا، فقد أشار القرآن إلى هذه المسأله فى حل الخلافات العائليه «فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» وفى كفاره الإحرام «يحكم به ذوا عدل منكم» لكن التحكيم الذى أقرتموه كان خاطئا - على كل حال إقتنع هؤلاء - وكان من بينهم بعض المتظاهرين بالعباده والإتيان بالمستحبات - بقشور الإسلام وتركوا جوهره فاجتمعوا ضد أمير المؤمنين عليه السلام فى منطقه قرب الكوفه تدعى الحروراء قرب النهروان. فبالغ الإمام عليه السلام فى وعظهم ونصحهم حتى عاد أكثرهم إلى رشده بينما بقى أربعة آلاف منهم فلما تثبت المعركه صرعوا جنب النهروان ولم ينج منهم إلا القليل كما أخبر الإمام عليه السلام.

وقد شهدت حياه الخوارج وسيرتهم العديد من التناقضات العجيبه ومن ذلك:

١- لقيهم عبدالله بن الخباب فى عنقه مصحف، على حمار، ومعه إمرأته وهى حامل، فقالوا له: إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا بقتلك، فقال لهم: ما أحياء القرآن فأحيوه،

وما أماته فأميتوه، فوثب رحيل منهم على رطبه سقطت من نخله فوضعها فى فيه، فصاحوا به، فلفظها تورعا. وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد فى الأرض، ثم قالوا لابن الخباب: حدثنا عن أبيك. فقال: إني سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ستكون بعدى فتنه يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسى مؤمنا ويصبح كافرا، فكن عبدالله المقتول ولا تكن القاتل - قالوا: فما تقول فى على بعد التحكيم والحكوم؟ قال: إن عليا أعلم بالله وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيره - فقالوا: إنك لست تتبع الهدى، ثم قربوه إلى شاطئ النهر فأضجعوه فذبوه. (١)

ص: ٢٣٨

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢/٢٨١ و [١] تأريخ الطبرى ٢/٦٠ - ٦١، [٢] حوادث عام ٣٧.

٢- قال قيس بن سعد بن عباده: إستنطقهم الإمام عليه السلام بقتل عبدالله بن الخباب فأقروا به، فقال: إنفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبه كتيبه. فأقرا جميعا بقتله. فقال على عليه السلام: «والله لو أقر أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم». (١)

٣- حين هجم الخوارج على جيش الإمام عليه السلام إلتفت إلى أصحابه فقال: والله لا ينجو منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة. والعجيب أنه لم يقتل من أصحاب الإمام عليه السلام سوى تسعة ولم ينج من الخوارج إلا ثمانية.

٤- كانت قضيه الخوارج قد فعلت فعلها فى الإمام عليه السلام وقد إنعكست سلبا على الوسط الإسلامى، فكان عليه السلام لا ينفك عن التحدث عنها ليبين للناس كيفيه إنحرافهم فيعتبروا بهم، ولا غرو فمثل هذا التفكير السطحي المشوب بالجهل والعناد لا يخلو منه عصر ومصر. والخطب التي تحدث فيها الإمام عليه السلام عن الخوارج هي الخطبه: ٤٠، ٥٩، ٦٠، ٦١، ١٢١، ١٢٢، ١٢٧، ١٨٤، والرساله ٧٧، ٧٨ والتي سنعرض لشرحها جميعا إن شاء الله.

الجدير بالذكر أن خط الخوارج - كما ذكرنا - تيار يتواجد على مدى التاريخ ولا يقتصر على عهد على عليه السلام - فهم فئه لا تعرف من الدين سوى ظاهره ولا تعتد إلا بأفعالها وأعمالها وترى إنحراف كل من سواها وقد ملئت سيرتها بالتناقضات، فهي بلاء وآفه تصيب المجتمع. والغريب فى الأمر أن الإمام عليه السلام أشار إلى هذه الفئه كظاهرة فوصفهم فى الخطبه ٦٠ قائلا: «كلا والله، إنهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين.

ص: ٢٣٩

ومن كلام له عليه السلام

يجرى مجرى الخطبه وفيه يذكر فضائله عليه السلام قاله بعد وقعه النهروان.

نظره إلى الخطبه

بناءً على ما ذكره ابن أبي الحديد فإن هذه الخطبه تشتمل على أربعة فصول لا يمتزج بعضها ببعض:

الفصل الأول: يشير فيه الإمام عليه السلام إلى خدماته الجليله التي أسداها للإسلام إبان انبثاق الدعوه الإسلاميه فقد أوجز ذلك بقوله: «فقد قمت بالأمر حين فشلوا وتطلعت حين تقبعوا ونطقت حين تعتصوا ومضيت بنور الله حين وقفوا، كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز».

ص: ٢٤١

١ - ١) قال صاحب مصادر نهج البلاغه هذه من الخطب المعروفه التي رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى (ره) ومنهم: ١ - الجاحظ في البيان والتبيين ١ / ١٧٠. ٢ - ابن قتيبه الدينوري في الإمامه والسياسه ١ / ١٥٠. ٣ - ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤ / ٧١. ٤ - البلاذري في كتاب أنساب الأشراف (في شرح سيره على عليه السلام) ٣٨٠. ٥ - القاضي نعمان المصري في دعائم الإسلام ١ / ٣٩١ (مع اختلاف وما ورد في النهج وقال الشارح الخوئي يستفاد من بحار الأنوار والإحتجاج والإرشاد أن هذه الخطبه جزء من الخطبه ٢٧ (شرح نهج البلاغه، الخوئي ٤ / ٢١).

الفصل الثانى يشير إلى وقوفه الصلب على الدوام بوجه الظلمه من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

الفصل الثالث يشير إلى إستحاله الكذب عليم لأنه أول من صدق بالنبى صلى الله عليه وآله وعليه فلا ينبغى أن يستسرب الشك إلى إخباره عن المغيبات التى أخبره بها رسول الله صلى الله عليه وآله.

الفصل الرابع يختتم الخطبه بعذرته فى البيعه لمن سبقه من الخلفاء، وأنه فعل ذلك طاعه لرسول الله صلى الله عليه وآله وخشيته الفرقة والتشتت فى صفوف المسلمين واستغلال ذلك من قبل خصوم الدعوه الإسلاميه.

ح ج

ص: ٢٤٢

«فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشَلُّوا وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللَّهِ حِينَ وَقَفُوا - وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتًا وَأَعْلَاهُمْ فَوْتًا فَطَرْتُ بَعَانِهَا وَاسْتَبَدَّدْتُ بَرِهَانِهَا، كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ. لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ وَلَا لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ» .

الشرح والتفسير

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ الفصل الأول من الخطبه يتضمن ذكر الإمام عليه السلام لمقاماته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيام أحداث عثمان، وكون المهاجرين والأنصار كلهم لم ينكروا ولم يواجهوا عثمان بما كان يواجهه به وينهاه عنه إلّا أنّ سياق الكلام يشير إلى الحوادث التي وقعت على عهد النبي صلى الله عليه وآله ولا سيما في بدايه انطلاق الدعوه الإسلاميه. فقال عليه السلام «فقمتم بالأمر حين فشلوا وتطلعت (١) حين تقبعوا (٢) ونطقت حين تعتعوا (٣) ومضيت بنور الله حين وقفوا. وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً (٤)» ثم أضاف عليه السلام أنّه تألّق تلك المده وحاز السبق على الآخرين «فطرت بعانها واستبددت برهانها (٥)، كالجبل لا تحركه

ص: ٢٤٣

١- ١) «تطلعت» من ماده «طلع» بمعنى مد العنق بحثاً عن شىء، وأصلها طلوع بمعنى الظهور والبروز.

٢- ٢) «تقبعوا» من ماده «قبع» بمعنى الاختباء، وأصله تقبع القنفذ إذا أدخل رأسه في جلده.

٣- ٣) «تعتعوا» من ماده «تعع» بمعنى تلثم اللسان، والمراد ترددوا في كلامهم.

٤- ٤) فوت تعنى فقدان الشىء، وتطلق على التفاوت بين شيئين وابتعادهما عن بعضهما بحيث لا يدرك أحدهما الآخر، ومن هنا تطلق هذه المفردة على من يسبق الآخرين، وهذا هو الذى اريد بها فى العبارة.

٥- ٥) «الرهان» من ماده «رهن» بمعنى جعل الشىء عند الآخر، ومن هنا يطلق الرهن على وثيقه الدين، كما يطلق الرهان على جوائز المسابقات، والمراد بقوله «استبددت برهانها» إنفردت بجائزه هذه المسابقه الإلهيه.

القواصف ولا تزيله العواصف، لم يكن لأحد في مهمز (١) ولا لقائل في مغمز (٢) .

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة أمور هي: -

الأول: أن الآخرين كانوا آنذاك يعانون من الضعف والعجز، وأنا الذي نهضت بالأمر وقمت بوظيفتي.

الثاني: أن الخوف دفع الآخرين آنذاك لأن يقبعوا في جحورهم وأنا الذي إنبريت للأمر وكنت أتطلع إلى العدو.

الثالث: أنا الذي نطق لساني بالحق وبيان الحقائق الدينيه والتعاليم الإسلاميه حين عجز الآخرون عن الكلام.

الرابع: لم يعتريني الشك آنذاك كما إعتري الآخرين فواصلت سبيلي على هدى من ربي ونور إيماني ويقيني بالوحي.

ورغم كل ما تقدم لم أكن لأتفاخر على أحد «كنت أخفضهم صوتاً» ثم يخلص عليه السلام من كل ذلك إلى نتیجه مؤداها «فطرت بعنانها واستددت برهانها» . ثم يعود عليه السلام للتأكيد على ما مضى من حوادث وكيف واجهها فقال «كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف» مع ذلك فقد خضت ما خضت و «لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز» .

كما أوردنا آنفاً فإن المراد بهذه العبارات ما حدث في بدايه إنبثاق الدعوه الإسلاميه؛ لأننا نعلم جميعاً بأنّ علياً عليه السلام كان أول من أسلم حين كان الإسلام غريباً ولم يكن هناك من يهب للدفاع عن الإسلام والقرآن والنبي صلى الله عليه وآله؛ المعنى الذي يلمس بوضوح في يوم الدار حين انطلقت الدعوه الإسلاميه للعلن بعد ثلاث سنوات من الدعوه السريه.

ولم يجب النبي صلى الله عليه وآله ويعلن دعمه له ووقوفه إلى جانبه سوى على عليه السلام وفي ليله المبيت نام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله لينجو من مؤامره قريش التي استهدفت قتله، ناهيك عن فتح خيبر حين عجز الآخرون، وبرزه لعمر بن عبدود العامري في الأحزاب حين لم يكن غيره من انبرى لقتاله.

ص: ٢٤٤

١-١) لم يكن في مهمز من الهمز يعني لم يكن في عيب أعاب به.

٢-٢) «الغمز» بمعنى الطعن والغماز من يبحث عن العيوب ويطعن بالناس، وهذا هو المراد بالعباره.

كما يحتمل أن يكون المراد بالقيام بالأمر والجمل اللاحقه الدفاع عن الإسلام على عهد الخلفاء، لأن أغلب المؤرخين المسلمين يقرون بان علياً عليه السلام كان المفزع في حل المشاكل والمعضلات التي تواجه المسلمين.

فقد وردت العبارة المعروفة عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب «اللهم لا تبغنى لمعضله ليس لها أبو الحسن» (١).

أو ما تناقلته كتب الفريقين والتي تؤكد هذا المعنى، حتى صرح بعض أرباب اللغة أنّ العبارة «مشكله ليس لها أبو الحسن» أصبحت مثلاً لدى العرب. وهناك احتمال ثالث في أن يكون المراد قيامه عليه السلام بأمر الخلافه بعد انهيار حكومه عثمان وإثر تلك العواصف التي عصفت بالمسلمين بعد مقتل الخليفة الثالث، فقد تصدعت آنذاك عرى المجتمع الإسلامي، وقد تأهبت عناصر النفاق ومن تبقى من أسلاف الجاهليه ومشركي العرب، فلم يكن للأئمة من أمل سوى على عليه السلام، أجل لقد نهض الإمام عليه السلام بالأمر في ظل تلك الظروف وحفظ وحده المسلمين.

أما قوله «كنت أخفضهم صوتاً» فلعله إشارة إلى تواضع الإمام عليه السلام إلى جانب كل تلك الانتصارات والنجاحات، أو إشاره إلى أن الإمام عليه السلام لم يكن من أهل التظاهر وإثاره الصخب والضوضاء فهذه معاني الأفراد الضعفاء العجزه.

ومن هنا أردفها بقوله «وأعلاهم فوتاً» التي تعنى السبق على الآخرين، السبق في الإيمان والهجره، والسبق بالجهاد والقتال، وأخيراً السبق في كافة الفضائل الأخلاقية.

وقوله عليه السلام «فطرت بعنانها واستبددت برهانها» هو الآخر تأكيد لهذا الأمر، ولا سيما أن فاء التفريع وردت في البدايه كنتيجه للبرامج السابقه، أى أنّي ركبت مركب النصر وسبقت الآخرين، وذلك لأنني لم أشعر بالضعف طرفه عين ولم أهب الحوادث المرعيه وأفقد الفرص المواتية، ومع ذلك لم أثير أيه ضجه أو صخب وضوضاء.

ثم يشبه نفسه عليه السلام بالجبل العظيم الذي لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. والطريف في الأمر أن الإمام عليه السلام ذكر القواصف ثم أردفها بالعواصف، وذلك لان القواصف تعنى الرياح

ص: ٢٤٥

١- ١) ورد هذا الحديث بعده تعبيرات في أغلب مصادر العامه، ومن أراد الوقوف على المزيد فليراجع الغدير ٣/ ٩٧. [١]

العاتيه الكاسره، والعواصف الرياح السريعه الجارفه، فى اشاره الى أنّ الحادثه كانت من الشده بحيث تقضى على الإنسان فى موضعه، وأحياناً تكون أكثر شده فتجرفه كما تجرف أوراق الشجر وتقذف به فى مكان سحيق.

ثم قال عليه السلام: «ولم يكن لأحد فى مهمز ولا لقائل فى مغمز». فالمعروف أنّ من يعمل يخطى ومن يرد الميدان الاجتماعى ويمارس الأنشطة والفعاليات فإنّه يتعرض إلى بعض الانتقادات من هنا وهناك، فما ظنك بالإمام عليه السلام الذى كان سباقاً فى كل الميادين. وبالطبع فإنّ العيوب والمطاعن فى غيره لم تحص رغم ندره إقتحامه للميدان الاجتماعى. (1)

ص: ٢٤٦

١-١) لقد أوردنا توضيحات مسهبه بهذا الشأن فى شرح الخطبه الشقشقيه.

«الدليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه، رَضِينَا عَنِ اللَّهِ قَضَاءَهُ وَسَلَّمْنَا لِلَّهِ أَمْرَهُ» .

الشرح والتفسير

لما كانت عداله الإمام عليه السلام هى السبب الذى يقف وراء أغلب الحوادث الأليمه والحروب الداميه، واعتياد الناس لسنوات على الظلم والجور والاضطهاد على عهد الخلفاء الثلاث ولاسيما عصر عثمان، فأنهم لم يكونوا مستعدين بهذه السهوله لقبول منطق المساواه أمام القانون وفي العطاء من بيت المال.

فالإمام عليه السلام يؤكد فى هذه الخطبه أنى سأواصل سيرتى فى العدل وإحقاق الحق وانتزاعه من القوى، بل هذا هو هدفى من الحكومه، وبناءً عليه فالقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف قوى حتى آخذ الحق له «الدليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه» ومن هنا كان لاينفك عليه السلام عن تأكيده على الحديث المعروف عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذى ضمنه عهده إلى مالِك بعد أن أوصاه قائلاً: واجعل لذوى الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذى خلقك. . . فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لن تقدس أمه لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتبع» . (١)

ص: ٢٤٧

كان الإمام عليه السلام شديد الحرص على العدالة لا يؤثر عليها أى شى وقد وردت عدة أحاديث بهذا الشأن فى أن الإمام عليه السلام كان يقسم عطاء بيت المال فقدم رجل من الأنصار فاعطاه ثلاثه دنا نير، ثم دخل عليه عبد أسود فاعطاه ثلاثه أيضاً، فقال له الأنصارى، يا أميرالمؤمنين سويت بينى وبين عبدى الذى عتقته بالأمس. فقال عليه السلام لم أرفى الكتاب فضلاً لولد اسماعيل على ولد اسحاق «إن آدم لم يلد عبداً ولا أمه إن الناس كلهم أحرار» (١).

ثم قال عليه السلام: «رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره» تنطوى هذه العبارة على معنيين: الأول أن الله أمرنا بنصره المظلوم ومقاتله الظالم، وإتى مسلم لهذا الأمر ولا بد من التسليم والرضى قبل الاخرون شاءوا أم أبوا.

نصره المظلوم ومجابه الظالم

لقد شحن نهج البلاغه بوصاياه عليه السلام التى تؤكد على الحكومه الإسلاميه فى أن تكون للمظلوم عوناً وللظالم خصماً. ومن ذلك ماورد فى خطبته المعروفه بالشقشقيه من أن الحكومه وسيله للانتصاف للمظلوم «وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظه ظالم ولا سغب مظلوم»، أما آخر وصيه لولده الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً».

(٢)

وقال فى موضع آخر من نهج البلاغه «وآيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامتة حتى أوردته منهل الحق وإن كان كارهاً» (٣).

ولا غرابه فالقرآن الكريم قد أكد هذا الأمر ليحث المؤمنين على نصره المظلومين ولو تطلب ذلك القتال «وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا» (٤).

ص: ٢٤٨

١-١) روضه الكافى / ٦٩ ح ٢٦.

٢-٢) نهج البلاغه، الرساله ٤٧. [١]

٣-٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٣٦. [٢]

٤-٤) سوره النساء / ٧٥. [٣]

جدير بالذكر أنّ الفلسفه الأصلية لتشكيل الحكومه وتشريع القوانين (سواء القوانين الإلهيه أو الوضعيه التي تسنها الأنظمه البشريه) هو حفظ حقوق الضعفاء وتوفير الدعم والاسناد لهم، لأنّ الطغاه والجبايره يعتمدون منطق القوه الغاشم من أجل هضم حقوق الآخرين، وعليه فلو تخلت الحكومه والقانون عن دعم المظلومين والمستضعفين فإنها ستفقد فلسفه وجودها لتتحول إلى وسيله بيد الظلمه لتبرير ظلمهم وجورهم. ومن هنا كان قبول الإمام عليه السلام للحكومه كما ذكر ذلك في خطبته الشقشقيه يكمن في الوقوف إلى جانب المظلوم ومجاوبه الظالم.

ومن هنا أيضا فإن القانون يعطى نتيجته معكوسه في المجتمعات التي تغير مسار القانون بالرشوه، لأن الراشى هو الظالم لا المظلوم - وفي هذه المجتمعات يتحول القانون إلى مصدر دخل غير مشروع للظلمه وأداه لتوجيه ظلم الآخريين. لكن ينبغي العلم بأن تحمل العدل ومجاوبه الظلم ودعم المظلوم إنما يشق على الأعم الأغلب. فمن الصعب قبول العدل من قبل من يرى مراعاته تشكل خطرا على مصالحه اللا- مشروعه، أو الأسوأ من ذلك من يرى لنفسه إمتيازاً في المجتمع ولا- يمكنهم أن يتساوى مع الآخريين ويرى أن من الإساده إليه أن يتساوى معهم، فيعمد إلى عرقله مسيره الحكومه العادله ولا- يتورع عن ممارسه أبشع الأعمال. وهؤلاء هم الأفراد الذين وقفوا بوجه الإمام عليه السلام وأثاروا الفتن والإضطرابات وحرفوا الوسط الإسلامى.

وأخيرا فقد ورد أنّ سبب إنفراج العرب عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام إنّما يكمن في الأموال وكيفيه توزيعها، فلم يكن عليه السلام يرى من فضل لشريف على غير شريف أو عربى على أعجمى، كما لم يكن يستن بسنه السلاطين في معامله زعماء القبائل، ولم يستميل أحدا عن طريق المال أبداً، بينما كان معاويه يمارس العكس تماماً. (١)

ص: ٢٤٩

«أَتْرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟ وَاللَّهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَظَنَرْتُ فِي أَمْرِي. فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي» .

الشرح والتفسير

كما أشرنا سابقاً يبدو أنّ ما ورد في هذه الخطبه فصول مختلفه من خطبه طويله فصلها السيد الرضى (ره) عن بعضها البعض، ولذلك قد لا يكون هناك من ترابط وثيق بين هذه الفصول. على كل حال فإنّ هذا الفصل من الخطبه يتناول أمرين: الأول إخباره عليه السلام عن الحوادث الآتية مصرحاً بأنّ ذلك ممّا علمه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن ذلك إخباره عن وقائع الجمل وصفين والنهروان، أمّا بعض ضعاف الإيمان كانوا يشككون في أخبار الإمام عليه السلام، فرد عليهم بالقول «أتراى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ والله لأنا أول من صدقه! فلا أكون أول من كذب عليه». لقد صدقته حين كذبه الناس، وكنت أول من صدق به فشمرت في الدفاع عنه، كنت أقيه بنفسى في الحروب والمواقف التى تنكص فيها الابطال، أفيمكن أن أنحرف عن طريقتى وأكذب عليه محال ذلك. الاحتمال الآخر فى تفسير هذه العبارة أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول: بايعت من سبقنى من الخلفاء لا لأنهم أجدر بها منى، بل دفعاً للخلاف والفرقه فى صفوف المسلمين طاعه لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، أفترون أنى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الكلام، أم تعتقدون أنّى أنقض وصيه النبى صلى الله عليه وآله؟ وعليه فقد بايعت من بايعت وتنازلت عن

حقى طاعه لرسول الله صلى الله عليه وآله. ويبدو أنّ هذا التفسير هو الأنسب لأنّه ينسجم والعبارة اللاحقه. ثم قال عليه السلام: «فنظرت فى أمرى، فاذا طاعنى قد سبقت بيعتى وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى» والتفاسير وإن اختلفت بشأن هذه العبارة - التى تعد من عبارة نهج البلاغه المعقده - إلا أنّ التفسير الذى أوردناه آنفا هو الانسب من جميع التفاسير وكأنّ العبارة تجيب على سؤال قد يقتدح إلى الأذهان فى أنّ الإمام عليه السلام لم يبايع الخلفاء الثلاث وهو يرى أنه أجدر بالخلافه منهم وقد نص رسول الله صلى الله عليه وآله على إمامته؟ وجواب الإمام عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلى السكوت حفظاً للإسلام إن خالفنى القوم، ولا بدّ لى من البيعه من أجل حفظ المصالح التى يجب على مراعاتها. وعليه فقد جعلت طاعنى لرسول الله صلى الله عليه وآله أولى من بيعتى، كانت عهداً من النبى صلى الله عليه وآله فى عنقى وليس أمامى سوى الوفاء بالعهد، كما ذهب بعض شراح نهج البلاغه، كما أوردنا سابقاً إلى أنّ المراد أنّ طاعه النبى صلى الله عليه وآله مقدمه لدى على بيعه الخلفاء، لقد عهد إلى النبى صلى الله عليه وآله بالسكوت فى ظل مثل هذه الظروف، وذكر بعض الشراح إنّ المراد بقوله «فنظرت فى أمرى.». أنّ هذه الكلمات مقطوعه من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه كان معهوداً إليه ألا ينازع فى الأمر، ولا يثير فتنه، بل يطلبه بالرفق، فان حصل له وإلا أمسك، فالمراد: فنظرت فاذا طاعنى لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ أى وجوب طاعنى، قد سبقت بيعتى للقوم، أى وجوب طاعه رسول الله صلى الله عليه وآله وامتنال أمره سابق على بيعتى للقوم، فلا سبيل إلى الامتناع من البيعه لأنّه صلى الله عليه وآله أمرنى بها، «وإذا الميثاق فى عنقى لغيرى» أى رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ على الميثاق بترك الشقاق والمنازعه، فلم يحل لى أن أتعدى أمره، أو أخالف نهيه. (١) وقال البعض أنّ العبارة تنسجم وما قال الإمام عليه السلام فى الخطبه الشقشقيه «أما والذى فلق الحبه وبرأ النسمه لولا حضور الحاضر. . . لألقيت حبلها على غاربها». ويبدو أنّ هذا التفسير هو الآخر مستبعداً، لأنّ القوم تمردوا على طاعه الإمام عليه السلام قبل البيعه، واعلنوا بيعتهم فلم يكن هناك من ميثاق، إلا أن نفس الميثاق مجازياً.

ص: ٢٥٢

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ٢٩٦؛ [١] محمد عبده الشارح المعروف والعلامة الخوئى إختاروا هذا المعنى أيضاً.

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى العهد الذي عهدته إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، ويفهم من عبارته أنّ النبي صلى الله عليه وآله عهد لعلى عليه السلام بمماشاه الخلفاء، وإن لم تستند حكومتهم إلى الموازين الشرعية. وقد صرحت بعض الروايات بمضمون ذلك العهد، ومنها ما أورده المرحوم السيد ابن طاووس في كشف المحجّه في روايه عن على عليه السلام: «وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلى عهداً، فقال: «يا بن أبى طالب! لك ولأمتى. فان ولوك في عافيه واجمعوا عليك بالرضا فقم بأمرهم وإن اختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه فانّ الله سيجعل لك مخرجاً». فالواقع أنّ الإنسان قد يقف أحياناً على مفترق طرق كلاهما مريراً، إلّا أنّ أحدهما أمر من الآخر، فالعقل في مثل هذه الحاله يحكم باجتنب الأمر وتقبل المريراً؛ القاعده التي يصطلح عليها في الفقه بقاعده الأهم والمهم، كما يعبر عنها أحياناً بدفع الأفسد بالفاسد، وهذا ما سلكه أمير المؤمنين عليه السلام بعيد وفاه رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد كان أمامه عليه السلام سبيلان لثالث لهما، إمّا إن يترك حقه المسلم في الخلافه حفظاً للإسلام والمصالح الإسلاميه، أو أن ينهض بالأمر فيطالب بحقه، دون الإكتراث لوحده المسلمين وتربص الاحزاب الجاهليه بالإسلام والفرصه التي كان ينتظرها المنافقون بفارغ الصبر أملاً في إقتال المسلمين وتسلبهم إلى الحكومه، الأمر الذي تكهن به رسول الله صلى الله عليه وآله فعهد لعلى عليه السلام ذلك العهد، ولم يكن من على الذي أوقف نفسه للإسلام سوى الالتزام بذلك العهد.

ومن كلام له عليه السلام

وفيها علّه تسميه الشُّبهه شبهه ثمَّ بيانُ حال النَّاسِ فيها. (١)

نظره إلى الخطبه

إنَّ أدنى تأمل للخطبه سيفيد أنَّ هذا الكلام فصل من كلام طويل إختاره السيد الرضى (ره)، ومن هنا نرى الكلام عبارته عن فصلين، أحدهما غير منسجم مع الآخر، بل مبتور عنه. أمّا الفصل الأول فهو الكلام فى الشبهه ولماذا سميت شبهه، وسبيل الخلاص من الشبهات. والفصل الثانى بيان حال الناس إزاء الموت، حيث لا ينجو منه من خافه، ولا يمنح البقاء من طلبه فكلاهما ميت. وتدل القرائن على أن الرضى (ره) كان يلتقط الكلام إلتقاطاً، ومراده أن يأتى بفصيح كلامه عليه السلام وما يجرى مجرى الخطابه والكتابه، ويؤيد هذا العبارة «من كلام له» و «من خطبه له» ونعرف أنَّ من هنا تبعيضيه، فلم يقل ومن خطبته أو ومن كلماته، فقد أراد أن ما ورد هنا جزء من خطبته عليه السلام. على كل حال فإنَّ الخطبه ورغم قصرها تتناول موضوعين أحدهما؛ الشبهه والآخر الموت.

ج ج

ص: ٢٥٥

١- ١) نقل هذه الخطبه الامدى فى غررالحكم مع إختلاف طفيف وما ورد فى نهج البلاغه، ويفهم من هذا أن الامدى قد روى هذه الخطبه من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ١ / ٤٣٥).

«وَإِنَّمَا سُمِّيتِ الشُّبُهَةُ شُبُهَةً لِأَنَّهَا تُشَبِّهُ الحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فَضَرَّ يَأْوُهُمْ فِيهَا اليَقِينُ وَدَلِيلُهُمْ سَمَتُ الِهُدَى وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللَّهِ فَدَعَاؤُهُمْ فِيهَا الضَّلَالُ وَدَلِيلُهُمُ العَمَى، فَمَا يَنْجُو مِنَ المَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَلَا يُعْطَى البَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ» .

الشرح والتفسير

النجاه من الشبهه

يستفاد من بعض المصادر أنّ هذا الفصل من الخطبه يتعلق بقصه طلحه والزبير ومعركه الجمل؛ لأنهما خلقا شبهه لدى الناس ودعوهم لنكت البيعه والقيام ضد الحق. ومن عناصر تلك الشبهه زج زوج النبي صلى الله عليه وآله في تلك المعركه والمطالبه بدم عثمان وما شا كل ذلك. قد تحدث الإمام عليه السلام عن الشبهه قائلا: «وَإِنَّمَا سُمِّيتِ الشُّبُهَةُ شُبُهَةً لِأَنَّهَا تُشَبِّهُ الحَقَّ» ومن هنا كانت سببا لخداع السذج وذريعه بيد الشياطين للفرار من الحق. فالواقع أنّ الأمور التي تواجه الإنسان في حياته الفرديه والاجتماعيه لا تخرج عن ثلاث؛ فقد يكون الحق ظاهراً جلياً كأن نقول من يعمل الخير يحصد الخير ومن يعمل الشر يحصد الشر؛ أو يكون الباطل واضحاً، كأن نقول الفوضى وغياب القانون أفضل من النظام وسياده القانون، فمن البدهاه القول ببطلان هذا الأمر. غير أن هنالك بعض الحالات التي ليست من قبيل القسم الأول ولا الثاني، حيث يتلبس الباطل أحياناً بثوب الحق، أمر ظاهره حق وباطنه باطل، كتلك الأمور الجوفاء التي تمسك بها أصحاب الجمل وصفين من أجل إشعال نيران تلك المعارك. ويبدو أنّ هذه هي مشكله المجتمعات البشريه، وقد إتسعت في مجتمعاتنا المعاصره، حيث نرى أغلب الأهداف الباطله والسلطه الخيئه التي تلبست ثياب حقوق الإنسان والدفاع عن الحريه والديمقراطيه وحفظ القانون وإعاده السلام والاستقرار إلى المنطقه. ثم أشار عليه السلام إلى طرق النجاه من

ص: ٢٥٧

الشبهات التي يعتمدها أولياء الله «فأما أولياء الله فضيأؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت (١) الهدى». فالعبارة قد تكون إشاره لأحد أمرين: الأول أنّ أولياء الله الذين يؤمنون بالله والغيب إنّما يلوذون بالقرآن وكلمات أئمه العصمه لمواجهة ظلم الشبهات والخلاص منها بدافع من يقينهم بالوحي، وعليه فاليقين في العبارة هو الإيمان بالله ورسوله «وسمت الهدى» إشاره إلى هدى الوحي، كما قال القرآن «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَازِبٌ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» (٢). وقيل المراد باليقين الاستفاده من المقدمات القطعيه والأُمور اليقنيه التي من شأنها إناره الطريق والقضاء على الشبهه، وعبارة أخرى فإنّ أولياء الله الذين لا يكثرثون للأهواء ويحكمون العقل إنّما يسعهم في ظل هذا لعقل أن يجتازوا الشبهات ويهتدوا إلى السبيل، ولو كان للأهواء من سبيل إلى العقل لما وسع هذا الفرد تمييز الحق من الباطل إذا إلتبس عليه الأمر. والتفسيران لا يتعارضان، ويمكن الجمع بينهما في مفهوم العبارة المذكوره. قد يقال أنّ بعض الآيات والروايات قد اشتملت على المشتبه الذي يتضمن مختلف التفاسير، فما العمل في هذا الحاله؟ لقد أجاب القرآن الكريم صراحة عن هذا السؤال وذلك بالرجوع إلى الآيات المحكمه والروايات الصريحه التي تفسر تلك المتشابهه حتى يتمكن الفرد من اجتياز هذا الامتحان الإلهي بالآيات والروايات المتشابهه. والحياه الإنسانيه على غرار الآيات القرآنيه قد تنطوي على محكمات ومتشابهات، فقد ترى مثلاً حركه مرييه من أحد الأصدقاء تحتمل الوجهين في التفسير، وقد أرشدت مختلف الحوادث إلى نزاهته وعفته خلال كل هذه المسيره، فلا شك أنّ حسن السيره هذا من المحكمات وتلك الحركه المرييه من المتشابهات التي يمكن تفسيرها من خلال المحكمات. ثم تطرق الإمام عليه السلام لأعداء الله في كيفية التعامل مع الشبهات فقال: «وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى» فكل سبيل يتطلب دافعاً ودليلاً من أجل الحركه، وهنا يفترق الأفراد إلى أولياء الله وأعدائه، فليس لأولياء الله من دافع سوى اليقين بالله واليوم الآخر ودليل سوى الوحي والنبوه، بينما دافع أعداء ودليلهم الضلال وهوى

ص: ٢٥٨

١-١) سمت بمعنى الطريق أو الجاده، كما تطلق مشكل المحسنين، والتسميت هو الدعاء لمن يعطس حيث يسأل الله له السلامه، فالعطسه من علامات السلامه.

٢-٢) سورة البقره / ٢. [١]

النفس ووساوس شياطين الانس والجن وعمى البصر والبصيره. ومن هنا فإن الفلاح والسعاده فى الدنيا والآخره هى مصير الطائفه الأولى «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. . . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» (١) بينما ليس لأعداء الله سوى الظلمات «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» (٢). أمّا ما ورد فى خطبه الإمام عليه السلام فهو صادق على الحياه الفرديه وكذلك الحياه الاجتماعيه، بل إنَّ أبعاده لأعظم وأخطر فى الجانب الاجتماعى وقد تجسد النموذج الكامل لذلك فى الطائفه الثانيه (أعداء الله) من قبيل الفرق الثلاث التى خاضت معركة الجمل وصفين والنهروان من خلال الشبهات الواهيه والادله الجوفاء الأضعف من بيت العنكبوت لتهد لقتال الإمام عليه السلام وتوجه ضرباتها الماحقه لكيان الإسلام والمسلمين. جدير بالذكر ما أورده صحيح البخارى عن أبى بكره - أحد صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله - أنه قال سمعت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله نفعنى أيام الجمل، فقد كدت أن ألتحق بمعسكر أصحاب الجمل، حيث بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله أن طائفه من الإيرانيين قد ولوا عليهم بنت كسرى فقال صلى الله عليه وآله «لن يفلح قوم ولو أمرهم إمرأه». (٣)

تأثير الشبهه فى تعريف الحقائق

لو ظهر الباطل كما هو لما خفى على أحد، ولما قبله الوجدان والطبع السليم، ولا يستجيب له سوى مرضى القلوب ومنحرفى الأفكار إلّا أنّ المشكله تتعقد حين يتزين الباطل بلباس الحق، فيقبل عليه بعض طلاب الحق بعد أن يغترون بحسن ظاهره، وهذه فى الواقع إحدى شعب الشبهه. الشعبه الأخرى أن يمزج مقدار من الحق بمقدار من الباطل فتختفى صورته الباطل القبيحه فى ظل الحق. وأخيراً فقد يزيّف الباطل ويجمّل حتى يبدو بصوره حق دون أن

ص: ٢٥٩

١- ١) سوره يونس / ٦٢ - ٦٤. [١]

٢- ٢) سوره النور / ٤٠. [٢]

٣- ٣) صحيح البخارى ١٠ / ٦ باب كتاب النبى صلى الله عليه وآله إلى كسرى وقيصر.

يمتزج به. وقد حفل تأريخ البشريه بما لا يحصى من الفتن والويلات التى طالته من خلال الشبهات والوساوس الشيطانيه، حتى مارس الطغاه والمخادعون سلطتهم على الناس بواسطه تلك الشبهات. وأفضل نموذج على ذلك الممارك الثلاث المعروفه - الجمل وصفين والنهروان - التى أودت بحياه تلك الجماعه العظيمه من المسلمين وما ذلك إلا من خلال الشبهات التى إعتدتها أصحاب الباطل من أجل تحقيق أطماعهم ومآربهم؛ فالبكاء ليل نهار على قتل الخليفه المظلوم (عثمان) والطواف بقميصه الملطخ بالدم من أجل تعبئه الناس، حتى من قبل أولئك الذين ساهموا فى قتله وتلطخت أيديهم بدمه، ومن ثم الإتيان بأمر المؤمنين وركوبها الجمل و... كلها نماذج حيه من الشبهه. رفع المصاحف على أسنه الرماح وشعار التسليم الحكم القرآن والحيولوه دون إراقه دماء المسلمين هى الاخرى من شبهات معركه صفين. بل أبشع صورته للشبهه فى محاوله تحميل الإمام على عليه السلام مسؤوليه قتل عمار بن ياسر فى معركه صفين حيث إحتج الإمام عليه السلام بقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عمار تقتلك الفئة الباغيه»، فاحتج عليه بأنّ الفئة الباغيه من أتت بعمار إلى المعركه. أما أصحاب النهروان ممن كانوا يتظاهرون بصلاه الليل وقراءه القرآن التى لا تتجاوز تراقيهم، فقد رفعوا شعارهم المعروف «لا حكم إلا الله» وقد انطوت هذه الشبهه على فئه عظيمه من الناس والتى أدت فى الختام إلى قتلهم وخلودهم فى جهنم وبئس المصير. ويشهد عالمنا المعاصر اليوم أسوأ أنواع الشبهات، فما أكثر الشعارات البراقه الساحره، من قبيل شعار الحريه والديمقراطيه والمساواه وتفعيل حقوق الإنسان والحضاره والمدنيه وتطوير البشريه والتى ترتكب باسمها أعتى الجنايات وأقبح الجرائم. وسنسلط مزيداً من الضوء على هذا الموضوع حين نصل إلى الخطبه الاربعين والخمسين الوارده بهذا الشأن، كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذا الأمر فى الحكمه ١٩٨ من قصار كلماته فى نهج البلاغه.

عبيته الخوف من الموت

يرى أغلب شراح نهج البلاغه عدم وجود آيه رابطه لقوله عليه السلام: «فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه» وما ورد فى أول الخطبه، وأنّ السيد الرضى (ره) إنّما يلتقط

كلام الإمام عليه السلام من أكثر من خطبه. ولعلنا نستطيع تصور رباطه بين الفصلين من الخطبه وذلك أنّ الأفراد قد يستسلمون للشبهات خوفاً من الموت، فأشار عليه السلام إلى أنّ خوف الموت لا ينجي من الموت أبداً. على كل حال فإن هذا الفصل من الخطبه يشتمل على عبارتين تعالج كل منها قضيه الموت. فقد قال عليه السلام «فما ينجو من الموت من خافه»، بل إنّ هذا الخوف قد يكون من العناصر المقربه للموت. فالموت هو القلاده التي خطت على جيد ابن آدم وسائر الكائنات الحيه والقانون الذى لا يعرف الشواذ والاستثناء، فليس هنا لك من خلود سوى لله سبحانه. فجميع الكائنات محدوده وأنها ستنتهى لامحاله وتؤول إلى الفناء. وليس من بقاء سوى للذات الإلهيه المقدسه، وعليه فخوف الموت لن يغير من حقيقته شيئاً، كما أن السعى من أجل البقاء والحياه الخالده لن يكلل بالنجاح أبداً. ومن هنا قال الإمام عليه السلام فى العبارة الثانيه «ولا يعطى البقاء من أحبه». قد تطول مداه الحياه أو تقصر إلّا أنّها سائره للزوال فى خاتمه المطاف ومن الوهم الساذج والباطل التفكير بالبقاء والخلود. فقد صرح القرآن الكريم «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» وقال «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ». والعبيره هنا فى أن يستعد الإنسان للموت ويتزود له، فالموت لا- يعنى الفناء المطلق بقدر ما يعنى الانتقال من دار صغيره محدوده إلى أخرى كبيره واسعه تشتمل على مختلف النعم واللذائذ، وإذا أصلحنا عملنا فليس هنالك ما يدعو إلى الخوف من الموت.

ومن خطبه له عليه السلام

خطبها عند علمه بغزوه النعمان بن بشير، صاحب معاويه لعين التمر، وفيها يبدى عذره ويستنهض الناس لنصرته.

نظرة إلى الخطبه

أمر النعمان بن بشير مع عليّ ومالك بن كعب الأرحبيّ

وردت هذه الخطبه كما ذكرنا سابقا حين غزا النعمان بن بشير عين التمر الموضع المعروف في العراق.

وقد كان معاويه قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثه: أما من رجل أبعثُ به بجريده خيل؛ حتى يُغَيِّرَ علي شاطئ الفرات! فإنَّ الله يُرْعِبُ بها أهلَ العراق! فقال له النعمان: فابعثني؛ فإنَّ لي في قتالهم نيه وهوى - وكان النعمان عثمانياً: قال: فانتدب علي اسم الله، فانتدبَ وَنَدَبَ معه ألفى رَجُل، وأوصاه أن يتجنَّب المدن والجماعات، وألَّا يُغَيِّرَ إلَّا على مَسْلَحَه، وأن يعجِّل الرجوع.

فأقبلَ النعمانُ بن بشير؛ حتى دنا من عين التَّمَر، وبها مالك بن كعب الأرحبيّ الذي جرى له معه ما جرى، ومع مالك ألف رَجُل؛ وقد أذن لهم، فرجعوا إلى الكوفه، فلم يبق معه إلَّا مائه أو

ص: ٢٤٣

١ - ١) وردت هذه الخطبه في ثلاثه مصادر على الأقل قبل السيد الرضى وهى: الغارات لابراهيم بن هلال الثقفى (٢٨٣) وأنساب الاشراف للبلاذرى الذى أورد بعضها وتأريخ الطبرى الذى روى بعض أقسامها، وكذلك مصادر نهج البلاغه ١ / ٤٣٨.

نحوها، فكتب مالك إلى عليّ عليه السلام: أما بعد؛ فإنّ النعمان بن بشير، قد نزل بي في جمع كَثيف، فَرَأَيْكَ، سدّدك الله تعالى وثبتك. والسلام. فوصل الكتابُ إلى عليّ عليه السلام؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

اخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم، فإنّ النعمان بن بشير قد نزل به في جمع من أهل الشام؛ ليس بالكثير، فانهضوا إلى إخوانكم، لعلّ الله يقطع بكم من الكافرين طَرَفًا. ثم نزل.

فلم يخرجوا، فأرسل إلى وُجُوهم وكُبرائهم، فأمرهم أن ينهضوا ويحثوا الناس على المسير، فلم يصنعوا شيئاً، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أو دونها، فقام عليه السلام، فخطب الخطبه. (١)

ص: ٢٤٤

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١/٤٣٧. [١]

«مَنِتَّ بِمَنْ لَّا - يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا - يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لَّا - أَبَالُكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِ رَبِّكُمْ؟ أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ وَلَا - حَمِيَّةَ تُحْمِسُكُمْ؟ أَقَوْمٌ فِيكُمْ مُسْتَضِيرٌ خَاً وَأُنَادِيكُمْ مُنْغَوِّثًا، فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا، وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمْرًا، حَتَّى تَكْشِفَ الْأُمُورَ عَنِّي عَوَاقِبِ الْمَسَاءِ، فَمَا يُدْرِكُ بِكُمْ ثَارٌ، وَلَا يُبَلِّغُ بِكُمْ مَرَامٌ» .

الشرح والتفسير

أشرنا سابقاً إلى أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين بعث معاويه النعمان بن بشير ليرعب إحدى مناطق العراق ويضعف معنويات أهلها، فدعا الإمام عليه السلام الناس لقتالهم، غير أن عجز أهل العراق وضعفهم جعلهم يردون بالسلب على دعوته الإمام عليه السلام، فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه لغرضين: الأول: تحميل أهل العراق المسؤولية التامه للمصائب والويلات التي تعرض لها البلاد بفعل هذا الضعف والذلة تجاه العدو، الثاني: لعل هذه الكلمات تؤثر في تلك الأرواح الهامده فتلتفت إلى عظم الأخطار التي كانت تترصد بها فتهم بموا جبتها. فقد قال عليه السلام: «منيت بمن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت» فمن الطبيعي أن أعظم القاده والأمرء وأشجعهم لا يسعهم فعل شيء إذا ما ابتلوا بمثل هؤلاء الأفراد، وما من فشل أو هزيمة تصيبهم إلا ويتحملون مسؤوليتها كامله. ثم قال عليه السلام: «لا أبا لكم: ما تنظرون بنصركم ربكم؟» إن جميع الظروف متوفره لديكم من أجل القتال، فعندكم العده والعدد، كما تعلمون مؤامرات عدوكم وقد أحرق الخطر بكم، فماذا تنتظرون؟ أتتطلعون لقتلكم بهذه الذله والهوان؟ وقد

أشرنا سابقاً إلى أن قوله عليه السلام: «لا أبا لكم» إما يفيد عدم تربيتهم التربيـه الأسريـه الإسلاميـه الصحيحه بحيث يبدون كل هذا الضعف والعجز، أو أنه دعاء عليهم بان يميت الله آبائهم، وهو الآخر كناية عن الذله والهوان الذي يستشعره الإنسان لفقد والده. ثم قال عليه السلام: «أما دين يجمعكم ولا حميه تحمشمكم» (١)؟ فالواقع من شأن أى من هذين الأمرين دواء دائهم، فالدين حلقة إتصال يمكنها إستقطاب الفئات والطوائف المختلفه حول هدف مركزى واحد، فاذا غاب الدين الذى يجمعهم، فإنّ الغيره الاجتماعيه وحبّ الاهل والوطن إنّما تسوقهم للاتحاد أمام العدو ومواجهته، غير أنّ المؤسف له هو أنّ أهل العراق آنذاك قد فقدوا هذين الدافعين، فلم يكن دينهم محكماً راسخاً، كما لم تكن لهم حميه تجعلهم يغضبون ويواجهون العدو. ولا شك أن مثل هؤلاء القوم يعتبرون عقبه كؤوداً فى طريق الحاكم. ومن هنا خاطبهم الإمام عليه السلام مصوراً حجم ضعفهم والذل الذى سيطر عليهم «أريد أن أداوى بكم وانتم دائى كناقش الشوكه بالشوكه». (٢)

ومن هنا قال عليه السلام: «أقوم فيكم مستصرخاً (٣) وأناديكم متغوّثاً، (٤) فلا تسمعون لى قولاً، ولا تطيعون لى أمراً، حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءه» (٥) فهل هناك أعظم من هذه المأساه، فى أن يبتلى مثل هذا الإمام عليه السلام الشجاع العالم العادل المجرب بمثل هؤلاء القوم الذين لا يكثرثون لصراخه ولا يطيعون أوامره. ويفيد التأريخ أنّ هذا الأمر لم يقتصر على أمير المؤمنين عليه السلام وقد مارست الأمه نفس هذا الموقف مع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام فقد وقعت حادثه كربلاء ليقتل الإمام وصحبه بتلك الشاعه، آنذاك ندم أهل الكوفه وهبوا للمطالبه بدم الحسين عليه السلام ولكن بعد أن وقع ما لم يكن ينبغى أن يقع، فقد تخلوا آنذاك عن دعم

ص: ٢٦٦

- ١- ١) «تحمش» من ماده «حمش»، قال صاحب المقاييس لها معنيين الغضب والنحافه، وقد وردت هنا بمعنى الغضب؛ أى أليس لكم حميه تغضبكم على عدوكم.
- ٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢١. [١]
- ٣- ٣) «مستصرخ» من ماده «صرخ»، الصراخ حين الخوف أو المصاب وطلب النصره.
- ٤- ٤) «متغوّث» من ماده «غوّث» بمعنى النصره حين الشده، وعليه يطلق المتغوّث على من يطلب نصره الآخرين عند الشدائد.
- ٥- ٥) «المساءه» مصدر ماده «سوء»، بمعنى فقد ان النعم الماديه أو المعنويه الدنيويه أو الاخروييه، البدنيه أو غير البدنيه.

سفير الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل ونكثوا بيعته ولزموا بيوتهم، فبقى مسلم وحده يقاتل الأعداء حتى استشهد. وأخيراً
خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة «فما يدرك بكم ثار، ولا يبلغ بكم مرام» .

ص: ٢٦٧

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَزَجَرْتُمْ جَرْجَرَهُ (١) الْجَمَلِ الْأَسْرَّ (٢) وَتَنَاقَلْتُمْ تَنَاقُلَ النَّضْوِ (٣) الْأَدْبِرِ (٤) ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ (٥) مُتَذَائِبٌ (٦) ضَعِيفٌ «كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام ذمه لأهل الكوفه على ما أبدوه من ضعف وعجز تجاه الهجمات المبرمجه للعدو فقال عليه السلام: «دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجررتهم جرجره الجمل الأسر، وتناقلتم تناقل النضو الادبر» أي أنكم أعريتم عن عجزكم في الكلام كما فعلتم ما يفشلكم في الدنيا والآخرة ويمكن العدو من تكبيدكم الخسائر في أموالكم وأرواحكم، فقد دعوتكم لنصر إخوانكم (مالك بن كعب وصحبه ممن تعرضوا لغارات اهل الشام في منطقه عين التمر) فكانت حركتكم كحركة الجمل وتناقل النضو الادبر «دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجررتهم

ص: ٢٦٩

- ١-١) «جرجره» صوت يردده البعير في حنجرتة عند عسفه، وقيل من ماده «الجرر» بمعنى الجر، واطلق الجرر لتكراره.
- ٢-٢) «أسر» من ماده «سرر» المصاب بداء السرر، وهو مرض في كركره البعير أي زوره ينشأ من الدبره والقرحه.
- ٣-٣) «النضو» المهزول من الابل، والأدبر المدبور، أي المجروح المصاب بالدبره، وهي العقر والجرح من القتب ونحوه.
- ٤-٤) «أدبر» من ماده «دبر» بمعنى الجرح الذي يتعرض له الحيوان إثر ضغط السراج.
- ٥-٥) جنيد مصغر جند.
- ٦-٦) «متذائب» بمعنى مضطرب، من قولهم تذاءبت الريح أي اضطرب هبوها ومنه سمى الذئب ذئباً لا اضطراب مشيته.

جرجره الجمل الأسر، وتشاقتم تناقل النضو الأدبر» ولعل تشبيهم بالحيوانات المريضة إشاره إلى ضعفهم الفكري وعجزهم في إتخاذ القرار، لأنّ الإنسان العاقل لا يدع العدو يهجم عليه بهذه الطريقة بحيث يضرب أينما شاء دون وازع أو رادع. ثم أشار عليه السلام إلى تلك الفئه القليله التي لبت دعوته، بينما كان الخوف والهلع يسيطر عليهم «ثم خرج إلى منكم جنيد متذائب ضعيف كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون». وقد أورد السيد الرضى (ره) في آخر الخطبه قائلاً: قوله عليه السلام متذائب؛ أى مضطرب، من قولهم: تذائبت الريح، أى اضطراب هبوبها. ومنه سمى الذئب ذئباً، لاضطراب مشيته. ومن هنا فإنّ هذه الفئه القليله لم تكن مصداقاً لقوله سبحانه «كم من فئه قليله غلبت فئه كثيره» بل كانت فئه ضعيفه قلقه مضطربه كأنهم يساقون إلى المذبح وهم ينظرون إلى موتهم، فهى فئه عدمها خير من وجودها والثوق بها مخجل، فما أعظم محنته الإمام عليه السلام وابتلائه بهؤلاء القوم طبعاً قوله عليه السلام كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. إنّما اقتبسه عليه السلام من الآيه السادسه من سوره الانفال التي وردت بشأن بعض المؤمنين الضعفاء على عهد النبي صلى الله عليه وآله الذين كانوا يتشبثون بمختلف الذرائع والحجج للفرار من الجهاد إلى جانب جدالهم للنبي صلى الله عليه وآله حول موقعه بدر، غير أنّ حوادث بدر أثبتت لا حقاً مدى خطأهم وتزايد خوفهم عبثاً حتى إنتهت الموقعه بالنصر المؤزر للمسلمين، والعجيب أنّ هؤلاء كانوا من المعترضين على كيفية توزيع الغنائم بعد انتهاء المعركه. ولعل المراد بالعباره أن هذه الفئه القليله لو كانت تمتلك العزم الراسخ والقوه والصلابه من شأنها الانتصار على العدو، غير أن المؤسف...

عاقبه الضعف أمام العدو

رغم أن التعاليم الإسلاميه تستند إلى ارساء قواعد السلام مع كافه الأمم والشعوب - باستثناء تلك الحالات التي يشهر فيها السلاح ضد الإسلام والمسلمين - إلّا أنّها توصى بالشده والصلابه فى بعض الحالات الطارئه، ونموذج ذلك ما ورد فى هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه بشأن العتاه المرده من أهل الشام من جيش معاويه. فقد كان معاويه يستغل الفرص من أجل إضعاف أهل العراق وزعزعه روحياتهم، فقد كان يجهز بعض الجماعات

ويعبئها لشن غاراتها على بعض المناطق الإسلاميه فتتشر فيها الذعر والخراب والدمار وتذبح من فيها دون الإكتراث للشيوخ والنساء والصبيان إلى جانب نهب الأموال والثروات وقد تكررت مثل هذه الحادته لأكثر من مره على عهد الإمام عليه السلام، فكان الإمام عليه السلام يستصرخ أهل الكوفه لمواجهه هذه الأخطار فكانوا يردون عليه بكل ضعف وفتور وكأنهم لم يعلموا بما يجرى حولهم وقد غطوا في نوم عميق: الأمر الذي جعل إعتداءات أهل شام تتصاعد يوماً بعد آخر، حتى أصبح العراق بعيد شهاده الإمام عليه السلام لقمه سائغه لمعاويه ورهطه بحيث لم يتمكن الإمام الحسن عليه السلام من الوقوف بوجه ذلك الظالم، ولا عجب في الأمر فلم تكن لديه القوه الكافيه من الأفراد التي يستطيع بواسطتها قتال معاويه. ونلمس اليوم هذه الحقيقه بوضوح في عالمنا المعاصر، وإذا لم نلتفت إلى تحرشات العدو وتقبرها في المهدي فأنها ستتسع شيئاً فشيئاً، آنذاك لم يمكن مواجهه والصمود. وعليه فلا بد من الانتباه إلى أدنى حركه عسكريه أو إعلاميه أو إقتصاديّه والتعامل معها فوراً بمنتهى الصلابه ليضطر العدو للدفاع بدلاً من الهجوم. فعاده ما تحاول العناصر الضعيفه التي تميل إلى الدعه والراحه لحمل مثل هذه الحركات على البراءه بعيد عن حملها محمل الجد وإساءه الظن بها، والحال أنها إنما تبدر من العدو الذي لا ينبغي الغفله عن إتهامه ريثما تتكشف الحقائق. ونختتم البحث بالعبارات الوارده في خطبه الجهاد حيث قال عليه السلام: «ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وأعلاناً وقلت لكم: إغزوهم قبل أن يغزوكم: فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلّا ذلوا». (1)

سؤال

لعل هنالك من يتساءل لم كل هذه الشده من الإمام عليه السلام مع أصحابه ومخاطبتهم بهذه اللكمات وتحقيرهم إلى هذا الحد، أفليس من الأفضل أن يرفق بهم ويتلطف معهم؟

الجواب: بينا الإجابة على ذلك كراراً في الخطب السابقه، وقلنا أنّ ذلك يمثل آخر الدواء، وكأنه عمليه لاستئصال مرض عضال.

ص: ٢٧١

ومن كلام له عليه السلام

فى الخوارج لما سمع قولهم: «لا حكم الا الله»

نظره إلى الخطبه

خطبها عليه السلام بعد موقعه صفيين حين إعترض عليه الخوارج بقبول التحكيم وانتخاب ممثلين أحدهما من أصحاب الإمام والآخر من أصحاب معاويه لهذا الأمر ليحكما بشأن عاقبه موقعه صفيين وخلافه المسلمين، بينما يصرح القران «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» (١) فاقتبسوا من الآيه قولهم «لا حكم إلا لله» ليحتجوا بها على الإمام عليه السلام، وبالطبع فان هنالك مغالطه كبرى وقعوا فيها ولم يدركوا حقيقه الامر. فلما سمع الإمام عليه السلام هذا الشعار، رد بهذه الخطبه وأشار فيها إلى أربعة أمور:

الأول: كشف النقاب عن مغالطتهم فى هذا الشعار، وأنّ القول «لا حكم إلا لله» كلمه حق يريدون بها باطلاً.

الثانى: حاجه الأئمه إلى الحاكم، وبعبارة أخرى ضروره الحكومه.

الثالث: شرح وظائف الحاكم العادل وايجازها فى سبع.

الرابع: نتيجته وجود الحكومه العادله.

وقد نقل المرحوم السيد الرضى (ره) آخر هذه الخطبه نفس هذا المضمون طبق روايه أخرى بعبارات أقصر.

ص: ٢٧٣

«قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَلِمَةٌ حَقٌّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ إِلَّا لِلَّهِ، وَإِنَّهُ لَا يُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتَعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبْلَغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ.»

فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَمِعَ تَحْكِيمَهُمْ قَالَ: حُكْمَ اللَّهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ. وَقَالَ: أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ، وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ، إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وَتُدْرِكَهُ مَيِّتُهُ.»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى الشعار الذي رفعه الخوارج «لاحكم إلّا لله» بقوله «كلمه حق يراد بها باطل» ثم بين عليه السلام بطلان ما أراه الخوارج من تحريفهم لهذا الكلام الحق بقوله «نعم إنه لاحكم إلّا لله ولكن هؤلاء يقولون: لا إمره إلّا لله» خطأ الخوارج في هذا الشعار الحق الذي إقتبسوه من القرآن أنهم أرادوا به أن الحكومه بين الناس لله، ومن هنا فقد إعترضوا على مسأله التحكيم ورأوها نوعاً من الشرك، وذلك لأنها منحت الحكومه لغير الله من الأفراد! فمن البديهي أن يكون الحاكم بين الناس هو الله إذا كان الحكم مقتصراً على الله، وعليه لا بدّ من إزاله أصل الحكومه، كما وعليه من إزاله القضاء والمحاكم بالتبع فهي من قبيل الحكومه التي يمارسها الأفراد. لقد خيل لتلك الفئه أنها تريد أن تعيش توحيد الله على مستوى الحاكميه والتخلص من الشرك في هذا المجال، إلّا أنهم إثر جهلهم وتعصبهم سقطوا في مستنقع الفوضى والهرج والمرج ورفض الحكومه في أوساط المجتمعات البشريه، واصيبوا بالهلوسه التي

جعلتهم يعتقدون بأن رعايه التوحيد تتطلب نفى كافه ألوان الحكومه والامر، غير أنهم سرعان ما وقفوا على بطلان مذهبهم فى الحكومه لما شعروا بحاجتهم إلى من يتزعمهم ويحكم بينهم، رغم عنادهم الذى أفرزه جهلهم والذى لم يدعهم يفتقون إلى أنفسهم. مع ذلك فقد قضت كلمات الإمام عليه السلام مضاجعهم واستطاعت أن تفعل فعلها فى ميدان القتال فجعلت الكثير منهم يعودون إلى رشدهم فعلنوا توبتهم بعد أن وقفوا على عمق إنحرافهم، على كل حال فإن الإمام عليه السلام يؤكد فى هذه الخطبه أن الحاكم والمشرع الاصلى هو الله سبحانه؛ حتى الحكم بين الناس لابد أن يستند إلى تخويل منه، إلا أن هذا لا يعنى أن الله ينبغى أن يحضر بنفسه فى المحاكم ليقضى ويحكم بين الناس، أو أن يأخذ بزمام الأمور فيمارس وظيفته كرئيس للبلاد أو والياً وعاملاً على منطقته، أو أن يوكل هذه المهمه إلى الملائكه فيبعثهم إلى الأرض. فهذا كلام عبثى ولغو فارغ لا يرتضيه من كان له أدنى فهم وإدراك، إلا أن المؤسف هو أن هذه الفكره كانت متأصله فى أفكار الخوارج، ومن هنا خالفوا أمير المؤمنين عليه السلام واعترضوا عليه: لم قبلت التحكيم؟! وصرح بعض شراح نهج البلاغه بأن الخوارج يزعمون أن الحكم يتطلب الاذن الإلهى ولا بد أن يصرح القرآن بهذا الأمر، بينما لم يأذن القرآن لأحد. ولعل هذا هو الذى دفع بعض الاعلام (١) لأن يستدلون على نفى عقيدته الخوارج بالآيه القرآنيه الشريفه الوارده بشأن الحكم فى الاختلافات العائليه «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا» (٢). فاذا كانت هذه المسأله الصغيره تحتاج إلى الحكم فما ظنك بالمسائل المهمه التى يدعو الاختلاف فيها إلى تفشى الهرج والمرج فى صفوف المجتمع، أفلا ينبغى فصل هذه الاختلافات وحلها عن طريق الحكم؟! ومن هنا يرى البعض أن الإمام عليه السلام لم يكن مخالفاً لمسأله التحكيم فى بعض الحالات، إلا أنه لم يكن يوافق شخص الحكيمين وكان يعترض عليهما بشده.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى ضروره تشكيل الحكومه، لأن الخوارج. كما أشرنا سابقاً - لم

ص: ٢٧٤

١ - ١) العلامه الخوئى ٤ / ١٨٣ من شرح نهج البلاغه قد أشار إلى هذا المعنى، ويستفاد من التأريخ الكامل لابن أثير أن ابن

عباس احتج على الخوارج بهذه الآيه (الكامل ٣ / ٣٢٧). [١]

٢ - ٢) سوره النساء / ٣٥. [٢]

يخالفوا مسأله التحكيم فى صفتين فحسب، بل شككوا فى أصل الحكومه وزعموا عدم الحاجه إلى الحاكم، إلّا أنّهم رجعوا عن ذلك لما أمروا عليهم عبدالله بن وهب الراسبي (١). ثم علل الإمام عليه السلام ضروره تشكيل الحكومه والحاكم «وإنّه لا بدّ للناس من أمير بر أو فاجر» ليذكر سبعة فوائد تترتب على قيام الحكومه بعضها يتصل بالجانب المعنوى والبعض الآخر بالجانب المادى وهى: أولاً: «يعمل فى إمرته (٢) المؤمن». (٣)

ثانياً: «ويستمتع فيها الكافر»، ثالثاً: «ويبلغ الله فيها الاجل»، رابعاً: «ويجمع به الفئى»، خامساً: «ويقاتل به العدو» سادساً: «وتأمن به السبل» سابعاً: «ويؤخذ به للضعيف من القوى». ثم تفضى هذه الوظائف السبع إلى هذه النتيجة النهائيه المترتبه على الحكومه «حتى يستريح بر ويستراح من فاجر». ويدل التاريخ السياسى أنّ فئه قليله جداً فى الماضى وحتى فى الوقت الراهن هى التى لاترى ضروره تشكيل الحكومه - مستدله ببعض الأدله الجوفاء التى سنشير لها فى البحث القادم - والخوارج مصداق لهذه الفئه. وقد رد التاريخ بصراحه على هذه الفكره الساذجه فقد رأينا بأمر أعيننا وسمعنا بملئ آذاننا مدى الأخطار الجسام التى يواجهها المجتمع إبان إنهيار الحكومه ولو لساعات من قبيل قتل الأنفس وإراقه الدماء وعمليات السرقة والسلب والنهب التى تتعرض لها المؤسسات بل حتى بيوت الناس وانتهاك الاعراض والنواميس وانعدام الامن والاستقرار وسياده الفوضى والهرج والمرج الاضطراب وشل حركه كافه النشاطات الاجتماعيه؛ كما تصبح البلاد لقمه سائغه للاعداء الذين يعيشون فى الأرض فساداً فلا يسلم المؤمن من شرهم ولا الكافر فتهضم جميع الحقوق ويعيش الناس الخوف والذعر فمما لاشك فيه أن الف باء الحياه إنّما يكمن فى إستتباب الأمن والنظام، ثم وجود العناصر المقتدره التى تقف كالطود الشامخ بوجه العدو الخارجى وعملائه فى الداخل، ولا يتيسر مثل هذا الأمر إلّا فى ظل الحكومه. وهنا يبرز هذا السؤال: هل يسع الحاكم الفاجر أن يقوم بالوظائف السبع الماره الذكر التى يقوم بها الحاكم البر والعادل؟ فقد

ص: ٢٧٧

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ٣٠٨. [١]

٢-٢) «إمره» على وزن عبره مصدر أو إسم مصدر من ماده «أمر»، و «الامر» هنا بمعنى الحكومه.

٣-٣) واضح ان الضمير فى إمرته يعود إلى مطلق الامير سواء البر أو الفاجر وكذلك ضمير فيها، وليس صحيح ما اورده بعض شراح نهج البلاغه من أنّ الأول يعود إلى البر والثانى إلى الفاجر، أو كلاهما للفاجر.

ذكرها الإمام عليه السلام لكليهما، بحيث يقوم كل منهما بهذه الوظائف. وللإجابة على هذا السؤال لابد من الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن الحاكم البر إنما يقوم قطعاً بمثل هذه الوظائف، إلا أنها ليست كذلك بالنسبة للفاجر بصورة مطلقه نعم يمارسها بصورة نسبية، فهو مضطر لاستمرار حكومته أن يراعى النظام، ويقف بوجه العدو الخارجى ويحول نسبياً دون ظلم الظلمه، وان كان فى حد ذاته ظالماً؛ والأفان الناس ستخرج عليه وتترزل دعاتم حكومته فيطيح به الأعداء، ومن هنا فإن أغلب الحكومات مهما كان تتسعى فهي جاهده للقيام بتلك الوظائف المذكوره. ونخلص ممّا سبق أنّ أيه حكومه تتساهل فى الوظائف المذكوره إنّما تكون قد مهدت السبيل إلى تصدع كيانها وإنهارها. السؤال الآخر هو أنّ الإمام عليه السلام قد فرق بين المؤمن والكافر. فقال عليه السلام بشأن المؤمن «يعمل» والكافر (يستمتع) فما عله ذلك؟ والجواب هو أنّ المؤمن لا يهدف فى حياته إلى الاستفاده من الامكانيات المتاحة من أجل التمتع العابر، بل هدفه الأسمى الفوز برضى الله، وما إستفادته من متع الدنيا إلا بالتبع وكونها مطلوباً ثانوياً، وليس الحال كذلك بالنسبه للكافر، فهو ليس فقط لا ينشد رضى الله، بل يقصر همه على هذه الحياه الدنيا ليتمتع فيها وإن كان ذلك من خلال الحرام والطرق اللامشروعه، ومن هنا صرح الإمام عليه السلام بأنّ الحكومه ضروره للطرفين المؤمن والكافر، يعمل فيها هذا ويتمتع فيها ذاك، ولولا الحكومه لما وسع المؤمن العمل ولا الكافر الاستقرار والتمتع.

ج ج

قال السيد الرضى (ره) فى ذيل هذه الخطبه، وفى روايه أخرى أنّ الإمام عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال: «حكم الله أنتظر فيكم» فالعباره يمكن أن تكون إقتباساً من كلامهم للرد عليهم فأنتم تقولون الحكم لله، وأنا أنتظر هذا الحكم فيكم، فأنه سيحكم فيكم بالعقاب الشديد لهذه اللجاجه والجهل وتفريق صفوف المؤمنين. أو أنى انتظر اتمام الحججه عليكم فمن بقى على جهله وتعصبه أجريت عليه حكم الله. ثم أضاف السيد الرضى (ره) - على ضوء هذه الروايه - وقال عليه السلام «أما الامر البره فيعمل فيها التقى، وأما الامر الفاجر فيتمتع فيها الشقى، إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته». ولكن بالاستناد إلى مفهوم هذه العبارة فى أن الفجار يحرمون من التمتع المباح فى حكومه البر، ولا يستشعر المؤمنون الاستقرار والسكنيه فى

ص: ٢٧٨

ظل حكومه الفاجر (وهذا يتناقض وهدف الخطبه فى أنّ الحكومه ضروره بره كانت أم فاجره) يبدو أنّ الروايه الاولى أصح وأنسب وأدق.

هذا وقد ورد فى شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ما يوضح العبارة المذكوره «حكم الله أنتظر فيكم»: لما رجع على عليه السلام من صفين إلى الكوفه، أقام الخوارج حتى جموا (جموا بمعنى إستراحوا وكثروا) ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفه تسمى حروراء، فنادوا: لا حكم إلّا لله ولو كره المشركون: ألا أنّ علياً ومعاويه أشركا فى حكم الله. فدخل واحد منهم على على عليه السلام بالمسجد، والناس حوله، فصاح: لا حكم إلّا لله ولو كره المشركون، فتلفت الناس فنادى: لا حكم إلّا لله ولو كره المتلفتون، فرفع على عليه السلام رأسه إليه. فقال: لا- حكم إلّا لله ولو كره أبو حسن. فقال على عليه السلام: إنّ أبالحسن لا يكره أن يكون الحكم لله، ثم قال: حكم الله أنتظر فيكم. فقال له الناس: هلا ملت يا أمير المؤمنين على هؤلاء فأفنيتمهم! فقال: إنهم لا يفنون، إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة. (1)

تأملان

١ - بلاء التحريف

لم يقتصر تأويل الحقائق وتحريف الآيات القرآنيه على الخوارج بغيه الوصول إلى مآربهم وأهدافهم المشبوهه، بل إذا تصفحنا تأريخ البشريه لوجدنا قضيه تحريف الحقائق من الحراب والوسائل الفعاله التى إعتمدها الظلمه والطواغيت على مر العصور. فقد مارس هؤلاء أبشع تحريف لكلام الله وكلام الأنبياء والأولياء وفسروها حسب أهوائهم وهم ينشدون هدفين: الهدف الأول خداع الناس والآخر خداع أنفسهم. وما قضيه النمروود مع نبي الله إبراهيم عليه السلام وفرعون مع موسى عليه السلام والتي تطرقت لها أغلب الآيات القرآنيه فى سوره البقره وطه وسائر السور منك ببعيد فقد كانوا يقولون كلمات حق ولا يريدون بها سوى الباطل من أجل خداع من حولهم والتغريب بهم. ونشاهد اليوم أبشع صور هذا التحريف وكلمات الحق التى يراد بها

ص: ٢٧٩

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ٣١٠. [١]

الباطل من قبيل كلماتهم فى الحريره والديمقراطيه والكرامه الإنسانيه وحقوق الإنسان والثقافه والحضاره والمدنيه ومكافحه الارهاب وما إلى ذلك من الشعارات التى تقلق بها ألسنه الطواغيت والجبابره، ولا يريدون بها سوى الباطل، بل هنالك منافسه كبرى بين هؤلاء الطغاه فى إنتخاب الشعارات البراقه الأكثر تأثيراً وخداعاً من أجل نيل أهدافهم المشؤومه. ومن هنا تشتد وظيفه العلماء الاعلام فى ضروره تنبيه الأُمّه إلى عظم الأخطار المحدقه وضروره التحلى باليقظه والوعى وعدم الانزلاق وراء هذه الشعارات الزائفه ليرفعوا من مستوى الأُمّه الثقافى فلا تنطلى عليها خدع الاستكبار والأعبيه.

٢ - ضروره تشكيل الحكومه

إشاره

إنّ مسأله تشكيل الحكومه تعد من المسائل التى كثر الحديث فيها الأوساط العمليه على المستوى النظرى دون أن يتسرب الشك إليها على المستوى العملى قط. فقد شهدت البشريه طيله التاريخ قيام الحكومه سواء كانت قبيله يتزعمها رئيس القبيله أو هذه الحكومات الطبيعه التى يترأسها الملك والسلطان والحاكم، حتى تجلت اليوم بهذا الشكل الجماهيرى فأصبح يقودها رئيس الجمهوريه، ولا- يحتاج قيامها إلى دليل فالمجتمع مهما كان حجمه إنّما يحتاج إلى الأمن والاستقرار ورعايه الحقوق والحيلوله دون نشوب النزاعات والخلافات، ولا تيسر مثل هذه الأمور إلّافى ظل الحكومه ووجود الحاكم. وقد أتضح هذه المسأله اليوم أكثر فى المجتمعات المعاصره، فهنالك الفعاليات والأنشطه الثقافيه والاقتصاديه والسياسيه التى لا يكتب لها النجاح لولا الاشراف المباشر من قبل الحكومه، بل الحكومه هى تبلور هذه الأنشطه أن تركت ممارستها وتنفيذها لأبناء المجتمع، إلّالأن هنالك بعض الأفراد والنزعات فى الماضى والحاضر التى تتبنى شعار غياب الحكومه وعدم الحاجه إليها وأنّ الشعب قادر على إداره شؤونه دون قيام الدوله، بل ذهب الماركسيون أبعد من ذلك ليصرحوا بأنّ فلسفه قيام الدوله إنّما تنبع من فكره حفظ المصالح الطبقيه! والرأسماليون هم الذين ينهضون بهذه المهمه، فاذا ما أزيلت الفوارق الطبقيه فإنّ فلسفه تشكيل الحكومه ستنتفى ولا تعد هناك ضروره لقيامها، إلّالأنّ الماركسيه وسائر النزعات عجزت حتى الآن عن طرح

نموذجها العملى فى الميدان؛ الأمر الذى يؤكد خواء هذه النزعات وإقتصارها على الجوانب النظرية، لقد تناسى أصحاب هذه النظريات أنّ وظيفه الدولة والحكومته - ولو سلنا لما ذكره - لا تقتصر على حفظ المصالح الطبقيه، بل هنا لك سلسله من البرامج الاجتماعيه والمشاريع والمخططات المرتبطه بكافه الأفراد فى جميع المجالات والتي تنهض بعينها الدولة. فالتربيه والتعليم ضروريه لجميع الطبقات، فهل يمكن القيام بهذه الوظيفه دون برمجته وإختيار من ينهض بمسؤوليه هذا العمل؟ الأمور الاقتصاديه فى المجتمع فى القطاع الزراعى والصناعى والتجارى والتي يتطلب كل حقل منها تخطيط شامل وكامل وتحتاج إلى إداره صحيحه ووزير، قطاع الصحه المرتبط بكافه أبناء الشعب والذى يحتاج بدوره إلى مشاريع وبرامج تخصصيه وإشراف تام، فهل يمكن قيام مثل هذه الأمور فى حاله غياب الدوله ناهيك عن النزاعات والخصومات والحاجه إلى البت فى الدعاوى من قبيل الجهاز القضائى والمحاكم، وكل هذه الأمور هى الاخرى لا تحقق إلأى ظل تشكيل الحكومه، والتي تقوم برئيس الوزراء أو رئيس الجمهوريه وما شابه ذلك. ومن هنا كانت الأمم والشعوب رغم اختلاف أفكارها وعقائدها، إلأأنها تتبنى نوعاً من أنواع الحكومه. وهذا هو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى الخطبه كما تطرق إلى ذكر الوظائف الملقاه على عاتق الحاكم، كما قال فى موضع آخر بهذا الشأن «سلطان ظلوم خير من فتنه تدوم» (١) حيث أشرنا سابقاً إلى أنّ الحكومات مهما كانت ظالمه متجبره الا أنها تسعى لأن تراعى جانب الأمن والعدل وما إلى ذلك، مع العلم أنّها قد تظلم إلأأنها على الأقل لا تدع الآخرين يمارسون الظلم، فالحكومته عادله كانت أم ظالمه لن تدوم فى ظل الفوضى والاضطراب، وأنها تؤول لا محاله إلى السقوط الانهيار، ومن هنا فإن كافه الحكومات تسعى للحيوله دون الهرج والمرج وتقدم مشاريعها من أجل البناء والعمران، ولعل هذا المعنى يتجسد فى ما أشار إليه الحديث المعروف «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم» .

ص: ٢٨١

قال ابن أبي الحديد فى تعليقه على هذه الخطبه: هذا نص صريح منه عليه السلام بانّ الإمامه واجبه وقد اختلف الناس فى هذه المسأله فقال المتكلمون: كلمه الإمامه واجبه؛ إلأما يحكى عن أبى بكر الأصم من قدماء أصحابنا أنّها غير واجبه؛ إذا تناصفت الأئمّه؛ ولم تتظالم.

وقال المتأخرون من أصحابنا: إنّ هذا القول منه غير مخالف لما عليه الأئمّه؛ لأنه إذا كان لا يجوز فى العاده أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس يحكم بينهم؛ فقد قال بوجود الرئاسه على كلّ حال؛ اللهم إلأ أن يقول: إنّه يجوز أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس؛ وهذا بعيد أن يقوله: فأما طريق وجوب الإمامه ما هى؟ فإن مشايخنا البصريين رحمهم الله يقولون طريق وجوبها الشرع، وليس فى العقل ما يدل على وجوبها.

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين، وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى: إنّ العقل يدل على وجوب الرئاسه؛ وهو قول الإماميه، إلأ أنّ الوجه الذى منه يوجب أصحابنا الرئاسه غير الوجه الذى توجب الإماميه منه الرئاسه، وذاك أنّ أصحابنا يوجبون الرئاسه على المكلفين، من حيث كان فى الرئاسه مصالح دنيويه، ودفع مضارّ دنيويه. والإماميه يوجبون الرئاسه على الله تعالى، من حيث كان فى الرئاسه لطف وبعث للمكلفين عن مواقعه القبائح العقلية.

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابق ما يقوله أصحابنا، ألا تراه كيف علل قوله: «لا بدّ للناس من أمير»، فقال فى تعليقه: يُجمع به الفىء، ويقا تل به العدو وتؤمن به السبل، ويؤخذ للضعيف من القوى! وهذه كلّها من مصالح الدنيا.

فإن قيل: ذكرتم أنّ الناس كافّه قالوا بوجود الإمام، فكيف يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنّهم يقولون: «لا إمره».

قيل: إنّهم كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنّه لا حاجه إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي.

ويبدو أن خطأ ابن ابى لاحديد نابع من حصره الوظائف السبع التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام كهدف للحكومه بالمصالح الماديه، والحال أنّ العبارة «يعمل فى إمرته المؤمن»

إنّما تعالج المسائل المعنوية، لأنّ عمل المؤمن يهدف الآخره - على كل حال وعلى فرض أنّ لكافه هذه الأمور صبغه ماديه، فإنّ كلام الإمام عليه السلام يدور حول محور إماره الناس وحكومتهم التي تشكل أحد الأبعاد الوجوديه للإمام المعصوم، لأنّ عقيدته علماء الإماميه ومتكلميه في الإمام إنّهُ الحاكم في أمور الدين والدنيا والهادي إلى الله ومفسّر القرآن ومبين أحكامه وأعماله حجه على الناس، ومن هنا لا بدّ أن يكون معصوماً، ومعلوم أن المعصوم لا يعرف سوى الله، ولذلك يعتقدون أن الإمام ينصب من جانب الله وقد أجاب بعض شراح نهج البلاغه على كلام ابن أبي الحديد بأنّ الخطبه تعالج قضيه نصب الأمير وليست لها صلته بنصب الإمام من الله ولذلك قال عليه السلام «لا بدّ للناس من أمير بر أو فاجر» ونعلم أن الامير الفاجر لا يمكن أن يكون إماماً. الا- ان ما أوردناه هو الجواب في أن الاماره جزء من مسؤوليات الإمام (لا بدّ من الدقه في الأمر)، والشاهد على ذلك أن متكلمينا ذكروا في كتبهم العقائديه المصالح الدنيويه وما ورد في هذه الخطبه حين ذكرهم لأدله وجوب نصب الإمام. بعبارة أخرى فان الشيعة لا ترى الامر منفصله عن الإمامه، أما الاذعان لامره الفاجر فليست على أساس أنّها هدف نهائي، بل يدفع إليها الاضطرار حين تتعذر حكومه الإمام المعصوم.

ج ج

ص: ٢٨٣

ومن خطبه له عليه السلام

وفيهما ينهى عن الغدر ويحذر منه

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى ثلاثه أمور مهمه: الأول: أهميه الوفاء وصدق الحديث، ودم ناقضى العهد، الثانى: أن الخداع والغدر والخيانه ليست من العقل والذكاء كما يظن ذلك الغدره الفجره. والعقل والفطنه فى الصدق والوفاء بالعهد.

الثالث: ضروره إغتنام الفرص من أجل المبادره إلى الآخره والوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق.

ج ج

ص: ٢٨٥

١-١) رواها ابن طلحه الشافعى فى مطالب السئوال، صحيح أن ابن طلحه الشافعى عاش بعد السيد الرضى إلا أن روايه ابن طلحه تفيد أنه عشر عليها فى مصدر غير نهج البلاغه. ورواها الجاحظ فى رساله المعاش والمعاد وقال فى مطلع الخطبه «الصدق والوفاء تؤامان» وهذا يدل على أنه رأها فى المصادر التى صنفت قبل الرضى (لأن الجاحظ عاش أوائل القرن الثالث بينما يعتبر السيد الرضى من كبار علماء أواخر القرن الرابع) مصادر نهج البلاغه ١ / ٤٤٠.

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعِ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدْ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْعُدْرَ كَيْسًا وَنَسِيَ بِهِمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلِ. مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ! قَدْ يَرَى الْحَوْلُ الْقَلْبُ وَجَهَ الْحِيلَةَ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدْعُهَا رَأَى عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِي فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيحَةَ لَهُ فِي الدِّينِ» .

الشرح والتفسير

لم يذكر شرّاح نهج البلاغه - حسب علمنا - سبب إيراد هذه الخطبه، إلّا أنّ الرابطة المعنويه بين هذه الخطبه والخطبه رقم ٣٥ وسائر القرائن تشير إلى أنّ هذه الخطبه ناظره لمعركه صفين وقضيه التحكيم، لأنّ مسأله التحكيم المأساويه إتخذت أبعاداً واسعاه في البحث والنقاش بين صفوف المسلمين - ولعل بعض الجهال نسب مكر عمرو بن العاص وخيانتته وغدره إلى الكياسه والفتنه؛ الأمر الذي قد يشجع الآخرين لممارسه مثل هذه الأعمال الشائنه البعيده عن الإسلام وتعاليمه الحقه، ومن هنا خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه ليقبر هذه الأفكار المنحرفه ويحد من شياعها بين الناس، ثم عرض بالذم إلى المكرو والخديعه ونقض الميثاق وأشار إلى العواقب الوخيمه التي تفضى إليها هذه الأعمال ثم أثنى على الوفاء والصدق فقد إستهل الخطبه بخطاب الجميع «أيها الناس إن الوفاء توأم (١)الصدق». التوأم بمعنى الذي يولد مع الآخر في حمل واحد، ويستعمل بشأن كل شيئين يرتبطان معا برابطه وثيقه، ومن هنا فقد شبه الإمام عليه السلام فضيلتي الوفاء والصدق بالتوأم ولعل التمعن في مفهوم هاتين الصفتين ومصدرهما الفكري

ص: ٢٨٧

١- ١) «توأم» من ماده «وئام» بمعنى الموافقه حسبما صرح بعض أرباب اللغه، بينما ذهب البعض كصاحب المقاييس إلى أنّ التاء أصلية، واتّام (مصدر باب إفعال) بمعنى ولاده أحد مع الآخر من حمل واحد.

الروحي يفيد أن الأمر كذلك، فالوفاء يعني الالتزام بالعهد، وهو في الواقع نوع من الصدق، كما أن الصدق نوع من الوفاء. والصدق ذو معنى واسع وشامل لا يقتصر على الحديث، بل يشمل العمل أيضاً، ومن هنا صرح القرآن قائلاً: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» (١) فمن الواضح أن المراد بصدق العهد في الآيه هو الصدق في العمل، ولذلك أردفت بالقول «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ». ومن هنا تتضح عمق الرابطه بين الوفاء والصدق، فلو أبرم شخص عهداً ونقض عهده فقد كذب، ومن هنا يمكن اعتبار ناقض العهد كاذباً، ولما كان حسن الصدق وقبح الكذب ظاهر لكافة الناس، فإن الإمام عليه السلام قرن بهما الوفاء بالعهد ونقضه ليتضح حسنهما وقبحهما. ثم تطرق الإمام إلى الآثار الايجابية للوفاء بالعهد فقال: «ولا أعلم جنة (٢) أوقى منه»، فهذه في الواقع من أهم آثار الوفاء بالعهد وبركاته الدنيويه في أنه جنة وثيقه؛ لأن أساس الحياه الاجتماعيه يتمثل بالتعاون والتكافل والثقة المتبادله والالتزام بالعهود والمواثيق الفرديه والاجتماعيه، بعبارة أخرى فإن الثقة المتبادله تذلل كثيراً من المصاعب، بينما يتعذر حل هذه المصاعب إذا ما انعدمت الثقة وسلب الاعتماد بين الناس، ولذلك كانت الدعاه الأصلية للدين تتجسد في الوفاء بالعهود والمواثيق، حتى ورد في الحديث النبوي المعروف «لادين لمن لا عهد له» (٣) كما ورد أيضاً «إذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم» (٤) جدير بالذكر أن الجنة بمعنى الدرع الذي يقى أخطار العدو في ميدان القتال. تشبيه الوفاء بهذا الدرع يفيد كونه يشكل الوسيله الدفاعيه تجاه الأخطار الاجتماعيه التي تفرزها حاله الفوضى وعرقله القوانين والمقررات. ثم أشار عليه السلام إلى أبعاده المعنويه والأخرويه فقال «وما يغدر من علم كيف المرجع»؛ الأمر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في نهج البلاغه بقوله «لولا كراهيه الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدره فجره، وكل فجره كفره ولكل

ص: ٢٨٨

١-١ (١) سورة الأحزاب / ٢٣. [١]

٢-٢ (٢) «جنة» على وزن «غصه» بمعنى الدرع واشتقت في الأصل من ماده جن على وزن فن بمعنى الستر ومنه المجنون، كما تطلق الجنة على البستان كأنه تغطي بالأشجار، ومنه الجنين المغطى برحم الأم وإطلاق الجن على تلك الجماعه لخفائها.

٣-٣ (٣) نوادر الرواندى / ٥.

٤-٤ (٤) بحار الأنوار ٩٧ / ٤٦. [٢]

غادر لواء يعرف به يوم القيامة» (١). ولما كان انحراف المجتمع عن المبادئ الأخلاقية يقود إلى تنكر القيم وتبدلها، حتى يعد العهد والمكر والخداع كياسه والالتزام بالعهود سذاجه وبلاهه فقد قال الإمام عليه السلام «ولقد أصبحنا في زمان قد إتخذ أكثر أهله الغدر كياساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحليه»! نعم فإنّ قيم المجتمع إذا تنكرت بفضلها المعيار والمحك للحسن من القبيح فإنّ ظهور مثل هذا الخلط لا يبدو مستغرباً، فمن الطبيعي أن يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والملك شيطاناً والشيطان ملكاً وقديساً. ومما يؤسف له أنّ هذه الظاهره قد تفتت وبشكل واسع في عالمنا المعاصر فقد ينظر إلى الثعالب المكره في السياسه العالميه على أنهم الساسه المهروه، بينها يرمون بالسذاجه وانعدام التجربه من يلتزم بالعهود والمواثيق ويراعون القيم الإنسانيه والإلهيه في سياستهم، وما أصعب العيش في مثل هذا العالم، وبالطبع فإنّ نقض العهود واعتماد الكذب والخداع قد يجر على صاحبه بعض المنافع على المدى القريب ويحظى بمديح هذا وثناء ذاك، إلّا أنّ المفروغ منه أن عرى المجتمع إنّما تؤول إلى التصدع والانهيال على المدى البعيد. ومن هنا فان الأفراد من أهل الإيمان والوفاء إنّما يسعون لتحسين أموالهم وحفظ ثرواتهم من خلال الامانه وإحترام العهد في المعامله، والدوله هي الأخرى مدعوه لرعايه هذا الأمر من أجل كسب ثقته سائر البلدان واستقطابها لضمان مصالح البلاد الاقصاديه. ومن هنا صرحت الروايه «الامانه تجلب الغنى والخيانه تجلب الفقر». (٢) ولا شك أنّ هناك رابطه حميمه بين الامانه والوفاء، رغم كونهما مفهومين منفصلين، ولذلك قال أميرالمؤمنين على عليه السلام: «الامانه والوفاء صدق الأفعال» (٣). قال أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويدعى عبدالرحمن بن سبابه: ساءت حالى بعد وفاه أبى فلما حججت البيت رأيت الإمام الصادق عليه السلام فقال لى: أعظك؟ قلت بلى جعلت فداك، قال: «عليك بصدق الحديث وأداء الامانه تشرك الناس فى أموالهم هكذا - وجمع بين أصابعه - قال فحفظت ذلك عنه، فزكيت ثلاثمائه ألف درهم». (٤)

ص: ٢٨٩

١-١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٠. [١]

٢-٢) بحارالانوار ٧٢ / ١١٤. [٢]

٣-٣) غرر الحكم ح ٨٣ - ٢.

٤-٤) فروع الكافي ٥ / ١٢٤. [٣]

ثم رد عليه السلام على من إتهمه بعدم العلم بالسياسة فقال: «ما لهم قاتلهم الله قد يرى الحول (١) القلب وجه الحيله ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأى العين بعد القدره عليها» أمّا ذلك الذى لا يتورع عن الذنب والمعصيه وعدم الإكتراث للدين فأنّه ينتهز الفرصه ليفعل ما يشاء فيراه البلهاء سياسيا ناجحا «وينتهز (٢) فرصتها من لاجريجه (٣) له فى الدين» فالإمام عليه السلام يقول إنّ عدم استغلالى للفرص الغدره من أجل التفوق على العدو لايعنى عدم علمى بالأمور، بل ذلك يعنى أنى أخاف الله، وإنى لا عتمد الورع والتقوى والعدل حتى مع أعدى أعدائى، ولا أرى الغايه تبرر الوسيله، بل لا أومن بالنصر كيفما كانت قيمته وثمرته، إلما أنّ أعدائى لا- يراعون أى من هذه المبادئ، فهم يقارفون كل جنايه ولا يتورعون عن أية جريمه، فلا يقيمون وزناً لدماء الأبرياء، ولا- يتخرجون من الظلم والعدوان، ولا- يلتزمون بالعهود والمواثيق، نعم ليس لهم من هم سوى تحقيق أهدافهم اللامشروعه بأيه وسيله. فاذا رأى الناس تصرفاتهم وتخرجى عدوهم ساسه أكفاء، والحال ما هم ساسه وأنهم لحفنه من الظلمه الذين يفتقرون إلى الورع والتقوى.

السياسه الإلهيه والشيطانيه

إن الاختلاف فى الاساليب السياسيه إنّما تفرزه الرؤى بشأن الحكومه، فالسياسه التى ينتهجها أولئك الذين ينشدون الحكومه من أجل ضمان مصالحهم الشخصيه أو الفئويه، تختلف عن السياسه التى يتبعها أولئك الذين لا يرون فى الحكومه سوى وسيله لحفظ القيم والمثل. فالحكومات السابقيه كانت تتصف بالدكتاتوريه المقيته التى تنكسر فى فرد واحد مستبد غاشم يسعى جاهداً لتحقيق مآربه وإشباع رغباته وضمن مصالح بطانته معتمداً منطلق القوه والعنف من أجل ترسيخ دعائم حكومته فلا يرى من حرمه لقيم ومثل سوى تلك التى تخدم

ص: ٢٩٠

-
- ١- ١) - الحول القلب بضم الاول وتشديد الثانى هو البصير بتحويل الأمور وتقليبها.
 - ٢- ٢) «ينتهز» من ماده «إنتهاز» بمعنى الإقدام على عمل، كما يعنى الاستفاده التامه من الفرصه.
 - ٣- ٣) «حريجه» من ماده «حرج» بمعنى التحرج والتحرز من الآثام، ويأتى الحرج أحياناً بمعنى الذنب.

مصالحه أمّياً اليوم فالحكومات وإن تغيّرت شكلاً، إلماً أنّ جوهرها وماهيتها لم تختلف كثيراً عن تلك التي كانت سائده في الماضي، وإن كان المعروف عن هذه الحكومات إقتحامها الميدان كفتات وأحزاب. على سبيل المثال فإنّ الأحزاب هي التي تمسك بزمام الأمور في البلدان الصناعيه المعاصره، بحيث يسعى كل حزب لضمان مصالح فئه معينه، ثم يعتمد كافه الوسائل من أجل الحصول على أكثر عدد من الآراء بغيه الوصول إلى الحكومه، فإذا تسلّموا الحكومه، أتوا بالأفراد الذين يعملون على ترسيخ دعائم حكومته وبالطبع فإنّ مثل هذه الحكومات قد تتبنى بعض الشعارات من قبيل حقوق الإنسان وحرية المرأه وأحياناً يطرحون بعض المسائل الأخلاقيه، إلماً أنّهم يعلمون كما يعلم الآخرون أنّهم ليسوا جادين في ما يقولون، فاصواتهم عاده ما تتعالى بحجه أن البلد الفلاني - إذا كان من أعدائهم - قد إنتهك حقوق الإنسان، وإن كان من أصدقائهم فقد يحظى بتأييدهم ودعمهم وإن إنتهك تلك الحقوق الف مره كل يوم - وفي مقابل هذه الحكومات، هنالك حكومه الأنبياء والأولياء التي لا تعرف المصالح الفرديه ولا- الفتويه، وهي قائمه على أساس القيم والمثل. فالحكومات السابقه تصرّح علنا بتعذر الجمع بين السياسه والأخلاق، وعليه فالحاكم الذي يراعى المبادئ الاخلاقيه إنّما يفتقر في الواقع حسب ظنهم إلى العقل السياسى؛ وسوف لن يكتب لحكومته الدوام والاستمرار، فالغايه تبرر الوسيله، وكل ما يقرب من الهدف فهو حسن ومطلوب. بينما ترى الحكومه الأخيره ان شعارها يتكرس في «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (١) أو «لو لا- . . ما أخذ الله على العلماء أن لايقاروا على كظه ظالم ولا سغب مظلوم. . .» (٢) أو «وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمه جدى صلى الله عليه و آله» (٣) ومن الطبيعي أن يكون هناك بوناً شاسعاً بين سياسه الحكومات بالمعنى الأول والحكومات الإلهيه، بل هناك تعارض وتضارب بينهما فالطائفه الاولى تضحي بكل القيم وتذبجها من أجل الوصول إلى دفعه الحكم، بينما تخلت الطائفه الثانيه بشهاده التأريخ عن الحكومه من أجل الحفاظ على القيم والمثل. وهذا ما وضحه الإمام عليه السلام في الخطبه «والله ما معاويه بأدهى منى ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهيه الغدر لكنت

من

ص: ٢٩١

١-١) كنز العمال ٣ / ١٦ ح ٥٢١٧.

٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ٣. [١]

٣-٣) بحار الانوار ٤٤ / ٣٢٩. [٢]

أدهى الناس» (١) وقال عليه السلام: «تأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؛ والله لا أطور به، ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجماً» (٢) والاختلاف بين هاتين الرؤيتين في السياسة الإلهية والسياسة الشيطانية هو الذى يجعل بعض الأفراد يشكلون أحياناً على الساسة الربانيين ويحملون أعمالهم على السذاجه وعدم معرفه بفنون السياسه، بينما يغفلون عن حقيقه كبرى وهى أنّ هؤلاء الأفراد إنّما يحثون السير إلى عالم آخر لا تجيز مبادئه وضوابطه التشبث بأى أسلوب وطريقه. فمثلاً لما غلب معاويه أهل العراق على الماء منعهم منه، فلما حمل أهل العراق إنكشاف أهل الشام عن الماء، وملك أهل العراق المشرعه - فقال أصحاب على عليه السلام: أمنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك - فقال: «لا خلوا بينهم وبينه، لا- أفعل ما فعله الجاهلون. (٣) والآ عجب من ذلك عدم إلتفات رسول الله صلى الله عليه و آله إلى أصحابه الذين أشاروا عليه بمنع اليهود الماء حين محاصره قلاع خيبر فلم يجبههم صلى الله عليه و آله» (٤) ويتعجب أولئك الغافلون حين يسمعون مسلم بن عقيل وقد إمتنع عن قتل ابن زياد غيله فى دار هانئ بن عروه قائلاً: «الإيمان قيد الفتك» (٥). أضف إلى ذلك فإنّ علياً عليه السلام إمتنع عن قتل عمرو بن العاص فى صفين حين كشف عن عورته. فكل هذه الأمور لا يرونها تنسجم والسياسه، بل السياسى الفذ فى نظرهم من يدافع عن العهدو والمواثيق ويلتزم بالمبادئ إذا كانت تجرى لصالحه، وإلّا فلا يبدّ أن يضربها جميعاً عرض الحائط. فالسياسى الورع والمتقى يرى النصر على الأعداء إنّما يحتل الدرجة الثانيه، والدرجة الاولى تتمثل بحفظ المبادئ ورعايه القيم والمثل. والجدير بالذكر ما أورده ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغه حين تحدث عن مروءه ووفاء أحد أحفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو إبراهيم بن عبدالله فقال: «وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبى طالب من هذا النوع أخبار كثيره، وكان القوم أصحاب دين ليسوا من الدنيا بسيل، وإنّما يطلبونها لقيموا عمود الدين بالامر فيها، فلم يستقم لهم، والدنيا إلى أهلها أميل» .

ص: ٢٩٢

-
- ١- ١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٠، [١] وروى عنه عليه السلام أنّه قال: «لولا التقى - أو لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب» .
شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١ / ٢٨. [٢]
٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٦. [٣]
٣- ٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٥٦٩. [٤]
٤- ٤) سيد المرسلين ٢ / ٤٠٨ تقلاً عن السيره الحلبيه ٣ / ٤٠. [٥]
٥- ٥) بحار الانوار ٤٤ / ٣٤٤. [٦]

ومن كلام له عليه السلام

وفيه يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل فى الدنيا.

نظرة إلى الخطبه

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه على ضوء نقل نصر بن مزاحم فى كتاب صفين بعد موقعه الجمل حين ورد عليه السلام الكوفه، وهى تعالج غرور الأفراد وطمعهم بعد تحقيق النصر ولا سيما إن كانت هناك غنائم؛ الأمر الذى يثير حفيظه البعض للتكالب على الدنيا وبالتبع يتطلع إلى المزيد من كان له دور أكبر فى المعركه والحصول على الغنائم. فهدف الإمام عليه السلام تحذير الناس وتذكيرهم بالأهداف المعنويه التى قاتلوا من أجلها، كما يحذرهم من رذيلتى إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخره. ثم يؤكد الإمام عليه السلام على قصر عمر الدنيا وضروره إغتنام الفرص فيها من أجل العمل الصالح والتزود للآخره، حيث يوجز هذا الأمر الحيوى بعبارات قصيره بليغه المعنى.

ج ج

ص: ٢٩٣

١- ١) سند الخطبه: وردت هذه الخطبه بعده أسناد. رواها قبل السيد الرضى (ره) نصر بن مزاحم فى كتاب صفين والشيخ المفيد فى المجالس والمسعودى فى مروج الذهب. وقال نصر بن مزاحم دخل الإمام عليه السلام الكوفه بعد معركه الجمل فأسرع قراء الكوفه وأشرفها لإستقباله. فدخل المسجد وصلى ركعتين ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم خطب الخطبه.

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ» .

الشرح والتفسير

أوردنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام خطبها بعد الجمل حين ورد الكوفة، بهدف الحد من الغرور الذي تفرزه طبيعه النصر والتنافس على غنائم المعركة، فقال عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ» . والعبارة الآخيره مهمه ذات أثر بالغ في مصير الأُمّة، بحيث ورد التأكيد عليها في أحاديث النبي صلى الله عليه وآله، كما أشار إليه الإمام عليه السلام سابقاً في الخطبه الثامنه والعشرين» . (١) ويتضح من معنى مفرد الهوى التي تشير إلى أهواء ورغبات النفس الأماره باللذات الدنيويه دون الحدود والقيود مدى صدها الإنسان عن الحق ومنعه من بلوغه، لأنّ الهوى حجاب على العقل يحول دون إدراك الحقائق ومشاهدتها، بينهما يزين له هذا الهوى الباطل ليديه له أنصع من الحق، في حين يشوه له الحق ويظهره له كالبشع صورته للباطل، وقد لمست هذه الحقيقه كثيراً خلال تجربتي ومطالعتي لسيره الماضين في كيفية تبرير أتباع الهوى لبعض صور الحق والباطل وتغيير هويتهما. وأما طول الأمل فيستقطب جميع طاقات الإنسان وقواه حتى ينسيه الآخره، ولما كانت قوى الإنسان محدوده فأنّه يستهلكها في الآمال الكاذبه اللامتناهيه بحيث لا يبقى لنفسه من قوه يدخرها للآخره، ولا سيما أنّ الامال لا تعرف للنهايه

ص: ٢٩٥

من معنى، وتقتضى طبيعتها أن يتجه الإنسان إلى الأخرى فور ظفره بالاولى حتى يجند نفسه على الدوام بغيه الظفر بها جميعاً، بل إن تحقيقه لأمل ربما يدفعه لآخر، لأن الآمال عادة مترابطة مع بعضها البعض، وعلى هذا الضوء فسوف لن يبقى لديه من وقت كما لا تبقى له من قوه، وبالتالي سوف لن يمتلك الدفاع نحو الآخرة. وبالطبع فإنه لن يفيق من غفلته حتى يصفعه الموت، وقد ولى العمر وتصرمت أيامه وفرصه فلم يظفر بأماله ولم يدرك آخرته. وما أروع ما قال أبو العتاهيه حين دعى لإنشاد الشعر بحضرة هارون حين أراد أن يفتتح له قصراً جديداً فى مصر:

عش ما بدا لك سالماً فى ظل شاهقه القصور يهدى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفى الكبور حتى إذا تزعزعت النفوس ودحرجت فهناك تعلم موقناً ما كنت إلأفى غرور. (١)

فشعر من حول هارون بالامتعاظ من هذه الأبيات على أنها لا تنسجم والمناسبه، إلأأن هارون مدحه وأثنى عليه.

وقد علق بعض شراح نهج البلاغه على أن طول الأمل ينسى الآخرة وذلك لأن هذا الفرد يغتر بمظاهر الدنيا ويرى فى الموت الوسيله التى تقطعه عن هذه الدنيا، فينسى المعاد ويوم القيامه جدير بالذكر أن للأمل دور إيجابى فى حياه الإنسان والذى عبر عنه القرآن بالرجاء، ولاسيما إذا كان مقرونا بالتوكل على الله.

ص: ٢٩٦

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حِذَاءَ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُجْبَانُهُ كَصُجْبَانِهِ الْإِنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُهَا. أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلِّ مِنْهُمَا بَنُونَ. فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا. فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَعَدَا حِسَابٍ وَلَا عَمَلٍ» .

الشرح والتفسير

واصل عليه السلام خطبته التى ابتدأها بدم إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخرة، وبالتالي يحولان دون سعادته الإنسان وفلاحه، ليقدم تحليلاً رائعاً عن أوضاع الدنيا والآخرة فقال «ألا وإن الدنيا قد ولت حذاء (١)، فلم يبق منها إلا صبابه كصابه (٢) الإناء اصطبها صابها» .

فقد شبهت الدنيا هنا بالكائن الذى يعود بسرعه إلى مسيرته، الأمر الذى يفيد حقيقه الحركه السريعه لعمر الإنسان، الحركه الخارجيه عن إرادته الإنسان وتشمل كافه الكائنات الحيه سوى الذات الإلهيه المطلقه، ولا يستثنى من تلك الحركه الكواكب والمجرات والسّموات والارضين لتنتهى إلى الفناء والزوال الدنيوى ليكون نافذه على عالم الخلود والبقاء. فالطفوله تتحرك نحو الفتوه والشباب، والفتوه تنطلق نحو الكهوله التى تنتهى بالموت، هذا إذا جرت الأمور وفق القانون الطبيعى والاقدر يتساقط بعض الاطفال والشباب من هذه القافله لتنتهى

ص: ٢٩٧

١ - ١) «حذاء» كما ورد فى تفسير السيد الرضى (ره) وشراح نهج البلاغه بمعنى السريعه، من ماده حذ على وزن حظ بمعنى القطع، أو القطع السريعه، ثم اطلقت على كل حركه سريعه، وحذا مؤنث إحدأ.

٢ - ٢) «صابه» بالضم البقيه من الماء واللبن فى الإناء، والضمير فى اصطبها وصابها يعود إلى الصبابه، لأنّ الإناء مذكر والضمير المؤنث لا يعود إليه.

أعمارهم دون بلوغ الكهولة. فالإمام عليه السلام يقول أنّ عمر الإنسان قصير قليل كبقية الماء واللبن في الإناء التي تعلق به عند قلبه، أو بعبارة أخرى فإنّ الإنسان حين يقلب إناءً مملوءاً بسائل ثم يعيد الإناء إلى وضعه الأصلي إنّما يتبقى فيه مقدار من الماء يطلق عليه الصباية وهذه في الحقيقة هي عمر الإنسان ثم قال عليه السلام «ألا وإنّ الآخرة قد أقبلت» فكلما قصر عمر الدنيا اقتربت الآخرة، فالواقع إنّنا نركب قطار الزمان الذي يسير بسرعة نحو الآخرة، والدقائق والساعات والأيام والأسابيع والأشهر والسنوات إنّما تكشف عن سرعه مسيره قطار الإنسانيه بأجمعها، ثم أوضح عليه السلام وظيفه الناس «ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنّ كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة» نعم هناك خيطان: خط عبده الدنيا وخط عشاق الآخرة، وإن كانت هنالك بعض الجماعات المتدبذبة بين الخطين. ولا يعرف أبناء الدنيا سوى النوم والأكل والشرب والشهوه والطرب والعيش والملذات، فهم متعلقون بظاهر الدنيا دون أن يكفوا أنفسهم عناء التفكير في الآخرة، بل هم عنها عمون «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» (١). فكأنهم مغلدون في الدنيا وليس هنا لك من آخرة، فوثقوا بأموالهم وثرواتهم على أنّها تخلدهم في دنياهم «يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ». أما أبناء الآخرة فقد نظروا بعين العقل والبصيرة إلى الدنيا وأدركوا أنهم مفارقوها ومرتحلون عنها فلم يطمأنوا إليها. لقد طلقوها كما طلقها الإمام عليه السلام ثلاثه لارجعه فيها. فقد إتعضوا بالقرآن الذي أوقفهم على طبيعته خسرانها «وَالْعَصِيرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسِيرٍ * إِلَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». أما التعبير عن عبده الدنيا بأبناء الدنيا وعن المؤمنين الصالحين بأبناء الآخرة، وذلك لأنّ الأبناء إنّما يشبهون إلى حد كبير آبائهم وأمهاتهم بفعل الصفات الوراثية التي تنتقل إليهم عن طريق الجينات، وهو الشبه الذي يدعو إلى المحبة والإرتباط. نعم عبده الدنيا أبنائها، ومن هنا أحاط حبّ الدنيا بقلوبهم بحيث أصبحوا لا يرون سوى الدنيا ولا يجنون سواها، وشعارهم فيها «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا» (٢) وإن كانوا ظاهرا يحملون الإسلام. أما أبناء الآخرة فقد سيطر حب الله على

ص: ٢٩٨

١-١) سورة الروم / ٧. [١]

٢-٢) سورة الجاثية / ٢٤. [٢]

قلوبهم، فهم يتزودون من الدنيا إلى الآخرة دون أن يغرقوا فيها.

وقال بعض شراح نهج البلاغه أنّ المراد بالعباره هو أن المؤمنين سيكونون في الآخرة بمثابه الأبناء الذين يرتمون بأحضان آبائهم، بينما سيكون أبناء الدنيا كاليتامى. إلّا أنّ هذا التفسير لا ينسجم والعباره «إن كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة»، بل يفيد هذا التعبير أن الحياه الدنيا الماديه ليست سوى الجحيم الذى يرتمى فيه أبناء الدنيا إذا افتقرت إلى الإيمان والتقوى، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ». (١)

أمّا إن كانت هذه الحياه مقرونه بالايمان والتقوى والصبغه الآخرويه فتتجسم يوم القيامة على هيئه جنّه سيرتمى فى أحضانها المؤمنون. ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته قائلا: «وإنّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل» فالعباره تفيد من جهه وجود الفرصه من أجل إستزاده العمل الصالح، وإذا ما شوهده المحسنون والمسيئون، والصالحون والظالمون، واولياء الله وأعداء الله، وحزب الله وحزب الشيطان إلى جانب بعضهم البعض الآخر فى هذه الحياه الدنيا فذلك لأنّ الدنيا دار عمل لا حساب فيها ولاجزاء وعقاب. ومن جهه أخرى تحذير بأنّ نهايه العمر فى الدنيا تعنى إغلاق صحيفه الأعمال وليس هنالك من سبيل للعوده والعمل وتدارك ما فرط، كما ليس للندم من أثر أو فائده، فقد قال على عليه السلام «لا عن قبيح يستطيعون إنتقالاً ولا فى حسن يستطيعون إزدياداً» (٢) كما ليس هناك من جدوى لصراخهم «رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً» (٣) كما لا تفيدهم الآمال والأمانى «فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». (٤)

الموت يعنى إغلاق صحيفه الأعمال

ص: ٢٩٩

١- (١) سورة القارعه / ٩. [١]

٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٨٨. [٢]

٣- (٣) سورة المؤمنون / ٩٩ - ١٠٠. [٣]

٤- (٤) سورة الشعراء / ١٠٢. [٤]

ما ورد في الخطبه بهذا الخصوص ممّا أكدته الآيات القرآنيه، حتى صرحت بعض الآيات أنّ أبواب التوبه تغلق حين نزول عذاب الاستئصال (من قبيل العذاب الذى إستهدف إجتماع جذور الأقوام السابقه حين طغت فى الأرض) بحيث لم يعد هناك من مجال لتدراك الأعمال، لأنّ الإنسان فى ظل هذه الظروف إنّما يودع الدنيا وينتقل إلى الآخره مروراً بالبرزخ، ومن ذلك قوله سبحانه: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّهُ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» . (١). كما نعلم بأنّ فرعون لما أدركه الغرق وشعر بالموت أظهر الإيمان ولكن أغلقت بوجهه كافه أبواب التوبه فاتاه النداء «الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (٢). ونستج من هذه الآيات وسائر الايات الوارده بهذا الشأن أنّ هناك سنه إلهيه تفيد إغلاق صحيفه الإنسان وانقطاع أعماله حين يكون على أبواب الموت المحتم، فليس هنالك من سبيل للعوده والإصلاح. وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ أغلب الروايات صرحت بأنّ آثار الأعمال الحسنه والسيئه تصل الإنسان بعد موته بحيث تثقل صحيفه أعماله خيراً أم شراً، فقد ورد فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «سبعه أسباباً يكتب للعبد ثوابها بعد وفاته، رجل غرس نخلاً أو حفر بئراً أو أجرى نهراً أو بنى مسجداً أو كتب مصحفاً أو ورث علماً أو خلف ولداً صالحاً يستغفر له بعد وفاته» (٣) ومن الواضح أنّ ما جاء فى هذا الحديث نموذج باراز لأعمال الخير، أفلا- يتنافى هذا الأمر وما ذكر سابقاً؟ والجواب على هذا السؤال واضح فليس هنالك من عمل جديد يقوم به الإنسان بعد الموت، لا- إنّ آثار الأعمال السابقه لا تصل إليه. نعم صحيفه الأعمال الجديده مغلقه ولا يضاف إليها شيئاً، أما صحيفه أعماله السابقه قبل الموت فهى مفتوحه دائماً وإن الإنسان يقطف ثمار عمله الصالح فى البرزخ ويوم القيامه، وتصله حتى الأعمال الصالحه فيما إذا خلف ولداً صالحاً يدعو له ويستغفر له.

ص: ٣٠٠

١-١) سورة المؤمنون / ٨٤ - ٨٥. [١]

٢-٢) سورة يونس / ٩١. [٢]

٣-٣) «تنبيه الخواطر»، ([٣] طبق نقل ميزان الحكمه، ٣ / ٢٣ - ٢٤ ماده عمل). .

من كلام له عليه السلام

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام بعد إرساله جرير بن عبدالله البجلي إلى معاويه ولم ينزل معاويه على بيعته.

نظره إلى الخطبه

تشتمل الخطبه على قسمين يختلف كل منهما عن الآخر، ويبدو أنّ كل منهما قد ورد مستقلاً في موضعه، الا أنّ السيد الرضى (ره) جمعهما لمناسبه - فالقسم الأول يتعلق يقضيه جرير بن عبدالله البجلي الذي كان عاملاً لعثمان على ثغر همدان. فأما خبر جرير بن عبدالله البجلي وبعث أمير المؤمنين عليه السلام إياه إلى معاويه، فقد ورد في الأخبار: لما قدم عليه السلام الكوفه بعد إنقضاء أمر الجمل، كاتب العمال، فكتب إلى جرير بن عبدالله البجلي. فلما قرأ جرير الكتاب، قام فقال: أيها الناس، هذا كتاب أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقه بها. فقال الناس سمعاً وطاعة. فكتب جرير إلى على عليه السلام جواب كتابه بالطاعة وكتب على عليه السلام إلى الاشعث وكان عامل عثمان على أذربيجان يدعوه إلى البيعه والطاعة. وكتب جرير بن عبدالله البجلي إلى الاشعث يحضه على طاعة أمير المؤمنين على عليه السلام وقبول كتابه. فقبل

ص: ٣٠١

١- ١) وردت هذه الخطبه في كتابين قبل نهج البلاغه، الأول كتاب صفين لنصر بن مزاحم والآخر كتاب الإمامه والسياسه مع فارق طفيف. أما القسم الثاني فقد رواه ابن عبد ربه في العقد الفريد. مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٤٦. [١]

الأشعث البيعه وسمع وأطاع، وأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد على عليه السلام الكوفة فبايعه. ولما أراد على عليه السلام أن يبعث إلى معاوية رسولاً قال له جرير: إبعثنى يا أمير المؤمنين إليه؛ وأدعوا أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فجلهم قومي وأهل بلادى وقد رجوت ألا يعصوني. فبعثه على عليه السلام. فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية ودفع إليه كتاب على عليه السلام. فقال معاوية أنظر وتنظر؛ واستطلع رأى أهل الشام. فكتب له الإمام عليه السلام: إنَّما أراد معاوية ألا يكون لى فى عنقه بيعه، وأراد أن يريثك ويبطئك، فان بايعك الرجل، وألّا فاقبل. قيل ولما أبطأ جرير عند معاوية إتهمه الناس، فلما سمع جرير ذلك فارق علياً عليه السلام فلحق بقرقيسياء (بلد بالخابور عند مصبه) ولحق به ناس من قسر من قومه، واقام فيها حتى توفى. (١) على كل حال مكث جرير عدّه شهور فى الشام، حتى اقترح أصحاب الإمام عليه السلام عليه قتال أهل الشام، إلّا أنّ الإمام عليه السلام لم يجبههم إلى ذلك وجرير هناك، وأنه قد وقت وقتاً لجرير، فلا بدّ من إنتهاء، ذلك الوقت ومعرفة النتيجة.

القسم الثانى يتناول إصرار الإمام عليه السلام على قتال أهل الشام، حيث اورد نصر بن مزاحم فى كتاب صفين أنّ الإمام عليه السلام قال هذا الكلام لما كلمه أحد جنود الشام اثناء معركة صفين بالهدنه وترك القتال على أن يرجع أهل العراق إلى العراق وأهل الشام إلى الشام، فردّ عليه الإمام عليه السلام رداً قاطعاً بمواصله القتال ثم تطرق إلى أسباب ذلك.

وأخيراً فالقسمان يوضحان بجلاء أن الإمام عليه السلام رجل الصلح والسلام فى ظروف الأمن والاستقرار، فاذا نشبت الحرب كان بطلها المجرب وليثها الغاضب.

ونتجه بعد هذه المقدمة إلى شرح الخطبه.

ص: ٣٠٢

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣ / ٧٠ - ١١٨ [١] بتلخيص.

«إِنَّ اسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٍ عِنْدَهُمْ، إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ وَصِرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ. وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتْ لِحَرْبِهِ وَقْتًا لَا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعًا أَوْ عَاصِيًا. وَالرَّأْيُ عِنْدِي مَعَ الْأَنَاهِ فَارْوِدُوا وَلَا أَكْرَهُ لَكُمْ الْإِعْدَادَ» .

الشرح والتفسير

كما أوردنا سالفاً فإن الخطبه بشأن قضيه جريرين عبدالله حين كان عاملاً لعثمان على همدان، ثم قدم الكوفه فوجهه الإمام عليه السلام إلى الشام لأخذ البيعه من معاويه، إلّا أنّ فجاج مهمه جرير كان يبدو ضعيفاً، ومن هنا رأى أصحاب الإمام عليه السلام قتالهم. فأجابهم الإمام عليه السلام قائلاً «إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم، إغلاق (1) للشام وصرّف لأهله عن خير إن أرادوه» فالعبارة تفيد أنّ الإمام عليه السلام بصفته زعيم الدوله الإسلاميه لا يرى في الحرب والقتال من وسيله صحيحه لحل الاختلافات، ولا بدّ من إبقاء باب السلام مفتوحاً لاتمام الحجه، فان لم تجد نفعاً، آنذاك تكون الحرب هي العلاج. والطريف في الأمر أنّ الإمام عليه السلام لا يأبه بمعاويه وإنّما يفكر بأهل الشام، فقال «إغلاق للشام»، ثم أضاف قائلاً «وصرّف لأهله عن خير إن أرادوه» في إشاره إلى عبثيه جر أهل الشام للقتال وصدّهم عن الصلح والسلام وإن كانت لكبيره على بعض الأفراد المتحمسين، إلّا أنّ الزعيم العالم لا ينبغي أن تستميله العواطف والأحاسيس، فلا يتصرف إلّا من خلال ضبط النفس والعقل والمنطق بما يرتضيه الحق

ص: ٣٠٣

١-١) إغلاق مصدر من باب إفعال يستعمل عاده في الأبواب.

سبحانه وتعالى. ثم أزال الإمام عليه السلام الإبهام الذى قد يتسرب إلى عقول هؤلاء الأفراد باستمرار هذه الحالة القلقة فقال «ولكن قد وقت لجرير وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً» فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام عين مده بغية الحفاظ على مصالح المسلمين وعدم فوات الآوان ومرور الفرصه، فقد كان يعلم أنّ معاويه قد يماطل فى الوقت ويشغل جرير، وأقصى ذلك هو الاهبه والاستعداد للقتال، ثم يرد بالسلب على دعوه الإمام عليه السلام بالبيعه فى الوقت الذى تسلب الفرصه والمبادره من الإمام عليه السلام وصحبه. إما لماذا حصر الإمام عليه السلام بقاء جرير عند معاويه باحتمالين؛ الخداع أو العصيان، بينما يمكن أن تكون عرضت له بعض الوقائع من قبيل المرض وما شاكل ذلك، وذلك لأنّ سائر الاحتمالات تبدو ضعيفه لا يكثرث بها إزاء هذين الاحتمالين، أو على حد تعبير علماء الاصول أنّ الاصل فى مثل هذه الأمور السلامه، فلا ينبغى ترتيب الأثر على سائر الاحتمالات. ثم حاول تهدأه خواطر صحبه والتسكين من روعهم فقال «والرأى عندى مع الأناه (١) فأرودوا (٢)». من جانب آخر فإنّ الإمام عليه السلام بغية عدم غفله أصحابه فى ظل تلك الظروف الحساسه المصيريه، وضروره الابقاء على عزمهم الشديد والراسخ فى مجابهه العدو وعدم إطفاء جذوه الحماس للقتال فقال عليه السلام: «ولا أكره لكم الإعداد»؛ أى أنى لا أعلن حاله التأهب فهذا الأمر يتعارض والصلح والسلام. وفى نفس الوقت لا أحول دون وظيفتكم فى التبعئه الطواعيه، والحق أنّ هذا لأعظم وأنجع اسلوب منطقى وعقلائى فى مثل تلك الظروف العصييه؟ أى لا- تغلق أبواب السلام، ولا- يعيش الجميع حاله الانفعال والغضب، ولا ينبغى أن تقع بعض الأعمال التى تفرزها طبيعه النفاق، وأخيراً لا ينبغى فوات الفرص دون جدوى!

الهدف من الدعوه إلى الصلح والبيعه

إن الإمام عليه السلام وخلافاً لما يعتقد به البعض لم يقا تل معاويه، إلآحين أتم الحجه عليه من كافه الجهات، بحيث لم يكن يلجأ إلى القتال إلآحين يكون السبيل الأخير الذى أغلقت جميع السبل

ص: ٣٠٤

١- ١) «اناه» بمعين التثبت والتأنى والصبر.

٢- ٢) «أرودوا» من ماده «رود» على وزن فوت بمعنى طلب الشئى بالرفق والمداراه، ومنه الإراده.

دونه. تفيد هذه الخطبه أنّ علياً عليه السلام لم يستجب للضغوط التي مارسها أصحابه من أجل شروع القتال، وأنّه بذل قصارى جهده بهدف إرساء الصلح والسلام. والرسالة التي بعثها الإمام عليه السلام إلى معاوية بواسطة جرير لتؤكد هذا المعنى. فقد جاء فيها: «إنّه بايعنى القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان إجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى، فان خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعه ردوه إلى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى. ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبر الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنى كنت فى عزله عنه إلّا أن تتجنى، فتجن ما بدالك». (1) والواقع كان معاوية يعتمد ذريعتين لترك البيعه، الأولى أنّه كان غائباً حين تمت البيعه لعلى عليه السلام، والثانية أن الإمام عليه السلام مطالب بدم عثمان، فلا يمكن مبايعته، إلّا أنّ الإمام عليه السلام فند هاتين الذريعتين بالدليل والبرهان فى رساله المذكوره، فلم يستجب معاوية بغيه تحقيق أهدافه وأطماعه. على كل حال وكما ذكرنا أنفاً فإنّ جرير عامل عثمان على همدان أعلن بيعته للإمام عليه السلام ومعه الناس إثر وصول كتاب الإمام عليه السلام. ثم ورد الكوفه وطلب من الإمام عليه السلام أن يوجهه إلى الشام لأخذ بيعه معاوية، لأنّ جل أهل الشام كانوا من قومه وأهل بلده ويطمع إلّا يعصون أمره. فاعترض الأشر وقال للإمام عليه السلام: لا تبعته ولا تصدقه، فوالله إننى لأظن هواه هواهم، وثيبتهم. إلّا أنّ الإمام عليه السلام إختاره لقول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه: «إنك من خير ذى يمن» كما لم يبدر منه خلافاً حتى ذلك الحين، ولعله لم يكن هناك من هو أفضل منه. فدفع إليه الإمام عليه السلام كتابه، وقال له: «إئت معاوية بكتابى، فان دخل فى ما دخل فيه المسلمون، وإلّا فانبد إليه واعلمه أنّى لا أرضى به أمراً، وأنّ العامه لا ترضى به خليفه». فانطلق جرير حتى أتى الشام، ونزل بمعاوية وأخبره باجتماع مسلمى أهل الحرمين وأهل المصرين والحجاز واليمن ومصر وأهل العروض على بيعه الإمام عليه السلام ثم قال: فلم يبق إلّا هذه الحصون التى أنت فيها فبايع لعلى عليه السلام. ثم سلمه كتاب الإمام عليه السلام. فلم يستجب معاوية الذى كان شغفاً بالحكمه

ص: ٣٠٥

فقام فخطب الناس مطالباً بدم عثمان وأخذ البيعه من أهل الشام للقيام والمطالبة بدم عثمان. فاستحثه جرير بالبيعه. فقال: يا جرير، إنَّها ليست بخلسه، وإنه أمر له ما بعده فابلعنى ريقى. فأشار عليه أخوه بعمر و ابن العاص. وقد وعده النصيحة بعد أن اشترط عليه ولايه مصر. ثم دخل شرحبيل - رئيس اليمينيه و شيخها والمقدم عليها - فتحدث إلى جرير، فأقنعه جرير باتباع عليّ عليه السلام. إلّمأنّ معاويه كتب له كتاباً ودس إليه الرجال يغرونه بعلي عليه السلام ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان، حتى ملئوا صدره وقلبه حقداً وتره وإحنه على علي عليه السلام وأصحابه، ثم دعاه في الكتاب لمطالبه بدم عثمان. فتاهب شرحبيل للطلب بدم عثمان، ثم وجهه معاويه إلى الشام لدعوه الناس للمطالبة بدم عثمان وجعل لا يأتي على قوم إلّاقبلوا ما أتاهم به وهنا شعر جرير باليأس من معاويه، ثم إلتفت معاويه إلى جرير فقال له: إنّي قد رأيت رأياً، قال: هاته، قال: أكتب إلى صاحبك يجعل لى الشام ومصر جبايه، فاذا حضرته الوفاه لم يجعل لأحد بعده فى عنقى بيعه، وأسلم له هذا الأمر، وأكتب إليه بالخلافه. فقال جرير: اكتب ما أردت أكتب معك. فكتب الإمام عليه السلام إلى جرير: إذا أتاك كتابى هذا فاحمل معاويه على الفصل، ثم خيره وخذه بالجواب بين حرب مخزيه أو سلم محظيه «ولم يكن الله ليرانى اتخذ المضلين عضداً» فتأخر جرير مدّه ولعله كان يطمع فى عوده معاويه إلى رشده، فكثر فيه الكلام. (1)

ص: ٣٠٦

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣ / ٧٠ - ٩١ [١] بتصرف وتلخيص.

«وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرِ لِي فِيهِ إِلَّا الْقِتَالَ أَوْ الْكُفْرَ بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الْأُمَّةِ وَالِ أَحَدَثَ أَحْدَاثًا، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالًا، فَقَالُوا ثُمَّ نَقَمُوا فَعَيَّرُوا» .

الشرح والتفسير

يقابل هذا القسم من الخطبة القسم المذكور تماما، أو بعبارة أخرى يمثل المرحلة الثانية من مراحل المجابهة. فقد كان الإمام عليه السلام يؤكد في القسم المذكور على ضروره ضبط النفس واجتناب القتال، واللجوء إلى منطق السلام والصبر والتحمل. بينما يتحدث هذا القسم بصوره قاطعه حاده عن القتال واللجوء إلى القوه؛ ولا غرو فقد أغلقت جميع السبل والأساليب، وثبت بالضرر القاطع أن معاويه لا يستسيغ أى منطق واستدلال، ولا يفهم سوى تحقيق مطامعه فى الحكومه التى يضحى من أجلها بالعالى والنفس. ومن الطبيعى ألا يكون هنالك من سبيل لمواجهه هذا الشخص سوى الاستسلام وتفويض المقدرات الإسلاميه إليه، أو شهر السلاح بوجهه وقتاله. ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر لى إلّا القتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه وآله». العبارة «ضربت أنف هذا الأمر وعينه» مثل تقوله العرب فى الاستقصاء فى البحث والتأمل والفكر. والعبارة «وقلبت ظهره وبطنه» هى الأخرى كناية عن دراسته كافة جوانب الموضوع: لأنّ الإنسان إذا أراد أن يشتري بضاعه قلب ظهرها وبطنها ليتعرف على كافة مميزاتها. أما قوله عليه السلام «فلم أر لى إلّا القتال أو الكفر بما جاء محمد صلى الله عليه وآله» فذلك لأنّ الإمام عليه السلام إذا سكت وترك الأمّة لحالها لقاد ذلك إلى انحراف الناس عن الإسلام واستتباب الحكومه الجاهليه الأمويه والسفانيه وإحياء

مبادئ الشرك والوثنيه، وهذا يعنى تجاهل كافه القيم والمثل التى جهد رسول الله صلى الله عليه وآله مدته ثلاث وعشرين سنه فى إرسائها وتحمل صنوف العذاب من أجل ترسيخها، وأصبح على عليه السلام خمسه وعشرين عاماً جليس البيت من أجل الحفاظ عليها، وعليه فلم يبق من سبيل أمام الإمام عليه السلام سوى القتال بصفته الأمين على الإسلام وقيمته، وهذا هو الرد الصريح على كافه من يشكك فى قتاله عليه السلام لمعاويه. ثم أشار عليه السلام إلى مسئلة قتل عثمان واستغلالها من قبل معاويه وزبانيته بغيه الوصول إلى أغراضه ومآربه، فقال «إنه قد كان على الأئمه وال أحدث أحداثاً، وأوجد الناس مقالا، فقالوا ثم نعموا فغبروا» فمراد الإمام عليه السلام أن العامل الرئيسى لقتل عثمان هو نفس عثمان، الذى أتى بالأعمال المخالفه للعدل والسنة النبويه، والتى أوجت غضب الناس فحاصروه ثم قتلوه، ولذلك لم يتحرك أى من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله للدفاع عنه، حتى قتل وبقي ثلاثاً على الأرض لم يدفنه أحد من المسلمين (١) وهذا بدوره يكشف عن مدى غضب الأئمه ونقمتها عليه. وعليه فقتل عثمان لم يكن ذريعه تدعو للخروج على أمير المؤمنين عليه السلام. وبالطبع فان أصحاب تلك الذريعه كانوا يعلمون هذا الأمر أكثر من غيرهم، إلّا أنهم لم يروا أفضل من هذه الذريعه لتعبئه أهل الشام ضد أمير المؤمنين عليه السلام.

أعمال عثمان وأسباب قتله.

ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أن عثمان أحدث أحداثاً مشهوره نقمها الناس عليه وأهم هذه الأحداث:

١- تأمير بنى أميه ولا- سيما الفساق منهم وأرباب السفه وقله الدين ومنهم الوليد الفاسق وشارب الخمر الذى ولاه الكوفه. (٢) وقرب الحكم بن أبى العاص عمه الذى طرده رسول الله صلى الله عليه وآله فألبسه جبه من الخز وأعطاه زكاه قبيله قضاعه التى بلغت ثلاثمئه درهم - وذكر ابن قتيبه وابن عبد ربه والذهبي - من مشاهير علماء العامه - أن من الأحداث التى نقمها الناس

ص: ٣٠٨

١-١) الكامل لابن أثير ٣ / ١٨٠. [١]

٢-٢) يتفق الفريقان على نزول الآيه «وإن جئكم فاسق بنبأ فتبينوا» «الايه ٦ من سوره الحجرات» [٢] كان فى الوليد. بل نقل العلامة المجلسى فى الغدير ٨/٢٧٦ [٣] الإجماع على ذلك.

على عثمان تقرّبه للحكم بن أبي العاص الذي لم يقربه أبوبكر ولا عمر في خلافتهما. (١) كما عين ابن عمه مروان بن الحكم مستشارا له وأعطاه غنائم أفريقيا التي بلغت خمسمئة ألف درهم.

٢- أذاه لكبار صحابه النبي صلى الله عليه وآله كأبي ذر الذي نفاه للربذه حين كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعترض على أعماله. (٢) وضربه الشديد للصحابي الجليل عمار بن ياسر ولم يكن ذنبه سوى مواجهه عثمان باعتراضات الناس. (٣) وما فعله بالصحابي عبدالله بن مسعود بسبب إعتراضه على التناول على بيت المال فجعل يضربه حتى كسر ربايعيته. (٤)

سئل الصحابي زيد بن أرقم كيف حكمت بكفر عثمان؟ قال: لثلاث: تقسيمه لأموال بيت المال بين الأغنياء ومحاربه لصحابه النبي صلى الله عليه وآله وعمله بغير كتاب الله. (٥)

٣- توزيعه لأموال بيت المال على بطانته وقرابته دون حساب وحرمان المؤمنين منها. وللمؤرخين والمحدثين شروحا وافيه بالنسبه لهذه الأمور لايسعها المقام. كل ذلك أرى إلى نغمه الأنصار والمهاجرين ولا سيما صحابه النبي صلى الله عليه وآله على عثمان فلم يروه خليفه لرسول الله صلى الله عليه وآله كما قدم الناقمون من مصر والكوفه والبصره، وحيث لم يكثر لهم، بينما لم ينصره أهل المدينه وهذا يدل على نغمتهم عليه أيضا. أما معاويه الذي كان واقفا على كل هذه الأمور فقد إستغلها ليحرض أهل الشام ضد أمير المؤمنين على عليه السلام بحجه المطالبه بدم عثمان.

ص: ٣٠٩

١- (١) الغدير ٨/٢٤١.

٢- (٢) الغدير ٨/٢٤١.

٣- (٣) نقل هذه القصة أغلب المؤرخين ومنهم البلاذري في أنساب الأشراف ٥/٢٩.

٤- (٤) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٣/٤٣ وتأريخ يعقوبى ٢/١٧٠. [١]

٥- (٥) شرح نهج البلاغه طبق نهج الحق ٢٩٧/ [٢]

ومن كلام له عليه السلام

لما هرب مصقله بن هبيرة الشيباني إلى معاويه، وكان قد إبتاع سبي بنى ناجيه من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقهم، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلى الشام.

سبب الخطبه

قصه الخريت بن راشد الناجي وخروجه على علي عليه السلام

كما ورد سابقا فالكلام يرتبط بقصه قبيله بنى ناجيه: كان الخريت بن راشد الناجي، أحد بنى ناجيه، قد شهد مع علي عليه السلام صفين، فجاء إلى علي عليه السلام بعد انقضاء صفين، وبعد تحكيم الحكيمين في ثلاثين في أصحابه، يمشى بينهم حتى قام بين يديه، فقال: لا- والله لا- أطيع أمرك، ولا- أصلي خلفك، وإني غداً لمفارق لك؛ فقال له: ثكلتك أمك! إذا تنقض عهدك، وتعضي ربك، ولا تضرر إلفسك، أخبرني لم تفعل ذلك! قال: لأنك حكمت في الكتاب، وضعفت عن الحق إذ جدد الجد، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد، وعليهم ناقد، ولكم جميعا مباين.

فقال له علي عليه السلام: وَيَحْك! هلم إلى أدارشك وأناظرك في السنن، وأفاتحك أموراً من

ص: ٣١١

١- ١) سند الخطبه: أوردها عدد من المؤرخين ممن عاشوا قبل السيد الرضى في كتبهم ورووا قصه بنى ناجيه، ومنهم الطبرى في تاريخه المعروف في وقائع عام ٣٨ هـ وإبراهيم بن هلال الثقفى في كتاب الغارات والبلاذرى في أنساب الاشراف والمسعودى في كتاب مروج الذهب. مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٥١. [١]

الحق أنا أعلم بها منك؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتُبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل، فقال الخريت: فإني غاد عليك غداً. فقال علي عليه السلام: اغد ولا يستهوينك الشيطان، ولا يتقحمن بك رأى السوء، ولا يستخفنك الجهلاء الذين لا يعلمون؛ فوالله إن استرشدتني واستنصحتني وقبلت مني لأهدينك سبيل الرشاد.

فخرج الخريت من عنده مُنصرفاً إلى أهله.

قال عبدالله بن قُعين: فعجلت في أثره مُشيراً، وكان لي من بني عمه صديق، فأردت أن ألقى ابن عمه في ذلك، فأعلمه بما كان من قوله لأمير المؤمنين، وأمر ابن عمه أن يشتد بلسانه عليه، وأن يأمره بطاعه أمير المؤمنين ومُناصحته، ويخبره أن ذك خير له في عاجل الدنيا وأجل الآخرة. ثم بعث عليه السلام بمعقل بن قيس فقاتل الخريت حتى قتل وأسر أصحابه، فأطلق من كان منهم مسلماً وبقي غير المسلمين، وحين ورد الأسرى الكوفة إشتري مصقله الأسرى بخمسمئة درهم من معقل وأعتقهم. فدفع مئتي درهم وعجز عن دفع الباقي فخاف وهرب. فخطب الإمام عليه السلام بهذه الخطبه. (١)

ص: ٣١٢

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٣/١٢٨ [١] بتصرف.

«قَبِحَ اللَّهُ مَصِيْقَةَ! فَعَلَ السَّادَةَ، وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ! فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسِيْكْتَهُ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَّتُهُ، وَلَوْ أَقَامَ لِأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ وَانْتَبَرْنَا بِمَالِهِ وَفُورَهُ» .

الشرح والتفسير

فرار العبيد

قال الإمام عليه السلام بعد أن سمع خبر فرار مصقله - عامل الإمام على منطقة أردشير حرّه من مناطق فارس - «قبح الله مصقله فعل فعل الساده، وفر فرار العبيد». لقد قام مصقله بعمل إنسانى كبير وذلك حين إشتري أسرى بنى ناجيه وأعتقهم فلما طولب بالمال وإعادته إلى بيت مال المسلمين وبدلاً من سؤال المهله للتسديد هرب بالمال إلى الشام حيث معاويه الذى عرف بخداعه للناس واستعبادهم وظاهر القضية أن مصقله وخشيه دينه لبيت المال هرب إلى الشام، بينما يبدو أنه كان مستعد مسبقاً لهذه الخيانه العظمى، فلعله كان يخشى الفضيحه من بعض الأعمال الأخرى التى قارفها، ولعل شده على عليه السلام فى العدل والاصرار على إسترداد حقوق بيت المال قد شقت عليه كما شقت على الآخرين. ويؤيد ذلك ما قاله صاحب مصقله ذهل بن حارث أنّ مصقله قال لم أكن لأغتم لو كنت مديناً لعثمان أو معاويه، فهما يتسامحان فى بيت المال، وقد فعلا ذلك بحق الالاف المؤلفه، الا أن عليا عليه السلام شديد التعامل مع بيت المال. مع ذلك فليس هنالك من مبرر لفعل مصقله، ولا سيما إثر ذلك التناقض الواضح، فقد تكرم من جانب ليقوم بذلك العمل الإنسانى، ومن جانب آخر قام بتلك الخيانه وهرب! لذلك قال عليه السلام:

ص: ٣١٣

«فما أنطلق مادحه حتى أسكتته، ولا صدق واصفه حتى بكته» (١) فقد فعل ما يدعو إلى مدحه من قبل كل من يسمعه، إلّا أنّ خبر عتقه لسبايا بنى ناجيه لم يكفد ينتشر بين الناس حتى إنتشر قبله نبأ فراره إلى الشام، فاصاب الجميع بالدهشه والذهول، فكيف يلجأ إلى معاويه من يقوم بهذا العمل النجيب، فيؤثر مجاوره معاويه والوقوف إلى جانبه على على عليه السلام؟ نعم لايسع الجميع تحمل العدل! ثم إختتم كلامه بالقول «ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره» أجل هذا منطق القرآن الكريم «وَإِنْ كَانَ دُوْ عُسْرِهِ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرِهِ» (٢). ليس هنالك من يعتقد بأنّ علياً عليه السلام سيعامله على خلاف القرآن وأحكامه، وعليه فلا يقبل عذره في خشيته من الإمام عليه السلام في تسديد ما بذمته لبيت المال. وهنا يبرز هذا السؤال لم لم يهبه الإمام عليه السلام ذلك المال تقديراً لعمله الإنساني، فمصقله لم يكن ليتحمل بذلك الدين لمصالحه الشخصيه بل كان نتيجه طبيعه لذلك العمل الجبار الذي قام به؟ ونقول في الجواب على هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام لو فعل ذلك لأصبحت سنه في المستقبل، بحيث يقوم كل عامل وآمر بالطلاق سراح الأسرى؛ الأمر الذي يفرز بعض المخاطر التي تهدد كيان المجتمع الإسلامي بينما يحظى الأمر بمدح الناس وثنائهم. أضف إلى ذلك فإنّ مثل هذا البذل يززع أسس ودعائم بيت المال ويعيد إلى الأذهان سياسه البذخ والاسراف التي إتبعها عثمان تجاهه، بينما كان الإمام عليه السلام قد وعد الأُمّه بأنّه سيتسرجع كل ما أخذ من بيت المال بغير حق وإن تزوج به النساء.

تأملان

١ - من بين الأسئلة التي تطرح بشأن هذه الخطبه

ص: ٣١٤

١ - ١) «بكته» من ماده «بكت» على وزن بخت بمعنى الضرب بالعصا، كما تعنى التوبيخ والغلبه على الآخرين عن طريق الاستدلال.

٢ - ٢) سورة البقره / ٢٨٠. [١]

أو ليس بنى ناجيه مسلمين، فكيف يسبون ويفادون؟ ويبدو أنّ الجواب قد ورد في قصه سبيهم، حيث خرج الخريت بن راشد الناجي ضد أمير المؤمنين عليه السلام واجتمع مع عدد من الأفراد، فلما بلغ الخبر الإمام عليه السلام. فوجه الإمام عليه السلام أحد أصحابه «معقل بن قيس» لقتال الخريت بن راشد فقتله وقتل جمعاً من أصحابه وأسر آخرين من مسلمين وغير مسلمين من النصارى ومانعى الصدقه، فجعل مسلميهم يمنه والنصارى ومانعى الصدقه يسره، ثم خلى سبيل من كان مسلماً وأخذ بيعته، ومن كان إردتد عرض عليه الرجوع إلى الإسلام أو القتل. فلما أتى بالأسرى إلى الإمام عليه السلام في منطقه أردشير حرّه التي كان مصقله عاملها، فبكى إليه النساء والصبيان وتصايح الرجال. فقال مصقله: أقسم بالله لأصدقن عليهم، فاشترهم بخمسائه ألف درهم فاعتقهم. فبعث مصقله بمقدار من المال وبقي آخر. وانتظر على عليه السلام مصقله أن يبعث المال فابطأ به فبعث إليه الإمام، فقدم الكوفه، فسأله الإمام عليه السلام المال، فأدى إليه مائتي ألف درهم وعجز عن الباقي، على أن يهبه الإمام عليه السلام ذلك، فلم يقبل الإمام عليه السلام، ولو وافقه الإمام عليه السلام لكان ذلك الأمر بدعه بحيث يشتري الآخرون الأسرى ثم يعتقونهم ولا- يؤدون المال إلى بيت مال المسلمين، إلى جانب كون تلك الموافقه تشيير تداعيات سياسه عثمان إزاء بيت المال بحيث يساء الظن بحزم الإمام عليه السلام بالنسبه لبيت مال المسلمين. والعجيب أنّ أحد أصحابه قال له: لو شئت لم يمض عليك جمعه حتى تجمع هذا المال، فقال: ما كنت لأحملها قومي، ولا أطلب فيها إلى أحد. ثم قال: واللّه لو أنّ ابن هند مطالبى بها، أو ابن عفان، لتركها لى. فهذه الأمور تشير إلى أنّه قد يكون منذ البدايه قد عزم على عدم أدائها، كما تفيد الرساله الثالثه والأربعون من نهج البلاغه أنّه كان عثمانياً، ولذلك كان قد بذل بعض أموال بيت المال لبطانته وقومه، وخلاصه القول فان بنيت الفكريه والعملية كانت قائمه على نهج معاويه لا أمير المؤمنين عليه السلام. ولعله كان رجلاً صالحاً قبل وصوله إلى الحكومه إلّا أنّ حب الدنيا والاغترار بالجاه قد غلب عليه. ومن هنا شقت عليه عداله الإمام عليه السلام حتى إلتحق فى خاتمه المطاف بمعاويه. فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه واختتمها بقوله «ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره». (١)

ويتضح ممّا ذكرنا أنّ الاسرى المذكورين لم يكونوا من المسلمين.

ص: ٣١٥

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣ / ١٢٨ - ١٥٠ [١] بتصرف.

السؤال الآخر الذى يمكن طرحه هنا: ما عله كل هذا الحزم من الإمام عليه السلام فى هذه الحالات؟

ونقول فى الجواب أنّ الإمام عليه السلام لم يتشدد فى هذا الأمر، بل كان قد أمهله لتسديد الدين عند المقدره أولاً، وثانياً لم يكن ذلك حقاً للإمام عليه السلام بحيث يهبه أموال بيت المال، بل هو حق المسلمين الذى لا يفرط فيه أمير المؤمنين عليه السلام قط. ورغم حزمه فى هذا الأمر إلّا أنه أبقى باب الرفق مفتوحاً، ومن ذلك إقترح البعض على الإمام عليه السلام بعد فرار مصقله إعادته السبايا والأسرى، فلم يوافق الإمام عليه السلام على أنّ مصقله قد إبتاعهم واعتقهم، فالمدين مصقله لا هؤلاء. (١)

ص: ٣١٦

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣/١٢٨ - ١٥٠ بتصرف.

ومن خطبه له عليه السلام

وهو بعض خطبه طويله خطبها يوم الفطر، وفيها يحمد الله ويذم الدنيا

نظره إلى الخطبه

تشتمل الخطبه على فصلين من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام: أحدهما حمد الله والثناء عليه، والآخر ذم الدنيا وحث الناس على التزود للآخرة. ويبدو أنّ الرضى (ره) لم يذكر الخطبه كلها فهي طويله جداً، ومن هنا لا يرى هناك من إرتباط بين هذين الفصلين، إلا أنّها رغم قصرهما يشيران إلى معان ضخمة مهمّة.

ج ج

ص: ٣١٧

١ - ١) سند الخطبه: قال أغلب شراح نهج البلاغه أنّ هذه الخطبه والخطبه رقم ٢٨ كلاهما فصل من خطبه طويله روى السيد الرضى قسماً منها هنا وآخر في الخطبه المذكوره (كما ترك القسم الثالث) ويفيد هذا الأمر مره أخرى أنّ السيد الرضى (ره) لم يرد نقل كافة خطب الإمام عليه السلام في نهج البلاغه، بل كان يلتقط كلامه عليه السلام إلتقاطاً لأنّ غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لا غير. على كل حال نقل هذه الخطبه قبل السيد الرضى (ره) المرحوم الصدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه، والمرحوم الشيخ الطوسى (بعد الرضى) في مصباح المتهجد. (مصادر نهج البلاغه، ٢/١٠ - ١١).

«الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرُ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا مَخْلُوقٌ مِنْ نِعْمَتِهِ وَلَا مَأْيُوسٌ مِنْ مَغْفِرَتِهِ وَلَا مُسْتَنْكَفٌ عَنْ عِبَادَتِهِ، الَّذِي لَا تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ وَلَا تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ» .

الشرح والتفسير

تناول هذا الفصل حمد الله والثناء عليه، ثم أشار إلى ست من النعم الإلهية التي تستحق الحمد والشكر، فقال عليه السلام «الحمد لله غير مقنوط (١) من رحمته». كيف اليأس من رحمة الله الواسعة وهو القائل سبحانه «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» (٢) كما قال على لسان نبيه يعقوب عليه السلام «لا-يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» (٣) وعلى لسان خليفه إبراهيم عليه السلام «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» (٤) وعليه فلا بد للإنسان من الانابه إلى الله مهما كانت ذنوبه ومعاصيه، ولا ينبغي له اليأس من رحمة الله، بل إن هذا اليأس كفر وضلاله وهو من أعظم الذنوب ثم قال عليه السلام «ولا مخلو من نعمته». كما ورد في القرآن الكريم «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً» (٥) وأضاف عليه السلام «ولا مأیوس من مغفرتة» كيف لا وهو القائل «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى

ص: ٣١٩

١-١) «مقنوط» من ماده «قنوط» على وزن قنوت بمعنى اليأس من الخير والرحمة، والقنوط على وزن بلوطصيغه مبالغه.

٢-٢) سورة الاعراف / ١٥٦. [١]

٣-٣) سورة يوسف / ٨٧. [٢]

٤-٤) سورة الحجر / ٥٦. [٣]

٥-٥) سورة لقمان / ٢٠. [٤]

أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (١). بل ورد في الحديث النبوي الشريف أن هذه الرحمة لمن السعة بحيث يتناول عليها ويطمع بها حتى إبليس «ليغفر الله يوم القيامة مغفره ما خطرت على قلب أحد حتى إبليس يتناول إليها» (٢) كما جاء في الرواية: «أن لله منه رحمة وقد أنزل واحده منها إلى الأرض وقسمها بين مخلوقاته، وإستأثر بتسع وتسعين إدخرها لعباده يوم القيامة» (٣). ولما كانت هذه الأمور تسوق الناس إلى العبادة، قال عليه السلام: «ولا مستنكف (٤) عن عبادته» وذلك لأدب الاستنكاف عن العبادة لا- يؤدي سوى إلى العذاب، فقد قال القرآن بهذا الخصوص «وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» (٥). ثم عد نعمتين أخريين عليه السلام فقال «الذين لا تبرج منه رحمة، ولا تفقد له نعمه» فقد تكررت الرحمة والنعمه وكأن السابقة أشارت إلى أصل الرحمة والنعمه الإلهيه، بينما تحدثت العبارة اللا-حقه عن دوام هذه النعمه وعدم إنقطاعها، وهذا ما ورد تأكيده في القرآن «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» (٦). والطريف في الأمر أن هذين الوصفين في الواقع ذكرا كدليل على عدم استنكاف الناس عن عباده الله؛ الأمر الذي تناوله علم الكلام تحت عنوان «شكر المنعم من دوافع معرفه الله». أما المفردات الرحمة والمغفره والنعمه فهي وإن كانت مرتبطه مع بعضها إلا أن مفاهيمها مستقله، فللرحمة معنى واسع يشمل كل فضل ولطف من الله للعباد سواء عن طريق إفاضه النعم أو مغفره الذنوب، وبعبارة أخرى فإن نسبة الرحمة إلى النعمه والمغفره هي نسبة العموم والخصصوص المطلق، بينما لكل من النعمه والمغفره مفهوم منفصل عن الآخر، فالنعمه تختص بالإمكانات الوجوديه التي تأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال، أما المغفره فهي إزالة آثار الذنب وتعييد الطريق بعد إزاله العراقيل.

ص: ٣٢٠

١-١ (١) سورة الزمر / ٥٣. [١]

٢-٢ (٢) في ظلال نهج البلاغه ١ / ٢٢٦. [٢]

٣-٣ (٣) مجمع البيان ذيل تفسر بسم الله الرحمن الرحيم من سورة الفاتحه.

٤-٤ (٤) «إستنكاف» من ماده «نكف» على وزن نظم بمعنى الابعاد، والانتكاف بمعنى الخروج من أرض إلى أخرى، والاستنكاف بمعنى الآباء والاعراض عن الشيء.

٥-٥ (٥) سورة النساء / ١٧٣. [٣]

٦-٦ (٦) سورة النحل / ١٨. [٤]

«وَالدُّنْيَا دَارٌ مُنَىٰ لَهَا الْفَنَاءُ وَلَأَهْلِهَا مِنْهَا الْجَلَاءُ وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضْرَاءُ، وَقَدْ عَجَلَتْ لِلطَّالِبِ وَالتَّبَسَّتْ بِقَلْبِ النَّاطِرِ، فَارْتَحَلُوا مِنْهَا بِأَحْسَنِ مَا بَحَضَرَتْكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلَا تَسْأَلُوا فِيهَا فَوْقَ الْكَفَافِ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنَ الْبَلَغِ» .

الشرح والتفسير

لقد عرض الإمام عليه السلام هنا بدم الدنيا على أنّ حبّها والتعلق بها يعد من أعظم آفات سبيل سعادته الإنسانيه. كما أنّ الاغترار بزخارفها وزينتها أساس الذنوب والمعاصي، فقال عليه السلام «والدنيا دار منى لها الفناء» (١). نعم فدعائم الكون تحكى آثار الزوال والفناء، فالأشجار التي تتفتح فى الربيع وتحمل الثمار إنّما تدبّل فى فصل الخريف لتجف ثم تتساقط أوراقها على الأرض فتعذب بها الرياح هنا وهناك، وكأنّ حياه هذه الاشجار لم تشهد الربيع ولم تحمل الثمار. وهكذا حال الإنسان فالفتى القوى بالأمس، هو العجوز الهرم اليوم، والكهمل العجوز اليوم سيكون عظاما نخره غداً! ثم قال عليه السلام «ولأهلها منها الجلاء» (٢) فكافه الأفراد دون إستثناء سيودعون عاجلا أم آجلا هذه الدنيا الفانيه ليتجهوا نحو تلك الحياه الخالده فى عالم الآخره. فهذا قانون إلهى مطلق لا يسع أحد إنكاره والخروج عليه. ومن هنا عبرت بعض الآيات القرآنيه عن

ص: ٣٢١

١- ١) منى لها الفناء، أى قدر لها لها الفناء. وتطلق على الآمال التي يخطط لها الإنسان فالمراد أن الفناء مقدر فى طبيعه الدنيا.
٢- ٢) «الجلاء» بمعنى الظهور، ومنه الجلاء عن الوطن بمعنى الخروج منه، وكأنّ الإنسان كان مستخفياً وقد ظهر بعد أن خرج من وطنه.

الموت باليقين، وذلك لأنه يوقن به حتى من أنكر المعاد والحساب. ثم قال عليه السلام «وهي حلوه خضره» وتختص الحلوه بالذائقه بينما ترتبط الخضره بالبصره، فخضره الدنيا وجمالها تخطف بصر الفرد الغافل وتشده إليها، بينما تسوق حلاوتها ذلك الإنسان إلى المعصيه والخطيئه، ومن المعلوم أنّ خداع الدنيا لا يقتصر على هذين الأمرين، بل لكل حاسه من حواس الإنسان ما يجذبها ويربطها بالدنيا. وأضاف عليه السلام «وقد عجلت للطالب والتبست (١) بقلب الناظر» فطبيعه الدنيا خيرها العاجل ومنافعها المبكره، وإذا أتت الإنسان فإنّها تنفذ إلى قلبه حتى تكون جزءاً منه لأنّها جميله للناظر، كما أنّها حلوه للمذاق، ولذلك كان التحرر منها صعباً. وما ان فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفات الدنيا لتتطلع القلوب إلى أوامر السماء حتى قال «فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ» (٢). لا ينبغي أن ينسى الإنسان أنّه مسافر قد أقام هنا بصورة مؤقتة، والمسافر الفطن إنّما ينهمك باعداد الزاد والمتاع في مثل هذا المنزل، فهو يتزود بأحسن الأمتعه والأشياء ولا يثقل كاهله بالردى منها أبداً «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ» (٣). فالتقوى أفضل زاد الدنيا إلى جانب الحذر من نوم الغفله.

الكفاف والعفاف

لقد تضمنت الخطبه إشارات إلى مختلف أبعاد الحياه الدنيا رغم قله عباراتها وألفاظها. فقد أشارت إلى طبيعه الحياه الدنيا والتي تكمن في الفناء والزوال ورحيل أهلها عنها شاءوا أم أبوا. كما تطرقت إلى ظاهرها الأنيق الذي يشد الأنظار إليه، ومن هنا يتجه نحوها من يخدع بالمظاهر، بينما يحذرهما من يتمعن في العواقب. وتناولت حب الدنيا الذي يقود بالتدريج إلى تربعها في قلب الإنسان حتى تصبح جزءاً من كيانه؛ الأمر الذي يجعل من المتعذر عليه نزع

ص: ٣٢٢

١ - ١) - ماده «الالتباس» إن تعدت بحرف الباء عنت الاختلاط والامتزاج، وإن تعدت بحرف على عنت الاشتباه، ومن هنا يتضح أنّ المراد بالعباره هنا الاشتباه.

٢ - ٢) «البلاغ» بمعنى الوصول إلى الشئ، ومنه البلوغ الذي يصل فيه الإنسان مرحله خاصه. والمراد بها هنا ما يتبلغ به، أى يقتات به مده الحياه.

٣ - ٣) سورة البقره / ١٩٧. [١]

حبها من قلبه ثم أرشده إلى النجاه من أخطارها وآفاتهما بالقناعه بالكفاف والعفاف، والمراد بالكفاف (١) والعفاف (أو العفاف والكفاف) أن يقنع الإنسان في الدنيا بقدر حاجته إليها ويدع الرغبة بالمزيد جانباً ويغض طرفه عن جمع الأموال؛ الأمر الذي يجعله يعيش الاستقرار والسكينه في حياته الدنيا ويحد من حمله في حياته الأخرويه، وذلك لأن طامه الإنسان في الحرص والطمع وعدم القناعه. طبعاً إذا كان تطلعه للمزيد من أجل إغائه الضعفاء والمحرومين فإن ذلك ليس فقط لا يتنافى والعفاف والكفاف فحسب، بل من شأنه أن يقود الآخرين إلى الكفاف. فقد ورد في القرآن الكريم: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» (٢)، كما ورد هذا المعنى في الروايات الإسلاميه، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم أرزق محمداً وآل محمد ومن أحب محمداً وآل محمد العفاف والكفاف» (٣). وعن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال: «قليل يكفى خير من كثير يردى» (٤) فالفرد إذا قنع باللائم من حياته كان ذلك زينه له من الذنب وتحلى بالكفاف والعفاف: «من اقتنع بالكفاف أده إلى العفاف» (٥) أضف إلى ذلك وبغض النظر عن الجوانب المعنويه والأخلاقية للقناعه بالضرورى في الحياه فأنما مدعاه للسكينه والاستقرار الروحى والنفسى في الحياه الدنيا، فقد ورد عن الإمام على عليه السلام أنه قال: «ومن إقتصر على بلغه الكفاف فقد إنتظم الراحة وتبوأ خفض الدعاه» (٦). وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وآله على شخص فدعا له قائلاً: «اللهم أرزقه الكفاف» كما قال رسول الله: «إن ما قل وكفى خير مما أكثر وألهى؛ اللهم أرزق محمداً وآل محمد الكفاف» .

ص: ٣٢٣

١ - ١) الكفاف من ماده كف بمعنى كف اليد، ولما كان الإنسان يبعد الشىء عنه بكفه فقد وردت هذه المفرده بمعنى المنع والسلب، ومنه المكفوف لمن سلب بصره، ويقال للجماعه كافه لأنها تمنع العدو.

٢ - ٢) سوره المائده / ٨٧. [١]

٣ - ٣) اصول الكافى ٢ / ١٤٠. [٢]

٤ - ٤) غرر الحكم، ح ٢٣٤.

٥ - ٥) غرر الحكم، ح ٢٨٦. [٣]

٦ - ٦) نهج البلاغه / ٣٧١. [٤]

ومن كلام له عليه السلام

عند عزمه على المسير إلى الشام وهو دعاء دعا به ربّه عند وضع رجله في الركاب.

نظرة إلى الخطبه

تتضمن هذه الخطبه أو هذا الدعاء عدّه أمور عميقه ومهمّه، فقد بين الإمام عليه السلام جميع المشاكل المتوقعه في السفر في ثلاث، ثم إستعاذ منها بالله. ثم وصف الحق سبحانه بأنّه الصاحب في السفر والخليفه في الأهل توكيداً لحضوره الذاتى المطلق لدى جميع الكائنات.

ح ج

ص: ٣٢٥

١ - ١) سند الخطبه رواه بعض المحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضى (ره) ومنهم نصرين مزاحم في كتاب صفين، وذكر بعض المؤرخين أنّ الإمام عليه السلام دعا بهذا الدعاء عند ما وضع رجله في الركاب وعزم على المسير إلى الشام لقتال معاويه. وقال السيد الرضى وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قفاه أمير المؤمنين على عليه السلام. ورواه أعثم الكوفى في كتاب الفتوح، ما اورده مع بعض الاضافات القاضى نعمان المصرى في كتاب دعائم الإسلام، وقال: إنّ الإمام عليه السلام كان يدعوا بهذا الدعاء عند كل سفر، مصادر نهج البلاغه، ١٢ / ٢.

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثِ السَّفَرِ وَكَآبِهِ الْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَلَا يَجْمَعُهُمَا غَيْرُكَ، لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لَا يَكُونُ مُسْتَضْحَبًا، وَالْمُسْتَضْحَبُ لَا يَكُونُ مُسْتَخْلَفًا» .

الشرح والتفسير

الاستعاذه بالله من وعث السفر

لا شك أنّ أولياء الله يعيشون التضرع إلى الله في جميع الأحوال إلّا أنّهم يكونون أكثر تضرعاً حين إشتداد المحن والخطوب، فيستأنفون أعمالهم بدعاء الله والتوسل إليه ليفرج عنهم ويلهمهم القوه والصلابه والثقه بالنفس. الإمام عليه السلام من جانبه لما عزم على المسير لصفين تضرع بهذا الدعاء «اللهم إنّى أعود بك من وعثاء (١) السفر وكآبه (٢) المنقلب (٣) وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد» فالواقع أنّ ما يشغل ذهن المسافر من جراء السفر أوجزه الإمام عليه السلام فى ثلاث؛ الأول (وعثاء السفر) والثانى كيفية العوده (وكآبه المنقلب) والثالث القلق على الأهل (سوء المنظر فى الأهل والولد). ويستعيد الإمام عليه السلام بالله من هذه الأمور المقلقه ويسأله تذليلها، ثم قال عليه السلام: «اللهم أنت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الأهل، ولا يجمعها غيرك» نعم الذات الإلهية فقط المنزهه عن الزمان والمكان، فهى محيطه بجميع الأمكنه والأزمنه، فليس هنالك من مكان أقرب إليها من آخر، ومن هنا فان الله معنا فى السفر ومع

ص: ٣٢٧

١- ١) «وعثاء» من ماده «وعث» على وزن درس تعنى المشقه، وأصله المكان المتعب لكثره رمله وغوص الأرجل فيه ومن هنا يطلق الوعته على المرأه المترهله لأنها لا تستطيع الحركه بسهولة.

٢- ٢) «كآبه» بمعنى الإنزعاج وسوء الحال وتصدع البال ومن هنا يقال الكئيب للفرد غير مرتاح البال.

٣- ٣) «منقلب» من ماده «قلب» مصدر بمعنى الرجوع، كما يمكن أن تكون إسم مصدر، واسم مكان وزمان، وهى هنا إسم مصدر أنسب منها مصدر.

أهلنا وولدنا في الحضر، وما أروع أن نودع زمام أمور حياتنا إلى من يحيط بكل شى ولا يحيط به شى. ثم يقدم الدليل على ما قال: «لأنَّ المستخلف لا يكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً» فالمكان يسود ويحكم جميع الكائنات المادية، ومن هنا فان وجودها في مكان يعنى خلو الاخر منها، وما ذلك إلا لوجودها المحدود، وليس هنالك من وجود لا محدود سوى الله سبحانه الذى لا يعرف المكان ولا الزمان ولا البعد ولا القرب، وهو كما قال: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ» (١) وقال: «فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» (٢).

قال السيد الرضى (ره) آخر الكلام: وابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد قفاه أمير المؤمنين على عليه السلام بأبلغ كلام وتممه بأحسن تمام من قوله «لا يجمعهما غيرك» إلى آخر الفصل.

فلسفه الدعاء

من يتصفح المصادر الإسلامية يدرك أنّ للدعاء مكانه خاصه فى التعاليم الإسلامية، حتى عد الدعاء مخ العباده. فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف «أفرعوا إلى الله عزوجل فى حوائجكم، والجاؤوا إليه فى ملماتكم، وتضرعاً إليه، فانّ الدعاء مخ العباده» (٣). بينما وصفه حديث آخر بسلاح المؤمن، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السموات والأرض» (٤)، وقال أمير المؤمنين على عليه السلام: «الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح» (٥) والدعاء على درجه من الأهميه بحيث قال القرآن الكريم: «قُلْ مَا يَعْجُزُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» (٦). مع ذلك هنا لك من إستشكل على الدعاء ولا سيما أولئك الذين غفلوا عن فلسفته:

١ - فهم يقولون أحياناً: لا ينسجم الدعاء وروح الرضا والتسليم لإرادته الله، فالذى يجب

ص: ٣٢٨

١-١ (١) سورة الحديد / ٤. [١]

٢-٢ (٢) سورة البقره / ١١٥. [٢]

٣-٣ (٣) بحار الانوار ٩٠ / ٣٠٢. [٣]

٤-٤ (٤) اصول الكافى ٢ / ٤٦٨ ح ١. [٤]

٥-٥ (٥) بحار الانوار ٩٠ / ٣٤١؛ [٥] أصول الكافى ٢ / ٤٨٦. [٦]

٦-٦ (٦) سورة الفرقان / ٧٧. [٧]

علينا هو التسليم لإرادة الله والرضى بما يرتضى!

٢ - إن الدعاء يعدّ أحد العوامل المخدرة للإنسان فيصده عن السعى والعمل والنشاط، حيث ينصرف الإنسان عن هذه الأمور ويلوذ بالدعاء لتأمين حاجياته.

٣ - ناهيك عن كل ما تقدم، كيف يسعنا تغيير المقدرات الإلهية بواسطة الدعاء، فلو قدر الله أمراً، فإنّ ذلك الأمر سوف لن يغيره دعاؤنا، وبعبارة أخرى فإنّ الدعاء نوع من أنواع الفضول والتطفل على أفعال الله، فالله لا يفعل إلّما فيه المصلحه ولا داعى للدعاء.

ولكن لا- ترى هذا الكلام سليم إذا ما وقفنا على فلسفه الدعاء ومفهومه الواقعى. فالمفهوم الواقعى للدعاء هو أننا نعمل ما فى وسعنا ونجهد أنفسنا وما فاق ذلك نوكله إلى الله ولطفه، ونتضرع إليه بالدعاء لحل المشاكل، وعلى ضوء «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمَضْطَّرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ الشُّوْءَ» (١)نطرق بابه ونسأله بعد أن سعينا سعيئاً ولم يبق إلّالتوفيقه. ومن هنا صرحت بعض الروايات الإسلاميه بعدم إستجابته دعاء من قصر فى العلم وخلد إلى الكسل والراحه. فالله لا يستجيب دعاء من سأله الرزق وهو جالس فى بيته دون أن يسعى ويعمل، كما لا يستجاب دعاء من أقرض مالاً ولم يكتبه ثم أنكر عليه المدين ولم يعطه ماله! والخلاصه فإنّ الكسل والتعاس لا ينسجم واستجابته الدعاء. وعلى ضوء ما تقدم فإنّ الدعاء لا يعتبر عاملاً مخدراً، بقدر ما بعد عاملاً محرراً. أمّا ما يقال من أن الدعاء لا يغير التقدير، فجواب ذلك واضح، وهو أنّ الدعاء سبب زياده استحقاق الإنسان لأنّه يتجه إلى الله وينور قلبه بمعرفه الله يتوب إليه من ذنوبه؛ لأنّ التوبه من شروط قبول الدعاء، وبذلك يتأهب أكثر لتلقى الفيض الإلهى والعنايه الربانيه، لأنّ الله قدر المزيد من لطفه وفضله لمن كان أكثر إستعداداً وجداره، بعبارة أخرى فإنّ لله نعم وخيرات وبركات للعباد مشروطه ببعض الشرائط، فى مقدمتها التوجه إليه ودعاؤه والتقرب إليه. وبناءً على هذا فإنّ رحمهاالله ولطفه متوقفه على الدعاء. ومن هنا يتضح الجواب على الإشكال الذى يفيد عدم انسجام الدعاء وروح الرضا والتسليم؛ لأنّ الدعاء تأكيد للتسليم والرضا، فالحق سبحانه أراد لعباده أن يعيشوا القرب منه بالدعاء، فاذا عاشوا القرب شملهم الله برحمته وفضله، الأمر الذى أكد الدعاء فى أغلب الآيات والروايات. وزبده الكلام فإنّ للدعاء أثاره التربويه الجمه على حياه الإنسان، أدناها أنّه يطهر قلبه

ص: ٣٢٩

وروحه من الأدران ويزيل عنه صداً الماديات ويوصله بمصدر الخير والاحسان والعطاء، كما يشكل السبيل للاستزاده من فضل الله ولطفه. ومن هنا فإن أولياء الله لا يستغنون في قضاء حوائجهم عن الدعاء، وبالدعاء يشعر العبد بالقوه، كما يشعر بالسكينه إثر التوكل على الله فيهب لمواجهة المشاكل وقلبه مفعم بالأمل في التغلب عليها، ولا- غرو فهو يعلم بأنها مذلله لإرادته الله تابعه لمشيئته وقدرته. كما تتأتى الحاجه إلى للدعاء في الأسفار المخيفه المحفوفه بالمخاطر، أما دعاء الإمام عليه السلام حين عزمه على السير إلى صفين فقد إقتدى به بالنبي صلى الله عليه وآله ومن سبقه من الأنبياء العظام. فقد كلف نوح عليه السلام بالتضرع إلى الله حين ركب السفينه في ذلك الطوفان الهائل لينجيه الله من تلك المخاطر «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ» (١) كما دعا موسى عليه السلام لما فر من أزلام فرعون حين خرج من مصر متوجهاً إلى مدين «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» (٢). وقال حين لقي لبنات شعيب «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» (٣). النبي الأ-كرم صلى الله عليه وآله حين هاجر من مكة إلى المدينه في ظل تلك الأخطار، كان يشعر بالتذمر لمفارقة مكة وبيت الله، وكان يتمنى الرجوع إليها فاتته البشاره «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ» (٤) وكان النبي صلى الله عليه وآله دعا الله أو كان يعيش حاله الدعاء فاستجيب له. ومن هنا حثت الروايات على الدعاء في السفر. (٥) وتختتم البحث بما ورد عن على عليه السلام حين إنطلق من الكوفه إلى الشام، حيث وضع رجله على الركاب فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما استوى على دابته قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» (٦) ثم دعا بهذا الدعاء الذي فرغنا من شرحه.

ص: ٣٣٠

١-١) سورة المؤمنون / ٢٨ - ٢٩. [١]

٢-٢) سورة القصص / ٢٢. [٢]

٣-٣) سورة القصص / ٢٤. [٣]

٤-٤) سورة القصص / ٨٥. [٤]

٥-٥) الوسائل الشيعه ٨ / ٢٧٥ - ٢٨١.

٦-٦) سورة الزخرف / ١٣ - ١٤. [٥]

من كلام له عليه السلام

فى ذكر الكوفه

نظره إلى الخطبه

كلام الإمام عليه السلام يمثل نبوتين بشأن الكوفه، أو الكوفه والبصره: الاولى الحوادث المريره التى تعصف بالكوفه وأهلها من قبل الطواغيت الظلمه، والثانيه العاقبه السيئه لأولئك الظلمه وعقابهم بما إقترفته أيديهم.

ج ج

ص: ٣٣١

١ - ١) سند الخطبه: من جمله من رواها قبل السيد الرضى (ره) ابن الفقيه فى كتاب البلدان، إلّا أنه صرح أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خاطب بهذا الكلام أهل البصره والكوفه ولا يغير ذلك شيئاً. ونقلها بعد السيد الرضى (ره) الزمخشري فى ربيع الأبرار [١] فى باب البلاد والديار. مصادر نهج البلاغه، ٢ / ١٥. [٢]

«كَأَنِّي بِبِكِّ يَا كُوفَةَ تُمَدِّينَ مَيْدَ الْأَدِيمِ الْعُكَاطِيَّ تُعْرَكِينَ بِالنَّوْازِلِ وَتُزَكِّيْنَ بِالرِّلَازِلِ وَإِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكَ جَبَّارٌ سُوءًا إِلَّا ابْتِلَاءُ اللَّهِ بِشَاغِلٍ وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ» .

الشرح والتفسير

نبوءه عن مستقبل الكوفه

ذكرنا أن الإمام عليه السلام خاطب بهذا الكلام الكوفه (وقيل البصره والكوفه) فقال «كأنى بك يا كوفه تمدين مد الأديم (١) العكاظي» «عكاظ» (٢) اسم سوق قرب مكه (وقال البعض بين مكه والطائف) تجتمع فيه العرب كل عام من مختلف المناطق لمدّه عشرين يوماً كما صرح بذلك البعض، فكانوا يعرضون متاعهم، كما كانوا ينشدون الشعر وتتفاخر كل قبيله على الأخرى، وبالطبع كان هناك كثيراً من المفاسد؛ الأمر الذى جعل الإسلام يردم ذلك السوق.

أما هل المراد بهذه العبارة الحوادث الأليمه التى ستقع فى الكوفه، أم كبر الكوفه وإتساعها. فقد صرح أغلب شراح نهج البلاغه بالتفسير الأول، بينما قال القليل منهم بالتفسير الثانى، ويبدو أن التفسير الثانى هو الأنسب، لأنّ دبع الجلد العكاظى لا يبدو منسجماً وكون العبارة كناية عن الحوادث الأليمه والمأساويه، بينما يمكنه أن يكون كناية عن إزدياد رقعته الكوفه وإتساع مساحتها. جدير بالذكر أنّ الجلد العكاظى واسع وجميل ومن أرغب الجلود لدى العرب، ولعل فى هذا إشاره إلى جمال الكوفه وعمرانها فى الأزمنه القادمه مقارنة بما عليها فى

ص: ٣٣٣

١ - ١) «أديم» بمعنى ظاهر الشئى وغالباً ما يطلق على الجلد، كما يسمى وجه الأرض ب (أدمه الأرض)، وقيل هذا هو السبب فى تسميه آدم لأنه خلق من أديم الأرض.

٢ - ٢) «عكاظ» كما ذكرنا سابقاً سوق كانت تقيمها العرب فى العصر الجاهلى قرب مكه فى صحراء بيت نخله والطائف يجتمعون إليه ليتعاطوا؛ أى يتفاخروا، وكان تفاخرهم قبلى عاده ما يقود إلى الحروب الداميه.

زمان الإمام عليه السلام. وذكر البعض أنّ العبارة إشارة إلى مستقبل الكوفة وتقسيمها إلى أجزاء متعددة، على غرار تقسيم الجلد العكاظي ودبغته وتوسيعه. ثم قال عليه السلام «تعركين (١) بالنوازل (٢) وتركيين بالزلازل» وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبه ١٠٨ بقوله: «تعرككم عرك الأديم» أى يسلط عليكم بنى أميه فيسومونكم سوء العذاب. ونبوءته الثانيه التي تمثلت بقوله عليه السلام: «إني لأعلم أنه ما أراد بك جبار سوءاً إلا ابتلاه الله بشاغل ورماه بقاتل». ويمكن أن تكون العبارة «ابتلاه الله بشاغل» إشارة إلى الأمراض العضال والالام التي تشغل الظلمه وتصرفهم عن الناس، كما أنّ «ورماه بقاتل» الحوادث التي تهجم على الإنسان من الخارج فتقتله وتقضى عليه.

والحق أنّ ما تكهن به الإمام عليه السلام بشأن الكوفة قد حدث، حيث إتسعت إتساعاً كبيراً بعد الإمام عليه السلام وكانت على الدوام مركزاً للفتن والحوادث المريره، وقد هب أغلب الجبابره للسيطره عليها، إلّا أنّ الله كان يبتليهم بأنواع البلاء ويدفع شرهم عنها، ولعل ذلك يعزى لكون الكوفة تشكل مركز استقطاب خلص المؤمنين من الشيعة الأوفياء لعلى بن أبى طالب عليه السلام وإن كان بينهم بعض المنافقين. ومن هنا صرحت بعض الروايات بفضل الكوفة. أمّا من بين الأفراد الذين هموا بالكوفة بعد أمير المؤمنين عليه السلام زياد بن أبيه. فقد ورد فى بعض الروايات أنّ زيادا لما حصبه أهل الكوفة، وهو يخطب على المنبر، فقطع أيدي ثمانين منهم، وهم أن يخرّب دورهم، ويجمر نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبه، يعرضهم على البراءه من على عليه السلام؛ وعلم أنّهم سيمتنعون فيحتج بذلك على استئصالهم وإخرا ببلدهم. فخرج خارج من القصر فقال: إنصرفوا، فإنّ الأمير يقول لكم: إني عنكم اليوم مشغول؛ وإذا بالطاعون قد ضربه، فكان يقول: إني لأجد فى النصف من جسدى حر النار حتى مات. (٣)

رأيان فى الكوفه

وردت عده عبارات فى نهج البلاغه بشأن الكوفه وأهلها، ومن ذلك الخطبه المذكوره التى

ص: ٣٣٤

١-١) «تعركين» من ماده «عرك» على وزن درك، من عركت القوم الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم.

٢-٢) «نوازل» جمع نازله بمعنى الحوادث الشديده.

٣-٣) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣ / ١٩٨. [١]

أشارت إلى المكانة المقدسة للكوفة وأنها ستشهد حوادثاً مريه وأليمه، وأن الله حافظها من كل جبار عنيد. بينما وردت بعض الخطب التي تذم الكوفة، ومن ذلك الخطبه ٢٥ حيث خاطب الإمام عليه السلام الكوفه قائلاً: «إنّ لم تكونى إلمأنت تهب أعاصيرك فقبحك الله». الروايات هى الأخرى صرحت بمدح الكوفه، فقد جاء فى الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال بشأن الكوفه «هذه مدينتنا ومحلتنا ومقر شيعتنا» (١)، كما جاء فى روايه أنّ الإمام الصادق عليه السلام دعا للكوفه قائلاً: «اللهم ارم من رماها وعاد من عادها» وللجمع بين الروايات نقول إنّ الكوفه ذاتا مقدسه وأهلها من خلص شيعه أهل البيت عليهم السلام ممن يتحلون بالورع والتقوى، إلمأ أنّ أجواء الكوفه تلوثت بفعل سيطره بنى أميه ودس العيون والجواسيس فيها وأعان الظلمه وتسليط الفساق عليها وايداع بيت المال إلى عبده الأهواء. فاذا مدحت الكوفه فالمراد أولئك النجباء من الشيعه، وان ذمت فلذلك الفساد الذى طالها من قبل بنى أميه. ونكتفى بهذا القدر على أن نخوض فى جوانب هذا الموضوع فى الابحاث القادمه ذات الصله.

ص: ٣٣٥

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٣ / ١٩٨. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

عند المسير إلى الشام، قيل: إنه خطب بها وهو بالنخيله خارجاً من الكوفه إلى صفين.

نظره إلى الخطبه

تشتمل هذه الخطبه على قسمين: الأول وجريا على عادته في خطبه عليه السلام في الحمد والثناء والشكر للنعم الإلهيه على العباد، والثاني يطلع الجيش على خطته فيمن بعثهم من المقدمه ويصف لهم المسير ليلتحقوا بهم، وتعبه عدداً من القبائل التي كانت تسكن أطراف دجله وتسيرهم لمقاتله العدو، ويبدو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يذكر اتباعه في النخيله الذين لم يكونوا كثيراً بانهم ليسوا وحدهم في صفين وأنه سيعبئ من كان في مسيرهم للقتال ليزدادوا عدداً وعدة.

ح ج

ص: ٣٣٧

١ - ١) سند الخطبه: كما ذكر سابقاً فإنّ الإمام خطبها بالنخيله حين تجهز لصفين خارجاً من الكوفه. وقد جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه أنّه خطبها في الخامس والعشرين من شوال سنة ٣٧ هـ وهو بالنخيله خارجاً من الكوفه، وأضاف طبقاً لنقل ابن أبي الحديد أنّه ذكرها جماعه من أصحاب السير وزاد وفيها، ومنهم نصر بن مزاحم في كتاب صفين (مصادر نهج البلاغه ٢ / ١٦).

[١]

«الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا لَاحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الْإِنْعَامِ، وَلَا مُكَافِ الْإِفْضَالِ» .

الشرح والتفسير

يعرض الإمام عليه السلام لله بالحمد والثناء في القسم الأول هذه الخطبه بعبارات جديده عظيمه المعانى وقد أشار إلى قضايا جديده فقال «الحمد لله كلما وقب (١) ليل وغسق (٢)، والحمد لله كلما لاح (٣) نجم وخفق» (٤) فالعبارة تشير إلى نقطتين: الأولى أنّ حمدنا وثنائنا دائمى باقى مادام الليل والنهار متعاقبين دائمين، وهكذا هو مستمر إستمرار طلوع الكواكب وغروبها، النقطه الأخرى هى أنّ ظلمه الليل وطلوع الكواكب وغروبها من النعم الإلهيه الكبرى، فظلمه الليل تهب الإنسان الهدوء والسكينه بعد تعب النهار وعناء العمل فيه، فطبيعته الليل والظلمه تختزن الراحة والخلود إلى النوم ومن هنا كانت الليالى الظلماء الخاليه من المصاييح تعد أفضل الأوقات للنوم؛ الأمر الذى أشارت إليه الآيه ٧٢ من سوره القصص «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

ص: ٣٣٩

١-١) «وقب» من ماده «وقب» الحفره فى الأرض أو الجبل، ويقال للشئى وقب إذا دخل الحفره أو الظلام، ومن هنا كان المعنى دخل الليل.

٢-٢) «غسق» يعنى شده الظلمه، ولما كانت الليل يشتد ظلمه كلما اقترب من منتصفه فإنّ الغسق كناية عن منتصف الليل أيضاً ومن هنا قال المفسرون: «أقم الصلوه لدلوك الشمس إلى غسق الليل» إشاره إلى الصلوات الأربع الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاه الصبح (سوره الاسراء / ٧٨) . [١]

٣-٣) «لاح» من ماده «لوح» بمعنى الظهور والبروغ. وتستخدم فى كل وجود مضيء ويطلق اللوح على الصفيحه البيضاء التى تصنع من الخشب أو الفلز.

٤-٤) «خفق» من ماده «خفق» و «خفوق» بمعنى الغياب والتزلزل والحركه، ومن هنا تستعمل حين يغرب القمر أو الشمس أو كوكب.

عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سِزْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهَ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» وقال «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١) وقد ورد هذا المعنى في عدة آيات قرآنية، كما دلت الأبحاث العلمية على أن اليقظة في الليل والنوم في النهار يشكل خطراً جدياً على صحة الإنسان، أما فائده طلوع الكواكب وغروبها فليست بخافية على أحد وذلك لمعرفة الأوقات والاهتداء في البحار والصحارى بواسطة هذه النجوم والكواكب «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» (٢) وجاء في القرآن أيضاً «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (٣). أمّا الروايات التي شبهت أهل البيت عليهم السلام بالنجوم فواضح من أنهم وسيله الهداية في الظلمات والتمتاهات وعدم الانحراف عن الصراط المستقيم، ولعل إشارة الإمام علي عليه السلام إلى ظلمه الليل وطلوع النجوم وغروبها من دون سائر النعم تهدف إلى بيان حقيقته وهي أن خروج أهل الشام على الإمام عليه السلام يمثل حلول عصر الظلمة التي لا يمكن النجاة منها إلاّ بزوغ كوكب الولاية ثم خاض الإمام عليه السلام في نوع آخر من النعم التي تستلزم الحمد، فقال «والحمد لله غير مفقود الانعام، ولا مكافئ الإفضال» (٤) فالعبارة الأولى تعني أن النعم الإلهية غير قابلة للاحصاء، أمّا الثانية فهي تشير إلى عجز العباد عن مكافئته هذه النعم وذلك لأنه أولاً عنى عمن يكافئ نعمه، وثانياً: أن قدره على شكره وحمده بحد ذاتها نعمه أخرى، لأنّ الشكر نعمه توجب المزيد، فقد ورد في مناجاة الشاكرين للإمام علي بن الحسين عليه السلام: «كيف لي بتحصيل الشكر؟ وشكري إياك يفتقر إلى شكر! فكلمنا قلت لك الحمد، وجب علي لذلك أن أقول لك الحمد» (٥). ومن هنا فإن أعظم شكرنا هو إذعاننا بالعجز عن الشكر. فقد ورد في حديث عن الصادق عليه السلام أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام ان اشكرني! فقال عليه السلام كيف أشكرك وشكري نعمه تحتاج إلى شكر. فجاءه الخطاب الآن أدت شكرى. (٦)

ص: ٣٤٠

١-١) سورة القصص / ٧٣. [١]

٢-٢) سورة الانعام / ٩٧. [٢]

٣-٣) سورة النحل / ١٦. [٣]

٤-٤) «افضال» من ماده «فضل» بمعنى الإحسان.

٥-٥) المناجاة الخمسة عشر، مناجاة الشاكرين، بحار الانوار ٩١ / ١٤٦. [٤]

٦-٦) بحار الانوار ١٣ / ٣٥١ ح ٤١. [٥]

«أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذَا الْمَلْطَاطِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمِهِ مِنْكُمْ مُوْطِنِينَ أَكْنَفَ دِجْلَهَ، فَأَنْهَضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أُمْدَادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام إلى برنامج وخطه حربيه فقال «أما بعد فقد بعثت مقدمتي (1) وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط (2) حتى يأتيهم أمرى» فنهز الفرات يقع غرب دجله، فيكون دجله شرقه، وعليه فان مقدمه جيش الكوفه تتحرك من جانب الفرات إلى الشمال باتجاه الجانب الغربى للفرات، وقد أمر الإمام عليه السلام بمواصله هذا السير من قبل الجيش، بينما إتجه عليه السلام من الفرات إلى الشرق نحو المدائن لتعبئته أكبر عدد ممكن من الناس، ثم قال عليه السلام «وقد رأيت أن أقطع هذه النطفه (3) إلى شردمه (4) منكم موطينين أكناف (5) دجله، فأنهضهم معكم إلى عدوكم وأجعلهم

ص: ٣٤١

- ١-١) «مقدمه» بكسر الدال بمعنى المتقدم و بفتح الدال المبعوث مسبقا و تطلق المفردتان على طليعه الجيش يعنى الطائفه التى تتحرك أمام العسكر لتطلعه على ما يواجهه من أحداث.
- ٢-٢) كما ذكرنا سابقا فإن ملطاط اقتبست من ماده «لط» «لظط» و ميمها زائده، و تعنى هذه ماده الإقتراب و المرافقه، و من هنا يقال «لط» للقاده لأنها ترافق العنق دائما، كما يقال الملطاط لشاطيء النهر و البحر، بينما أعتبرها البعض الآخر من أرباب اللغه من ماده «ملط» على وزن «شرط» و ليس هناك من فارق مع سابقتها من حيث المعنى و إن تفاوت اللفظ.
- ٣-٣) «نطفه» الماء الصافى القليل أم الكثير، و يطلق أحيانا بمعنى كل ماء جار و مائع سيال.
- ٤-٤) «شردمه» تعنى فى الأصل الجماعه القليله و ما يتبقى من الشىء، و يقال الشردمه لما يفصل عن الثمره.
- ٥-٥) «أكناف» جمع «كنف» على وزن «هدف» بمعنى أطراف الشىء، و حيث تكون أطراف الأشياء سببا لستر الاقسام الباطنيه فانه يقال «الكنيف» للجدران الأربعة التى يستتر فيها الإنسان، و كذلك يطلق على الواقى و الدرع الذى يحفظ الإنسان من ضربات الأعداء.

من أمداد القوه لكم». وهكذا ورد الإمام عليه السلام شرق العراق والمدائن، وبينما كانت مقدمه جيش الإمام عليه السلام تواصل زحفها في غرب الفرات، ولما بلغهم قدوم معاويه نحوهم بجيش عظيم، عبروا الفرات واتجهوا إلى الشرق صوب الإمام عليه السلام حذراً من محاصرتهم من قبل العدو ولم يستعدوا بعد لخوض القتال، فاستحسن ذلك منهم الإمام عليه السلام فلما اكتمل الجيش سار به الإمام عليه السلام لمواجهة العدو. جدير بالذكر أنّ مفردة «ملطاط» من ماده ملط أو لط هنا بمعنى شاطئ الفرات - نعم فقد دلهم الإمام عليه السلام المسير ليتقدموا من جانب شاطئ الفرات لأنّ الشام كانت في جهه الشمال، والفرات ينحدر من الشمال إلى الجنوب، وهكذا لا يكون الجيش في مشقه من حيث الماء والهواء وظلال الأشجار، ولا يضلون الطريق، إلى جانب سهوله الالتحاق بهم، وعليه فهذا المسير ينطوى على عدّه فوائد والتعبير بالنظفه عن ماء الفرات حسب ما قال السيد الرضى (ره) هو من غريب العبارات وعجيبها، فالمفردة على ضوء ما صرح به جمع من أرباب اللغه تعنى الماء الخالص، وقيل الماء الجارى، وكيفما كان فهي إشاره إلى عذوبه ماء الفرات وخلوه من الاملاح، وإن كان ظاهره قليل الكدوره.

قال السيد الرضى (ره): يعنى عليه السلام بالملطاط هاهنا السمت الذى أمرهم بلزومه، وهو شاطئ الفرات، ويقال ذلك أيضاً لشاطئ البحر، وأصله ما استوى من الأرض، ويعنى بالنظفه ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها.

أخبار على عليه السلام في جيشه وهو في طريقه إلى صفين

ذكر بعض شراح نهج البلاغه في ذيل هذه الخطبه بعض القضايا التاريخيه التى نشير إليها هنا:

١- فى قصر كسرى

سار عليه السلام حتى انتهى إلى المدائن وقصر كسرى وإذ رجل من أصحابه أنشد: جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد!

فقال له عليه السلام: ألا قلت:

«كُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَابِ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامِ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ» (١)

٢- فى الأنبار

مرّ عليه السلام بالأنبار (أحد المدن الغربيه فى العراق) فتقدم دهاقتها إليه فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاءوا يشتدون معه، وبين يديه ومعهم براذین قد أوقفوها فى طريقه، فقال: ما هذه الدوابّ التى معكم؟ وما أردتم بهذا الذى صنعتم؟ قالوا: أما هذا الذى صنعنا فهو خُلُقٌ مِنَّا نَعْظُمُ به الأمراء؛ وأما هذه البراذین فهديّه لك، وقد صنعنا للمسلمین طعاماً، وهيتاناً لدوابكم علفاً كثيراً.

فقال عليه السلام: أمّا هذا الذى زعمتم أنّه فيكم خُلُقٌ تعظّمون به الأمراء فوالله ما ينفع ذلك الأمراء؛ وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأمّا دوابكم هذه؛ فإن أحببتم أن آخذها منكم، وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم.

وأما طعامكم الذي صنعتم لنا؛ فإننا نكره أن نأكل من أموالكم إلاّ بئس.

٣- قرب الدير

علّى عليه السلام فى مسيره إلى الشام؛ حتى إذا كُنّا بظهر الكوفه من جانب هذا السّواد، عطش الناس احتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا علّى عليه السلام حتى أتى بنا إلى صخره صُرّس فى الأرض؛ كأنّها رُبُصُه عنز؛ فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرب الناس منه، وارتوؤا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضى قليلاً، قال عليه السلام: أمّنكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذى شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فانطلقوا إليه، فانطلق مِنّا رجالٌ ركباناً ومشاه، فاقتصصنا الطريق إليه؛ حتى انتهينا إلى المكان الذى نرى أنّه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شىء، حتى إذا عيّل علينا انطلقنا إلى دِيرٍ قريبٍ مِنّا، فسألناهم: أين هذا الماء الذى عندكم؟ قالوا: ليس قُرْبنا ماء، فقلنا: بلى إنّنا شربنا منه، قالوا: أنتم شربتم

ص: ٣٤٢

فقال له عليه السلام: ألا قلت:

«كُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (١١)»

٢- في الأنبار

مر لا بالأنبار (أحد المدن الغربية في العراق) فتقدم دهاقتها إليه فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاءوا يشتدون معه، وبين يديه ومعهم براذين قد أوقفوها في طريقه. فقال: ما هذه الدوات التي معكم؟ وما أردتم بهذا الذي صنعته؟ قالوا: أما هذا الذي صنعنا فهو خلق مئنا نعم به الأمراء؛ وأما هذه البراذين فهديه لك، وقد صنعنا للمسلمين طعامه، وهيانا لدوابكم علفا كثيره.

فقال عليه السلام: أما هذا الذي زعمتم أنه فيكم حق تعظمون به الأمراء فو الله ما ينفع ذلك الأمراء؛ وإنكم لتشققون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابكم هذه؛ فإن أحببتم أن أخذها منكم، وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم. وأنا طعامكم الذي صنعتم لنا؛ فإننا نكره أن نأكل من أموالكم إلا بئمن. اسدى

٣- قرب الدير

على عليه السلام في مسيره إلى الشام؛ حتى إذا كنا بظهر الكوفة من جانب هذا السوادء عطش الناس احتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا على عليه السلام حتى أتى بنا إلى صحره ضرس في الأرض؛ كأنها ربيضه عنز؛ فأمرنا فاقتلناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرب الناس منه، وارتووا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضى قليلا. قال عليه السلام: أمنكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فانطلقوا إليه، فانطلقوا يا رجال ركباننا ومشاه، فاقترضنا الطريق إليه؛ حتى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شيء، حتى إذا عيل علينا انطلقنا إلى دير قريب متا، فسألناهم أين هذا الماء الذي عندكم؟ قالوا: ليس تربنا ماء، فقلنا: بلى إنا شربنا منه، قالوا: أنتم شربتم

ص: ٣٤٣

منه! قلنا: نعم، فقال صاحب الدَيْر: والله ما بُني هذا الدير إلَّا بذلك الماء، وما استخرجه إلَّا نبيُّ أو وصيُّ نبيِّ.

قال العلامة المجلسيُّ فما كان من الراهب إلَّا أن أتى الإمام عليه السلام وأعلن إسلامه ولازم الإمام عليه السلام حتى إستشهد ليله الهرير فصلى الإمام عليه السلام عليه وأنزله القبر وقال: والله إنى لأرى موضعه فى الجنة.

٤- فى الرقه

ثم سار حتى أتى الرِّقَه - وجلَّ أهلها عثمانيه، فزوا من الكوفه إلى معاويه - فأغلقوا أبوابها دونه، وتحصنوا، وكان أميرهم سماك بن مخرقه الأسدَى فى طاعه معاويه، وقد كان فارق علياً عليه السلام فى نحو من مائه رجل من بنى أسد، ثم كاتب معاويه، وأقام بالرِّقَه حتى لحق به سبعمائه رجل.

قال نصر: فروى حَبه أن علياً عليه السلام لما نزل على الرِّقَه، نزل بموضع يقال له البليخ على جانب الفرات، فنزل راهب هناك من صومعته، فقال لعلى عليه السلام: إنَّ عندنا كتاباً توارثناه عن آباءنا، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم، أعرضه عليك؟ قال: نعم، فقرأ الراهب الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. الذين قضى فيما قضى، وسَطَّر فيما كتب: أنه باعثٌ فى الأميين رسولاً منهم؛ يعلمهم الكتاب والحكمه، ويدلهم على سبيل الله، لا فظُّ ولا غليظ؛ ولا صَيْحَابٌ فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئه السيئه، بل يعفوا ويصفح، أمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل نشر، وفى كل صعود وهبوط، تذلُّ ألسنتهم بالتكبير والتهليل، والتسبيح؛ وينصره الله على من ناوأه؛ فإذا توفاه الله، اختلف أمته من بعده؛ ثم اجتمعت، فلبث ما شاء الله، ثم اختلفت، فيمرُّ رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقضَى بالحقِّ ولا يرْكس الحكم، الدنيا أهون عليه من الرماد فى يوم عصفت به الرياح، والموت أهون عليه من شرب الماء على الضمآن. يخاف الله فى السرِّ، وينصح له فى العلانيه، لا يخاف فى الله لومه لائم؛ فمن أدرك ذلك النبيُّ من أهل هذه البلاد فأمن به كان ثوابه رضوانى والجنه، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره، فإنَّ القتل معه شهاده.

ص: ٣٤٤

ثم قال له: أنا مصاحبك، فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك. فبكى عليه السلام، ثم قال: الحمد لله الذي لم أكن عنده منسيًا، الحمد لله الذي ذكرني عنده في كُتُب الأبرار.

فمضى الراهب معه، فكان فيما ذكروا يتغدى مع أمير المؤمنين ويتعشى، حتى أصيب يوم صفين؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه السلام: اطلبوه، فلما وجدته صلى عليه ودفنه. وقال: هذا من أهل البيت، واستغفر له مراراً. (١)

نزول على بكر بلاء

فلما نزل بكر بلاء صلى بنا، فلما سلم رفع إليه من تربتها فشمها، ثم قال: واها لك يا تربه! ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب. ثم قال «هيئنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثم أومأ بيده إلى مكان آخر وقال: هيئنا مراق دمائهم».

ص: ٣٤٥

١-١) وردت هذه القضايا التاريخية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/٢٨٨. [١]

ومن كلام له عليه السلام

وفيه جمله من صفات الربوبيه والعلم الإلهي

نظره إلى الخطبه

تدور الخطبه حول صفات الربوبيه والعلم الإلهي - كما ورد سابقاً - وتتضمن إشارات عميقه المعاني إلى جوانب من صفات الجلال والجمال وتنزيه الذات الإلهيه المقدسه من مزاعم الملحدين والمشبهه التي تشبه الله بالمخلوقات

ص: ٣٤٧

١-١) سند الخطبه: رواها جمع ممن عاش بعد السيد الرضى (ره) ومنهم العلامه المجلسي في روضه البحار وعلى بن محمد بن شاکر الواسطي في كتاب عيون الحكم والمواعظ (مصادر نهج البلاغه، ٢/١٨).

«الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَّنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ البَصِيرِ فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ وَقَرَّبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ فَلَا اسْتِغْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ. لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاهِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيرًا!»

الشرح والتفسير

المنزه عن الظن والخيال

ذكرنا سابقاً أن الخطبه وارده في صفات الجلال والجمال، حيث أشارت إلى عدد من أسماء الله الحسنی بعبارات قصيره بعيده المعنى، فقد استهل الخطبه بذكر خمس صفات من صفاته التي توضح كل واحده منها الأخرى فقال «الحمد لله الذي بطن (1) خفيات الأمور ودلت عليه أعلام الظهور» وليس للعين من سبيل إلى رؤيته «وامتنع على عين البصير» ومن هنا «فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبتته يبصره». وقد أورد شراح نهج البلاغه عدّه تفسيرات لقوله عليه السلام «الذي بطن خفيات الأمور» فقال البعض: بطن هنا بمعنى علم، وقيل بطن هنا بمعنى الخفاء؛ أي الله الذي خفيت به الأسرار، إلّا أنّ التفسير الذي ذكرناه أنسب وهو أن

ص: ٣٤٩

١-١) «بطن» من ماده «بطن» على وزن متن تستعمل للأشياء الخفيه، ويقال بطنت الأمر بمعنى علمت بيواطنه أسرارها. ولما كان داخل البطن خفى فقد استعملت هذه المفرده بشأن كل شيء خفى، وباطن الأشياء بمعنى داخلها، وله معنى الفعل اللانزم والمتعدى.

بطن بمعنى الخفاء ومفهوم العبارة أنّ الله مخفى فى الأسرار، وعبارة أخرى فإنّ ذاته أعظم خفاءً من الخفاء، وزبده الكلام فان مفهوم العبارة ما أنشده الفيلسوف فى شعره: وجوده من أظهر الأشياء وكنهه فى غاية الخفاء

أمّا العبارة «دلت عليه أعلام الظهور» فتعنى أنّ آياته ظاهره جليه فى كل مكان، فى السموات والنجوم والمجرات والمنظومات وفى الأرض فى الصحارى والبحارى والجبال والأنهار وعلى جبين كافة الكائنات الحيه فى أوراق الأشجار والبراعم والثمار وفى باطن الذرات والجزئيات. وبالطبع كلما تقدم العلم وكشفت الأسرار ازدادت الأدله والآيات على قدره الذات الإلهيه وعلمها المطلق. والعبارة الثالثه «وامتنع على عين البصير» تفيد تعذر رؤيه جماله سبحانه على أحد العيون، وذلك لأنّ المشاهده الحسيه إنّما تختص بالجسم والجسمانيات ذات الجهه والمكان، بينما ذاته المطلقه ليست بجسم ولا- جسمانيه وليس لها من جهه أو مكان، بل هى مطلقه منزّهه عن كل هذه العوارض والنقائص «لا تُدرِكُهُ الأبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (١). ولما سأل موسى عليه السلام من جانب بنى إسرائيل ربّه «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» الشهود الحسى، خوطب «لَنْ تَرَانِي» (٢) ثم شاهد موسى عليه السلام قبسات من تجليات الله التى دكت الجبل فصعق موسى ومن معه فلما أفاق قال «سُبْحَانَكَ - تَبَّتْ إِلَيْكَ - وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ» والعبارة «فلا عين من لم يره. . .» نتيجته طبيعه تشير إلى أنّ العاقل لا يسعه إنكار الذات الإلهيه المقدسه بفعل وجود هذه الأدله والآيات، رغم تعذر المشاهده الحسيه، أما المؤمنون بالله فلا ينبغى لهم أن يعتقدوا بمشاهدته حتى قلبياً، وبالطبع يمكن رؤيته قلباً كما ورد عنه عليه السلام «لا تدركه العيون بمشاهده العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» (٣)، غير أنّ هذه المشاهده تتعلق بالأسماء والصفات لا مشاهده كنه الذات، وهنا يصدق حتى أولياء الله فضلاً عن عامه المخلوقات «ما عرفناك حق معرفتك» ثم قال عليه السلام: «سبق فى العلو فلا شىء أعلى منه وقرب فى الدنو فلا شىء أقرب منه» ثم يخلص على عليه السلام

ص: ٣٥٠

١-١) سورة الانعام / ١٠٣. [١]

٢-٢) سورة الاعراف / ١٤٣. [٢]

٣-٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٧٩. [٣]

إلى هذه النتيجة «فلا استعلاؤه (١) باعده عن شىء من خلقه ولا قربه ساواهم فى المكان به» لعله يتصور بأن هذه الصفات تناقض مع بعضها فكيف يكون الشىء بعيداً عالياً وفى نفس الوقت قريباً ملازماً؟ كيف يكون بعيداً فى القرب وقريباً فى البعد؟ نعم إذا كان المقياس هو المخلوقات التى من حولنا فهناك تناقض، غير أن الالتفات إلى هذه النقطة يزيل مثل هذا التناقض ويرشد إلى معرفه صفات الله، وهى أن وجوده سبحانه لا ينتهى وغنى ومطلق من جميع الجهات، وهو الوجود الذى لا يشوبه أية محدوديه من حيث الزمان والمكان والعلم والقدره، بل هو فوق الزمان والمكان فهو فى كل مكان وكل زمان وفى نفس الوقت ليس له مكان ولا زمان. ومثل هذا الوجود قريب من جميع الأشياء وهو بعيد عنها جميعاً لأنه لا يشبهها، هو أظهر من كل شىء، لأن كل شىء متقوم بوجوده، وهو ابطن من كل شىء لأنه لا يشبه المخلوقات والكائنات التى نعرفها ونألفها. وبناء على هذا فالمراد بالعلو فى العبارة المذكوره فوقيته للوجود وعلوه عليه لا- علوه فى المكان، والمراد بالقرب قربه فى الاحاطه الوجوديه لا- القرب فى المكان. وهنا لابد من الاذعان إلى أن فهم وإدراك هذه الصفات ليس سهلاً علينا بفعل تعاملنا مع صفات الممكنات؛ إلا أنه يمكن تقريبها إلى الأذهان من خلال التأمل والاستعانه ببعض الأمثله وإن كانت ناقصه قاصره. على سبيل المثال للرد على السؤال الذى يقول كيف يكون له وجود فى كل مكان وزمان ولا يحويه مكان وزمان، يمكننا أن نستعين ببعض الأمثله الناقصه من قبيل بعض المعادلات والقوانين الرياضيه، فكلنا نعلم بأن $(٢ + ٢ = ٤)$ فهى صادقه فى كل زمان ومكان فى السماء والأرض، وفى نفس الوقت ليس لها من زمان أو مكان. فقله عليه السلام: «فلا استعلاؤه باعده عن شىء من خلقه ولا قربه ساواهم فى المكان به» نتيجة واضحه لتلك الحقيقه المذكوره، فقد قال بعض شراح نهج البلاغه بعد أن إستعانوا بمثال ناقص إلا أنه مناسب، فى أن أمواج الضوء تنعكس على الزجاج وتنفذ إلى داخله فتضيئها، وهى فى نفس الوقت أقرب إليها من كل شىء، وهى ليست مثلها، بل هى وجود لطيف وأعلى وأرفع، ولعل هذا المعنى هو المراد بالآيه «اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...» (٢) ثم

ص: ٣٥١

١- ١) الاستعلاء قد يكون بمعنى الافضليه واريد بها هنا هذا المعنى.

٢- ٢) سورة النور / ٣٥. [١]

أشار عليه السلام إلى صفه أخرى: «لم يطلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته» فكنه ذاته ليس واضح لأحد ولا حقيقته صفاته، لأنّ ذاته وصفاته لا متناهيه، فأنى لعقل الإنسان المتناهي والمحدود أن يحيط باللامتناهي واللامحدود مع ذلك فإنّ آثاره الوجودية التي تجلت في كفافه الوجودات جعلت الإنسان يلم على سبيل الإجمال بذاته وصفاته وإليك هذا المثال الناقص: كلنا نعلم بوجود الروح، وإنّ الزمان حقيقه واقعه، إلماً أنّ إدارك حقيقه الروح والزمان ليس بالامر إلهين. وكلنا نعرف الفارق بين الكائن الحي والميت، ولكن ما كنه حقيقه الحياه؟ يبدو فهم ذلك صعباً، بعبارة أخرى لنا علم إجمالي بهذه الأمور لاتفصيلي (١) ثم قال عليه السلام «فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذى الجحود (٢)» الواقع أن جاحدى الله إنّما يجحدوه لساناً بينما يقرون به قلباً «وَلَيْتَن سَيَأْتَهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَيَخَرَّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * . . . وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (٣). كيف يمكن إنكار وجود الله وكل شى يهتف باسمه ويتقوم بوجوده. ثم إختتم عليه السلام كلامه بالقول «تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً» والمشبهه على نوعين: من يشبه الله بعباده فيرى له جسماً ويداً ورجلاً، والآخر من يشبه الآخرين به فيرى له شريكاً وشبيهاً فيعبده ويسجد له بدلاً من الله. وقد ذهب بعض الشراح إلى المعنى الأول هو المراد من العبارة، فى حين ذهب البعض الآخر إلى المعنى الثانى، ويبدو المعنى الثانى أصح إستناداً لقوله «المشبهون به» وان كانت الطائفتان على خطأ، لأنّه لا يشتمل على صفات المخلوقين بحيث تتخلل الحوادث ذاته المقدسه، ولا يمكن لمخلوق أن يشمل مكانه لأنّه لا يتحلى بأى من صفاته.

ص: ٣٥٢

-
- ١-١) للوقوف على المزيد بهذا الشأن راجع المجلد الأول من الشرح، الخطبه الاولى.
٢-٢) «جحود» و «جحد» بمعنى الإنكار الممزوج بالعلم - وقال الراغب فى المفردات تعنى نفى ما ثبت فى القلب، أو إثبات ما نفاه القلب - وعليه ففى مفهوم الجحود نوع من التعصب والعداء الخفى ضد الحق.
٣-٣) سوره العنكبوت / ٦١ - ٦٣.

لقد تضمنت الخطبه بعض الاشارات إلى عدّه جوانب فى مجال أسماء الله وصفاته: الاولى خفاء وكنه ذات الله فى نفس ظهور وجوده فى جميع عالم الوجود بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر وجوده، بينما لا يستطيع أيضاً الاحاطه بكنه ذاته المطهره. وهذا فى الواقع أحد الآثار اللامتناهيه لوجوده المطلق، حيث كلما خطونا خطوه نحو معرفه ذاته تقهقرنا خطوات عن درك كنه هذه الذات، وكلما حلقتنا فى سماء معرفه صفاته إحترقت أجنحتنا وسقطنا فى عالم الجهل وعلى قول ابن أبى الحديد فى شعره: فيك يا اعجوبه الكون

وبالمقابل فإن آثاره قد تجلت فى كافه دقائق عالم الوجود، بحيث لا يسع من يلمس هذه الآثار أينما حلّ إلّا أن يمزج مع نفسه بدعاء الإمام الحسين عليه السلام فى عرفه «متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك، أو يكون لغيرك من الوجود ما ليس لك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقه عبد لم تجعل لها من حبك نصيباً» .

والثانيه الحديث عن قرب الله وبعده إلى جانب قربه وبعده منا، وأنه أبعد ما يكون عنا فى غايه قربه، وأقرب ما يكون فى غايه بعده، وهذا الأمر هو الآخر من آثار ذاته المطلقه اللامتناهيه، وذلك لأن مثل هذه الذات فى كل مكان ولا يخلو منها مكان، وإلّا كانت محدوده. والثالثه نفى صفات المخلوقات والشبهه عن ذاته المقدسه، وهذا أيضاً من آثار الذات اللامتناهيه، لأن جميع المخلوقات محدوده ناقصه، وجودها متناهى وصفاتها مشوبه بالنقص والعدم، فاذا شبهناه بأحد مخلوقاته وقلنا بالشريك والشبيهه وتصورنا له صفات المخلوقين نكون قد أخرجناه من حاله اللاتناهى وكونه واجب الوجود وجعلناه فى عداد الممكنات المحدوده وستعرض إلى هذه الأمور فى الخطب القادمه إن شاء الله.

ومن كلام له عليه السلام

وفيه بيان لما يخرب العالم به من الفتن وبيان هذه الفتن

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى أهم عوامل فساد المجتمعات البشريه ولاسيما الانحراف الذى عصف بالمجتمع الإسلامى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم بين عليه السلام كيف تخلط الشياطين الحق بالباطل وتزينه للإنسان. فلو طرح الحق كما هو لا غلقت طرق نفوذ الشياطين، كما لو عرض الباطل على هيئته لما قبله أحد، ومن هنا فان الشياطين تخلط الحق بالباطل لاغواء الناس وإضلالهم. نعم فهؤلاء يدسون السم المهلك فى كل طعام لذيذ ليحثوا المغتلبين على تناوله. فهم يخفون الباطل فى الحق دائما ليضلوا الناس عن طريق ذلك.

ج ج

ص: ٣٥٥

١ - ١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه عدد ممن عاش قبل السيد الرضى (ره)، كالمرحوم الكلينى فى الكافى فى باب البدع والرأى والمقاييس (١ / ٥٤) وأحمد بن محمد بن خالد البرقى فى كتاب المحاسن (١ / ٢٠٨) واليعقوبى فى تأريخه (٢ / ١٣٦) وابوجبان التوحيدى فى البصائر والذخائر / ٣٢، وآخرون ممن عاشوا بعد الرضى ولا حاجه لذكرهم. مصادر نهج البلاغه ٢ / ١٩.

«إِنَّمَا يَدُوعُ وَقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامُ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ، وَيَتَوَلَّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالًا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللَّهِ، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخَفَ عَلَى الْمُؤْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَاذِمِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِعْفٌ وَمِنْ هَذَا ضِعْفٌ فَيُمَزَّجَانِ فَهَذَا لِكَيْ يَسْتَوْلِيَ الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيُنْجُو «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى»

الشرح والتفسير

هناك كلام بين المفسرين والشرّاح بشأن زمان الخطبه والظروف التي رافقتها، فيرى البعض أنه خطبها بعد ستة أيام من خلافته، بينما يرى البعض الآخر أنه خطبها بعد التحكيم، وبالطبع فإن الخطبه تنسجم والاحتمالين؛ أى أن تكون الخطبه فى بدايه الخلافه أو بعد التحكيم. فقد إستهل الإمام عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى سبب ظهور الفتن فى المجتمعات الإسلاميه التى تشمل ما بعد وفاه رسول الله صلى الله عليه و آله وبعض الحوادث كالجمل وصفين والنهروان فقال: «إِنَّمَا بَدَأَ وَقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تَتَّبَعُ وَأَحْكَامُ تُبْتَدَعُ (1) يخالف فيها كتاب الله». نعم أساس الفتن أمرين: اتباع أهواء النفس والاحكام الموضوعه المخالفه لكتاب الله والسنة، فمما لا شك فيه أن الفتن ستقبر لو كانت التعاليم الإسلاميه والاحكام القرآنيه هى السائده وحفظت هذه القوانين والأحكام ومنعت البدع وابتعد عن الأهواء فى إجراء الأحكام الشرعيه؛ وذلك لأن هذه القوانين تهدف بسط العدل والقسط وتضمن حقوق الناس وتعين وظائفهم. فالفتنه تفرزها

ص: ٣٥٧

١-١) «تبتدع» من ماده «بدعه» بمعنى حديثه الظهور، وتستعمل بشأن الاحكام المخالفه لكتاب الله والسنه النبويه.

الأهواء وتحريف القوانين لصالح الأطماع الشخصية وغياب العدل وتضييع الوظائف والاقبال على البدع. فاصحاب الفتن يلجأون تارة إلى التحريف والتفسير الخاطيء لاشباع أهوائهم ورغباتهم، وإذا تطلب الأمر وضع بعض الاحكام الجديده، أقبلوا على البدع، صحيح أن تلك البدع تفرزها الأهواء، إلا أن الأهواء والرغبات الشيطانيه قد تتبلور أحياناً كتفسير وإجراء للأحكام الشريعه وأخرى كبدع واحكام موضوعه، ومن هنا فصلاً عن بعضها في كلام الإمام عليه السلام. على سبيل المثال يمكن الاشاره هنا إلى فتنه بنى أميه التي تعد من أكبر الفتن التي شهدها الإسلام فقد إستولى معاويه بواسطه المكر والخداع على الحكمه ثم ابتدع توريتها في ولده، وادعى أن زياد ابن أبي سفيان وأخذ البيعه ليزيد في حياته، وسن سب أمير المؤمنين على عليه السلام من على المناير ثم اتهمه بقتل عثمان وطالب بدمه. (١) ثم قال عليه السلام «ويتولى (٢) عليها رجال رجالاً - على غير دين الله» ثم أشار في العبارة اللاحقه إلى وسائل هذا العمل، التي استغلت من قبل الجناه والطواغيت طيله التأريخ حتى أصبحت سنه، وهي أنهم يمزجون الحق بالباطل من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم «فلو أن الباطل خالص من مزاج الحق لم يحف على المرتادين (٣)، ولو أن الحق خالص من لبس الباطل إنقطعت عنه السن المعاندين» فما أروع هذه العبارة، لو خالص الباطل من مزاج الحق لما كان هناك من يتبعه، ولو خالص الحق من لبس الباطل لخرست ألسن المتخربين، ولذلك فمن البديهي ألا يحل الحق الخالص مشاكل عبده الأهواء، لأن منافعهم كامنه في الباطل، ولا الباطل الخالص يحقق لهم أغراضهم، لأن الناس لا يقفون إلى جانبهم، وهنا يتجهون صوب خلط الحق بالباطل؛ الأمر الذي يجسد كافه السياسات المخربه في العالم. ثم قال الإمام عليه السلام بهذا الشأن «ولكن يؤخذ من هذا ضغث (٤) ومن هذا ضغث فيمزجان فهناك يستولى الشيطان على أوليائه، وينجو «الذين سبقت

ص: ٣٥٨

١-١) راجع كتاب الغدير / ١٠.

٢-٢) «يتولى» من ماده «تولى» بمعنى الاتباع. وتأتى أحيانا بمعنى الإقتراب والسيطره على المقام والمنصب إلا أن المراد هنا المعنى الأول.

٣-٣) «مرتادين» من ماده «ارتاد»، الطالبين للحقيقه.

٤-٤) «ضغث» على وزن حرص قبضه من حشيش مختلط فيها الرطب باليابس، كما يطلق الضغث على الاحلام المزعجه، وقد وردت في العبارة بمعنى بعض من الشيء.

لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى». فالعبارة تفيد أن خلط الحق والباطل لا يمنع من معرفه الباطل وان تطلب ذلك قدرا من البحث والتحري والرجوع إلى الآخرين، ومن هنا قال الإمام عليه السلام بأن خلط الحق بالباطل لا يؤثر في أولياء الله، بينما يؤثر على أولياء الشيطان فيقودهم إلى الغواية والظلال. فالواقع هو أن مزج الحق بالباطل بمثابة الضوء الأخضر لعبده الأهواء وذريعه لاتباع الشيطان لخداع أنفسهم فيستدلوا على الآخرين بأننا سلكنا هذا الطريق لأننا إعتمدنا الدليل الفلاني (الذي يمثل الحق الممزوج بالباطل). نعم يمكن أن يقع بعض المستضعفين الفكريين والسذج جهلاً في حائل الشيطان، والحال لو كان لهم زعيم ومرشد لما شهدوا مثل هذا المصير وعليه فالإمام إزاء مزج الحق بالباطل على ثلاثة طوائف:

الطائفة الاولى «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى» (1) وبعبارته أخرى المخلصون من اتباع الحق ينجون بلطف الله من هذه الفتنة. الطائفة الثانية عبده الأهواء أتباع الحجج والذرائع الذين يقتحمون الباطل بذريعه الحق فيتجهون عن شبه علم إلى حائل الشيطان. الطائفة الثالثة السذج من الأفراد الذين يتعذر عليهم تمييز الحق من الباطل في ظل هذا المزج الخطير فيسقطون جهلاً في مصائد الشيطان، إلماً أن يركنوا إلى زعيم عالم. وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبة ٣٨ حين عرض الإمام عليه السلام للشبهه وسبيل النجاة منها فقال عليه السلام «وإنما سميت الشبهه شبهه لأنها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضيأؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال...».

تأملات

١ - أساس الفتن

إنّ التاريخ الإسلامي ولا سيما إبان القرن الأول والثاني ملي بالفتن الغريبة والأليمة التي كادت تقضي على جهود النبي صلى الله عليه وآله وصحبه الميامين، ولو لا تلك الفتن التي عصفت بالإسلام لما

ص: ٣٥٩

١-١) العبارة إقتباس من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء « [١] إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» التي وردت بعد الحديث عن جهنم، في اشاره إلى أن هذه الطائفة ناجية من النار، ولما كانت فتن الدنيا هي جهنمها، فقد استثنى عليه السلام هذه الطائفة من هذه الفتن.

كنا نعيش مثل هذا العالم، والأنكى من ذلك الفتن التي وقعت بعد خمس وعشرين سنة من رحيل النبي صلى الله عليه وآله حين وصلت الخلافة عام ٣٥ هـ فاستهدفت تلك الفتن إعادة الإسلام إلى الجاهلية؛ أما السنوات الأخيرة لخلافه عثمان فقد شهدت غياب جميع القيم والمثل الإسلامية، في حين تجددت سنن الجاهلية وأعرافها المقيته وانبرت طلائع الشرك والنفاق للتسلم واقعاً حساسه في الحكومه؛ الأمر الذى كان يعقد وظيفه الإمام عليه السلام. صحيح أن الإمام عليه السلام تمكن بجهاده المرير أن يحيى القيم والمثل الإسلامية، ولكن المؤسف أن الفتن لم تسكن حتى أدت فى خاتمه المطاف إلى قتل الإمام عليه السلام فى محرابه من قبل تلك الطغمة الضاله. ثم إتسع حجم هذه الفتن على عهد معاوية ويزيد وسائر الشجره الأمويه الخبيثه، فقد سفكت الدماء، واستفاحت البدع، وسادت الأهواء، لتبلغ ذروتها على عهد بنى العباس حتى مثل الإسلام وجفت عروقه. فلو نظرنا إلى هذه الفتن لوقفنا على عمق خطبه الإمام عليه السلام التى حصرت أساس الفتن فى أمرين إتباع الهوى والبدع فى دين الله؛ الأمران الذان يشاهدان فى كل مكان، فقد تمسكت طائفه من أصحاب الفتن بالأمر الأول بينما لاذت طائفه أخرى بالأمر الثانى. ولا نرى البحث يسع الخوض فى هذه التفاصيل ونوكلها إلى مكان آخر.

٢ - السياسات الشيطانيه

من عجائب الدهر أن مبادئ السياسه الاستبداديه تقريباً متكافئه طيله التاريخ. فقد إعتمد فرعون قبل ألف سنه - على ضوء المنطق القرآنى - سياسه فرق تسد «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا» (١) وما زال هذا المبدأ باق على قوته فى كافه نقاط العالم الاستكبارى، فالحكومات تلجأ إلى أقذر الوسائل من أجل تفرقه الصفوف. ولما كانت السياسه الشيطانيه آخذة فى التعقيد فى عصرنا الراهن أكثر من سائر العصور، فقد تعقد تبعاً لذلك مزج الحق بالباطل، حيث يمزج بعض الساسه الحق بالباطل بالشكل الذى يصعب تمييزه على الناس، وأدنى ذلك خداع الرأى العام ببعض العناوين كحقوق الإنسان والرفق

ص: ٣٦٠

بالحىوان وىوم العامل وأطباء بلا- حدود ومنظمه العفو الدوليه وتأسيس المراكز الخيره وإعانه المحرومين ومنح حق اللجوء السياسى لعدد من النازحين، فهم يتحدثون عنها بالشكل الذى قد يسيل له لعاب حتى بعض اليقظين والواعين. وناهيك عن كل ما سبق فالحكومات الاستكباريه تتشدد بالديمقراطيه وضروره الرجوع إلى آراء الشعب فاذا تم ذلك وجرت الأمور خلافاً لمصالحها اللامشروعه عمدت إلى الانقلاب أو أثاره الفتن؛ الأمر الذى لمسناه بوضوح فى التجربه الجزائريه، فابقوا على تلك الحكومه التى فشلت فى تلك التجربه لأنها تضمن مصالحها. بينما تغض النظر عن الحكومات التى تعيش عقليه القرون الوسطى وتمد لها يد العون والمساعده لأنها تحفظ مصالحها.

نعم هذه هى حقيقه عالم السياسه التى يتضح منها عمق كلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه فى أنّ أصحاب الفتن إنّما يمزجون الحق بالباطل لخداع عوام الناس.

ج ج

ص: ٣٤١

ومن خطبه له عليه السلام

لما غلب أصحاب معاويه أصحابه عليه عليه السلام على شريعه الفرات بصفين ومنعوهم الماء.

نظره إلى الخطبه

روى ابن أبي الحديد في إطار شرحه لهذه الخطبه أنّ نصر بن مزاحم قال: كان أبو الأعور السلمى على مقدمه جيش معاويه، وكان قد ناوش مقدمه جيش على عليه السلام وعليها الأشر النخعي مناوشه ليست بالعظيمه، فانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقناصرين - موضع في الشام - إلى جانب صفين، فحال جيشه بين ماء الفرات وأهل العراق. فلما بلغ أمير المؤمنين على عليه السلام الخبر دعا صعصعه بن صوحان فقال: إئت معاويه وقل له: إنا سرنا إليك مسيرنا هذا وأنا كره لقتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالحرب ونحن ممن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك؛ فحل بين الماء والناس حتى ننظر فيما بيننا وبينكم؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له؛ وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا. فمضى صعصعه بالرساله إلى معاويه، فقال معاويه لأصحابه: ما ترون؟ فأشار عليه بعض أصحابه بمنعهم الماء، غير أنّ عمرو بن العاص أشار عليه قائلاً: خل بين القوم وبين

ص: ٣٤٣

١- ١) لقد نقل هذه الخطبه «نصر بن مزاحم» في كتاب صفين عن جابر عن أمير المؤمنين على عليه السلام (مع بعض الفوارق الطفيفه) (مصادر نهج البلاغه ٢ / ٢٠). [١]

الماء فيأنهم لن يعطشوا وأنت ريان. بينما كان معاويه يرجح الرأى القائل بمنع جيش الإمام على عليه السلام من الماء. فمكث أصحاب الإمام عليه السلام بغير ماء فاغتم عليه السلام فألقي هذه الخطبه التي تفيض عدويه وفصاحه وبلاغه، شاحداً همم أصحابه فكشفوا أصحاب معاويه عن الماء.

جدير بالذكر أنّ القسم الأول من هذه الخطبه يشير إلى هذه الحقيقه وهى أنّ الإنسان إذا لم يقدم بكل شجاعه لأخذ حقه لم يكن أمامه سوى الذل والاستسلام للظلم والجور. أمّا القسم الثانى من الخطبه فيصور خداع معاويه ومكره فى تأليب الجهال وزجهم فى المعركه بما يجعلهم يستमितون من أجل الباطل!!

ج ج

ص: ٣٦٤

«قَدْ اسْتَطَعْتُمْ كُمُ الْقِتَالَ فَأَقْرُوا عَلَيَّ مِذْلَهُ وَتَأَخِّرِ مَحَلَّهُ أَوْ رَوْوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّمَاءِ تَرَوْوا مِنَ الْمَاءِ فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ. أَلَا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ قَادَ لُمَهُ مِنَ الْغَوَاهِ وَعَمَسَ عَلَيْهِمُ الْخَبْرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْرَاصَ الْمَيْتَةِ» .

الشرح والتفسير

أقربوا هذه الفتنة الخبيثة

أشرنا سابقاً إلى أن الإمام على عليه السلام ألقى هذه الخطبة في ظل تلك الظروف العصيبة التي ألمت بصحبه. وقد إختار الإمام -الذي يمثل مصدر البلاغه والفصاحة - هذه العبارات الحماسية من أجل تحقيق الهدف المنشود والذي جعل أصحابه يهبون مسرعين لطرده عن الشام ومردتها عن شريعة الفرات.

نعم ما زالت هذه العبارات - ورغم تقادم الزمان عليها - تفرع أسماع الجميع وتلهمهم الصمود والتصدي للأعداد إذا ما شكلوا خطراً على عزتهم وشرفهم. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بالقول: «قد استطعموكم القتال». وهي كلمة مجازية تعني: طلبوا القتال منكم، وهي تستعمل حيث يطلب أحدهم الطعام من آخر، وكأنَّ الحرب والقتال طعام يطلبونه من أصحاب الإمام عليه السلام. وما أشبه هذا الكلام بما تناقله ألسنه عوام الناس في حياتهم اليومية من قبيل تعبيرهم «هذا الفرد يحكه جلده» في إشاره واضحه إلى أنه يأتي بالأفعال التي ستؤدى إلى ضربه. والحق أن هذا أبلغ تعبير أورده الإمام عليه السلام بشأن منع أهل الشام للماء عن أصحابه عليه السلام. ثم يواصل الإمام عليه السلام خطبته بأن ليس أمامكم سوى سبيلين لا ثالث لهما تجاه

ص: ٣٤٥

خسه هذا العمل الذى ارتكبه أهل الشام؛ فإمّا السله وإمّا الذله «فأقروا على مذله وتأخير محله (١) أو رووا (٢) السيوف من الدماء ترووا من الماء» .

أجل لم يكن لهم من سبيل ثالث، فلو وهنوا أمام العدو وغلب عليهم العطش بحيث أمات رهطاً من جندهم لكان ذلك وصمه عار فى جبينهم ولفقدوا مكائنتهم ومنزلتهم لدى العدو والصدىق، إلمأنتهم حين نهضوا بالأمر وحملوا على العدو قد حظوا بمكائنتهم ومنزلتهم لدى العدو والصدىق، كما كشفوا عن مروءتهم وعظمه خلقهم حين لبوا طلب مولاهم بالابقاء على شريعته الماء مفتوحه بوجه جيش الشام؛ الأمر الذى جعل جيش معاويه يشعر بخسه عمله، وهذا ما أدى بدوره إلى ارتفاع معنويات أصحاب الإمام على عليه السلام وضعف روحيه جيش الشام فى معركة صفين ولا سيما فى أوائل تلك المعركه حين شهدت هذه الوقعه.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى مفهوم كلى ودائى على أنه السر فى انتصار وعزه ورفع كل أمه، فىخاطب جنده قائلاً: «الموت فى حياتكم مقهورين والحياء فى موتكم قاهرين» .

نعم ليس هناك من قيمه لهذه الحياه الماديه فى قاموس الأفراد الصالحين، كما لا يعتبر الموت مناهضاً لهذه القيمه، بل القيمه فى نظر الأحرار إنمّا تكمن فى الحياه التى تسودها العزه والكرامه، ولذلك تراهم يؤثرون الموت مع العزه على الحياه مع الذله، وهذا هو السر فى انتصار الفئه الإسلاميه القليله فى عصر النبى صلى الله عليه وآله - وما تلاه من عصور - على الفئه الضاله الكثيره العدد والعهده. أجل فالعزه فى المجتمع الإسلامى مقدمه على كل ما سواها؛ ولا يتوانى مثل هذا المجتمع فى التضحيه بالغالى والنفيس من أجل تحقيقها. وهذا المعنى قد تجلى بأروع صورته فى كلمات شبل على عليه السلام الإمام الحسين عليه السلام فى حادثه كربلاء الدمويه، فقد كان عليه السلام لا ينفك ينادى: «لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر لكم إقرار العبيد» (٣). ثم رد على الحر بن يزيد الرياحى - بعد أن جعجع بالحسين عليه السلام فى طريقه إلى كربلاء وسقاهم الحسين عليه السلام بعظمته المعروفه الماء

ص: ٣٦٦

١-١) «محله» تستعمل بمعنى المكانه والمنزله الاجتماعيه.

٢-٢) «رووا» من ماده «الترويه» بمعنى الارتواء من الماء، ولهذا يصطلح على اليوم الثامن من شهر ذى الحجه ب «يوم الترويه» حيث كان الحجيج فى السابق يتزودون بالماء حين الذهاب إلى عرفه ومنى والمشعر الحرام، كما قد تستعمل هذه المفرده ويراد بها المعنى الكنائى كإرواء السيوف الذى ورد فى هذه الخطبه.

٣-٣) بحار الأنوار ٧ / ٤٥ . [١]

ورشف خيولهم - حين نصحه بعدم مقاتله يزيد حفظاً لنفسه قائلاً: أفيالموت تخوفني. ثم تمثل عليه السلام بالشعر الذي أنشده شاعر الأوس حين حذره ابن عمه من نصره النبي صلى الله عليه و آله فقال: سأمضى فما بالموت عار على الفتى

ولا غرو فهذا هو المعنى الذي أكده القرآن الكريم «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ» (١).

ثم يشير أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته إلى مكر معاوية وسداجه أهل الشام. الذين انطلقت عليه الأعيب معاويه وحيه فقال عليه السلام: «ألا وإن معاوية قاد لمه من الغواه وعمس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنيه» (٢).

فالإمام عليه السلام يصور في هذه العبارات حكمه معاويه التي تستند إلى الحيله والمكر والخداع واستغلال السذج من الناس، إلى جانب تصويره إلى أهل الشام الذين بلغوا حداً من الضلال والغواية ما جعلهم يضحون بأنفسهم باطلاً من أجل تحقيق مآرب معاويه وأهدافه المشؤومه.

ولعل العبارة الواه في الخطبه تمثل إجابته على السؤال الذى قد يتبادر إلى أذهان أصحاب الإمام عليه السلام عن عله دفاع أهل الشام عن مطامع معاويه إلى حد الاستماته. فالإمام عليه السلام يكشف النقاب عن هذه الحقيقه وهى أن مكر معاويه فى تزوير الواقع من جانب وجهل أهل الشام وغفلتهم من جانب آخر قد جعلتهم يظنون بأنهم يقاتلون فى سبيل الله ونيل الشهاده. نعم لقد كان للدعايه الواسعه والأساليب النفسيه التى إعتمدها معاويه وعمرو بن العاص بالغ الأثر فى صفوف أهل الشام إلى درجه أن البعض منهم أيقن بأن عثمان قد قتل مظلوماً وإن قاتله هو الإمام على عليه السلام.

ص: ٣٦٧

١-٢) سورة التوبه / ٥٢. [١]

٢-٣) «لمه» من ماده «لمى يلمو لموا» بمعنى أخذ الشىء بأكملة و (لمه) بضم اللام وفتح الميم بدون التشديد» بمعنى الجماعه القليله، (غواه) جمع غاوى بمعنى الضال، والعمس بمعنى محو الأثر وعدم العلم بالشىء، ومن هنا أطلق العميس على الظلام الدامس، فيقال ليل عماس؛ أى مظلم.

وقد نهض معاويه للطلب بدمه إلى جانب الدفاع عن القرآن والإسلام وخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله، وعليه فليس القتل في هذا السبيل سوى الجنّه والشهادة التي يتعطش إليها كل مسلم غيوراً!

طبعاً حبل الكذب والخداع مهما طال قصير ولا يمكن للشمس أن تحجبها الغربان وسرعان ما تتضح الحقائق، غير أنّ ذلك لا يكون إلّا بعد انجلاء الغبره وإزهاق الأرواح ولات حين مناص.

تأملات

١ - ضرورة العيش في ظل العزة والكرامه

تتميز المدرسه الإسلاميه عن سائر المدارس والمذاهب بمبادئها وركائزها الحيويه الأصليه، ومنها المبدأ الذي ورد في الخطبه المذكوره والذي يكمن في ترجيح الموت الشريف على الحياه الوضيعه، وبعبارة أخرى ففي الوقت الذي تحذر فيه المدرسه الإسلاميه عن ممارسه الظلم والجور فانها تؤكد على عدم الركون إلى الظلمه والاستسلام للطواغيت، وقد تجسد هذا المعنى في رجالات الإسلام الذين استحقوا بحق لقب «أباه الضيم» (١). والواقع أن القرآن هو الذي أكد هذا المبدأ «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» (٢).

وكذلك تظافت روايات أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه» (٣). وقال الإمام الحسين عليه السلام: «موت في عزّ خير من حياه في ذلّ» (٤)، كما قال عليه السلام: «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد تركني بين السله والذله وهيئات له ذلك، هيئات منّي الذله أباي الله ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طهرت وحجور طابت أن تؤثر طاعه اللثام على مصارع الكرام» (٥).

ص: ٣٤٨

١-١) «أباه» جمع أبي بمعنى الرفض والامتناع والضميم بمعنى الظلم، وهو ما يطلق على أولئك الذين لا يستسلمون للظلم والجور.

٢-٢) سورة المنافقون / ٨. [١]

٣-٣) الكافي / ٥ / ٦٣. [٢]

٤-٤) بحار الأنوار / ٤٤ / ١٩٢. [٣]

٥-٥) بحار الأنوار / ٤٥ / ٨٣. [٤]

وأورد ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه: «سيد أهل الآباء الذي علم الناس الحميه والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدينه أبو عبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذل» .

ثم تطرق إلى كلماته الحماسيه في يوم عاشوراء «ألا وان الدعى ابن الدعى . . .» وأنها على غرار ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام في خطبته المعروفه - ٣٤ - «إن امرء يمكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه، ويفرى جلده، ويهشتم عظمه، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه صدره، فأما أنا فدون أن أعطى ذلك ضرب بالمشرفيه . . .» قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذريه رسول الله صلى الله عليه وآله؟! فقال: عضضت بالجنديل؛ إنك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابه أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضاريه تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقى أنفسها على الموت؛ لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنيه، أو الاستيلاء على الملك؛ فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها؛ فما كنا فاعلين لا أم لك (١)!

٢ - غسل أدمغه المغفلين

النقطه المهمه الأخرى التي تضمنتها خطبه أمير المؤمنين عليه السلام، أن أئمه الباطل قد ينمقون كلامهم بالمكر والخداع بما يجعلهم ينفذون إلى أعماق أفكار السذج من الناس، وكأنهم يسوقونهم إلى الشهاده، حيث يقبلون على القتال بكل شده وصرامه، في حين لا يزيدهم ذلك القتال سوى الطر من الرحمه والتغلغل في الدرك الأسفل من النار، وهذه طامه كبرى. ولم يكن معاويه يدعا من أولئك الطواغيت الذين ساروا على هذا النهج في غسل أدمغه أتباعهم وسوقهم للدفاع عن أهدافهم ومآربهم المشؤومه، فقد سبقه وتلاه الكثير من الظلمه الذين اعتمدوا هذا الاسلوب. فعمر بن سعد قائد عسكر يزيد في كربلاء حين دفع بأهل الكوفه للهجوم على الإمام الحسين عليه السلام نادى بأعلى صوته: «يا خيل الله اركبي، وبالجنه ابشري!» (٢).

ص: ٣٦٩

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٣/٢٦٣. [١]

٢- ٢) بحار الأنوار ٤٤ / ٣٩١. [٢]

كما كانت أجهزه الدعايه الفرعونيّه تصور موسى وهارون عليهما السلام ممن يسعى للسيطره على مصر وإشاعه الفساد فيها، في حين تصف فرعون بالمدافع عن هذه الأرض وعزه واستقلال أهلها، فيخاطب الأُمّه قائلاً: «إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا» (١). وما زال هذا هو المنطق الغاشم الذي يمارسه الظلمه على مر العصور والدهور.

٣ - المروءه والشهامه

قال نصر - في كتاب صفين - إن عمرو بن العاص قال لمعاويه لما ملك أهل العراق: ما ظنك يا معاويه بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتم أمس؟ أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه؟ ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءه. ويبدو أن عمرو كان بصدد تقرير معاويه ولومه على عدم قبول إقتراح ابن العاص بعدم منع أهل العراق من الماء. فقال معاويه: دع عنك ما مضى، فما ظنك بعلي؟ قال: ظني أنه لا يستحل منك ما استحلتت منه، وأن الذي جاء له غير الماء. فهو يعلم بخلق علي عليه السلام وليس لاغلاق شريعته الفرات من انسجام وذلك الخلق. (٢)

وهذا هو الخلق الذي ورثه ابنه الحسين عليه السلام الذي سقى الحر بن يزيد الرياحي وجنده الماء في تلك الصحراء القافره بينما كان خلق أعدائه أن ذبحوه عطشاناً إلى جانب شط الفرات، وليتهم اكتفوا بذلك فقد منعوا الماء حتى عن رضيعه. ملكنا فكان العفو مناسجيه

ص: ٣٧٠

[١-١] (١) سورة طه / ٦٣. [١]

[٢-٢] (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٣ / ٣٣٠. [٢]

ومن خطبه له عليه السلام

وهى فى التزهيد فى الدنيا وثواب الله للزاهد، ونعم الله على الخلق

نظره إلى الخطبه

تشتمل الخطبه فى الواقع على ثلاثه أقسام: القسم الأول فى الزهد وعدم التعلق بالدنيا وأن نعم الدنيا إلى زوال، وعلى المؤمنين أن يستعدوا لسفر الآخرة من خلال العمل الصالح، القسم الثانى ثواب الزهاد والأعمال الصالحه، والقسم الثالث الاقرار بعجز العباد عن إداء حق شكر المنعم، ولا سيما أعظم هذه النعم الإيمان.

ج ج

ص: ٣٧١

١- ١) سند الخطبه: روى أن الإمام عليه السلام خطبها فى عيد الأضحى وبدايتها «الله أكبر الله أكبر لا اله إلا الله والله أكبر والله الحمد الحمد لله على ما هدانا. .» ورواها المرحوم الصدوق (ره) فى كتابه من لا يحضره الفقيه ١ / ٢٢٩ والشيخ الطوسى (ره) فى كتاب المصباح / ٢٦١ وقال: نقل أبو مخنف عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه أن علياً عليه السلام خطب الناس فى الأضحى وقد أورد السيد الرضى (ره) بعضها فى نهج البلاغه، كما روى الشيخ المفيد قسماً منها فى المجلس العشرين من الامالى. مصادر نهج البلاغه ٢ / ٢٢ [١] وقد مضى شبيه هذا المضمون فى الخطبه ٢٨.

«أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَصَيَّرَ مَتًّا، وَأَذْنَتْ بِانْقِضَاءِ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهَا وَأَذْبَرَتْ حَيْدَاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنَاءِ سَيِّئَاتِهَا وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرَانَهَا وَقَدْ أَمَّرَ فِيهَا مَا كَانَ حُلُوءًا، وَكَادِرَ مِنْهَا مَا كَانَ صَيْفُوءًا، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا سَيِّئَاتُهَا كَسَيِّئَاتِ الْمَلَةِ الْإِدَاوَةِ أَوْ جُرْعَةِ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهَا الصَّدِّيَانُ لَمْ يَنْقَعِ، فَأَزْمَعُوا عِبَادَ اللَّهِ الرَّحِيلَ عَنِ هَيْدَةِ الدَّارِ الْمَقْسُورِ عَلَى أَهْلِهَا الزَّوَالِ، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهَا الْأَمَلُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهَا الْأَمَدُ» .

الشرح والتفسير

لقد تواترت خطبه عليه السلام في نهج البلاغه التي توصي بالزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها والتزود منها إلى الدار الآخرة، إلى جانب التحذير من مخاطرها وأنها متقلبه سريعه الزوال،

رغم أن الإنسان يطمح بالحياه مادامه في الدنيا ولا بد أن يعيش بعزه ورفعه ويصرف شؤون حياته الماديه دون التبعية للآخرين وأن الإنسان لا بد أن يتأهب فيها إلى السفر الشاق الذي ينتظره، ومن هنا ورد التأكيد في هذا الخطبه على الزهد في عشر عبارات رائعة في الدقه والمعنى، فقال في العبارة الاولى: «ألا وإن الدنيا قد تصرمت، (١) وأذنت (٢) بانقضاء» فالعبارة قد تكون إشاره إلى عمر الدنيا الايل للانقطاع والانتهاء، ومن هنا يسمى زماننا آخرالزمان، أو إشاره إلى الحياه الدنيا لكل فرد من الأفراد في كل عصر وزمان في أنه قصير سريع الزوال، والمعنى الاخير أنسب. فمفهوم العبارة هو أن عمر الإنسان من القصر في هذه الحياه الدنيا وكأنه يخاطب بالاستعداد للرحيل منذ ولادته. فقوله عليه السلام: «ألا وإن الدنيا قد تصرمت» يتناول باطن الدنيا، بينما تناول قوله عليه السلام: «وآذنت بانقضاء» ظاهرها، وبعبارة أخرى فإن الدنيا فانيه ذاتا،

ص: ٣٧٣

١ - ١) «تصرمت» من ماده «صرم» بمعنى انقطعت وفنيت، ومن هنا يطلق الصارم على السيف القاطع، وتصرم الدنيا يعنى انقطاع أجلها.

٢ - ٢) «آذنت» من ماده إيدان أعلمت وأخبرت.

كما أنّ مختلف ملامحها في الحياه الإنسانيه هي الأخرى قد أخبرت عن هذا الفناء، وبالتالي فلا- ينبغي للإنسان أن يغتر بها ويعيش الخسران.

وهي كما صورها الشاعر: هي الدنيا تقول بمل فيها

ثم قال عليه السلام: «وتنكر معروفها وأدبرت حذاء» (١) كيف لا وغضاضه الشباب وطراوه الفتوه ونظاره الوجه آيله إلى الكهوله والعجز والشحوب، ثم وصف الدنيا عليه السلام بقوله: «فهي تحفز (٢) بالفناء سكانها وتحدوا بالموت جيرانها» فالعبارة تفيد حركه الإنسان نحو أجله ومصيره المحتوم شاء ذلك أم أبى. والحدى الصوت الذى يردد لتعجيل حركه الناقه، فما أروع هذا التعبير الذى يفيد توفر جميع العوامل التى تدعو الإنسان لحث الخطى والسرعه فى الحركه إلى الزوال والفناء. أمّا التعبير بالجيران بعد السكان فكأنه يفيد أنّ محل سكن الإنسان ليس فى هذا العالم، فهو جاره وليس بصاحبه، أى أنه مفارقه لامحاله! ثم قال عليه السلام: «وقد أمر (٣) منها ما كان حلوا وكدر منها ما كان صفوا». فَمَا أُسْرِعَ نَهايه مرحله الطفوله والشباب الحلوه العذبه لتستبدل بمراره الشيخوخه والكهوله فيعد الاستقرار إضطراباً والحصه سقمًا والراحه تعبًا، وقيل فى تفسير هذه العبارة إنّها إشاره إلى اختلاف ظاهر الدنيا وباطنها، فظاهرها حلو وباطنها مرّ، ظاهرها عذب وباطنها علقم، غير أن التمعن فى العبارات السابقه يفيد أنّ التفسير الأول أنسب. ثم يختتم عليه السلام حديثه عن الدنيا بالقول «فلم يبق منها الاسمله كسمله (٤) الاداوه (٥) أو جرعه كجرعه المقله لو تمززاها (٦) الصديان لم ينقع» فالعبارة إشاره إلى حياه كل فرد من

ص: ٣٧٤

١- ١) «حذاء» من ماده «حذ» على وزن حظ بمعنى السريعه الذهاب، ومن هنا يطلق الحذاء على الدابه السريعه، والمراد هنا سرعه أجل الدنيا.

٢- ٢) «تحفز» من ماده «حفز» على وزن حبس بمعنى تعجلهم وتسوقهم، وقد ورد فى الحديث الشريف أن حفز الموت من علامات القيامة. قيل وما حفز الموت. قال صلى الله عليه وآله: موت الفجأه (لسان العرب).

٣- ٣) «مر» على وزن «شر» بمعنى المضى والعبور ومر على وزن حر ضد الحلو، وأمر» من ماده «مر» بمعنى مضى الزمان يجعل حلاوه الدنيا مراره.

٤- ٤) «سمله» من ماده «سمل» على وزن حمل بمعنى البقيه من الماء تبقى فى الإناء، ومن هنا كان الاسمال بمعنى الإصلاح لأنّه يزيل ما بقى من الأحقاد والأضغان.

٥- ٥) «إدواه» على وزن إداره القربه الصغيره من الجلد.

٦- ٦) «تمرز» من ماده «مز» على وزن حز بمعنى التذوق والامتصاص والأكل وقال صاحب مقاييس اللغهامتصاص الماء تدريجياً وببطئ.

الأفراد وانها تقترب بمرور الزمان من نهايتها، وقد كان تعبيره بمنتهى الروعه لتصوير قصر عمر الدنيا وسرعه زوالها، فالسمله تعنى الشى الزهيد الذى لاقيمه له، وتطلق على ما يتبقى من الماء فى الاناء، و «جرعه المقله» تطلق على المسافر الذى يشكو من قلّه الماء فيسعى للحصول على الماء لادخاره، أجل فعمر الدنيا قصير إلى درجه أنه لا يروى ظمأ من تعلق به، فما أحرى العاقل أن يفيق إلى نفسه وينأى بها بعيداً عن الاغترار به، فينهمك بالآخره ويسرع فى السير إليها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى النتيجة الواضحه «فازمعا (١) عبادالله الرحيل عن هذه لدار المقدور على أهلها الزوال ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد» (٢). إن الإنسان راحل عن هذه الدنيا شاء أم أبى، ومراد الإمام عليه السلام إرحلوا بعلم وعبره واغتنموا الفرصه وسيروا على النهج بالعمل الصالح والخلق الرفيع والمعرفه بالله لتنالوا سعادته الآخره والخلود فى نعيمها. فقد نبه عليه السلام إلى الخطرين الكامنين فى الطريق فقال: «ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد»؛ الأمر الذى أرشد القرآن الكريم إليه بقوله: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» (٣) ونؤكد مره أخرى أن العبارات لاتفيد ترك الدنيا والرهبانيه فيها وعدم الإكتراث إلى الحياه، بل تفيد عدم التعلق بزخا رف الدنيا والاغترار بها، وبعباره أخرى فالمراد التعامل مع الدنيا كما هى، لا على أساس الوهم والخيال وما تمليه علينا أهوائنا وشهواتنا.

لا أحد يعتقد بالخلود فى هذه الدنيا، فهى آيله إلى الزوال والفناء وأن الإنسان سيودعها يوماً ليودع خده التراب فى تلك الحفره، إلّا أن زينه الدنيا وزبرجها قد تلقى بحجابها على هذا الواقع بحيث قد ينسى الإنسان الموت بالمره، أو يتناسى تلك الحقيقه المره، فينطلق فى نشاطاته

ص: ٣٧٥

١- ١) «أزمعوا» من ماده «زمع» بمعنى العزم على الشىء، ولذلك قيل ان هذه المفرده قلبت من عزم أى نقلت فيها حرفى الزاء والميم من مكان إلى آخر، وقيل كانت فى الأصل جمع ثم بدلت إلى زاء، والمفردات الثلاث (عزم وزمع وجمع) بمعنى واحد وهو التصميم والعزم على الشىء.

٢- ٢) «أمد» على وزن صمد أجل الشىء وتأتى بمعنى الغضب، لأن صبر الإنسان ينفد حين الغضب.

٣- ٣) سورة الحديد / ١٦. [١]

وفعالياته وكأنه مخلد في الحياه الدنيا. وقد يطرح هذا الحجاب مؤقتاً إذا ما مات أحدهم واشتركنا في مراسم تشييعه ودفنه لتتضح أماننا الدنيا على حقيقتها، فإذا عدنا إلى حياتنا نسينا كل شى وعاد ذلك الحجاب، وكأنّ الموت لم يكتب علينا، وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يصدق على أولياء الله، فهم أرفع من أن تبعدهم هذه الحجب عن حقيقه الحياه والموت، فهم لا يرون الدنيا سوى قنطره إلى الآخره. والحق أنّ تحذير الإمام عليه السلام في هذه الخطبه من الدنيا لا يعنى أبداً أنه يحث الناس على مقاطعه الدنيا وتركها، كيف وهو يراها مقدمه للآخره «الدنيا مزرعه الآخره». والطريف أنّ بعض الشعراء من أولياء الله قد صوروا هذه الحقيقه في أشعارهم، ولا بأس هنا بالتعرض لهذه القضيه.

فقد ورد في الحديث المعروف: سعى إلى المتوكل بعلى الهادى عليه السلام أنّ في منزله كتباً وسلاحاً من شيعة من أهل قم، وأنّه عازم على الوثوب بالدوله، فبعث إليه جماعه من الأتراك، فهجموا على داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً ووجدوه في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعه من صوف، وهو جالس على الرمل والحصى هو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبله، وكان المتوكل جالساً في مجلس الشرب، فدخل عليه والكأس في يد المتوكل، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التى كانت في يده فقال: والله ما يخامر لحمى ودمى قط، فاعفنى فاعفاه، فقال: أنشدنى شعراً، فقال عليه السلام: إنى قليل الروايه للشعر، فقال: لا بدّ، فأنشده عليه السلام: باتوا على قلل الاجبال تحرسهم

القسم الثاني: السعي القليل وإن كثر

«فَوَاللَّهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوَالِدِ الْعِجَالِ وَدَعَوْتُمْ بِهَيْدِيلِ الْحَمَامِ وَجِأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْيَانِ وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ التَّمَّاسِ الْقُرْبَى إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئِهِ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلًا فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ» .

الشرح والتفسير

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من تصوير حقيقه الدنيا وسرعه زوالها حتى تطرق إلى الثواب والعقاب في الآخرة ومصير الإنسان هناك على أنها تمثل الهدف لهذه الدنيا. وبعبارة أخرى كان القسم الأول من كلامه مقدمه لهذا القسم الذى يشير فيه إلى الهدف الغائى وهو القرب من الله ونيل ثوابه واجتناب عقابه فقال عليه السلام: «فو الله لو حننتم (١) حنين الولد (٢) العجال (٣) ودعوتهم

ص: ٣٧٧

١- ١) «حنين» بمعنى الشفقة والرأفة والرحمة وتقال عادة مقترنه بالأنين والألم، و«أستن حنانه» تطلق على العمود الخشبي الذى ورد فى الروايه أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يستند إليه ويخطب الناس، ثم استبدل بالمنبر فكان ذلك العمود يتأوه لفراق النبي صلى الله عليه وآله.

٢- ٢) «وله» جمع «واله» و«والهه» من ماده «وله» على وزن ولع بمعنى شده الهم الذى يذهب بالعقل ويفقد التمييز.

٣- ٣) «عجال» جمع «عجول» من ماده «عجله» بمعنى السرعه فى العمل، كما تطلق على المرأه التى تشكل بولدها.

بهديل (١) الحمام وجأرتهم جوار (٢) متبتلى (٣) الرهبان (٤) وخرجتم إلى الله من الأموال والاولاد إلتماس القربه إليه في إرتفاع درجه عنده أو غفران سيئه أحصتها كتبه وحفظتها رسله لكان قليلاً- فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه» فقد إستعار الإمام عليه السلام ثلاثه تشبيهات للتضرع إلى الله واستفراغ الجهد في الانقطاع إليه، التشبيه الأول: الصوت الذى تخرجه النوق الوالهه الفاقده لأولادها، وهو الصوت الحزين الذى يرق له القلب حين سماعه، التشبيه الثانى: هديل الحمام حين إجتماعها، والهديل يطلق على فرخ الحمام كما يطلق على صوتها، وتعتقد العرب أن الهديل حمامه على عهد نوح عليه السلام بقيت وحدها وماتت عطشاً، ومنذ ذلك اليوم والحمام ينوح عليها، التشبيه الثالث: بكاء الرهبان المنقطعين عن الدنيا القابعين فى صومعاتهم، والذين ينوحون عند الطقوس الدينيه وقد إشتد نياحهم بفعل إنقطاعهم عن الدنيا. ولم يكتف الإمام عليه السلام بهذا التضرع والنوح والبكاء فقال: «وخرجتم إلى الله من الأموال والاولاد» أى ولو تركتم أموالكم وأولادكم من أجل القرب إلى الله كان قليلاً. والدليل واضح على ذلك فالدنيا وما فيها لاتعدل جناح بعوضه من الآخره، وهى ليست سوى قطره إلى بحر، ومن الطبيعى أن الإنسان لا يخرج من ماله وولده ما لم يقف على هذا المعنى. وقد وردت هذه المقارنه بين الدنيا والآخره فى خطبه المتقين بقوله عليه السلام: «صبروا أياما قصيره أعقبتهم راحه طويله» (٥).

ج ج

ص: ٣٧٨

- ١- ١) «هديل» يطلق على الحمام كما يطلق أحياناً على نوحه وهو من الهدل على وزن العدل بمعنى الصوت العذب.
- ٢- ٢) جوار له معنى مصدرى وهو الصوت المرتفع المشوب بالتضرع والنجده.
- ٣- ٣) متبتل من ماده تبتل بمعنى الانفصال والإعتزال وتطلق على الرهبان الذين يعتزلون المجتمع وينهمكون بالعباده. ومن ألقاب الزهراء عليها السلام البتول لإنقطاعها إلى الله وأفضليتها على سائر النساء فى الفضل والعلم والمعرفه. وورد فى بعض الروايات أن التبتل هو رفع اليد بالدعا.
- ٤- ٤) «رهبان» جمع «راهب» من ماده «رهب» على وزن رحم بمعنى الخوف، الخوف مع ضبط النفس والرهبانيه تعنى شده العبوديه وترك الدنيا، وهى بدعه ابتدعها طائفه من النصارى، حيث يقاطع الفتى أو الفتاه الزواج ويقبع فى زاويه من الدير وينهمك بالعباده، وقد ورد النهى عنها فى الاسلام، فقد قال صلى الله عليه وآله: «لا رهبانيه فى الاسلام».
- ٥- ٥) نهج البلاغه، الخطبه ١٩٣. [١]

«وَتَاللَّهِ لَوْ أَنْمَأَتْ قُلُوبُكُمْ أَنْمِائًا، وَسَأَلْتُمْ عُنُونَكُمْ مِنْ رَغْبِهِ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبِهِ مِنْهُ دَمًا، ثُمَّ عَمَّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا مَا الدُّنْيَا بَاقِيَةً، مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ عَنْكُمْ - وَلَوْ لَمْ تُتَّقُوا شَيْئًا مِنْ جُهْدِكُمْ - أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ الْعِظَامَ، وَهَدَاهُ إِيَّاكُمْ لِلْإِيمَانِ» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن عظمه النعم الإلهيه التي أفاضها الله على البشرية لإثاره حس الشكر لديه والتوجه إلى ربه بما يقوده إلى السمو والرفعه والكمال والقرب من الله. فقال عليه السلام: « وتالله لو إنمأَتْ قلوبكم انمياً (1)، وسألت عيونكم من رغبه إليه ورهبه منه دمًا، ثم عمرتم في الدنيا، ما الدنيا باقيه، ما جزت أعمالكم عنكم - ولو لم تقوا شيئاً من جهدكم - أنعمه عليكم العظام، وهده إياكم للإيمان» فقد شرح الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغه أقصى جهود الإنسان كما وكيفاً في طاعه الله، فمن ناحيه الكيفيه أنه لو ذاب في طاعه الله واصطرخت كافه ذرات جسمه وحلقت روحه في سماء العبوديه، ومن الناحيه الكمييه لو دام هذا العمل طيله حياه ابن آدم، فمع ذلك لايسعه أن يؤدي حق شكر النعم الإلهيه، بل شكر نعمه واحده، حيث صرحت بعض الروايات بان ذات الشكر نعمه ينبغى للإنسان الشكر عليها. وما أروع ما قال الشاعر:

ص: ٣٧٩

١- ١) «انمياث» من ماده «موث» على وزن موت بمعنى الذوبان، وانمياث من باب الانفعال، ويعنى فى العبارهبذل قصارى الجهد فى سبيل الله.

شكر الاله نعمته موجه لشكره وكيف شكرى بره وشكره من بره (١).

فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أشار بتلك العبارة إلى عدم محدودية النعم الإلهية. وهو كالتعبير القرآني في الآية ٢٧ من سوره لقمان بشأن علم الله: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ». نعم ليس للعبء سوى الاعراب عن ضعفه وعجزه أمام النعم الإلهية. الجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام يؤكد على نعمه الإيمان «وهده إِيَّاكُمْ للإيمان» من قبيل ذكر الخاص بعد العام. فقد أشار في العبارة السابقة إلى الأنعم الإلهية ثم خص هنا منها نعمه الإيمان على غرار ما جاء في القرآن الكريم: «بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَيِّدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ» (٢). ولا- تتأتى أهميه الإيمان من كونها مفتاح سعادته البشر وجواز سفره إلى الجنّة فحسب، بل لأنها الدافع لكافة الفضائل والأعمال الصالحة والرادع من الرذائل والأعمال السيئة، فالواقع هي أساس الدين والملفت للنظر في العبارة أنّه عليه السلام نسب الهدايه لله، وان حصل عليها الإنسان باختياره وإرادته؛ وذلك لتعذرهما على الإنسان بمفرده ما لم تشمله العناية الإلهية ويرشده الأنبياء والأولياء والكتب الإلهية إليها، ومن هنا نسأل الله في صلواتنا اليوميه ليل نهار الهدايه.

ويبدو من الأهميه في نهايه الخطبه الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن القسم الأول لها بعد المقدمه حيث يعد القلوب من خلال تنبيهها إلى تقلب أحوال الدنيا وزوالها، بينما يوجهها في القسم الثاني والثالث إلى طاعه الله وكسب الفضائل ودفع الرذائل. مع هذا الفارق في تأكيد القسم الثاني على أهميه القرب من الله ومطلوبيه كل سعى وجهد للوصول إلى هذا الهدف، أما القسم الثالث فيرد ساحه القدس الربوبي صاحب الفضل عن طريق مسأله شكر المنعم، فالوجدان هو الذي يشهد بضروره هذا الشكر.

ج ج

ص: ٣٨٠

١- ١) بيت الشعر إقتباس من حديث عن الإمام السجاد والصادق عليهما السلام، بحار الانوار، ١٣ / ٣٥١ المناجاه الخمسه عشر
مناجاه الشاكرين.

٢- ٢) سوره الحجرات / ١٧. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

«في ذكرى يوم النحر وصفه الأضحيه»

«وَمِنْ تَمَامِ الْأُضْحِيِّهِ اسْتِشْرَافُ أُذُنِهَا، وَسَلَامُهُ عَيْنِهَا، فَإِذَا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الْأُضْحِيُّهُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كَانَتْ عَضْبَاءَ الْقَرْزِ تَجْرُ رِجْلَهَا إِلَى الْمَنْسُكِ».

الشرح والتفسير

تمام الأضحيه

أشار الإمام عليه السلام في هذا الفصل من الخطبه إلى تفاصيل جزئيات الأضحيه، وقال: «ومن تمام الأضحيه (٢) استشراف (٣) أذنها وسلامه عينها، فاذا سلمت الاذان والعين سلمت

ص: ٣٨١

١-١) سند الخطبه: ورد في كتاب مصادر نهج البلاغه أن هذه ليست خطبه مستقلة (بل هي جزء من الخطبه السابقه التي خطبها في الأضحى) ومن هنا عدتها نسخه ابن أبي الحديد التي تعتبر النسخ جزءاً من الخطبه السابقه، اما أنها وردت مستقلة في سائر النسخ فهذا من خطأ الرواه، والشاهد على ذلك أنها وردت جزءاً من الخطبه في كتاب من لا يحضره الفقيه (١ / ٤٦١) ومصباح المتهجد / ٤٢٩. [١] جدير ذكره أن العبارة التي وردت في كتاب من لا يحضره الفقيه بعد «تجر رجلها إلى المنسك» «فلا تجزى» الذي يغير العبارة تماماً. ولا يبدو ذلك مستبعداً، وان درجنا على السير في نهج البلاغه [٢] حسب تصنيف صبحي الصالح. مصادر نهج البلاغه، ٢ / ٢٣. [٣]

٢-٢) «الأضحيه»: الشاه التي طلب الشارع ذبحها بعد شروق الشمس من عيد الأضحى.

٣-٣) «استشراف» من ماده «شرف» بمعنى علو المقام، والمراد باستشراف الاذان تفقدها حتى لا تكون مجدوعه أو مشقوقه غير سالمه.

الأضحيه وتمت» ثم أضاف عليه السلام: «ولو كانت عضباء (١) القرن تجر رجلها إلى المنسك» ولا- يتتافى هذا الكلام مع ما تعارف بين الفقهاء وما ورد في سائر روايات المعصومين عليهم السلام من أنّ الأضحيه يجب أن تكون سالمه الرأس، لأنّ غضب قرنها الداخلى يضر بسلامتها لا قرنها الخارجى، كما لا يضر العرج البسيط الذى لا يعيقها عن الحركة. وجاء فى بعض النسخ قوله: «فلا تجزى» بعد العبارة «تجر رجلها إلى المنسك» وعليه يصبح مفهوم العبارة عدم أجزاء الأضحيه إن كسر قرنها وكانت تجر رجلها على الأرض (٢). قال السيد الرضى (ره) فى ذيل الخطبه: «والمنسك هاهنا المذبح».

عليه سلامه الأضحيه من النقص والعيب

رغم أنّ الهدف من الضحيه هو إستفاده بعض المحتاجين منها كما صرح بذلك القرآن الكريم: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٣) ومن المسلم به عدم وجود أى تأثير على هذا المعنى سواء كان قرنها سالمًا أم لا، ولكن الأضحيه شعيره إسلاميه وعباده، ولا- يليق بالساحه القدسيه للربّ سبحانه إختيار الشاه المعيبه والمريضه، ولا بدّ من تقديم الخالصه فإنّ ذلك نوع من الادب والاحترام؛ الأمر الذى نلمسه بوضوح فى صلاه المرأه بكامل الحجاب، وارتداء الثياب النظيفه حين الصلاه، والتعطر عند العباده وغسل الميت وتكفينه وتحنيطه وما إلى ذلك من الأمور.

ص: ٣٨٢

١- ١) «عضباء» من ماده «غضب» على وزن عزم بمعنى القطع أو الكسر، وعضباء القرن بمعنى مكسوره القرن، كما يطلق على الناقه إذا شقوا اذنها ناقه عضباء.

٢- ٢) وردت العبارة «فلا تجزى» فى كتاب من لا يحضره الفقيه ١ / ١٦٨ باب صلاه العيدين، ح ١٤٨٧.

٣- ٣) سوره الحج / ٣٦. [١]

ومن خطبه له عليه السلام

وفيها يصف أصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام.

نظره إلى الخطبه

هناك خلاف بين الشراح بشأن زمان الخطبه، فقد ذكر صاحب مصادر نهج البلاغه أنّ جماعه سألوا الإمام عليه السلام عن رأيه بمن سبقوه بالخلافه لما غلب عمرو بن العاص على مصر وقتل عامل الإمام عليه السلام عليها محمد بن أبي بكر. فأجابهم عليه السلام وهل خمدت فتنة ابن العاص لتسألوا هذا السؤال وقد غلبكم على مصر وقتلوا صحبى، ثم قال: سأكتب كتاباً وأجيب على أسئلتكم. بينما ذهب البعض إلى أن بدايه الخطبه مرتبط بزمان البيعه وذيلها بواقعه صفين. كما احتمل أن تكون فى البيعه وموقعه الجمل إلّا أنّ كل هذه الاحتمالات بعيدة، والظاهر أنّ الخطبه وارده بشأن صفين حين هم صحبه بالقتال، ويؤيد ذلك ما أورده المرحوم البحرانى والشارح الخوئى من أنّها ناظره إلى حال أصحاب الإمام عليه السلام فى صفين حين منعهم من قتال أهل الشام. (٢) وزبده الكلام فإنّ الإمام عليه السلام قال لما استبطأ أصحابه القتال: «وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى

ص: ٣٨٣

١-١) سند الخطبه: يرى صاحب مصادر نهج البلاغه أنّ هذا الكلام جزء من الخطبه ٢٦ و ٣٠ و ٥٤ و ٧٨، خطبها عليه السلام فى بيته بحضور الناس ليدونوها وينقلوها إلى الآخرين. وقال فى ذيل الخطبه ٢٦ رواها قبل السيد الرضى (ره) الثقفى فى الغارات والطبرى فى المسترشد والمرحوم الكلينى فى الرسائل نقلاً عن كشف المحججه للسيد ابن طاووس وابن قتيبه فى الإمامه والسياسه (مصادر نهج البلاغه ١ / ٣٩٠).

٢-٢) منهاج البراعه ٤ / ٣٢٦؛ شرح نهج البلاغه لابن ميثم البحرانى ٢ / ١٤٤. [١]

منعنى النوم، فما وجدتنى يسعنى إلقائهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله، فكانت معالجه القتال أهون على من معالجه العقاب، وموتات الدنيا أهون على من موتات الآخرة» .

ص: ٣٨٤

«فَتَدَاكُوا عَلَيَّ تَدَاكُ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا وَقَدْ أُرْسِلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِي أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ، وَقَدْ قَلْبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنُهُ وَظَهْرُهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَحَدَّثَنِي يَسِّرَ عَنِّي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوْ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ وَمَوَاتَاتِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوَاتَاتِ الْآخِرَةِ» .

الشرح والتفسير

ليس هنالك سوى القتال

بغض النظر عن كون الخطبه بشأن بيعه الناس للإمام عليه السلام أو المسائل المرتبطه بصفين، فإنه استهلها عليه السلام بعدم انطلاقه نحو الناس بل الناس هم الذين إندفعوا إليّ: «فتداكوا (1) على تداك الابل إهيم (2) يوم وردها (3) وقد أرسلها راعيها، وخلعت مثنائها» (4).

ثم أضاف عليه السلام: «حتى ظننت أنهم قاتلي أو بعضهم قاتل بعض لذي» تتضمن هذه العبارة عدّه أمور:

ص: ٣٨٥

- ١- ١) «تداكوا» من ماده «دك» على وزن فكك، قال الراغب في المفردات أنّها تعنى الأرض المستويه الرخوه، بينما صرحت سائر كتب اللغه بعكس ذلك وان الدك يعنى الضرب. ومعنى العبارة فى الخطبه أنّهم تراحموا عليه لبياعوه رغبه فيه.
- ٢- ٢) «هيم» جمع «أهيم» و «هيماء» صفه مشبهه بمعنى شده العطش التى تجعل الحيوان أو الإنسان يروح ويجيئ، ويقال الهيمان للعاشق. والهيم العطاش من الابل.
- ٣- ٣) «ورد» اسم مصدر بمعنى الورود، وقيل مصدر كتأكيد لمعنى الفاعليه، وتعنى الجمع أيضاً. يوم وردها يوم سشربها للماء.
- ٤- ٤) «مثنى» جمع مثناه بالفتح ومثناه بالكسر وهو جبل من صوف أو شعر يعقل به البعير. وهى فى الأصل من ماده ثنى بمعنى التكرار واعاده جزء من الشى إلى الآخر.

١ - كيفية هجوم الناس عليه من أجل البيعه أو حين الاصرار على شروع موقعه صفيين إنما تفيد تغير الناس آنذاك، وهنا لابد من الالتفات إلى أن معنى المفردة تداكوا هو الضرب وقد أشارت في العبارة إلى شدة عطش الابل التي تضرب بعضها بعضاً لتبلغ أسرع من غيرها الماء، والهيم شدة العطش التي تجعل الإنسان أو الحيوان مضطرباً. فلو تركت هذه الابل العطاش لحالها دون الراعى فما عساها تفعل. أجل هكذا كانت حال الناس في تلك اللحظات الحساسة حتى كان يخشى عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً. نعم هذا هو حال الناس حين يعشقون شيئاً ويعبرون عنه بعواطفهم، إلا أنه من المؤسف أن هؤلاء الناس سرعان ما يتخلون عن موقفهم إذا واجهتهم بعض المصاعب.

٢ - يمكن أن تكون حاله إندفاعهم نابعه من عدم عمق مشاعرهم وقلة علمهم ومعرفتهم.

٣ - تشتمل هذه العبارات على بعض الكنايات التي تفيد صعوبه السيطرة عليهم حين تأخذهم الحرارة والحماس، كما يصعب إثارتهم حين تلفهم البروده والانتكاس.

ثم قال عليه السلام: «وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعى النوم فما وجدتنى يسعنى إلما قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله فكانت معالجه القتال أهون على من معالجه العقاب وموتات الدنيا أهون على من موتات الآخرة» .

فتفيد هذه العبارات:

أولاً: أن الإمام عليه السلام لا يرضخ لضغوط الناس، فلا يتخذ القرار حتى يدرس جميع جوانب الموضوع، وهذا ما ينبغى أن تكون عليه سياسه الزعماء الربانيين بعيده عن العواطف والأحاسيس مستنده إلى مصالح لأمه الواقعيه.

ثانياً: عاده ما يصل الإنسان في حياته الفرديه أو القاده في حياتهم الاجتماعيه إلى مفترق طرق، فلا بد هنا من الشجاعه والاقدام على إنتخاب الاصلح، فان كان القتال هو الأصلح لا ينبغى للدعه والراحه أن تحول دون خوضه بحجه حفظ دماء المسلمين دون الإكتراث إلى المصالح العليا.

ثالثاً: المهم بالنسبه للإمام عليه السلام رضى الله وإداء التكليف ومن هنا أثر رضى الله سواءً تضمن رضى الناس أم لا.

رابعاً: واضح أنّ قتال الإمام عليه السلام كان قتال الإيمان للكفر والإسلام للجاهلية. بناءً على ما تقدم فقد كان عليه السلام يرى رضى الله قبل الاستجابة لرغبات الناس، وبالطبع قد يمكن الجمع بين الاثنين إذا كانت رغبات الأمة وتطلعاتها مشروعته تهدف نشر القيم والمبادئ السماوية.

تأملان

١ – البيعة الفريده للإمام عليه السلام

تفيد خطب نهج البلاغه الوارده بهذا الشأن، أنّ البيعه كانت من الحوادث العجيبه التى شهدتها خلافه الإمام عليه السلام بحيث خرجت عن المتعارف فى البيعات العاديه، وقد بلغ الزحام درجه كان يخشى معها وقوع البعض وانحساره بين تلك الجماعات العظيمه. وهنا يطرح هذا السؤال: ما سبب ذلك الهجوم العظيم على الإمام عليه السلام من أجل البيعه؟ يبدو أنّ غضب الناس بلغ ذروته إبان من سبق الإمام عليه السلام من الخلفاء ولا سيما على عهد الخليفه الثالث الذى شهد غياب العدل وضياع القيم والمثل والتطاول على بيت المال والاساءه إلى الشخصيات الإسلاميه وتسليط عصابه من البطانه على رقاب الناس، بحيث لم يكن أمام الناس سوى اللجوء إلى ذلك الفرد العادل الذى من شأنه اعاده الإسلام إلى مسيرته الأصلية. نعم كانوا متعطشين للعداله، للإسلام الأصيل والمعارف القرآنيه الحقه الخاليه من الخرافات والأساطير؛ الأمور التى جمعت فى أمير المؤمنين على عليه السلام، فما حيله العطشان إذا رأى الماء الزلال سوى الهجوم عليه والتزود منه، فالهجوم المذكور يفيد عظمه مقام الإمام عليه السلام من جانب ومدى إستياء الناس من الاوضاع السابقه من جانب آخر، والأمران يحتاجان إلى ابحاث تاريخيه مسهبه. (١)

٢ – الحرب والسلام، والكفر والإيمان

رأينا فى آخر الخطبه أنّ الإمام عليه السلام وقف أمام سبيلين لا ثالث لهما؛ إما الحرب أو الكفر بما جاء به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وما ذاك إلّا أنّ الحرب ورغم ما يكتنفها من خراب ودمار وويلات،

ص: ٣٨٧

(١- ١) من أراد المزيد يمكنه مراجعه الخطبه الشقشقيه.

غير أنها قد تكون السبيل الوحيد لمجابهة الظلم والاضطهاد وعدم العدل كما تشكل الوسيله الناجعه لاستئصال جذور الفساد والانحراف ومن هنا كانت إحدى غايات القتال، كما صرح بذلك القرآن القضاء على الفتنه واخلاد نيرانها واعاده الأمور إلى مجاريها الطبيعيه «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» (١) وقال «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَيْثَى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللّٰهِ» (٢) وهنا يغلق أولياء الله أبواب الراحه والدعه ويهبوا لخوض القتال وتحمل عنائه وشدائده، ولا عجب فالتضحيه بحطام الدنيا لا يؤثر على سعادته الاخرى.

ص: ٣٨٨

١-١) سورة الانفال / ٣٩. [١]

٢-٢) سورة الحجرات / ٩. [٢]

ومن كلام له عليه السلام

وقد استبطن أصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

نظره إلى الخطبة

يبدو من تناسب مضمون هذه الخطبة مع الخطبة السابقة أنها خطبه واحده، أو خطبتان وردتا في زمان متقارب قال ابن أبي الحديد في ذيل هذه الخطبة: لما ملك أمير المؤمنين علي عليه السلام الماء بصفين ثم سَمَحَ لأهل الشام بالمشاركة فيه والمساهمة، رجاء أن يطفوا إليه، واستماله لقلوبهم وإظهارا للعدالة وحسن السير فيهم، مكث أياماً لا يُرْسِلُ إلى معاوية، ولا يأتيه من عند معاوية أحد، واستبطن أهل العراق إذنه لهم في القتال، وقالوا: يا أمير المؤمنين، خَلَفْنَا ذراريْنَا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لتتخذها وطناً، ائذن لنا في القتال، فإن الناس قد قالوا. قال لهم عليه السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إن الناس يظنون أنك تكره الحرب كراهية للموت، وإن من الناس من يظن أنك في شك من قتال أهل الشام. فقال عليه السلام: ومَتَى كُنْتُ كارها للحرب قط! إن من العجب حُبِّي لها غلاماً وَيَفْعاً، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفاذ العمر وقرب الوقت! وأما شكِّي في القوم فلو شككت فيهم لشككت في أهل

ص: ٣٨٩

١-١) سند الخطبة: لم يشر صاحب مصادر نهج البلاغه إلى سند خاص لهذه الخطبة، إلا أن لابن أبي الحديد فصل ذيل هذه الخطبة تحت عنوان من أخبار يوم صفين يفيد أن ما أورده هنا السيد الرضى (ره) بمعنى آخر ينسجم وما جاء في التواريخ. شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٤ / ١٣. [١]

البصره، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعني إلّا القتال أو أن أعصى الله ورسوله، ولكنني أستأني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي يوم خيبر: «لأنّ يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس» .

ص: ٣٩٠

«أَمَّا قَوْلُكُمْ: أَكَلَّ ذَلِكَ كِرَاهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَبَالِي، دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكَا فِي أَهْلِ الشَّامِ! فَوَاللَّهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْمًا إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعُشُوا إِلَيَّ صَوْنِي، وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَيَّ ضَلَالِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا» .

الشرح والتفسير

تماسك الإمام عليه السلام حيال القتال

كما ذكرنا فإنَّ الخطبه جواباً لأصحابه عليه السلام الذين استبطنوا إذنه لهم بالقتال في صفيين، فقد قال عليه السلام «أما قولكم: أكل (1) ذلك كراهيه الموت؟ فوالله ما أبالي، دخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ». نعم إذا كان هنالك هدفاً مقدساً كرضى الله فإنَّ الفرد المؤمن لا بدَّ أن يسارع إلى الشهاده ولا ينتظرها، فما أسمى أن يهب الإنسان نفسه ويضحى بها من أجل معشوقه ومعبوده. أضف إلى ذلك فسابقه الإمام عليه السلام في الغزوات الإسلاميه لأشهر من نار على علم وليست بخافيه على أحد ولا سيما صولاته في بدر وأحد والأحزاب وخيبر وحنين وذوده عن رسول الله صلى الله عليه وآله واستماتته من أجل نبيل الشهاده، فكيف وهذا الحال يمكن توجيه هذه التهمه الباطله لهذا الإنسان بتأخير القتال خوف الشهاده. وقد تحدث الإمام عليه السلام عن مثل هذا المعنى في الخطبه الخامسه والخطبه مئه وثلاث وعشرين حيث قال: «والله لابن أبي طالب آنس

ص: ٣٩١

١-١) هنالك احتمال بشأن إعراب هذه الجملة: أحدهما أن كل منصوبه على أنها مفعول لفعل تقديره «أتفعل كل ذلك»، والآخر انها مرفوعه كمبتدأ وتقدير الجملة «أكل ذلك ناشئ من كراهيه الموت». على كل حال فإنَّ الجملة «كراهيه المت» مفعول لأجله.

بالموت من الطفل بشدى أمه» وقال: «والذى نفس ابن أبى طالب بيده لألف ضربه بالسيف أهون على من ميته على الفراش فى غير طاعه الله» .

وتشهد سيره الإمام عليه السلام أنه مارس هذا المعنى عملياً فى حياته وما أجهل تلك الجماعة من جيش أهل العراق التى وجهت مثل تلك التهمة للإمام عليه السلام وخشيته من الشهاده فى سبيل الله. قد يقال أن أولئك لم يكونوا أدركوا اولى الغزوات الإسلاميه. فنقول فهل يسعهم نسيان موقعه الجمل؟ الموقعه التى كان ينقض فيها الإمام عليه السلام كالليث الضارى على جنود الأعداء فيمزق جموعهم وينزل حمم غضبه على رؤوسهم. بل كيف يمكن إتهامه وهو الذى يمثل الإيمان كله فى مقابل الشرك كله، أوليس هو القائل: «لقد كنت وما اهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب وإنى لعلى يقين من ربى وغير شبهه من دينى» . وقوله عليه السلام: «فو الله ما أبالى» إشاره إلى هذه الحقيقه وهى أن الأفراد العاديين ممن لا هدف لهم، هم الذين يخشون الاتجاه نحو الموت، بل ينتظرون قدوم الموت إليهم آخر عمرهم؛ بينما ليس هنالك من فارق بين الخروج إلى الموت أو قدوم الموت حسب الأجل المقدر بالنسبه لأهل الإيمان والورع والتقوى ولعل الموت يمكن تشبيهه هنا بالاسد المفترس، فالفرد العادى لا يتجه إليه أبداً، أما الشجاع فيقدم على مواجهته دون أن يشعر بخوف أو هلع، فالمؤمن الشجاع حين يرى فى الموت الشهاده فى سبيل الله ونيل رضوانه يستقبله بكل رحابه صدر، فلو قدر لهذا الموت أن يسلبهم ما تبقى من عمرهم، فأنهم سيستبدلون بذلك الخلود والبقاء. ثم تناول الإمام عليه السلام الاحتمال الثانى الذى أوردته تلك الجماعة بشأن تأخير القتال فقال: «وأما قولكم شكاً فى أهل الشام فو الله ما دفعت الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفه فتهتدى بى، وتعشوا (١) إلى ضوئى» ثم برر ذلك بقوله عليه السلام «وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء (٢) بآثامها» . فالإمام عليه السلام يؤكد هنا على أن القتال لا يمثل هدفاً ولا السبيل الأول لحل الخصومات من وجهه نظر أولياء الله، بل هو العلاج الأخير إذا ما عجزت كل السبل والاساليب، فهم يسعون جاهدين للتريث

ص: ٣٩٢

١- ١) «تعشوا» فى الأصل من ماده «عشو» على وزن ضرب بمعنى الظلمه وعدم وضوح الشىء ومنه صلاهاالعشاء لأنها أول الظلمه وعشى بمعنى آخر اليوم الذى يظلم فيه الجو تدريجياً ويقال الأعشى لضعيف البصر.

٢- ٢) «تبوء» من ماده «بوء» على وزن نوع بمعنى الرجوع والعوده وقيل أصلها يعنى الصافى والمسطح وارىد بها هنا الرجوع.

والانهاه أملاً- في رجوع ولو فرد واحد إلى الحق فيزداد أهل الحق ويقل أهل الباطل، بينما ينظر السذج من الناس إلى هذا الأمر بنوع من الشك والريبه، فإنّ أولياء الله يفتحون ذراعهم باستقبال النادمين والتائبين وقد أثبت التاريخ - ولا سيما موقعه صفيين - صحه حسن ظن الإمام عليه السلام، وذلك لأنّ فئه كبيره قد فاءت إلى الحق بينما انسحبت طائفه من المعركه وذلك بفضل تراث الإمام عليه السلام واناته في القتال.

ص: ٣٩٣

ومن كلام له عليه السلام

يصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك يوم صفين حين أمر الناس بالصلح

نظره إلى الخطبه

هناك رأيان بشأن زمان الخطبه: فالبعض يعتقد أنه ورد بشأن فتنه ابن الحضرمي بعد أن استشهد محمد بن أبي بكر على يد عمرو بن العاص فقد البصره من قبل معاويه ليخرجها من حكمه الإمام على عليه السلام حيث استولى عليها بمعونه جماعه من المنافقين. فلما بلغ الإمام عليه السلام ذلك من قبل ابن عباس يعزیه بمحمد بن أبي بكر خطب الخطبه، ثم بعث بجاريه ابن قلامه السعدى المعروف بشجاعته فحاصر ابن الحضرمي مع سبعين من صحبه وقضى عليهم جمعياً. والرأى الآخر أنّ الإمام عليه السلام خطبها فى صفين، حين اقترح على الإمام عليه السلام الصلح وقد ضغظوا على الإمام عليه السلام لقبوله. على كل حال فإن الإمام عليه السلام خطب الناس لا ممثل أوامره، ثم تطرق لا خلاص المسلمين فى صدر الإسلام وأنّ سبب النصر يكمن فى الانضباط والتسليم لأوامر النبى صلى الله عليه وآله، فى إشاره إلى النصر سيكون حليفهم لو إستنوا بهذه السنه وطاعوا الأوامر، والّا ليس إمامهم سوى الفشل والهزيمة إذا عاشوا الفرقة والتشتت وعدم طاعه الاوامر.

ح ج

ص: ٣٩٥

١ - ١) سند الخطبه: نقل ابن أبى الحديد هذا الكلام عن الواقدى ابن هلال قبل المرحوم السيد الرضى (ره) ورواها الزمخشري فى ربيع الأبرار فى الجزء الرابع من باب القتل والشهادة. وأضاف صاحب مصادر نهج البلاغه بعد ما اورد هذا الكلام انه من كلامه المعروف فى مصادر العلماء السابقين وبعد السيد الرضى (مصادر نهج البلاغه ٢ / ٢٩) .

«وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلْمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ؛ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسُدِّي صَاحِبَهُ كَأَسِّ الْمُنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عِيدُونَا وَمَرَّةً لِعِيدُونَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بَعْدُونَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصِيرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ وَمُتَّبِعًا أَوْطَانَهُ. وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُمُودٌ. وَإِيْمَ اللَّهُ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا، وَلَتَتَّبِعَنَّهَا نَدْمًا!»

الشرح والتفسير

الوقوف المشرف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله

أشار ابن ميثم البحراني في شرحه إلى بعض الخطبه الذي لم يرد في كلام السيد الرضى (ره) والذي له تأثير على فهم مضمون هذه الخطبه، فقال: روى البعض أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين أراد الناس الصلح مع جيش معاويه (بينما كان الإمام عليه السلام مخالف ذلك ولو لا اصرار البعض منهم لما وافق) فقد إستهل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «إن هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحق ولا- ليجيبوا إلى كلمه سواء حتى يرموا بالمناشر تتبعها العساكر، وحتى يرحموا بالكتاب تقفوها الجلائب، وحتى يجر ببلاد الخميس يتلوه الخميس، وحتى تدعق الخيول فى نواحي أراضيهم، وبأعناء مشاربهم ومسارحهم، حتى تشن عليهم الغارات من كل فج عميق، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر، ولا يزيدهم هلاك من هلك من

ص: ٣٩٧

قتلاهم وموتاهم فى سبيل الله إلا جذا فى طاعه الله وحرصاً على لقاء الله. ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله الفصل»
 (١)وعليه فإنّ مصالحه هؤلاء القوم الجفاه لا تنطوى سوى على الاحباط والفشل، وذلك لأنهم لا يفهون منطق الصلح ولا يمكنهم التعايش مع الآخرين بسلام ولا يدركون سوى منطق القوه، وهذا ما كشفت عنه أحداث صفين. على كل حال واصل الإمام عليه السلام خطبته ليتحدث عن مقومات النصر وعوامل الفشل والهزيمه فقال عليه السلام: «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وابناءنا واخوننا واعماننا» فى إشاره إلى ضروره عدم الالتفات إلى قرابه كائن من كان إذا وقف كعقبه أمام المسيره، الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»
 (٢)ثم قال عليه السلام: «ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضياً على اللقم» (٣)وصبراً على مضمض (٤)الالم وجدا على جهاد العدو» فما أشار إليه الإمام عليه السلام بهذه العبارة إنما يمثل واقعه تأريخيه، فقد مثل أمام المسلمين فى أغلب المعارك ولا سيما معركة بدر قرابتهم وعشيرتهم، فما كان من المسلمين إلا أن قاتلوهم بكل بساله دون أن يكثرثوا لتلك القرابه رغم احترام العرب المنقطع النظير للروابط القبليه. ثم قال عليه السلام: «ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان (٥)تصاول الفحلين يتخالسان (٦)أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون، فمره لنا من عدونا ومره لعدونا منا» فى إشاره إلى أنه ليس من الضروري أن ينتصر الحق على الباطل فى كافه المعارك وطيله المجابهه، فقد يتغلب الباطل على الحق أحياناً إلا أن الحق وعلى ضوء الوعد الإلهى منتصر فى خاتمه المطاف - وعليه فلا تتوقعوا عدم بروز المشاكل خلال مجابهه أهل الشام، كما أن هذه المشاكل لا ينبغي أن تقود إلى

ص: ٣٩٨

١-١) شرح نهج البلاغه لابن ميثم ٢ / ١٤٦.

٢-٢) سورة التوبه / ٢٤. [١]

٣-٣) «لقم»: قال بعض أرباب اللغه وشرّاح نهج البلاغه تعنى معظم الطريق أو جادته، واصلها من اللقم على وزن العفو بمعنى السرعه فى الأكل.

٤-٤) «مضمض» على وزن «مرض» بمعنى تجذر الهم فى القلب مع الحرقة.

٥-٥) التصاول من صول على وزن قول أن يحمل كل واحد من الندين على الآخر.

٦-٦) «تخالس» من ماده «خلس» على وزن درس كل واحد منها يطلب اختلاس روح الآخر.

التمرد على أوامر الإمام عليه السلام، ما سيره النبي صلى الله عليه وآله وصحبه إلهادليل واضح على هذا الأمر، ومن هنا قال عليه السلام: «فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت (١) وأنزل علينا النصر، حتى إستقر الإسلام ملقياً جرانه (٢) ومتوثاً أوطانه» فالإمام عليه السلام أشار هنا إلى العامل الرئيسي لانتصار المسلمين الأوائل ويلوح إلى عناصر فشل أهل الكوفة، فقد نسب العامل الرئيسي للانتصار إلى صدق النبي التي تمثل الدافع الأصلي للصمود والمقاومة أمام العدو والطاعة التامة للزعامة الربانية. ولو تلوثت هذ النبي وسيطرت الأنانية على الإنسان، آنذاك ستكون إرادته وقراره مستنداً لاهوائه وطيشه وغروره؛ الأمر الذي يقود إلى الهزيمه والفشل. ومن الطبيعي ألا- تشمل عنايات الله وألطفه ونصره مثل هؤلاء الأفراد، ثم خلص الإمام عليه السلام لهذه النتيجة: «ولعمري لو كنا نأتى ما أتيتم، ما قام للدين عمود ولا إخضر للايمان عود» فهل تعلمون من قوم فى أى عصر ومصر إنتصروا يفرقتهم واختلافاتهم، فاذا رجعت قليلا إلى الورا لرايتم أن النصر الخاطف الذى حققه رسول الله صلى الله عليه وآله خلال تلك المده القصيره حتى ترسخت دعائم الدين واتسع نطاق الإسلام ليشع بنوره على ظلمات الشرق والغرب فإن ذلك كان بفضل الإيمان والطاعة والجهاد، بينما تمارسون الآن عكس ذلك وتحلمون بالنصر. وأخيراً يحذرهم عليه السلام بالقول: «وأيم الله لتحتلبنها دمًا، ولتبعننا ندمًا» .

فقد تضمنت العبارات الاخيرى للإمام عليه السلام ثلاثه تشبيهات: الأول: تشبيه الإسلام بالخيمه واعمدته الجهاد. حيث نعلم بأن الخيمه موضع الأمن والراحه من الحراره المحرقه والبروده القارسه، الإسلام هو الآخر موضع أمن البشرىه ووسيله نجاتها من العواصف القاتله. الثانى: تشبيه الإيمان بالشجره التى إخضرت غصونها بدماء المؤمنين فى صدر الإسلام. والثالث: تشبيه الحكومه بالناقه التى تحتلب الدم بدلاً من اللبن بسبب تعفن ضرعها أو العبث والإفراط فى إحتلابها، أى أنها، أعطت نتيجه معكوسه، فاللبن من أفضل طعام الإنسان ومواده الغذائيه، أما الدم فهو ليس بغذاء، بل ماده سامه مفسده. وأخيراً فقد تحققت نبوءات الإمام عليه السلام بشأن تلك الطائفه الطاغيه، حيث تسلط عليهم الظلمه الذين ساموهم سوء العذاب.

ص: ٣٩٩

١- ١) «كبت» على وزن ثبت بمعنى الاذلال.

٢- ٢) جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره، القاء الجران كناية عن التمكن، فالعبارة كناية عن إتساع رقعهالإسلام ونصر المسلمين واستقرار الإسلام فى مختلف بقاع العالم.

كانت البصره أحد المراكز الإسلاميه المهمه والبوابه إلى العالم الخارجى ومن هنا كانت السيطرة عليها قضيه مهمه. ولذلك كان يسعى معاويه للسيطره عليها كما ورد فى ورود الخطبه. ويرى البعض أن الإمام عليه السلام خطبها لإخماد فتنه أخرى فى البصره. فقد طمع معاويه بالبصره بعد قتل عامل على عليه السلام فيها محمد بن أبى بكر، فكتب كتابا إلى أنصاره فى البصره وذكرهم الوقعه التى أهلكتهم وقد إنتخب «ابن الحضرمى» واليا على البصره فحث الناس للقيام على خليفه عامل الإمام عليه السلام عليها «زياد بن عبيد» فاستجاب له البعض ومنهم الخوارج فسيطروا على أجزاء من البصره وقتلوا سفير الإمام عليه السلام «أعين بن صبيعه» فلما بلغ ذلك الإمام عليه السلام بعث بجاريه بن قدامه إلى البصره ليقرا عليهم كتاب الإمام عليه السلام.

سلام عليكم: أميا بعد فإنَّ اللهَ حلِيمٌ ذو أَنَاهٍ، لا يَعْجَلُ بالعقوبه قَبْلَ البَيِّنه، ولا يأخذ المذنب عند أول وَهْلِهِ، ولكنه يقبل التوبه، ويستديم الأناه، ويرضى بالإنايه؛ ليكون أعظَمَ للحجَّه، وأبلغ فى المعذره، وقد كان من شقاق جُلُكُم أيها الناس ما استحققتُم أن تعاقبوا عليه، فعفوت عن مجرمكم، ورفعت السَّيْفَ عن مُدْبِرِكُم، وقبلت من مُقْبَلِكُم، وأخذت ببعثِكُم، فإن تَفُؤا ببيعتى، وتقبلوا نصيحتى، وتستقيموا على طاعتى، أعملُ فيكم بالكتاب والسنة وقصد الحق، وأقمُ فيكم سبيل الهدى، فوالله ما أعلم أن والياً بعد محمد صلى الله عليه وآله أعلمُ بذلك منى، ولا أعمل بقولى. أقول قولى هذا صادقاً، غيرَ دَامٍ لمن مَضَى، ولا منتقِصاً لأعمالهم، وإن خَبَطْتُ بكم الأهواء المُزْدِيه، وسَفَهُ الرأى الجائر إلى منابذتى، تريدون خِلافى! فها أنا ذا قَرَّبْتُ جِادى، وَرَحَلْتُ رِكابى، وإيَّم الله لئن أُلجأتُمونى إلى المسير إليكم لأُوقِعَنَّ بكم وَقَعَهُ، لا يكون الجمل عندها إلَّا كَلَعَقَه لَاعِق، وإنى لظانُّ أَلَّا تجعلوا - إن شاء الله - على أنفسكم سبيلاً. وقد قدِّمت هذا الكتاب إليكم حجه عليكم، ولن أكتبَ إليكم من بعده كتاباً، إن أنتم استغششتُم نصيحتى، وناذرتُم رسولى، حتى أكونَ أنا الشَّاخص نحوكم، إن شاء الله تعالى. والسلام.

فلما قرأها عليهم تأثروا تأثراً شديداً، بينما واصل البعض منهم عناده، فواجهوا ابن

الحضرمي وهزموه، فلاد مع سبعين من صحبه بدار ولم يكن امام جاريه من سبيل سوى إحراق الدار فقتلوا فيها جميعا. (١)

ج ج

قال: وروى كعب بن قعين أن علياً عليه السلام كتب مع جاريه كتاباً، وقال: اقرأه علي أصحابك، قال: فمضينا معه، فلما دخلنا البصره، بدأ بزياد، فرحب به وأجلسه إلى جانبه، وناجاه ساعه وساءله، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أن قال: احذر علي نفسك، واتق أن تلقى ما لقي صاحبك القادم قبلك.

وخرج جاريه من عنده، فقام في الأزد، فقال: جزاكم الله من حى خيراً! ما أعظم غناءكم، وأحسن بلاءكم، أطوعكم لأمركم! لقد عرفتم الحق إذ ضيعة من أنكره، ودعوتم إلى الهدى إذ تركه من لم يعرفه. ثم قرأ عليهم على من كان معه من شيعه علي عليه السلام وغيرهم - كتاب علي عليه السلام، فإذا فيه:

من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى من قرئ عليه كتابي هذا من ساكني البصره من المؤمنين والمسلمين:

قال: فلما قرئ الكتاب على الناس قام صبره بن شيمان، فقال: سمعنا وأطعنا ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب، ولمن سالم سلم؛ إن كفيت يا جاريه قومك بقومك فذاك، وإن أحببت أن ننصرك نصرناك.

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه، فلم يأذن لأحد منهم أن يسير معه، ومضى نحو بني تميم.

فقام زياد في الأزد، فقال:

يا معشر الأزد، إن هؤلاء كانوا أمس سَلماً، فأصبحوا اليوم حرباً، إنكم كنتم حرباً فأصبحتم سلماً، وإنى والله ما اخترتكم إلا على التجربة، ولا أقت فيكم إلا على الأمل، فما رضيتم أن أجرتموني، حتى نصبتم لي منبراً وسريراً، وجعلتم لي شرطاً وأعواناً، منادياً وجمعه،

ص: ٤٠١

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٤/٣٤ [١] باختصار شديد.

فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلا هذا الدرهم، لا أجيئه اليوم، فإن لم أجيئه اليوم أجيئه غداً إن شاء الله. واعلموا أنّ حربكم اليوم معاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس عليّاً، وقد قدم عليكم جاريه بن قدامه، وإنما أرسله عليّ ليصدع أمر قومه، والله ما هو بالأمر المطاع، ولو أدرك أمله في قومه لرجع إلى أمير المؤمنين أو لكان لي تبعاً، وأنتم الهامه العظمى، والجزمره الحاميه، فقدموه إلى قومه، فإضطر إلى نصركم فسيروا إليه، إن رأيتم ذلك.

فقام أبو صبره شيمان فقال: يا زياد، إنى والله لو شهدت قومي يوم الجمل، رجوتُ ألا يقاتلوا عليّاً، وقد مضى الأمرُ با فيه. وهو يوم بيوم، أمر بأمر، والله إلى الجزاء بالإحسان أسرع منه إلى الجزاء بالسيء، والتوبه مع الحق، والعفو مع الندم، ولو كانت هذه فتنه لدعونا القوم إلى إبطال الدماء، واستئناف الأمور، ولكنها جماعه دماؤها حرام، وجرؤها قصاص، ونحن معك نحب ما أحببت.

فعجب زياد من كلامه، وقال: ما أظنُّ في الناس مثل هذا.

ثم قام صبره ابنه، فقال: إنا والله ما أصبنا بمصيبه في دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل، وانا لارجوا اليوم أن نُمحص ذلك بطاعه الله وطاعه أمير المؤمنين، وأمّا أنت يا زياد، فوالله ما أدركت أملك فينا، ولا أدركنا أملنا فيك دون ردك إلى دارك، ونحن رادوك إليها غداً إن شاء الله تعالى، فإذا فعلنا فلا يكن أحدٌ أولى بك منا، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك، وإنا والله نخاف من حرب عليّ في الآخرة، مالا نخاف من حرب معاوية في الدنيا، فقدم هواك وأخر هوانا، فنحن معك وطوعك.

ثم قام خنقر الحمانى، فقال: أيها الأمير، إنك لو رضيت منا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا، سربنا إلى القوم إن شئت، وإيم الله مالقينا قوماً قط إلا اكتفينا بعفونا دون جهدنا؛ إلا ما كان أمس.

قال إبراهيم: فأمرًا جاريه، فإنه كلم قومه فلم يجيبوه، وخرج إليه منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتمه أسمعوه، فأرسل إلى زياد والأزد، يستصرخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه، فسارت الأزد بزياد، وخرج إليهم ابن الحضرمي، على خيله عبدالله بن خازم السلمى، فاقتتلوا ساعه، أقبل شريك بن الأعور الحارثي - وكان من شيعه عليّ عليه السلام، وصديقاً لجاريه بن

قدامه - فقال: ألا أقاتل معك عدوك؟ فقال: بلى؛ فما لبثت بنو تميم أن هزموهم واضطروهم إلى دار سننيل السعدى؛ فحصرُوا ابنَ الحضرمي وحُدَّوه، فأتى رجل من بنى تميم، ومعه عبدالله بن خازم السلمى، فجاءت أمى وهى سوداء جشيه اسمها عجلى، فنادتة، فأشرف عليها، فقالت: يا بُنى، انزل إلى، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قناعها، وسألته النزول فأبى، فقالت: والله لتنزلن أو لأتعرين، وأهوت بيدها إلى ثيابها، فلما رأى ذلك نزل، فذهبت به، وأحاط جاريه وزياى بالدار، وقال جاريه: على بالنار، فقالت الأزد: لسنا من الحريق بالنار فى شىء؛ وهم قومك وأنت أعلم، فحرَّق جاريه الدار عليهم، فهلك ابن الحضرمي فى سبعين رجلاً؛ أحدهم عبدالرحمن بن عمير بن عثمان القرشى التيمى؛ وسُمِّي جاريه منذ ذلك اليم محرِّقاً؛ وسارت الأزد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة؛ ومعه بيت المال، وقالت له: هل بقى علينا من جوارك شىء؟ قال: لا، قالوا: فبرئنا منه؟ فقال: نعم؛ فانصرفوا عنه. وكتب زياد إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أما بعد، فإن جاريه بن قدامه العبد الصالح قَدِم من عندك، فناهَضَ جَمَعَ ابن الحضرمي بمن نصره وأعانته من الأزد، ففضَّه واضطره إلى دارٍ من دور البصره فى عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما، فقتل ابن الحضرمي وأصحابه، منهم من أحرق بالنار؛ ومنهم من ألقى عليه جدار؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه؛ ومنهم من قُتِل بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا، فصفح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى! والسلام على أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته.

٢ - خصائص المسلمين الأوائل

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه إلى خصائص مسلمى صدر الإسلام فى أنهم كانوا مطيعين لرسول الله صلى الله عليه وآله ولم يأبهاوا بابائهم واخوانهم وانباءهم فى ميادين القتال، فكانوا يصابولونهم ليجرعوهم القتل من أجل تحقيق الاهداف الإسلاميه المقدسه. كانوا يتحلون بالاخلاص وصدق النيه؛ الأمر الذى جعل الله يؤيدهم بنصره ويفيض عليهم من لطفه وفضله حتى إنتشر الدين واضاء نور الحق واليقين فى أنحاء العالم. والحق لو أن المسلمين الأوائل كانوا على

غرار أهل الكوفه لما تنفس الإسلام وتنهته حتى فى مكه والمدينه، ولو كانت إرادتهم الفرديه هى الحاكمه وتمردوا على أوامر قيادتهم الربانيه لما اخضر عود شجره الإسلام ولانهارت أعمده خيمه الإيمان. وبالطبع فإنّ كثيراً من أولئك كانوا ممن أدرك عصر النبى صلى الله عليه و آله أو رأى أصحابه، إلّا أنّ إرادتهم ضعفت ووهنت إثر تلك الأحداث التى أعقبت رحيل رسول الله صلى الله عليه و آله، ولا سيما على عهد الخليفه الثالث واقبال الناس على الدنيا والاعتزاز بزخارفها والخلود إلى الراحة والصدعه بعد تنامى الأموال والثروات بفعل الفتوحات الإسلاميه، إلى جانب الدعايه الواسعه التى كان يمارسها المنافقون وأعداء الدين.

ومن كلام له عليه السلام

فى صفه رجل مذموم، ثم فى فضله هو عليه السلام

نظره إلى الخطبه

هناك أبحاث بين شراح نهج البلاغه بشأن المقصود بكلام الإمام عليه السلام إلّا أن المشهور أنّ المراد به معاويه. فقد ذكر ابن أبى الحديد فى شرحه: وكثير من الناس يذهب إلى أنّه عليه السلام عنى زياداً، وكثيراً منهم يقول إنّّه عنى الحجاج أو المغيره، والأشبه عندى أنه عنى معاويه، لأنّه كان موصوفاً بالهم وكثره الأكل، وكان بطيناً، يقعد بطنه إذا جلس على فخذه. (٢)

وروى أبو عثمان الجاحظ فى كتاب السفينيه أنّ أباذر قال لمعاويه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا ولى الأّمه الـاعين الواسع البلعوم الذى يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأّمه حذرهما منه»، كما أورد عده روايات من المصادر المعروفة من قبيل تأريخ الطبرى وتأريخ الخطيب وكتاب صفين عن أبى سعيد الخدرى وعبدالله بن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إذا رأيت معاويه على منبرى فاقتلوه، أو فاضربوا عنقه» (٣) فالعبارات الوارده فى الروايه والتي تشبه

ص: ٤٠٥

١-١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه لقد روى هذا الكلام عن أمير المؤمنين عليه السلام كراراً من المحدثين قبل السيد الرضى (ره). وروى إبراهيم الثقفى فى كتاب الغارات عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الإمام عليه السلام صعد منبر الكوفه فقال: «سيعرض عليكم سبى...». كما روى هذا الكلام الكلينى فى الكافى والبلاذرى فى أنساب الاشراف والحاكم فى المستدرک وشيخ الطائفه الطوسى فى الامالى (مصادر نهج البلاغه ٢ / ٣٣).

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٤ / ٥٤. [١]

٣-٣) مصادر نهج البلاغه، [٢] ذيل الخطبه.

عبارات الخطبه تفيد أنها بشأن معاويه. والشاهد الآخر موضوع السب الذى ورد آخر الخطبه، حيث نعلم جميعاً بان معاويه كان يحرض الناس على سب أمير المؤمنين عليه السلام من على المنابر، فهل من داع للتحري عن فرد آخر وردت بشأنه الخطبه سوى التعصب والعناد؟! على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام تحدث في هذه الخطبه عن حاكم نهم أكل مندحق البطن يأمر الناس بسبه والبراءه منه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظيفه الأئمه حيال ذلك. وقد أثبت التأريخ صحه نبوءه الإمام عليه السلام التى تحققت فى عهد معاويه.

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام إلى بعض فضائله فى آخر الخطبه.

ص: ٤٠٦

«أَمَّا إِنَّهُ سَيُظْهِرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ إِلَّا وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِيٍّ وَالْبِرَاءَةَ مِنِّي، فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّنِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ وَأَمَّا الْبِرَاءَةُ فَلَا تَتَّبِعُوا مِنِّي، فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ» .

الشرح والتفسير

إحذروا العدو

كما أوردنا سابقا على ضوء الأحاديث والروايات أن الإمام عليه السلام تنبىء بحكومه معاويه وما تفضى إليه هذه الحكومه من مفسد فقال: «أما إنه سيظهر عليكم بعدى رجل رحب، البلعوم (١)، مندحق (٢) البطن، ياكل ما يجد ويطلب ما لا يجد». يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى وضعه الظاهري، حيث تفيد بعض الروايات أنه كان بهذه الصفات، ومن هنا كان أكله، ويمكن أن تكون كناية عن حالته الروحية والنفسية في ظل الحكومه، في أنه حريص وتوسعي ولا يشعبه شيئا من الحكومه، ولا يبعد أن يكون المراد كلا المعنيين الروحي والجسمي أو الحقيقي والكنائي، وذلك لانه جمع النوعين من هذه الصفات.

ثم قال عليه السلام: «فاقتلوه ولن تقتلوه» قطعاً أنّ مخاطب الإمام عليه السلام بهذه العبارة هم أهل العراق، وكان يعلم الإمام عليه السلام بعدم قدرتهم على ذلك بسبب ضعفهم ووهن ارادتهم في إتخاذ القرار، أو أنهم قد يستطيعون قتله إلا أنهم لا يمتلكون الشجاعه والإرادة التي ترفعهم إلى ذلك. أما لماذا

ص: ٤٠٧

١-١) «بلعوم» على وزن «حلقوم» موضع مرور الطعام، ورحب البلعوم واسع، أو كناية لكثرة أكله.

٢-٢) «مندحق» من ماده «دحق» على وزن قطع بمعنى الدفع والابعاد وطرح الشى بعيداً، ولما كان كبر البطن يؤدي إلى بروزها وكأنها تطرح بعضها خارجا اطلق على الشخص البطين مندحق البطن.

حكم الإمام عليه السلام بقتله، فأوضح بسبب هو ذلك الفساد الذي أشاعه بين المسلمين ليكون مصداقاً بارزاً للمفسد في الأرض إلى جانب سلبه لأمن البلاد الإسلامية وأخيراً إثارته المعارك التي سفكت فيها دماء المسلمين. وناهيك عما سبق فقد ابتدع تلك البدع العظيمة التي غيرت معالم الدين إضافة إلى أمره بسبب أمير المؤمنين على عليه السلام الذي قال بحقه رسول الله صلى الله عليه وآله «من سب علياً فقد سبني» (١). ثم تنبئ الإمام عليه السلام بهذه المسألة فقال: «إلّا وإنّه سيأمركم بسبى والبراءه منى» وهذا بدوره يكشف عن مدى الحقد والضغينه التي كان يكتنحها معاويه لعلى عليه السلام رغم علمه بفضائله التي صرح بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسمعتها القاصي والداني والتي تثبت بطلان حكومته، ومن هنا سعى جاهداً ليحول دون اطلاع أهل الشام على هذه الاحاديث تمهيداً إلى منعها بالمره وتحريفها. ثم أصدر أوامره بسب على عليه السلام من على المنابر وفي خطب صلاه الجمعة، حتى كان ينبرى أحدهم ليقول خير ما نختم به خطبتنا سب أبى تراب، وبالطبع فإنّ إشاعه السب تعنى عدم إمكانية التحدث بالفضائل، وهذه أسوأ بدعه ابتدعها معاويه يتعذر تبريرها على أى متعصب حقود، وما أروع ما قال الشاعر بهذا الشأن: أعلى المنابر تعلنون بسبه وبسيفه نصبت لكم أعوادها (٢).

الجدير بالذكر أنّ بعض بطانه معاويه أذعن إلى أنّ السب بدعه ظالمه لترسيخ دعائم حكومه معاويه، ومنهم مروان بن الحكم، إلّا أنّه لما سئل عن عله السب، أجاب: «إنّه لا يستقيم لنا الأمر ألا بذلك» (٣). ثم أوصى الإمام عليه السلام بكيفية التعامل مع هذه البدعه فقال «فأمّا السب ففسبوني، فانه لى زكاه ولكم نجاه وأما البراءه فلا تتبرأ وامنى، فانى ولدت على الفطره وسبقت إلى الإيमान والهجره». . ويبدو من هذه العبارة أنّ السب أمر واجب الزامى لا-إباحى لأنّه يتضمن حفظ دماء الشيعة وايصال مبادئ مدرسه أهل البيت عليهم السلام. إلّا ان هذا الأمر قد يكتسب صفه الاباحه كما عبر عن ذلك علماء الاصول حيث أمر الوجوب يقتصر على احتمال المنع لتوهم الخطر، ومن هنا فان بعض تلامذه الإمام عليه السلام كرشيد الهجرى وميثم

ص: ٤٠٨

١-١) رواه الحاكم فى كتاب مستدرک الصحيحين ١ / ١٢١ طبعه حيدر آباد.

٢-٢) بحار الانوار ٤٥ / ١٣٧. [١]

٣-٣) الغدير ١٠ / ٢٤٤. [٢]

التمار وقنبر وسعيد بن الجبير الذين صمدوا وأبوا سبوا على حتى قتلوا فأنهم لم يرتكبو أى خلاف، بل أتوا بعمل عظيم أهلهم للشهادة. ويتضح ممّا سبق بأنّ المؤمن إذا عرض للإساءة من قبل العدو أو دفع الناس لانتهاك حرمة فانّ ذلك ليس فقط لا يحط من قدره فحسب، بل يزيده عزه وكرامه. وهنا يبرز هذا السؤال: ما الفرق بين السب والبراءة بحيث أذن الإمام عليه السلام بالسب ولم يأذن بالبراءة لثلاث: أولاً: أنّه ولد على فطره الإسلام والإيمان، ثانياً: أنّه كان من السابقين للإسلام والتصديق بالنبى صلى الله عليه وآله، والثالث: سبقه إلى الهجره من مكه إلى المدينه؟ فقد كثر الكلام بين المفسرين بشأن الفارق بين السب والبراءة، لا- يخلو بعضه من التكلف وعدم الاقتناع، ويبدو أنّ الاقرب فى الفارق بينهما أحد أمرين: الأول أنّ سب الإنسان قد يكون إشارة إلى سوءه ولا- يعطى مفهوم الكفر والشرك، أمّا البراءة فتعنى التبرى من دينه ومعتقداته كما ورد ذلك فى الآيه الاولى من سوره التوبه: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» وعليه فمفهوم البراءة من الإمام عليه السلام هو البراءة من الدين والإسلام، ومن هنا منع الإمام عليه السلام حتى من البراءة منه باللسان، فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أذن بالإساءة إلى شخصه لكنه لم يأذن بالإساءة إلى دينه ولو لفظياً - والآخر أنّ أغلب الناس يتصورون أنّهم إذا إجبروا على كلام لا يمكنهم الاقتناع بالألفاظ ولا بدّ من أن ترافقه التيه، ومن هنا فمن أجبر على إجراء صيغه الطلاق فانه لا بدّ أن يقصد اللفظ والمعنى حين الصيغه، ان كان طلاق المكره باطلاً إلّا أنّه يتضمن قصد الانشاء ولذلك لا يستدل الفقهاء على بطلان هذا الطلاق بعدم قصد المعنى، بل يستندون فى بطلانه على الاكراه، ويصدق هذا الأمر على السب، فقصد السب سيئ، الا أنّ قصد البراءة أسوأ، لأنّ الأول يهدف نفي حرمة الإنسان، أمّا الثانى فيهدف البراءة من دينه ومعتقده؛ أى إسلامه وليس هنالك من مسلم مستعد لهذا العمل. والدليل على ذلك الأمور الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام فى نهيه عن البراءة:

الأمر الأول: «فأنتى ولدت على الفطره». أما كيف علّل نهيه لهم على البراءة منه عليه السلام، بقوله: «فأنتى ولدت على الفطره»؛ فإنّ هذا التعليل لا يختص به عليه السلام، لأنّ كلّ أحدٍ يولد على الفطره؛ فقد قال النبى صلى الله عليه وآله: «كلّ مولدٍ يولد على الفطره؛ وإنّما أبواه يهودّانه وينصرّانه».

والجواب، أنه عليه السلام علَّل نهيهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل؛ وهي كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة؛ ولم يعلل بآحاد هذا المجموع، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولد في الجاهلية؛ لأنه ولد عليه السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل؛ والنبي صلى الله عليه وآله أرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وآله مكث قبل الرسالة سنين عشرين عشرين عاماً يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد؛ وكان ذلك إرهاباً لرسالته عليه السلام فحُكِمَ تلك السنين العشر حكم أيام رسالته صلى الله عليه وآله؛ فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولَّى لربيته مولود في أيام كأيام النبوة، وليس بمولود في جاهلية محضة، ففارقت حاله حال مَنْ يدعى له من الصحابة ممثالته في الفضل. وقد روى أن السنة التي ولد فيها عليُّ عليه السلام هي السنة التي بدئ فيها برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله، فأسمع الهتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً؛ ولم يخاطب فيها بشيء. وهذه السنة هي السنة التي ابتدأ فيها بالتبئيل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، فلم يزل به حتى كُوشِفَ بالرسالة، وأنزل عليه الوحي، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمن بتلك السنة وبولادة عليِّ عليه السلام فيها، ويسمِّيها سنة الخير وسنة البركة؛ وقال لأهله ليله ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدره الإلهية، ولم يكن من قبلها شاهد من ذلك شيئاً: «لقد وُلد لنا الليلة مولود يفتُحُ الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة»، وكان كما قال صلوات الله عليه، فإنه عليه السلام كان ناصره والمحمي عنه وكاشف الغم عن وجهه؛ وبسيفه ثبت دين الإسلام، ورست دعائمها، وتمهدت قواعده عليه السلام.

الأمر الثاني «وسبقت إلى الإيمان» فقد أجمعت الأمة الإسلامية على أن أول من أسلم بعد خديجه الكبرى على بن أبي طالب عليه السلام. وتسلم الفريقان على أن علي عليه السلام أول من أسلم. وقال ابن أبي الحديد لم يتردد في ذلك أحد من علماء الإسلام. (١)

الأمر الثالث: «والهجرة» كيف قال: «إنه سبق إنِّي الهجرة» ومعلوم أن جماعه من

ص: ٤١٠

المسلمين هاجروا قبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره؛ وقد هاجر أبو بكر قبله، لأنه هاجر في صحبه النبي صلى الله عليه وآله؛ وتخلف علي عليه السلام عنهما، فبات على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله؛ ومكث أياماً يرذ الودع التي كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟

والجواب، أنه عليه السلام لم يقل: «وسبقت كل الناس إلى الهجره»؛ وإنما قال: «وسبقت» فقط؛ ولا يدل ذلك على سبقه للناس كافة؛ ولا شبهه أنه سبق معظم المهاجرين إلى الهجره، ولم يهاجر قبله أحد إلا نافر يسير جداً.

وأيضاً فقد قلنا إنه علل أفضليته وتحريم البراءه منه مع الإكراه بمجموع أمور: منها ولادته على الفطره، ومنها سبقه إلى الإيمان، ومنها سبقه إلى الهجره؛ وهذه الأمور الثلاثة لم تجتمع لأحد غيره؛ فكان مجموعها متميزاً عن كل أحد من الناس.

تأملات

١ - عله عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبه

أوردنا سابقاً أن كافة القرائن تدل على أن المراد بالشخص الذي بين الإمام عليه السلام صفاته هو معاويه، وذلك لانطباق كافة الاوصاف عليه إلى جانب كونه هو الذي سن سب الإمام عليه السلام ولم يتتبع هذا الأمر أحد غيره، ولعل عدم التصريح به يستند إلى رعايه متانته البيان، أو إثارة حس الاطلاع لدى الأمة لتقف بصوره أعمق على هذا المطلب ولا سيما بالاستناد إلى هذه الصفات، أضف إلى ذلك فإن الخطبه حيث تضمنت بعض النبوءات الصريحه فإن الإمام عليه السلام لم يشئ الافصاح أكثر عن هذه الموضوع.

٢ - لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاويه؟

لقد صرح الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بقتل من إشتهل على هذه الصفات، كما قال ولن تقتلوه. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لم هدر الإمام عليه السلام دمه؟ والجواب واضح لدى العلماء والفقهاء، لأن من يخرج على الإمام المعصوم فهو ناصبي خارج من ربه الإسلام، وقد خرج على إمام ثبتت إمامته بنص رسول الله صلى الله عليه وآله وعن طريق بيعه الأمة. أضف إلى ذلك فقد رسخ

معاويه أساس الفساد فى الأرض وبابشع وأوسع صورته، وقد جيش الجيوش ضد الإمام عليه السلام حتى سالت أنهاراً من الدماء فى تلك المعارك. إلى جانب بعثه ببعض أشقيائه لشن الغارات تلو الغارات على مناطق العراق المعروفه وأخيراً قتله لمحمد بن أبى بكر ومالك الأشر وسائر كبار صحابه الإمام عليه السلام لتجعله فى مصاف المفسدين فى الأرض والذى حكم القرآن بهدر دمهم. فإذا كان هناك بعض الأفراد المتعصبين الذين لا يكتفون لكل هذه الأعمال ويبرونها باسم الاجتهاد فلنا كلام آخر. فقد ورد فى الحديث الشريف أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال: «يا على حربك حربى وسلمك سلمى» (١) وكلنا نعلم بأنّ حرب رسول الله صلى الله عليه وآله تجب الكفر حيث يصطلح على من يحاربه بالكافر الحربى الذى يباح دمه. وورد فى حديث آخر أنّ ابن عباس كان قد كف بصره فمر بجماعه يتحدثون فسأل دليله ماذا يقولون: أجب: يسبون علياً عليه السلام. قال فاحملنى إليهم ثم سألتهم: لم تسبون الله؟ قالوا سبحان الله من سبّ الله فقد كفر، قال: فمن منكم سبّ رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا سبحان الله من سبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فهو كافر. قال فمن سبّ علياً عليه السلام؟ قالوا: نعم نحن سبناه. قال ابن عباس فأتى أشهد الله أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال «من سبّ علياً فقد سبّنى ومن سبّنى فقد سبّ الله عزوجل ومن سبّ الله أكبه الله على منخرية فى النار. ثم التفت ابن عباس إلى دليله وقال له: كيف رأيتمهم. فانشد يقول: نظروا إليك باعين محمره نظر التيوس إلى شفار الجارز

قال ابن عباس: فداك أبوك زدنى. فقال: خزر العيون نواكس أبصارهم

ومن الطبيعى أنّ الحكم المذكور إذا كان السب يستند إلى الإراده والاختيار ويستثنى منه الاكراه والتهديد والاجبار.

جدير بالذكر أنّ ابن أبى الحديد قال، لو إفتراضاً أنّ النبى صلى الله عليه وآله لم ينص على خلافه على عليه السلام

ص: ٤١٢

أفلم يسمع معاوية قوله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام: «أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت» وقوله: «حربك حربى وسلمك سلمى» (١) ومن الطبيعي أن من يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله يهدر دمه، وعليه فالذى يحارب الإمام عليه السلام يهدر دمه.

٣ - تأريخ سب الإمام على عليه السلام

قوله عليه السلام: «يأمركم بسبى والبراءه منى»، فنقول: إن معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسب على عليه السلام والبراءه منه.

وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة فى أيام بنى أميه إلى أن قام عمر بن عبدالعزيز رضى الله تعالى عنه فأزاله. وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أن معاوية كان يقول فى آخر خطبه الجمعة: اللهم إن أباتراب أُلحد فى دينك، وصدّ عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً وعذبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر؛ إلى خلافه عمر بن عبدالعزيز.

وذكر أبو عثمان أيضاً أن هشام بن عبد الملك لما حجّ خطب بالموسم، فقام إليه إنسان، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبى تراب، فقال: اكفف، فما لهذا جئنا.

وذكر المبرّد فى "الكامل" أن خالد بن عبد الله القسرى لَمّا كان أمير العراق فى خلافه هشام، كان يلعن علياً عليه السلام على المنبر، فيقول: اللهم العن عليّ بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، صهر رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنته، وأبالحسن والحسين! ثم يقبل على الناس، فيقول هل كُنيت!

وروى أبو عثمان أيضاً أن قوماً من بنى أميه قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت ما أملت، فلو كفت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكراً فضلاً!

ص: ٤١٣

(١-١) نهج البلاغه لابن أبى الحديد ١٨ / ٢٤. [١]

قال محمد بن الحنفية في علي عليه السلام: كان يد الله على أعداء الله، وصاعقه من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقه، فقتلهم بكفرهم فشنوهم وأبغضوه، وأضمرُوا له الشنف والحسد، وابن عمه صلى الله عليه وسلم حتى بعد لم يمت؛ فلما نقله الله إلى جواره، وأحب له ما عنده، أظهرت له رجال أحقادها، وشفقت أضغانها، فمنهم من ابتز حقه، ومنهم من ائتمر به ليقتله، ومنهم من شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن يكن لذريته وناصرى دعوته دوله تنشر عظامهم، وتحفر على أجسادهم؛ والأبدان منهم يومئذ باليه، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذل رقابهم، فيكون الله عز اسمه قد عذبهم بأيدينا وأخزاهم؛ ونصرنا عليهم، وشفنا صدورنا منهم؛ إنه والله ما يشتم علياً إلا كافر يُسَيَّر شتم رسول الله صلى الله عليه وآله ويخاف أن ييؤخ به، فيكنى بشتم علي عليه السلام عنه. ما إنه قد تخطت المنية منكم من امتد عمره، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يُبغضك إلا منافق، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

٤ - التقيه وسيله دفاعيه

تطرق بعض شرّاح نهج البلاغه هنا إلى موضوع التقيه وشرعيتها، ولا بأس أن نتعرض إليها هنا بصورة مختصرة ونوكل الخوض في التفاصيل إلى محلها. فالتقيه بالمعنى اللغوي إجتناى الشىء بينما ذكروا لها عده تعاريف إصطلاحيه، أهمها إخفاء العقيدة أو الدين خوف الضرر أو لمصلحه من المصالح ومنها حفظ الوحده وإجتناى الاختلاف أمام الأعداء. ويستند هذا المعنى إلى القرآن الذى تحدث عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حين كانوا قله: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء» ثم قال: «إلا أن تتقوا منهم تقاه» (١)، فقد تحدثت الآية صراحة عن التقيه بما لا يبقى من مجال للشك فيها. أما قصه تقيه عمار ونطقه ببعض الكلمات ضد الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله أمام المشركين

ص: ٤١٤

فهى مشهوره معروفه، فقد إضطر لتلك الكلمات، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه و آله باكياً خشيه فساد دينه وإيمانه، فهدأه رسول الله صلى الله عليه و آله فى أن الاكراه هو الذى دفعه إلى ذلك فلا ضرر على دينه وأن الله أنزل بحقه قرآناً: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» (١) «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَيْدراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (٢) النموذج الآخر للتقيه ما ورد فى سوره غافر بشأن مؤمن آل فرعون: «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» (٣) فالقرآن يثنى على هذا المؤمن ويستحسن كلامه ويصرح برضى الله بتقيته. كما تظافت الروايات الإسلاميه التى أكدت على أهميه التقيه لتصفها بأنها تقى المؤمن مخاطر الأعداء وتحفظ دمه وأن التقى من الدين، ومن لا تقيه له لا دين له، والإيمان بلا تقيه كالجسد بلا رأس، وأنها من أفضل الأعمال، ولا نرى البحث يتسع للخوض فى التفاصيل، ومن أراد المزيد فليرجع إلى القاعده السابعه من المجلد الأول لكتاب القواعد الفقيهيه. أضف إلى ذلك فإن فلسفه التقيه واضحه، وهى أن اظهار العقيدته الباطنيه أحياناً قد يسبب بعض الأخطار على النفس والعرض والمال دون أن تترتب عليه أيه فائده، فالعقل يحكم بضروره عدم إهدار القوى والطاقات عبثاً، ولا بد من حفظها بواسطه التقيه واستثمارها فى المواقع المطلوبه. ولعل هذا هو المعنى المراد بوصفها بترس المؤمن أو جنه المؤمن. فالواقع هو أن التقيه لا تعنى الفرار من المسؤوليه، بل هى أشبه بالتكتيك الحربى عن طريق الاستتار وإعادة تنظيم القوه واللجوء إليها فى الوقت المناسب.

ج ج

ص: ٤١٥

١ - ١) - أجمع مفسرون الفريقين أن هذه الآيه نزلت فى عمار، وصحيح أن عمار اجبر على الكفر إلمائه تظاهراً به تكلم من خلال الاعتقاد بذلك وأنه رجع عن دين محمد لتركوه ويحفظ دمه.

٢ - ٢) سوره النحل / ١٠٦. [١]

٣ - ٣) سوره غافر / ٢٨. [٢]

ومن كلام له عليه السلام

كلم به الخوارج حين اعتزلوا الحكومه وتنادوا:

لا حكم إلا لله

نظره إلى الخطبه

تفيد عبارات هذه الخطبه أنّ الخوارج ذهبوا إلى أنّ الحكم لله بعد أن فرضوا التحكيم على الإمام عليه السلام ورجعوا عنه، وأن من ينكر ذلك الشعار قد خرج من الدين، ثم إندفعوا أبعد من ذلك ليتهموا على عليه السلام بالخروج من الإسلام لقبوله التحكيم وعليه أن يتوب. والحال أنّ التحكيم فرض على الإمام عليه السلام، ولو فرضنا ان الإمام عليه السلام إقترح ذلك فاصل التحكيم لا يخالف الإسلام، وانحرف في صفيين واستغل من قبل معاويه. على كل حال فان الإمام عليه السلام يدعو عليهم ويذكرهم بسوء مقاتلتهم، ثم يخبر عن المستقبل المظلم للخوارج والذل الهوان الذي ينتظرهم.

ج ج

ص: ٤١٧

١-١) سند الخطبه: اورد بعض هذه الخطبه قبل السيد الرضى (ره) ابن قتيبه في كتاب الإمامه والسياسه وابن الجوزى في تذكره الخواص والطبرى فى المسترشد، كما نقل ابن أثير فى كتاب النهايه عدّه احتمالات وردت بشأن بعض مفردات الخطبه وهذا يشير أنّ حصل عليها من عدّه نسخ (مصادر نهج البلاغه، ٢ / ٣٦).

«أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ، وَلَا بَقِيَ مِنْكُمْ آثَرٌ، أَبْعِدَ إِيمَانِي بِاللَّهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» فَأُوبُوا شَرَّ مَا بٍ وَارْجِعُوا عَلَى آثَرِ الْأَعْقَابِ، أَمَا إِنَّكُمْ سَيَتَلَقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا وَسَيَيْفًا قَاطِعًا وَآثَرَهُ يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً» .

الشرح والتفسير

فضاعه مظلوميه الإمام عليه السلام

كما ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبه حين رأى الخوارج التحكيم فى صفتين ثم رجعوا عنه ورفعوا شعار «لا حكم إلّالله» وطالبوا الإمام عليه السلام بالتوبه لقبوله التحكيم ليلتحقوا به فيقاتلوا أهل الشام، فقال عليه السلام: «أصابكم حاصب، ولابقى منكم آثر، أبعد إيماني بالله وجهادى مع رسول الله صلى الله عليه وآله أشهد على نفسى بالكفر، لقد ظلمت إذا وما أنا من المهتدين» .

يالها من مصيبه أن يتلى بهؤلاء الحمقى فرد مثل على عليه السلام أول من آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وآله ووقف إلى جانبه فى جميع الغزوات - ألا فى البعض التى استخلفه فيها رسول الله صلى الله عليه وآله - وثبت فى المواقع التى تنكص فيها الابطال ليسقى شجره الإسلام والتوحيد بلسانه وسيفه، فيطالبه أولئك الحمقى بالاعتراف بالكفر والتوبه. ولعل تأريخ الإسلام لم يشهد مثل هذه الحادته المروعه، ومن هنا نقول بأنّ مظلوميه الإمام عليه السلام كانت وما زالت تفوق من سواه. وكما صرح عليه السلام فى الخطبه السابقه: «فأنى ولدت على الفطره وسبقت إلى الإيمان والهجره»؛ الأمر الذى أكده علماء الفريقين وأنه لم يشرك بالله طرفه عين أبداً أنه خاض غمار الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فى كافه الغزوات سوى تبوك حين كلفه النبى صلى الله عليه وآله بحفظ المدينه، العبارة «أصابكم حاصب» وبالالتفات إلى أنّ المراد بالحاصب الريح الشديده التى تثير الحصباء بحيث قد تدفن أحياناً قافله، تفيد الدعاء عليهم فى أن يرسل الله عليهم العذاب السماوى، كما يمكن

أن تكون كناية عن المشاكل الاجتماعية التي تعصف بحياتهم والعبارة «ولا- بقى منكم آثر» واستناد إلى أن المقصود بالأثر الشخص الذى يَأثر الحديث، أى يرويه، فكأنه قال عليه السلام لا بقى منكم مخبر وهلكتم بأجمعكم (طبعاً نقلت هذه المفردة بعده صور ذات معانٍ مختلفة سنعرض لها فى شرح كلام السيد الرضى آخر الخطبة». ثم تساءل الإمام عليه السلام باستغراب عن ذلك الطلب المشين وهو من روى شجرة الإسلام بجهاده العظيم ومواقفه المشهودة وشده أزر رسول الله صلى الله عليه وآله، فهو أول من آمن وأسلم وهاجر، فهل لمثل هذا الفرد أن يضل وينحرف عن السبيل. ثم أشار عليه السلام إلى موضوعين، الأول دعاؤه عليهم «فأبوا (1) شرمآب وارجعوا على أثر الاعقاب» (2) فقد دعا عليهم فى العبارة الأولى سائلاً الله لهم الذلة والهوان فى الدنيا والآخرة، وفى العبارة الثانية سأل الله أن يبتليهم بما ابتلى به مشركى الجاهلية الذى كانوا على غرار الخوارج يرون آيات الله ثم يجحدونها. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن قوله: «ارجعوا...» أراد به توبوا، بينما تفيد قرينه هذا القول انه استمرار للدعاء السابق. والثانى نبوءته بمستقبلهم «أما ارنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً وسيلاً قاطعاً وأثره يتخذها الظالمون فيكم سنه» جدير بالذكر أن نبوء الإمام عليه السلام بحق الخوارج قد تحققت حيث ابيدوا فى مختلف الحروب وتجرعوا الذل والهوان. وقد أفرد ابن أبى الحديد فصلاً أسماه أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم ليخوض فى تفاصيل أحداث زعمائهم وسنتطرق إلى ذلك فى الأبحاث القادمة.

قال السيد الرضى (ره) شارحاً بعض مفردات الخطبة: قوله عليه السلام «ولا بقى منكم آبر» يروى على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون كما ذكرناه: آبر بالراء، من قولهم للذى يأبر النخل - أى يصلحه - ويروى «آثر» وهو الذى يَأثر الحديث ويرويه أى يحكيه، وهو أصح الوجوه عندى، كأنه قال: لا- بقى منكم مخبراً، ويروى آبز - بالزاي المعجمه - وهو الواثب. والهالك أيضاً يقال له «آبز» .

ج ج

أثره اسم مصدر من ماده استئثار بمعنى الاستبداد.

ص: ٤٢٠

-
- ١- ١) «أبوا» من ماده «أوب» على وزن قوم بمعنى الرجوع، كما تطلق هذه المفردة على السحاب والرياح بسبب الرجوع فيها.
٢- ٢) أعقاب جمع عقب بمعنى كعب الرجل، كما تطلق على الأثر الذى يتركه على الأرض، وهى هنا كناية عن الأجيال السابقة.

وقال عليه السلام

لما عزم على حرب الخوارج، وقيل له: إنَّ القوم عبروا جسر النهروان.

«مَصَارِعُهُمْ دُونَ النَّطْفَةِ وَاللَّهِ لَا يُقَلِّتُ مِنْهُمْ عَشْرَةَ وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشْرَةٌ» .

الشرح والتفسير

هل من سبيل لعلم الغيب

لاشك ولا ريب أنَّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وائمة العصمه عليه السلام قد أخبروا كراراً عن الأمور الغيبية، وبعبارة أخرى لهم علم بالغيب، القرآن تحدث عن المسيح عليه السلام فى أنَّ العلم بالغيب كان يمثل إحدى معجزاته فقال «وَأُتِّبُّكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» (٢) كما يختتم هذه الآية بان ذلك من آيات الله وصدق دعوى نبوته.

وقد حفل نهج البلاغه ومنه هذا الكلام بالأخبار عن المغيبات. أمّا أنى للإمام عليه السلام بعلم الغيب؟ ما حدود علم المعصوم بالغيب؟ وما تفسير الآيات التى حصرت على الغيب بالله؟ وكيف تفسر الروايات الواردة بشأن إثبات هذا العلم للمعصومين؟ وما إلى ذلك من أسئلة واستفسارات فقد أوكلنا الإجابة عليها فى شرح الخطبه ١٢٨.

ص: ٤٢١

١-١) سيأتى سند هذا الكلام ذيل الخطبه رقم ٦٠ فهى تشير إلى نفس الموضوع.

٢-٢) سوره آل عمران / ٤٩. [١]

و قال عليه السلام

لما قتل الخوارج ف قيل له: يا أمير المؤمنين هللك القوم بأجمعهم

«كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ نَطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصًا سَلَّابِينَ.»

الشرح والتفسير

مصير الخوارج

هذا الكلام إستمرار لما ورد في الأبحاث السابقه بشأن الخوارج. وهنا أشار الإمام عليه السلام إلى بعض النبوءات بشأن الخوارج؛ الأمر الذى يمكن اعتباره من معاجزه عليه السلام فقد إستهل كلامه بالرد على بعض أصحابه ممن قال له: يا أمير المؤمنين هللك القوم بأجمعهم فقال: «كلا والله، إنهم نطف فى أصلاب الرجال وقرارات النساء» فحتى لو قتل هؤلاء، فهناك النطف التى

ص: ٤٢٣

١-١) سند الخطبه: قال صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه بعد أن جمع الخطبه ٥٩ و ٦٠ بشأن هذا الكلام رواه المبرد فى الكامل (والمبرد من علماء القرن الثالث الهجرى) ونقل بعضه البيهقى فى المحاسن والمساوى والمسعودى فى مروج الذهب ثم مدح ابن أبى الحديد فى انه قال: هذا من الأخبار المشهوره القريبه من التواتر ومن معجزاته الغيبه عليه السلام. مصادر نهج البلاغه، ٢ / ٣٧.

[١]

٢-٢) «قرارات» من ماده «قرار»، وقرارات النساء أرحامهن حيث تنعقد النطفه لمدته فى الرحم فتقر هناك، وقال القرآن «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ»، سورة المؤمنون / ١٣. [٢]

ستلد في المستقبل وتقتفى آثار الخوارج، وهذا ما حصل بالفعل حيث ظهر مثل هؤلاء الأفراد بعد سنوات، بل قرون لينتهجوا ذات السبيل الذي سلكه أوائلهم. أضف إلى ذلك وكما أشير سابقاً فقد نجى تسعة أفراد من أصحاب النهروان وفروا إلى مختلف المناطق ليرموا هذه المدرسه الفاسده ويعيدوا بنائها ممن جانب آخر فاننا نعلم بأن من حضر النهروان لم يكونوا جميع الخوارج، بل الخوارج. ثم اماط اللثام عن تبوءه أخرى فقال عليه السلام: «كلما نجم (١) منهم قرن قطع» فالعبارة إشاره إلى وحشيه الخوارج من جهة وأنهم كالحيون الذي له قرن لا ذى الآخرين، ومن جهة أخرى يشير إلى الانتكاسات المتتاليه والهزائم المتتابعه التي يمني بها الخوارج طيله حياتهم المقيته؛ الأمر الذي تحقق تاريخياً وستعرض له في البحث القادم. ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «حتى يكون آخرهم لصوصا سلايين» وهذا هو الأمر الآخر الذي ثبت تحققة تاريخياً، حيث تعرض أرباب التأريخ إلى عدد من مشهورى الخوارج ممن تحولوا إلى لصوص خطرين، وسنعرض لهذا الأمر بالتفصيل لاحقاً.

تأملات

١ - الخوارج ظاهره لافرقه

يستفاد من كلام الإمام عليه السلام أنّ الخوارج لم يكونوا فرقه معينه، يقدر ما كان يراهم الإمام عليه السلام ظاهره حيه طيله التأريخ الإسلامى، حتى أنّ القرائن تفيد أن هذه الظاهره كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد أورد المفسر الجليل المرحوم الطبرسى عن أبى سعيد الخدرى فى ذيل الآيه «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمُزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ . . .» (٢) أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حين قسم غنائم قبيله هوازن على المسلمين يوم حنين قام إليه حرقوص بن زهير وقال: اعدل يا محمد! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فمن ذا يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: دعنى أضرب عنقه يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وآله: «دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمي» وأضاف المرحوم الطبرسى وجاء فى حديث آخر أنّ النبى صلى الله عليه وآله قال:

ص: ٤٢٤

١- ١) «نجم» من ماده «نجم» على وزن حجم بمعنى الطلوع، كما يطلق على كل ظهور وطلوع مفاجىء.

٢- ٢) سورة التوبه / ٥٨. [١]

«فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم» فترلت الآية المذكورة: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَشِيخُطُونَ». فالواقع أن هذه الكلمات تفيده امتداد الجذور الفكرية للخوارج إلى عصر النبي صلى الله عليه وآله وأنهم لم يكونوا يتورعون حتى عن مجابهة النبي صلى الله عليه وآله إذا تعرضت مصالحهم للخطر. ونقل ابن أبي الحديد عن مسند أحمد بن حنبل أن عائشة سألت مسروق: هل عندك علم من المخدج (أحد زعماء الخوارج)؟ فقلت: نعم، قتله علي بن أبي طالب على نهر قالت عائشة: إبغى على ذلك بينه. فأقمت رجالاً شهدوا عندها بذلك. قال فقلت لها: سألتك بصاحب القبر، ما الذى سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله فى فيه؟ فقالت: نعم سمعته يقول: «إنهم شر الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة وأقربهم عند الله وسيله» (1). هذا ويمكن ايجاز مميزات الخوارج فيما يلى: إنهم طائفه تعنى كثيراً بظواهر العبادات وحتى المستحبات والمكروهات البسيطة وهذا ما جعلهم يعيشون الغرور ويشعرون بالعجب، وبالمقابل كانوا أفراد جاهلين متعصبين خارجين عن حدود الأدب والخلق، ولا يتورعون عن أقذر الأساليب من أجل تحقيق مآربهم، وأفضل نموذج على ذلك سوء خلق «ذو الخويصره» (حرقوص) وفضاضته تجاه النبي صلى الله عليه وآله. صحيح أن الخوارج ظهروا فى صفيين بعد التحكيم إلّا أن هذا لا يعنى عدم وجود إمتداداتهم الفكرية لما قبل عصر الإمام عليه السلام ومازلنا إلى اليوم نلمس ثقافتهم وأفكارهم المنحطة لدى بعض طبقات وفئات مختلف المجتمعات البشرية، ولعل أغلب الوهابيين ينتمون إلى هذه الزمره، لأنهم يتصفون بصفاتهم. كما نرى فى أوساطنا بعض الأفراد الشديدي الالتزام بقشور الدين بينما يرون إنحراف كبار علماء الدين عن الصراط المستقيم ويسعون جاهدين لاثاره البلابل والفتن. ولا يبدو القتال علاجاً لمرض هذه الفئه الضلاله، بل علاجها يكمن فى رفع المستوى الثقافى للأئمه وانفتاحها على المسائل الدينيه والعقائديه؛ الأمر الذى صرح به الإمام عليه السلام فى الخطبه القادمه. وقد أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه السادسه والثلاثين إلى مدى جهل هؤلاء الأفراد فقال «وأنتم معاشر أخفاء الهام، سفهاء الاحلام ولم آت - لا بألكم - بجرا ولا أردت

ص: ٤٢٥

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٢ / ٢٤٧. [١]

لكم ضرراً». وكفى هذه الفرقة ضلاله وانحرافاً وفضاضه ما فعلته بصحابي النبي صلى الله عليه وآله بن الخباب المعروف بورعه وتقواه وزوجته الحامله حيث قتلها بتلك الطريقه البشعه وبقرت بطن زوجته لأنهما لم يتنكراً لعلى عليه السلام بينما كانت تستشكل قتل اليهودى، بل كانت لا ترى جواز قتل الخنزير. بل كانوا يشكلون على أحدهم إذا تناول تمره مهمله تحت شجره دون إذن صاحبها، بينما لا يتورعون عن سفك دماء كبار صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام. كان هنالك تناقضاً واضحاً بين ظاهرهم وباطنهم وأقوالهم وأفعالهم، حتى إمتد ذلك التناقض إلى عقائدهم الفقيهه والكلاميه، فكانوا يرون وجوب قتل مرتكب الكبيره، بينما يعتقدون بعدم الحاجه إلى الحاكم رغم الفوضى والهرج والمرج الذى يسود المجتمع. وتفيد القرائن أنهم كانوا مفرطين فى المسائل الجنسيه وغارقين فى الشهوات، ولعل هذا ما جعلهم يجوزون العقد على تسع نساء، ولا يرون الرجم عقوبه لمن زنا وهو محصن. ومن الطبيعى أن تتفرع هذه الفرقة عده فروع بفعل ذلك الجهل والتعصب والحمق، ومن هنا لم تمض عليها مده حتى انقسمت فرقاً لكل منها زعيم من قبيل الازارقه والنجدات والصفريه والعجارده والثعالبه وما تشابه ذلك. لعلنا نلمس هذه الفرقة اليوم فى الوهابيه التى تعيش التمسك بظاهر العبادات وتتخرج فى المكروهات والمباحات وتؤدى المستحبات، بينما تكفر أغلب المسلمين من السنه والشيعة وتبيح ذمائمهم، ورغم ضحالتهم الفكرية وجمودهم إلا أنهم يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، فهم كالخوارج يرون أنفسهم الحق المطلق وما سواهم باطلاً.

٢ - الخوارج لصوصاً سلابين

يشهد التاريخ بتحقيق ما أخبر به الإمام عليه السلام عن الخوارج من أن آخرهم لصوصاً سلابين. فمن بين الأفراد الذين ذكرهم ابن أبى الحديد الذى آل أمرهم إلى السرقة والسلب: الوليد بن طريق الشيبانى على عهد هارون الرشيد. فبعث له هارون بيزيد بن مزيد هو من بنى شيان فقتله وأتاه برأسه وابن عمرو الخثعمى على عهد المتوكل العباسى الذى عرف بقطعه للطرق، فبعث له بأبى سعيد محمد بن يوسف الطائى، إلا أنه هرب بينما قتل جمع كثير من صحبه وأسر آخرون. ثم ظهرت جماعه منهم فى منطقه كرمان وعمان فكانوا مفسدين فى الأرض ومحاربين،

أما أسماؤهم فقد أحصاها أبو اسحاق الصابى فى كتاب التاجى. (١)

تم المجلد الثانى لشرح نهج البلاغه

لقد إنتهى المجلد الثانى من الشرح باختتام الخطبه الستين، ولا يسعنى هنا إلا أن ابتهل إلى الله بفائق الشكر لما وفقنى من القيام بهذا العمل المتواضع سائلاً إياه الاخذ بيدي إلى إتمام هذا العلم، كما أسأله أن يوفقنا لأن نعيش هذه الكلمات على مستوى القلب والعمل فتقودنا إلى سعادته الدنيا والآخرة. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

السابع من صفر عام ١٤١٩

الولاده الميمونه للإمام الكاظم عليه السلام

ص: ٤٢٧

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٥ / ٧٣ - ٧٦. [١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
الغمامة
اصبحان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

